

الرحالة العثماني أوليا چلبى

الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

١٠٨٢-١٠٩١ هـ

١٦٧٢-١٦٨٠ م

الجزء الأول

الوصول إلى مصر القاهرة

ترجمة وتقديم وتعليق
الصفصافي أحمد القطورى

هذا الكتاب ترجمة للمجلد العاشر من رحلة أوليا
چلبى، خصصه للحديث عن رحلته إلى مصر والسودان
والحبش التى قضى فيها ثمانى سنوات فيما بين
(١٠٨٢-١٠٩١هـ=١٦٧٢-١٦٨٠م). وقد ألفها باللغة
التركية العثمانية تحت مسمى "أولياچلبى سياحتنامه
سي-مصر، سودان وحبش" وبعد الانقلاب الحروفى
فى تركيا عقب ثورة ١٩٢٣م الذى أعلن عام ١٩٣٨م
قامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة وأعدت نشر الكتاب
بالحروف اللاتينية التركية الحديثة عام ١٩٣٨م.



الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش

(١٠٨٢ - ٥١٠٩١ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠ م)

(الجزء الأول)

"الوصول إلى مصر القاهرة"

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1492
- الرحلة إلى مصر والسودان وبسلاد الحبش (١٠٨٢-١٠٩١ هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠ م) (الجزء الأول) "الوصول إلى مصر القاهرة"
- أوليا جلبي
- الصفصافي أحمد القطوري
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة المجلد الأول من كتاب
EVLIYA ÇELEBİ
SEYAHATNAMESİ
MISIR, SUDAN, HABEŞ
(1680 – 1672)

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الرحلة إلى مصر و السودان

و بلاد الحبش

(١٠٨٢ - ١٠٩١ هـ = ١٦٧٢ - ١٦٨٠ م)

(الجزء الأول)

"الوصول إلى مصر القاهرة"

تأليف: أوليا جَلْبِي

ترجمة وتقديم وتعليق

الصفصافي أحمد القطوري



2010

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

جلبي، أوليا

الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٠٨٢-١٠٩١ هـ —

١٦٧٢هـ - ١٦٨٠م) (ج ١) "الوصول إلى مصر القاهرة" تأليف: أوليا

جلبي، ترجمة وتقديم وتعليق: الصمصامي أحمد القطوري.

ط ١ - القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠

٤٠٠ ص، ٢٤ سم

١ - مصر - وصف ورحلات

٢ - السودان - وصف ورحلات

٣ - إثيوبيا - وصف ورحلات

(أ) القطوري، الصمصامي أحمد (ترجمة وتقديم وتعليق)

٩١٦،٢

(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٢٥١٧ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي : 7 - 727 - 479 - 978 - I.S.B.N

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

13	تتويبه لا بد منه.....
17	إيضاح
19	إطلالة على الجزء الأول من الرحلة.....
23	مدخل في أدب الرحلات
29	أهم الرحلات المشرقية إلى مصر قبل أوليا جلبي:.....
29	رحلة ناصر خسرو إلى الشام ومصر والحجاز.....
33	مؤلفات ناصر خسرو ومكانة "سفرنامه" بينها.....
41	رحلة عالي مصطفى باشا الغليولى
48	الناحية التاريخية والإدارية.....
49	الناحية الاقتصادية.....
50	الناحية الاجتماعية.....
51	أوليا جلبي، حياته والمناصب التي تولاها
57	طفولة أوليا وتعليمه.....
70	رحلته إلى الحجاز.....
73	طريقة أوليا جلبي في التأريخ.....
74	طبغات سياحته.....
77	الفراغ من رحلة الحجاز والاتجاه نحو مصر.....
	الجزء الخاص بمصر في نهاية المجلد التاسع من رحلات أوليا جلبي
	التي بلغت عشرة مجلدات، والمتعلق بالأساكن التي كانت تابعة لمصر
81	كالعقبة وسيناء، حتى الوصول إلى السويس.....
	زيارات وادى العمرة - منزل قصبة وادى فاطمة - منزل بنر
	عصفان - منزل الكديدة أو الجديدة - منزل نبغ رابعة - سبيل
83	مستحسن - منزل قصبة بدر حنين.....
84	مغامرة.....
85	منزل قصبة الجديد.....
86	منزل قلعة المدينة المنورة
89	زيارة بوضاعة - منزل بنر على - منزل قبور الشهداء - منزل الجديدة
90	منزل ثقيفة - منزل قصبة ينبوع البحر - جبل رسوى

91	قلعة ينبوع [ينبع] البحر
92	أوصاف سفن جبلية، يعنى السفن اليمنية.....
94	قول فى وصف أشكال الشعاب المرجانية.....
96	أوصاف بحر السويس، يعنى بحر القلزم أو البحر الأحمر.....
97	أوصاف قلعة ينبوع البحر - فى بيان حجاج قوم المغاربة.....
99	منزل وادى نار.....
100	منزل نبط.....
101	منزل الحورة - منزل حنك القرى - منزل أغره <u>Eğre</u>
103	منزل قلعة وش.....
104	منزل إسطنبول عنتر.....
107	منزل قلعة أزم.....
109	منزل القسطل.....
111	منزل قلعة قويلان، يعنى قلعة المويلح.....
117	منزل عيون القصب.....
122	منزل مقابر حضرة النبى شعيب عليه السلام
124	زيارة بنات حضرة سيدنا شعيب.....
125	منزل شرف بنى عطية - منزل ظهر الحمار.....
128	منزل قلعة العقبة.....
132	منزل سطوح العقبة.....
133	منزل أبيار علانية.....
134	منزل قلعة نخل - أوصاف منزل جبل طور سيناء.....
136	مقام الحواريين.....
137	منزل رئيس الطغراء
	منزل النواطير - أوصاف برزخ التيه ووادى بحر الرمال
138	والصحراء التى لا أمان لها.....
141	أوصاف تنمة صحراء التيه.....
142	فى بيان مدينة قازان - حكاية.....
145	زيارة هودن بن بلعم بن باعور.....
147	منزل قلعة عجرود - أوصاف ميناء السويس.....
152	منزل مصانع.....
153	الأزيار

154	مصطبة إبراهيم أغا - منزل قرية بركة الحج.....
	في بيان منازل طريق الحج من مصر المحروسة حتى الوصول إلى مكة
159	والمدينة وبيان الساعات والدرجات لكل منزل
161	المجلد العاشر: مصر والسودان وبلاد الحبش
161	أولاً: مصر، الجزء الأول زيارة معالم القاهرة أم الدنيا.....
163	الدخول إلى مصر.....
	بيان أوصاف مصر العتيقة العظيمة المحروسة درة الدهر، أعنى
167	القاهرة المعزية أم الدنيا.....
169	الفصل الأول: في أوصاف فسطاط مصر بقرب جبل المقطم.....
179	الفصل الثاني: في بيان من ملك مصر بعد الطوفان.....
183	حكاية.....
185	الفصل الثالث: في بيان أحوال العمالقة.....
	الفصل الرابع: في بيان كيفية بناء يوسف [عليه السلام] مدينة الفيوم
187	وكيف حفر بأمر الله بحر يوسف.....
189	ذكر وفاة سيدنا يوسف (عليه السلام).....
191	الفصل الخامس: في بيان آل الريان وذكرهم.....
193	الفصل السادس: في بيان من دخل مصر من الأنبياء العظام.....
195	حكاية شرفنامه.....
	في بيان من دخل مصر من أهل بيوت الأنبياء - في بيان من دخل
200	مصر من الحكماء القدماء
	الفصل السابع: في ذكر فتح عمرو بن العاص مصر القاهرة في
201	خلافة سيدنا عمر ببركة معجزات محمد المصطفى ﷺ.....
	الفصل الثامن: ذكر وبيان الآيات القرآنية الشريفة التي نزلت في
205	حق مصر تصريحاً وكناية وتوضيحاً.....
	الفصل التاسع: ذكر فتح مصر في عهد خلافة عمر بن الخطاب على
211	يد عمرو بن العاص (رضي الله عنهما).....
	الفصل العاشر: ذكر السلاطين وغيرهم من دول الملوك مع ذكر دولة
219	آل عثمان حتى عهد السلطان محمد خان الرابع بن إبراهيم خان.....
	آل أمية - وصف دولة العباسيين - دولة آل طاهر - الدولة الصفارية
	- الدولة السامانية - دولة آل زيار (الدولة الزيارية) دولة آل بويه
	(الدولة البويهية) - دولة آل سبكتكين (الدولة البكتكيرية) - دولة
	آل غسور (الدولة الغورية) - الدولة الخوارزمية - دولة آل سلجوق
	(الدولة السلجوقية) - الدولة السلجوقية الثانية - دولة سلاجقة الروم

	دولة تاج الدولة - دولة آل أتابك (الدولة الأتابكية) - الدولة العمرية
	(دولة آل عمر) - دولة أتابك الكبير (الدولة الأتابكية) - دولة آل
232-220	صلاح (الدولة الصلاحية) - دولة أيوب بن شاذي الكردي - دولة
	الجراسمة (أو الممالك البرجية)
	آل التركمان (الدولة التركمانية) - دولة أكراديان (دولة الأكراد) -
	الدولة القراخطانية - دولة آل أيوب - دولة آل الملحة - دولة
	بني أرتق (الدولة الأرتوقية) - دولة آل مروان (أو الدولة
	المروانية) - دولة بني مرداس بن الكلبي - دولة بني الأسد
	- دولة بني حمدان (همدان) - دولة بني عقيل بن أبي طالب - دولة
	آل التركمانيين - الدولة الدانشمندية - دولة آل قرا يوسف - دولة
	الأق قوينلية (أو الشاه البيضاء) - دولة آل شاهشاهان
237-233	إيران وتوران
	دولة آل الدربنديين (أو الدولة الشيروانشاهية أو الدربندية) -
238	دولة آل شمخاليان (أو الدولة الشامخالية)
239	دولة آل الأوزبك (أو الدولة الأوزبكية) - دولة آل جنكيز
240	دولة آل جنكيز (بشبه جزيرة القرم)
241	الدولة الجنكيزية فيما وراء النهر - الطبقة الثالثة من آل جنكيز
	الطبقة الرابعة من آل جنكيز وهي دولة آل تيمور كوركان صاحب
242	الخروج والطغيان
243	الطبقة الخامسة من آل جنكيز من أولاد تيمور كوركان
	الطبقة السادسة من آل جنكيز من أولاد تيمور كوركان سلاطين الهند
244	والسند - دولة سلاطين السند - دولة سلاطين مونتان
245	ذكر أحوال دولة خاقان الصين - أحوال دولة السلطان فغفور
	ذكر أحوال دولة ملوك الديالمة - ذكر أحوال بلخ - دولة آل إينجو
	(دولة آل إنجوليان) دولة آل مظفر دولة آل جوبان - دولة آل إيلكان
246	(الدولة الجلايرية)
	دولة آل كرتبای - الدولة السربدارية (دولة آل سربدران) - بيان
247	أوصاف دولة آل عباس
248	دولة آل ساسان (الدولة الساسانية) - دولة الديالمة
249	الدولة العباسية الكردية (دولة آل عباس الأكراد)
	الدولة الكيانية (دولة آل كيانيان العجم) - الدولة الأشكانية
	(دولة آل أشكانيان) - دولة آل قروانيان دولة مامانيان - الدولة
251	الساسانية (دولة آل ساسان) دولة آل ماهان

253	ذكر دولة آل رسول.....
254	دولة شرفاء مكة أعنى آل هاشم - دولة شرفاء مكة أعنى آل قتادة
256	ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية - بلاد مصر والإخشيديين.....
257	المماليك البحرية (آل بنى البحرية) - الدولة الجركسية (دولة آل جراكسة).....
258	أول من ملك مصر من آل عثمان.....
264	حكاية غريبة.....
269	الفصل الحادى عشر: بيان الثمانية والأربعين سلطانا وملكا من حكام جزيرة مصر
270	وصف الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة مصر.....
273	سلاطين شرفاء آل الإدارة - سلاطين آل حمود - سلاطين الموحدين - سلاطين آل طاش
274	سلاطين آل الملتمين - سلاطين شرفاء آل كامل - سلاطين بنى مرين (سلاطين آل بنى مرين).....
275	دولة بنى الأغلب - دولة بنى كلب فى جزيرة صقلية - دولة آل باديس (من بنى حماد) دولة بنى حفص (حفظ) - دولة سلاطين فاس.....
277-276	دولة سلاطين مراکش العظام - دولة سلاطين السودان - أوصاف دولة سلاطين بلاد الفونج - دولة ملوك البربرستان - دولة آل قرمانقة - دولة آل بغة ونسكى (بجانسكى).....
278	دولة ملوك ذى اليزن.....
279	دولة بنى هلال - دولة آل أفارقة
280	دولة ماى بورنو (بورنق) - دولة آل أفنو.....
281	دولة الجزائر - دولة ولاية تونس - دولة ولاية طرابلس (الغرب)...
282	دولة ملوك دومية - دولة آل جابية.....
283	أوصاف دولة ملوك الحبش.....
285	الفصل الثانى عشر: فى بيان الملوك الضالين ذوى الأفعال السيئة من المشركين الطاغين - دولة كسرى.....
	آل داويان - الطبقة الأولى : الكرج - الطبقة الثانية : (آل أجيق باسن) آل ذى الرأس الحاسر - الطبقة الثالثة : آل كوريل - الطبقة الرابعة : آل شوشاد - الطبقة الخامسة : آل مكرل - الطبقة السادسة: آل التاجدار، أعنى قوم المجر - الطبقة السابعة : ملوك

290-286 (دنكيرك) دونقارقيز (دنكيرك) - دولة دانمرك (دانيماركة) - دولة
291 دولة النمسا - دولة الإنجليز (إنكليز) - دولة المجر الصغير
292 Rağuze - دولة البندقية (دنديك) - دولة الدوبرة ونديك (جمهورية رغوزه)
293 ولاية التفاحة الحمراء (قرل الما) وهي دولة البابوية - دولة فرنسا... دولة جنويز (جنوة) - دولة إغراندوقه - الدولة البرتغالية - ملك
294 أفلاق
295 دولة بوغدان
397 الفصل الثالث عشر: في بيان ظهور دولة آل عثمان وسطوع نجمها.
303 سبب ضم السلطان سليم مصر
308 قصة الأمير سليم
313 قدوم الأمير سليم في سياحته من بغداد إلى الكعبة
317 بيان استقلال سليم الأول بالسلطنة سنة ٩١٨هـ = ١٥١٢م
322 قتل سليم الأول إخوته وأولادهم
324 قتال سليم الأول السلطان الغوري في مرج دابق حين ذهابه لضم مصر
327 الهزيمة الأولى للسلطان الغوري على يد سليم الأول
330 قلعة المعرة - قلعة حماة - قلعة حمص
331 طرابلس الشام - فتح قلعة الشام
332 بيان قبر محيي الدين بن عربي
336 فتح قلعة غزة هاشم
337 بيان حرب الغوري للمرة الثانية مع سليم خان ومصير الغوري
346 بيان مباحثات الملك طومانباي مع السلطان سليم ونقاشه له في حضرته ثم قتله على يده أخيراً
350 قصة سليم خان المروعة مع كرتباي الفدائي بقصر أم القياس
355 الفصل الرابع عشر: بيان سفر السلطان سليم إلى جهات دمياط ورشيد والإسكندرية
356 ذكر خزان السلطان الغوري في قلعة الإسكندرية

361	الفصل الخامس عشر: قوانين تنظيم مصر فى عهد السلطان سليم خان بن بايزيد خان
371	الفصل السادس عشر: بيان النيابات وأمراء اللواء فى إيالة مصر والتخصصات السنوية لبكوات السناجق وجميع الكشوفيات حسب القانون السليمى.....
374	فى بيان رتبة بكر بك فى إيالة مصر.....
379	الفصل السابع عشر: بيان قوانين ديوان مصر وعاداته فى عهد السلطان سليم خان فاتح مصر نادرة العصر.....
381	وصف دار سك النقود المصرية.....
383	أوصاف حكام مصر وعمالها.....
386	بيان أقلام أمين البحرين المضحكة وعدد خزائن مصر
388	مدح مقياس النيل المبارك، وكثرة بنى آدم، وأنواع الحيوان ووفرة الحمير بمصر
391	الفصل الثامن عشر: بيان الجيش المصرى المنقسم إلى بلوكات سبعة حسب القانون السليمى ورواتبهم اليومية.....

تنويه لا بُدَّ منه

هذا الكتاب ترجمة للمجلد العاشر من رحلة أوليا جلبي، والذي خصصه للحديث عن رحلته إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، التي قضى فيها ثماني سنوات (١٠٨٢-١٠٩١ هـ = ١٦٧٢-١٦٨٠ م). وقد ألّفها باللغة التركية العثمانية تحت مسمى "أولياجلبي سياحتنامه سي- مصر، سودان وحبش"، وبعد الانقلاب الحروفي في تركيا عقب ثورة ١٩٢٣ م، والذي أعلن عام ١٩٣٨ م، قامت وزارة التعليم بتشكيل لجنة وأعدت نشر الكتاب بالحروف اللاتينية التركية الحديثة عام ١٩٣٨ م. ولقد تم الاعتماد على النسختين العثمانية والتركية الحديثة عند الترجمة.

ولما كانت رحلة مصر قد سبقتها رحلته إلى الحجاز، وخصص لها المجلد التاسع من مجلداته العشرة، فقد وجدت في نهاية هذا المجلد جزءاً كبيراً يتعلق بمصر؛ خاصة وأنه قد توجه إليها عقب أداء فريضة الحج مُصاحباً قافلة الحج المصرية بالطريق البري. وتناول في هذا الجزء أماكن لم يذكرها في المجلد العاشر؛ لقد تحدث عن الأماكن التي كانت تابعة للإدارة المصرية آنذاك؛ حيث بدأ الكُتُبة بعد الخروج من جدة إلى المدينة المنورة ثم إلى العقبة ثم إلى سيناء بكل ما فيها من مراحل ومنازل، حتى وصل إلى ميناء السويس. تسلم حاجياته بعد أن حدثنا عن بندر السويس بكل ما فيه، ثم توجه إلى مصر القاهرة أم الدنيا عبر الطريق البري المعهود لقوافل الحج واستقبال الولاة الجدد وتوديعهم.

انتقل أوليا جلبي للحديث عن مصر مباشرة ابتداءً من المجلد العاشر، والذي بلغت صفحاته في اللغة التركية الحديثة ما يقرب من ألف ومائة صفحة. وكان من الصعب أن تستوعبه الترجمة العربية في مجلد أو جزء واحد؛ لذلك تقرر أن تكون الترجمة العربية على خمسة أجزاء يتناول منذ فراغه من فريضة الحج وعبوره

العقبة فسيناء ودخوله إلى القاهرة أم الدنيا والحديث عن كل من تولوا حكم مصر، حتى أن قام سليم الأول بضمها إلى الدولة العثمانية عام ٨٩٢٣ = ١٥١٧م. ووصل بحديثه في الفصل الثامن عشر - حسب تقسيمه هو - عن الجيش المصرى المنقسم إلى بلوكات سبعة حسب القانون السليمى ورواتبهم اليومية.

الجزء الثانى: يشمل الفصل التاسع عشر، والذي يتابع فيه الحديث عن مواكب القاهرة أم الدنيا واحتفالاتها، وعن خزائنها وجوامعها ومدارسها وعماراتها وخيراتها وصررها المرسله إلى إستانبول والحجاز.

الجزء الثالث: بدأناه بالفصل الثامن والأربعين، وتابع الحديث فيه عن كل ما فى أرض مصر القاهرة من أضرحة ومشاف ومتمزهات، وعن مصيف بولاق وما فيه من عمائر وزوايا وتكايا. ثم يعود إلى الفسطاط العتيقة ويكمل الحديث عن العلماء والمشايخ والصلحاء، وبعدهم يتحدث عما يخرج من أرض مصر من مأكولات ومشروبات ونباتات، وما هو غير موجود فى غيرها من الديار. ثم نختم هذا الجزء بزيارة الأماكن المستجاب فيها الدعاء فى أرض مصر الطيبة كمشاهد أهل البيت والأئمة العظام، الإمام الشافعى والإمام الليث... إلخ.

الجزء الرابع: حسب تقسيمنا نحن يبدأ من الفصل الخامس والستين، حيث يتجه إلى الدلتا ويذكر كل ما يراه فيها من دمياط إلى رشيد والإسكندرية، ويعود إلى القاهرة فإذا بحامية عسكرية متجهة نحو الصعيد الأعلى فيرافقها، ويتجه معها حتى يصل إلى الشلال، ويتحدث فى هذا الجزء عن كل المدن والقرى التى زارها وحصر ما بها من منشآت وقوات مروراً ببلاد الفونج.

الجزء الخامس: يحتوى على حديثه عن بلاد السودان والحبس وعودته إلى مصر عن طريق القصير فبنى سويف، وفيه يتحدث عن كل مراحل السفر ومنازله التى قطعها. لم يترك أوليا جليبي شاردة ولا واردة إلا وتحدث عنها، من أراضي وتقسيماتها الإدارية وما تغله أو تخرجه من نبات وضرائب، وما عليها من مباني معمارية وما فوقها من إنسان بعبادته وأعرافه، أفراحه وأتراحه.

وسوف يتوالى نشر هذه الأجزاء الخمسة تحت نفس العنوان "للرحالة
العثماني أوليا جلبي" الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش (١٠٨٢ - ١٠٩١هـ =
١٦٧٢-١٦٨٠م)٦. وسنورد في نهاية كل جزء ما يخصه من تعليقات وحواشٍ
حتى تكتمل الفائدة المرجوة إن شاء الله.

(المترجم)

إيضاح

اللغة التركية العثمانية كانت تُكتب بالحروف العربية وخطياً؛ إلا أن الأتراك قد أضافوا بعض الحروف التي استعاروها من الفارسية أو استحدثوها؛ لتتواءم مع الصوتيات الزائدة في لغتهم. وحتى بعد الانقلاب الحروفي بقيت هذه الحروف الغريبة عن العربية في اللغة التركية. ولما كانت الترجمة سوف تحتوى على بعض الأسماء والمسميات والمصطلحات الإدارية والعسكرية التي توجد فيها هذه الحروف؛ فقد رأينا من المفيد توضيح هذه الحروف والنطق المقابل أمام شكلها العثماني والتركي الحديث:

الحرف بالتركية العثمانية	الحرف بالتركية الحديثة	المقابل بالعربية
â	آ	ألف مدَّة مثل: "آب"، و"أمد"، و"آمين"، و"آغا".
p	پ	في اللغات الأوروبية "p" مثل پاره = نقود.
ç	Ç	يقابل نطق حرفي "ch" في الإنجليزية. وقد عبرت عنه العربية تجاوزاً بحرف "ش" فقلنا، "شلبى" بدلاً من "چلبى" أو بحرفي (تش) معنا مثل "طانسوتشغر" ... "أولياشلبى" أو "أولياشلبى" = "أوليا چلبى".
ژ	J	في مثل: ژاله Jale، وژاکت Jaket ويقابل في نطقه نطق حرف "ج" الثانية في كلمة "جراج" أو "ژانديرمه" = حرس الدرك.

گ	G.g	وَيُنطَقُ مِثْلَ "الجيم" غَيْرَ الْمَعْطُشَةِ فِي اللَّهْجَةِ الْقَاهِرِيَّةِ الدَّارِجَةِ. وَعِنْدَ التَّعْرِيبِ تَكُونُ "غ" مِثْلَ كَلِمَةِ "غَاز" Gaz أَوْ "ج" مِثْلَ "عِبْدَاللَّهِ غُول" أَوْ "عِبْدَاللَّهِ جُول".
ک	Ğğ	وَيُقَابِلُ فِي نَظْفِهَا حَرْفَ الْيَاءِ مِثْلَ "دَكِيل" ذِيل، بِمَعْنَى لَيْسَ، وَ"اَكْرَه" أَيْرَه، بِمَعْنَى مَعُوج أَوْ مُنْحَنِي. وَكَذَلِكَ "بَك" مِثْلَ Beğ، وَقَدْ تَمَّ تَحْوِيلُهَا إِلَى Bey بِيَه أَوْ بِكَ مِثْلَ عَلَى بَك الْكَبِير، وَyeğen "يَكِين" أَوْ يَكُنْ مِثْلَ عَذْلَى يَكُنْ.
ڭ	N	وَيُقَابِلُ فِي نَظْفِهِ حَرْفَ النُّونِ "N" دَلْفُز DeniZ= بَحْر. وَأَيْضًا بَكْ بَاشِي Binbaşı، وَقَدْ يَنْطِقُهُ الْبَعْضُ مِثْلَ حَرْفِ الْكَافِ فَيَقُولُ بِكَبَاشِي، وَهِيَ رَتَبَةٌ "الْمَقْدَم" الْعَسْكَرِيَّة، وَكَذَلِكَ يَكْجُجْرِي تَمَّ تَعْرِيبُهَا بِـ "لِنْكَشَارِي".

(المترجم)

إطالة على الجزء الأول من الرحلة

قبل البدء فى ترجمة النص المستهدف كان لابد من مقدمة موجزة عن الرحلة وأدب الرحلات والأهداف المرجوة من وراء الرحلة، ثم عرجنا على أهم الرحلات المشرقية إلى مصر. وأشرنا إلى ناصر خسرو الإيرانى ورحلة على مصطفى باشا الغاليبولى... كلاهما قدما من المشرق وكانت رحلتاهما قبل رحلة أوليا چلبى، فأردنا أن نرى القاهرة بعيون مشرقية وفى عصور سابقة على عصر الرحالة العثمانى أولياچلبى. وكان لابد من التعريف بهذا الرحالة، وما هى الأسباب التى وفرت له هذه الرحلة.

لقد ترعرع أولياچلبى فى السراى العثمانى وأصبح حافظاً ومنشداً وندباً للسلطان، ومرافقاً للكثيرين من القواد العسكريين الذى توجهوا إلى أماكن كثيرة، وحمل الرسائل وقام بسفارات عدة إلى الكثير من البلدان.

كان والده يعمل فى السراى العثمانى بوصفه رئيساً للصاغة ومسئولاً عن مجوهرات السلطان. كان فناناً خطاطاً مذهباً. علم ولده هذه الفنون إلى جانب لغات عصره وأدابه، ثم تعلم داخل السراى كيفية مصاحبة السلطان ومنادمته والتصرف فى حضوره، إلى جانب ركوب الخيل والفروسية والموسيقى والإنشاد وتلاوة الأشعار العربية والفارسية والتركية. وبحكم سفرياته الكثيرة، التى كانت تمتد إلى سنوات عدة، تمكن خلالها من إتقان عدد من اللغات الأخرى.

قضى زهاء الأربعين عاماً فى السفر والتنقل والترحال، كان يرافق الجيوش بوصفه موظفاً مدنياً وليس عسكرياً، ولكنه كان مقرباً من القادة ومصاحباً لهم بعد أن ترك مصاحبة السلطان.

تأقت نفسه إلى أداء فريضة الحج، وندم على تأخره كل هذا الوقت، فرافق قافلة الحج العثمانية المتجهة إلى الأراضي الحجازية عبر الأناضول والشام، فمر بكل مدن سوريا وربوعها. تحدث عن تجمع الحجيج القادم من المشرق في دمشق وخروج القافلة بعد الاحتفال المهيب الذي مر بشوارع المدينة والوداع من الأهالي، سجل كل ما رآته عيناه حتى وصول القافلة إلى المدينة المنورة؛ فتحدث عنها وعن كل مآثرها وعن الحرم النبوي الشريف، وحصر كل ما فيه من تحف ونجف وقناديل وسجاد ومباخر. عدّد الأعمدة والأبواب والنوافذ، وزار البقيع والقلعة والحامية، وتحدث عن الجوامع والمدارس والمكتبات والكتاتيب، ثم تحرك من المدينة إلى مكة المكرمة. سجل المراحل والمنازل والأحواض والطيور والشجر وغارات البدو على الحجيج إلى أن وصل إلى مكة، فبدأ الحديث عن النقاء القوافل ومراسم توزيع الصرر وأعرافه على الموظفين والمجاورين والأشراف والسادات والأهالي.

تحدث حديثاً شجياً عن مناسك الحج، وما يمكن أن يحدث من زحام وصعاب وشح في الماء والغذاء. وبعد أن أدّى طواف الوداع توجه إلى جدة، وهناك في حضرة والى جدة التقى بأمير قافلة الحج المصرية وقائد حاميتها. أغرياه بالسفر إلى مصر فاستجاب، ودعّمه والى جدة بالمال والعتاد وبعض الغلمان والجياد والهدايا وخطابات التوصية. شحن أوليا كتبه وغلّمانه وحياده وغرارات البين إلى السويس مع السفن المتجهة إليها، ورافق هو قافلة الحج المصرية في طريق العودة مروراً برباع والمدينة المنورة، وبكل المراحل والمنازل التي كانت تنزل بها القافلة للاستراحة أو للتزود بالمياه والمؤن المتاحة، حتى وصلت القافلة إلى عقبات العقبة فوصفها واجتازها. وتحدث عن الحامية المصرية في العقبة وقلعة المويلح، واقتراق الطريق نحو القدس ونحو سيناء. قطع مراحل سيناء. كان يتخلف عن الركب أحياناً ليزور الأماكن المحيطة، فزار طور سيناء، ومقام الحواريين ودير سانت كاترين، وتحدث عن لقاء القساوسة وعن حسن اللقاء وكرم المقام.

تحدث عن التيه وعن آثار سيناء ودروبها وطرقها واقترب الطريق أحياناً من البحر وابتعاده أحياناً أخرى. حتى وصلت القافلة إلى السويس فكتب عنها وعن

قنائها القديمة، وعن استقبال الحبيب وما يقدمه المستقبلون من أطياب النعم وعذب المياه. يصل أوليا إلى مصر المحروسة... وقبل أن يصل إلى القاهرة مصر أم الدنيا يتحدث عنها في الكتب المقدسة، ويذكر الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت مصر بالتصريح أو التلميح. ثم ينتقل إلى الأحاديث النبوية والأنبياء الذين عاشوا في مصر والذين زاروها والذين هم ذفنوا بها.

يتوالى الحديث عن الدول التي ظهرت في مصر أو حكمتها، ثم عن الفتح الإسلامي والدول والدويلات التي ظهرت فيها، حتى مجيء سليم الأول العثماني وضماها إلى ممتلكات السلطنة العثمانية. ولم يغفل الحديث عن طومانباي وحروبها مع سليم وشفقه على باب زويلة وحب المصريين لطومانباي. وتدرج في الحديث عن التقسيمات الإدارية والعسكرية التي استحدثها سليم الأول في مصر، وزياراته وتجوّاله في القاهرة والإسكندرية، واستيلائه على الأمانات المقدسة التي كانت في مصر واصطحابها معه عند العودة إلى إسطنبول برفقة الخليفة العباسي.

لنترك الحديث للرحالة نفسه، ولنترك للقارئ الانطباع وتأييد ما ذهب إليه الرحالة المشرقي أو معارضته فيما تحدث به عن مصر.

وفي المدخل سوف يتم التنويه إلى ما يمكن أن يكون قد أضافه المترجم أو تركه كما هو أو علّق عليه أو كتب حاشية عنه، مع العلم أن رحلات أولياچلي قد تمت ترجمتها إلى معظم اللغات، وأفاد علماء الحملة الفرنسية على مصر من هذا الكتاب فوائد جمة.

و على الله قصد السبيل وحسن الثواب.

الصفصافي أحمد القطوري

أرض الجولف، مدينة نصر، القاهرة.

يوليو ٢٠٠٧م = جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ

مدخل فى أدب الرحلات

بقلم المترجم

إن تاريخ البشرية إنما هو تاريخ لمحاولة الإنسان التعرف على العالم المحيط به والغريب عنه، لقد ناضل أولاً ضد القوى الحيوانية التى تحول بينه وبين ذلك، ثم أخذ يناضل القوى المماثلة له فتكونت القبيلة، ثم الأمة، واندفعت الأمم من أقاليمها إلى الأقاليم المجاورة تكتشف فيها آفاقاً جديدة. ثم بدأ ينطلق نحو الفضاء الخارجى عبر الكواكب، ويغوص فى أعماق البحار والمحيطات بحثاً عن المعرفة ورغبة فى الامتلاك.

بدأت كل هذه الرحلات ضيقة، ثم اتسعت آفاقها مع مرور الزمن؛ فالإنسان وُلِدَ راحلاً، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة؛ تخطى الجبال، وعبر البحار. وركب بساط الريح، سجل لنا التاريخ رحلات ألف ليلة وليلة، وحى بن يقظان، والتوابع والزوابع، ورحلة دانتي فى الكوميديا الإلهية، ورحلة الشاعر التركى العبقري الشيخ غالب إلى مدينة القلوب "حسن وعشق". كما نجد ذلك بين ثنايا الأساطير، ودوافع الحروب.

سجل المصريون رحلاتهم على جدران المعابد، وخاض الفينيقيون عباب المحيط الأطلسي، وخلّف الإغريق مستعمراتهم فى البحرين الأبيض والأسود، وعنوا جميعاً عناية واسعة بوصف البلدان والأقاليم التى رأوها، وقدموا الكثير من المعارف الجغرافية.

زار هيرودوت مصر، وقبرص، وفينيقيا، وأشور، وإيران، وتوغل فى الشمال، وتخطى البوسفور، وأودع مشاهداته فى هذه الزيارات أو الرحلات تاريخه

الكبير. ثم أعقبه "بلوتارك" الذى عنى بتاريخ اليونان، والرومان، ومنه استمد شكسبير الكثير من روائع مسرحياته.

ثم تصبح روما عاصمة العالم، ويتوغل بحارتها وفرسانها فى ربوع إمبراطوريتها الشاسعة، وتصل سفنهم إلى جزر الكاناريا فى المحيط الأطلسى.

ثم كان الفتح العربى للهند، والصين، وجبال البرانس... ومن التركستان وجبال القوقاز إلى السودان وبلاد الحبش... أصبح كل ذلك عالماً موحدًا مشتركًا فى العقيدة واللغة. وامتزجت الثقافات، فخلقت نتاجًا حضاريًا مميزًا. وصف جغرافيو مدن هذا العالم، وبلدانه، وكذلك سكانه، وعاداتهم وأعرافهم...

عرفت حضارتنا ومكتباتنا العامة كتب المسالك والممالك، وطرق الحج والقوافل وكثرت الرحلات عند المسلمين، وتتنوع بتنوع أسبابها، وحوافزها. ونشأت عند الكثيرين منهم محبة المجازفة والمغامرة فيما وراء المعروف، وليس من العيب أن نجد فى تراثنا رحلات السندباد وابن ماجد. وفتحت الحروب الصليبية آفاقًا نحو الشرق، فأخذ الأوروبيون فى تسجيل أسفارهم ورحلاتهم.

كانت الرحلة عنصرًا مهمًا، وقويًا فى حياة المجتمع الإسلامى خلال عصور ازدهارها. رحل الناس لزيارة مهيبط الوحى، ولقوا فى ذلك الكثير من الصعاب... وتحملوها راضين ومسرورين... رحل الناس فى طلب العلم حيث مراكزه المضيئة... كان طلاب العلم يتحملون من المشاق فى سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم وإجلالهم، ورحل القوم فى سبيل الاتجار، وطلبنا للربح والثراء، فقد كانت الأسواق الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها مفتوحة الأبواب، مرتبطة ببعضها كل الارتباط وتكمل بعضها بعضًا، وكان التجار يحملون مع بضائعهم أحلامهم وثقافتهم ومعتقداتهم.

رحل الناس بوصفهم سفراء بين الملوك والحكام، كما رحلوا طلباً للثروة
السفر ورغبة فيه، وكذلك رغبة في الرحلة في حد ذاتها، أو رحلوا طلباً للرزق إذا
ضاقت بهم حدودهم...

عرف المسلمون كل هذه النماذج من الرحلات، وقد شجعتهم على الاستزادة
منها قلة الحدود المضروبة والعراقيل المفروضة... فلما ذهبت الوحدة السياسية،
وضربت الحدود، وشذت الأسلاك الشائكة بقيت وحدة العقيدة ووحدة اللغة...
فربطتنا قوافل الحجاج، ورحلات طلاب العلم، ورسل الحكام، وحملة البضائع،
وزعماء الحرف والصنائع فاحتفظوا بالصلة.

لقد دون الكثير من الرحالة أسفارهم، ومشاهداتهم، فذكروا الأرض التي
زاروها والوديان التي نزلوها والجبال التي قطعوها، والصعوبات التي واجهوها.
قيّدوا ما رأوا من آثار، وسجلوا ما وعته الذاكرة من العادات والأعراف وسمات
الثقافات ولطائف الأخبار...

إن هذه اللغات التي نعتز عليها في كتب الرحلات هي التي تميز الرحالة
عن الجغرافي. فالجغرافي يسأل ويستقصى ويقيس ويحقق، ويحاول أن يحتوى كل
جزء من المنطقة التي يعرض لدراستها، أما الرحالة فيلتقط ما يشاهده من جزئيات
ويرسم لنا منها صورة تتطابق وتتشابك أحياناً، وربما تتنافر وتتباعد أحياناً
أخرى... ففيها ذاتية المشاهد وموضوعية الموجود.

﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ۖ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ سورة
قريش ١٠٦/٢، لقد كانت لقريش رحلتان، رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وكانتا
للتجارة، ذلك لأن أهل مكة كانوا تجاراً، وكانت قوافلهم تنقل التجارة من اليمن إلى
الشام، وتحمل بضائع الشام إلى اليمن.

لقد فتحت الفتوح العربية الإسلامية الأفاق، واتسعت رقعة الاتجار وتبادل
السلع والمتاجر، وكان التجار يتعرفون على أهل الديار وثقافتهم، وكانت هذه

المعرفة تنتقل رواية وأخباراً حتى قبض الله لها مَنْ دونها، لتُصبح جزءاً من تراث أدب الرحلات.

رحل الناس في طلب العلم من مكان إلى آخر، فهذا بغدادى يشد الرحال إلى دمشق، وهذا دمشقى يقصد بخارى، وهذا تونسى إلى القاهرة، وهذا قاهرى يطلب العلم في فارس. وهذه الرحلة في طلب العلم كانت أخرى بأن تدوّن أخبارها، وتبقى آثارها؛ فمن أخبار ينقلها التجار وأصحاب الأعمال، ومن هذه وتلك وصلت إلينا أخبار هي من مفاخرات التراث الإسلامى.

لقد جاء الإسلام، بفرض الحج على المؤمنين، ولو أنه جعل الاستطاعة شرطاً، والذين استطاعوا إلى الحج سبيلاً في هذا التاريخ الطويل كثر، ولم يكن جميعهم ممن يدون أخبار أسفاره، ولكن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من أهل العلم على تدوين مشاهدتهم؛ فخرج من ذلك الشيء الكثير في أدب الرحلات الإسلامية.

وإلى جانب التاجر، وطالب العلم، والحاج، والسفير؛ يقوم الرحالة المحترف أو الهاوى برحلته من أجل الرحلة ذاتها، ويدوّنُها من وجهة نظره هو.

وها نحن نستعرض هنا - في هذا الكتاب - رحلة قد تمت إلى مصر لذات الرحلة ولذات مصر. وإن كنا سوف نُمهد لها برحلتين قام بهما صاحباهما من المشرق الإسلامى قبل أوليا جلبى؛ الأولى للرحالة الفارسى "ناصرخسرو" والمسمّاة "سفرنامه" وهى رحلته إلى الشام ومصر والحجاز. وقد كانت هذه الرحلة في عام ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧م من أجل العلم والحج والمناقشة العلمية.

أما الرحلة الأخرى فقد قام بها مؤرخ وكاتب وشاعر تركى يُسمى عالى مصطفى باشا الغلبولى، في خلال ٩٧٦ هـ = ١٥٦٨م، أى بعد سابقه بما يقرب من خمسمائة عام، وإذا كان ناصرخسرو القباديانى قد تردد على الحج وهو فى

مصر ما يقرب من أربع مرات؛ فإن الغليبولي هو الآخر زار مصر أكثر من مرة
ثم استقر به المقام في الحجاز، وأنهى كتابه المعنى بمصر والقاهرة وهو في جدة.
لن يتسع مجال هذا المدخل للحديث عن كل الكتب والرحلات المشرقية التي
كُتبت عن مصر، بل سأقصر الحديث عن بعض النماذج التي تحمل مفاهيم معينة
تعين على فهم الرحلة موضوع الترجمة هذه فقط.

أهم الرحلات المشرقية إلى مصر قبل أوليا جلبي:

رحلة ناصر خسرو^(١) إلى الشام ومصر والحجاز

من خلال كتابه "سفرنامه"^(٢)

نشأ ناصر خسرو في جو مضطرب سياسياً ودينياً في المشرق الإسلامي؛ حيث ولد في قباديان عام ٥٣٩٤ = ١٠٠٣م من أسرة متوسطة الحال، وتلقف ثقافة واسعة، والتحق بخدمة السلطانين الغزنويين محمود^(٣) وابنه مسعود^(٤)، وقد نشأ نشأة سنية، وبدأ حياته في بلاط حماة السنة وكذلك.

(١) ناصر خسرو القبادياتي (١٠٠٣-١٠٨٨م) شاعر من بلخ إسماعيلي المذهب، من أقطاب الأدب الفارسي، حج إلى مكة وزار سورية وفلسطين ومصر والجزيرة العربية. ترك لنا أخبار رحلاته في كتابه سفرنامه. وفيه وفي ديوانه سماعات نامه يُعبر بالشعر عن آرائه الدينية. (انظر: المنجد في اللغة والأعلام، ط ٢٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٣م).
(٥) تنويه:

جميع الهوامش التي وردت في هذا الكتاب من إعداد المترجم، وسترد سلسلة تباغا دون كلمة (المترجم)

(٢) ألفها ناصر خسرو القبادياتي. طبعت هذه الرحلة أول مرة في باريس عام ١٢٩٨ = ١٨٨١م على يد الممشرق الفرنسي شارل شيفر Charles Schefer الذي كان مديراً لمعهد الدراسات الشرقية في باريس، ثم طبعت في طهران ١٣١٤ = ١٨٩٦م وحققها العلامة محمود غني زاده، وقرجها إلى اللغة العربية كل من الدكتور يحيى الخشاب، والدكتور أحمد خالد البدي، وطبعت في بيروت عام ١٩٧٠م ونشرت في عيادة شئون المكتبات بجامعة الملك سعود بالرياض عام ١٤٠٣ = ١٩٨٣م. ويتحدث ناصر خسرو فيها عن زيارته إلى مصر وأداء فريضة الحج.

(٣) محمود بن سبكتكين الغزنوي السلطان يمين الدولة أبو القاسم بن الأمير، امتدت سلطته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وهو تركي الأصل مستعرب، كان حازماً صائباً في رأيه، وكان يجالس أهل العلم وينظرهم، كما استعان بهم على تأليف كتب كثيرة في فنون مختلفة؛ منها كتاب (التغريد) في فقه الحنفية، نحو ستين ألف مسألة، وله صنف العتبى تاريخه الذي سماه (اليميني). مات في غزنة سنة ٥٤٢١ هـ ودفن بها، وقبره فيها (الأعلام ١٧١/٧).

(٤) مسعود بن محمود بن سبكتكين، من ملوك الدولة الغزنوية، ولد بغزنة بين خراسان والهند، ونشأ في بيت سلطنة وجيا وعدل، وولى أصفهان في أيام أبيه. بعد وفاة أبيه بايعه الناس وأنته رسل الملوك، واجتمع له ملك خراسان وغزنة وبلاد الهند والسند وكرمان والري وأصفهان وبلاد الجبل، وعظم سلطانه وفتح قلاعاً في الهند كانت ممقعة على أبيه، وفي أثناء خروجه إلى الهند عبر نير سيعون تأمر عليه بعض العسكر وأكروها أخاه علي موافقتهم، فقبضوا على مسعود واعتقلوه في قلعة "كيكي" ثم قتلوه سنة ٥٤٣٢ هـ. (الأعلام ٧/٢٢٠).

تبدلت الأحوال السياسية ونجح السلاجقة في القضاء على معظم الدويلات الشرقية، وأفلحوا في توحيد الإمبراطورية الإسلامية. فالتحق ناصر بخدمة جغرى بك السلجوقي^(٥) حاكم خراسان^(٦) وتولى أمر خزانته في مَرَوْ^(٧) مدة طويلة حتى نُسب إليها.

ظل حائراً في المذهب الذي يتبعه؛ أياكون شيعياً أم سنياً...؟ وأى المذاهب الشيعية يختار...؟ ولأى الحكام السنيين يُقدّم الولاء...؟ كان الاضطهاد متبادلاً بين نوى النفوذ، وعلماء الدين يحاولون أن يهدنوا من روع جمهرة الشعب الحائر، ويبدلوا جهد الطاقة لإبقاء عامة الشعب بعديين عن الدخول في المتشابهات، كل حرصهم أن يُقيم المسلم أركان الإسلام الخمسة.

كان ناصر خسرو يشغل منصباً كبيراً في الدولتين الغزنوية والسلجوقية. وهو واسع الاطلاع؛ يقرأ الفلسفة ويناقش آراء الفارابي^(٨) وابن سينا^(٩)... رجع إلى القرآن وكتب الحديث ورجع إلى التوراة والإنجيل، وكتب مذاهب اليهود بلغتها

(٥) شيخ بن محمد بن شيخ بن حسن الجغرى العلوى الحسيني، فاضل متصوف من أهل حضرموت، ولد بها بقرية الحاوى قرب تريم، وتنقل في البلدان إلى أن استوطن مدينة (كيكوت) من إقليم الملييار بالهند وتوفي بها، من كتبه "الكوب النرى في نسب السادة آل الجغرى" و"كنز البراهين الكسبية في ذكر سادات مشايخ الطريقة الحدادية العلوية" وشرح منظومة في شيوخ التصوف بحضرموت، ومقامات، ونظم في ديوان، مات سنة ٥١٢٢٢ (الأعلام ١٨٢/٣).

(٦) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق بيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند غزنة وسجستان، وتشمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وغيرها. (معجم البلدان ٣٥٠/٢).

(٧) مَرَوْ: أشهر مدن خراسان، والنسبة إليها مروزي على غير قياس، وقد اشتهر منها علماء كثيرون، مثل الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري وإسحاق بن راهويه وعبدالله بن المبارك، (معجم البلدان ١١٢/٥).

(٨) إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، أبو إبراهيم، أديب، عزيز العلم، من أهل فاراب (وراء نهر سيحون) وهو دخل الجوهرى صاحب الصحاح. انتقل إلى اليمن وأقام في زبيد وصنف كتاباً سماه ديوان الأدب، وله درر التيجان في الجغرافيا، توفي سنة ٢٨٣هـ (الأعلام ١/٢٩٣).

(٩) الرئيس أبو على الحسين بن عبدالله بن سينا الحكيم المشهور، صنف كتاب الشفاء في الحكمة، والنجاة والإشارات والقانون، وغير ذلك مما يقارب مائة مصنف ما بين مطول ومختصر، ورسالة في فنون شتى، وهو أحد فلاسفة المسلمين المعبودين. مات بهمدان سنة ٤٢٨هـ ودفن بها. (وفيات الأعيان ١٥٧/٢).

الأصلية. وأطال النظر في الأوستا^(١٠) والزند^(١١) واتصل بعلماء الأديان؛ مسلمين ونصارى ويهود وهنود ومجوس، وناقشهم الآراء والمسائل التي لم يهتد إلى رأى فيها، فلم يظفر بمن يقتعه، ورأى أن يرحل إلى بلاد العرب وفارس وتركستان والهند، لعله يجد من يهديه إلى الطريق الحق لمعرفة الله، ولكنه لم يظفر بما يُريد. فوقع في الشك الذي قد يصل إلى الإلحاد، وظهرت آثار هذه الفترة في أشعاره، إلا أن مرحلة الشك هذه لم تدم طويلاً على أية حال... وها هو ناصر يُؤثر أن يرحل إلى مصر، حيث نُظمت الدعاية للمذهب الفاطمي تنظيمًا دقيقًا، لعله يجد فيها ما تصبو إليه نفسه من معرفة الحقيقة، فقد سمع من دعاة مصر في خراسان وفارس من يتحدث عن مذهب جديد يختلف عن الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية، كما عرف أن من هؤلاء الدعاة من يستمع إلى أسئلة المتحير ويجيب عنها، وإنه ليحب أن يسأل لماذا وكيف، وأن يُجاب عما يسأل جوابًا يُشفي علة. فليعزم إذاً على الرحيل.

وبعد ما قرأ في القرآن الكريم من دعوة إلى التدبر زاد عزمه على السفر والرحيل إلى حيث الشجرة التي بايع المؤمنون تحتها النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، فلعل من سحر المكان ما ينفذ إلى نفسه الحائرة بالسكينة والأمن... فذهب إلى زاوية ودعا ربه أن يُيسر له أمره ويهديه. ويرى في المنام بعد سكرٍ طويل من يحدثه عن أن لا تكون بالخمير، بل يتجه المتحدث إلى القبلة قائلاً "مَنْ جَدَّ وَجَد"، ثم ينصرف عنه، ويصحو ناصر من نومه، فيتمثل الرؤيا كأنها حقيقة فيفريق من الخمير، ويحدث نفسه أن عليه أن يفريق من غفلة أربعين عامًا خلت، كما أفاق من سبات البارحة. فيعزم الرحلة إلى مكة، إلى القبلة التي أشار إليها محدثه، فيتجه إلى مرو ويطلب إعفاهه من الوظيفة؛ حيث يعزم على الحج. وكان ذلك في جمادى

(١٠) الأوستا : واحد من الكتب المقدسة لدى الفرس والهنود القدماء، ويظن أنه يحتوى على تعاليم الديانة الزرادشتية.

(١١) الزند : واحد من الكتب المقدسة لدى الفرس والهنود القدماء، ويمتد البعض أنه والأوستا يحتويان على تعاليم الزرادشتية.

الأخرة سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧ م في العام نفسه الذي سافر فيه المؤيد إلى مصر. ولقد التقى ناصر خسرو بالمؤيد في الدين هبة الله الشيرازي سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧ م، وتلقى ناصر مبادئ الدعوة الفاطمية من المؤيد هذا أثناء إقامته في مصر التي امتدت لست سنوات.

مؤلفات ناصر خسرو ومكاتبة "سفرنامه" بينها:

خلف ناصر خسرو القبادياني مجموعة من المصنفات شملت كثيراً من الموضوعات العلمية التي كان يوليها كثيراً من الاهتمام؛ ولكن أغلب هذه المؤلفات لم يُكشَف النقاب عنها بعد. ومن حسن الحظ أن وصلت إلى أيدي الباحثين بعض من كتبه. ومن أهمها هذه الرحلة المسماة "سفرنامه" وهي ما تعيننا هنا، لقد طبعت السفرنامه أول مرة في باريس سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨١ م، على يد المستشرق الفرنسي "شارل شيفر" Charles Schefer؛ وهو من أكبر المهتمين بالدراسات الشرقية وكان مديراً لمعهد الدراسات الشرقية في باريس.

ثم طبعت السفرنامه في طهران ١٣١٤هـ = ١٨٩٦ م، وقد حققها العلامة محمود غني زاده ويعدها المترجمون أكثر دقة وضبطاً وتوثيقاً عن سواها. وتمت ترجمتها إلى اللغة العربية مرتين، المرة الأولى من قِبل الدكتور يحيى الخشاب، ونشرت في دار الكتاب الجديد، بيروت سنة ١٩٧٠م، والترجمة الأخرى قام بها الدكتور أحمد خالد البدلي، ونشرت من قبل عمادة شئون المكتبات - جامعة الملك سعود - بالرياض سنة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

وتنقسم الرحلة إلى ثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى تبدأ من مرو في ربيع الآخر سنة ٤٣٧هـ = أكتوبر ١٠٤٥م وتنتهي ببلوغه القاهرة في ٧ صفر ٤٣٩هـ = ٤ أغسطس ١٠٤٧م. والمرحلة الثانية مرحلة إقامته في مصر من ٧ صفر ٤٣٩هـ إلى أواخر جمادى الآخرة ٤٤٢هـ = أواخر أكتوبر ١٠٥٠م. والمرحلة الأخيرة عودته إلى بلخ عن طريق الحجاز وقلج والأحساء والبصرة، وتبدأ منذ قيامه من مصر وتنتهي في ٢٦ جمادى الآخرة ٤٤٤هـ = ٢٦ أكتوبر ١٠٥٢م.

المرحلة الأولى، ويبدو فيها كأنه ليس لناصر خسرو أي مآرب سياسية أو دينية، فهو راغب في الذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وهو عائد من مكة إلى بيت المقدس، وفي نيته أن يذهب إلى مصر ليزورها كما زار الشام على ألا يقيم فيها طويلاً. وليس هناك شك في أن رغبته في زيارة مصر كانت

سعيًا وراء البحث عن الحقيقة؛ إذ في مصر آنذاك مذهب ديني عُرف بنشاط دُعائه في خراسان.

أما المرحلة الثانية، وهي ما يعنينا، فهي إقامة ناصر خسرو في مصر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. وقد سبق القول إن ناصرًا لم يصرح برغبته في الإقامة طويلاً بمصر.

لقد كان للثقافة الدينية الشأن الأول في المجال العلمي بمصر الفاطمية؛ وكانت المساجد، الأزهر وعمرو والحاكم ثم كانت دار الحكمة وقصر الخليفة نفسه، أمكنة لإلقاء الدروس المتعلقة بالفقه والفلسفة الإسلامية، وقد اشترك في هذه الدروس - منذ أن استقر الفاطميون في مصر - قاضي القضاة وداعى السدعاة والوزير والخليفة نفسه.

وكانت دروس الدعوة أو مجالتها مقسمة إلى قسمين؛ قسم يستمع إليه الناس من الراغبين في تحصيل العلم، وقسم يستمع إليه المتخصصون في الدعوة، كما كانت هناك دروس خاصة للنساء.

هذا ملخص للحالة العلمية في مصر، حين وفد عليها ناصر خسرو. ولقد تمتع ناصر خسرو، خلال إقامته في مصر بمركز ممتاز، وقد حج مرتين في صحبة رسول الخليفة، مع أن الحج كان ممنوعاً بسبب قحط في الحجاز. وعاد في المرة الثانية في صحبة أمير مكة، وأراد أن يرى مائدة الخليفة يوم العيد فسمح له بذلك.

لقد كتب ناصر خسرو رحلته بعد عودته إلى وطنه مباشرة، في الفترة التي انكب فيها على العبادة، وقبل أن يبدأ حياته داعياً للدعاة في خراسان.

كان ناصر خسرو - وقد أصبح فاطمي المذهب - مُبالغاً ومُتحمساً بل متعصباً؛ حين وصف مصر هذا الوصف الذي كله ثناء وتمجيد؛ قيل كان مبالغاً حين تحدث عن ثراء المصريين أو عما هم فيه من الرغد والأمن؟ أو حين تحدث عن أسواق القناديل؛ فيقول إنه لا يعرف مثله في العالم...؟

يحكى ناصر خسرو بنفسه عن وصف مصر ثم عازمت على أن أغادر بيت المقدس إلى مصر بطريق البحر، ثم أغادرها إلى مكة، ولكن كانت الريح معاكسة وتعذر السفر بالبحر، فسرنا عن طريق البر، ومررنا بالرملة... وبلغنا مكاناً يُسمى طينة، وهو مرفأ للمفن يذهب منه إلى تنيس. وقد ركبت السفينة إليها...

هكذا يتحدث ناصر خسرو عن تنيس بعد ذلك واصفاً كل ما تراه عيناه، واصفاً إياها بأنها جزيرة ومدينة جميلة، وبعيدة عن الساحل... والمدينة مزدحمة... بها أسواق فخمة وجامعان. وقد يبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان.

وتذهب السفينة من تنيس إلى القسطنطينية في عشرين يوماً... وقد سرنا بجانب مصر، وحين بلغنا شاطئ البحر سارت السفينة في النيل. حين يقترب نهر النيل من البحر، يصير فروعا تصب متفرقة فيه، ويسمى الفرع الذي سرنا فيه فرع الروم. فقد سارت السفينة حتى بلغنا مدينة الصالحية، وهي مدينة كثيرة النعم والخيرات، وتُصنع بها سفن كثيرة. وقد نزلت من السفينة إلى الصالحية ثم بلغت قرب القاهرة تلك الليلة. وفي يوم الأحد السابع من صفر سنة ٥٤٣٩ هـ = أغسطس ١٠٤٧ م كنا في القاهرة.

يبدأ ناصر خسرو في وصف مصر، أي القاهرة، ثم الإسكندرية متحدثاً عن المسافة البحرية بين مصر والأندلس حيث تبلغ ألف فرسخ. ثم يعود إلى الحديث عن القاهرة بوصفها أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر. ويسهب القول حول كل ما يراه من دكاكين ومتنزهات وحدائق وبساتين... كانت البيوت من النظافة والبهاء؛ بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر لا من الجص والآجر والحجارة... وفي القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة): الأزهر، وجامع النور، وجامع الحاكم، وجامع المعز. والأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل... وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تُسقى من ماء الآبار. وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لريّها، وغُرسَت الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات. هكذا

كانت القاهرة منذ ما يقرب من ألف عام أو أقل حيث كان ناصر خسرو بها عام ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧ م.

ثم يتابع ناصر خسرو مشاهداته في القاهرة ويتحدث عن فم الخليج؛ حيث يقول "... ويرى السائر خارج المدينة ناحية الغرب ترعة كبيرة تُسمى "الخليج" حفرها والد السلطان. وله على شاطئها ثلاثمائة قرية... وبيدئ (فم الخليج) من مدينة مصر، ويمر بالقاهرة ويدور بها ماراً أمام قصر السلطان. وقد شيد على رأسه قصران، أولهما قصر اللؤلؤة وثانيهما قصر الجوهرة".

ثم يتحدث ناصر خسرو عن يوم فتح الخليج حين يبلغ النيل الوفاء، ويبلغ ارتفاع الماء ثمانية عشر ذراعاً. فيقول "وهذا اليوم أعظم الأعياد في مصر، ويُسمى عيد ركوب فتح الخليج"... حينما يقترب يُنصب للسلطان على رأس الخليج سراق عظيم التكاليف من الديباج الرومي، وموشى كله بالذهب، ومكمل بالجواهر؛ ومعد أعظم إعداد بحيث يتسع ظله لمائة فارس...".

يتحدث ناصر خسرو حديثاً مطولاً عن هذا الاحتفال - والذي سنراه أيضاً عند أوليا جلبي - حيث يحضر كبار رجال الدولة والقواد والفرق العسكرية... إلخ" وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج، وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة...". وينقل ناصر خسرو للحديث عن وصف مدينة مصر حيث يقول: "سُيِّت مصر على ربوة... وفي طرف المدينة جامع ابن طولون، وهو مُسَيَّد على ربوة وله جداران مُحْكَمَان، ولم أر أعظم منها غير جدار آمد^(١٢) وميفارقين^(١٣)". وبمصر بيوت مكوَّنة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبعة

(١٢) آمد: بكسر الميم لفظة رومية لها في العربية أصل حسن، وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً، قال المنجمون مدينة آمد في الإقليم الخامس، فتحت آمد في سنة ٢٠ هـ. وينسب إليها خلق كثير من أهل العلم، منهم أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى الأديب، وأبو المكارم محمد بن الحسين الأمدى؛ شاعر بغدادى مكث مجيد. (معجم البلدان ٥٦/١).

(١٣) ميفارقين: قاعدة بلاد ديار بكر بين الجزيرة وأرمينيا. سُمِّيَتْ قديماً مارتيريو پوليس أى مدينة الشهداء؛ لما جمع فيها من عظام الشهداء الفرس المسيحيين. (انظر: المنجد في اللغة).

طوابق. وسمعت من ثقات أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار... وحمل إليها عجلًا رباه فيها حتى كبر، ونصب فيها ساقية، كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر...".

ويصف لنا ناصر خسرو "الثريا" التي رآها في جامع "باب الجوامع" أي جامع عمرو بن العاص الذي اشتراه الحاكم ثم أدخل عليه عمارات كثيرة عظيمة، منها ثريا فضية لها ستة عشر جانبًا، كل جانب منها ذراع ونصف، فصارت دائرتها أربعة وعشرين ذراعًا، ويوقدون في ليالي المواسم أكثر من سبعمائة قنديل، ويقال إن وزن هذه الثريا خمسة وعشرون قنطارًا من فضة، كل قنطار مائة رطل، وكل رطل أربعة وأربعون ومائة درهم. ويقال إنه حين تم صنعها لم يتسع لها باب من أبواب المسجد لكبرها، فخلعوا بابًا وأدخلوها منه ثم أعادوا الباب مكانه...".

لم يترك ناصر خسرو شيئًا في القاهرة إلا وتحدث عنه؛ تحدث عن المباني والأسواق والشوارع النظيفة المضاعة وأنواع المأكولات والمشروبات والزهور والفواكه والدواب. ويخلص من كل ذلك بقوله: "... وكان أهل مصر في غنى عظيم حين كنت هناك..." ثم يتحدث الرحالة ناصر خسرو عن العادات والتقاليد التي تجرى في مصر حين يولد للسلطان ولد. كما يصف لنا ما يجرى على مائدة السلطان في العيدين. حيث يقول:

"يقيم السلطان مأدبة في كل من العيدين، ويأذن بالاستقبال في قصره للخواص والعوام. وتتصب مائدة الخواص في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى، وقد سمعت كثيرًا عن هذه المآدب فرغبت في رؤيتها رأي العين...".

... وفي آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة = ٧ مارس ١٠٤٩م، وكان المجلس قد أعدَّ لليوم الثاني، وهو يوم العيد، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس في صدر المائدة.

وحين دخلت من باب السراى رأيت عمارات وسُفُفا وإوانسات، إن أصفها بطل الكتاب. كان هناك اثنا عشر جناحا، أُبنيتُها مربعة، وكلها متصلة ببعضها البعض. وكلما دخلت جناحا منها وجدته أحسن من سابقه، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع، عدا واحدا منها كانت مساحته ستين ذراعا في ستين. كان هذا الأخير تحت عرش مُمرَّد يحتل صدر المكان بارتفاع أربعة أذرع عن سطح الأرض، وكُرسى العرش من الذهب الخالص، وعلى الحائط فى أعلى العرش صورة ميدان صيد تتعارك فيه الفرسان والطرائد وكلاب الصيد، والصورة تكاد تنطق "... أما بُسْطُ الصالون فحريرية بالغة النعومة حتى ليعجب المرء كيف يمكن للأقدام أن تثبت عليها، وقد علَّنا ألوان لا تكاد تحصرها العين، وتحيط بهذا الصالون القدسي شبابيك ذهبية تكاد تذهب بالأبصار... وخلف العرش مباشرة مدخل جليل بدرجات ذهبية، أما العرش الذهبى فلا يقدر بشر على وصفه".

يتطرق ناصر خسرو إلى وصف المائدة، والمطبخ السلطاني وكيفية توزيع النّج على المطبخ السلطاني وعلى الأمراء، وكيف كانت تقدم الأطعمة والأشربة والأدوية لكل من يطلبها من الناس. كما يتحدث عن الأمن وفراغ بال المصريين من وساوس اللصوص، وبلوغ ذلك حدًا حمل البازين والصيارفة على ترك دكاكينهم مفتوحة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن الإعلان عن موسم الحج منذ منتصف شهر رجب... وينادى على تجهيز موكب السلطان فى شهر رمضان، ويبدأ الناس فى السفر ابتداء من أول ذى الحجة... ويبلغون مكة فى خمسة وعشرين يوما، ويمكنون بها عشرة أيام، ثم يعودون إلى مصر فى خمسة وعشرين يوما.

وقد قام ناصر خسرو بأداء فريضة الحج فى موكب الوفد المصرى سنة ٤٣٩ هـ = ١٠٤٧م، ذلك الوفد الذى رافق الكسوة فى هذا العام، حيث يقول "...

وكان السلطان يرسل الكسوة^(١٤) للكعبة كالمعتاد، لأنه يرسلها مرتين كل سنة. فلما سافرت الكسوة مع وفد السلطان عن طريق القلزم (البحر الأحمر) سافرت معهم فخرجت من مصر أول ذى القعدة، وبلغت القلزم فى الثامن منه، ومن هناك أفلعت السفينة، فبلغنا بعد خمسة عشر يوما مدينة تسمى الجاد، فى الثانى والعشرين من ذى القعدة، وقمنا من هناك فبلغنا مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أربعة أيام.

ولما كانت بلاد الحجاز تخرج عن نطاق هدفنا وهو مصر، فلن أتعرض لأقوال ناصر خسرو حول جدة والمدينة ومكة... إلخ؛ بل سأعود معه سريعا إلى مصر؛ حيث يقول "... وبعد أن أكملت الحج، توجهت نحو مصر فقد كانت لى بها كتب... ولم يكن فى نيتى أن أعود إليها... وقد صحبت أمير مكة إلى مصر هذا العام...".

لقد كان ناصر خسرو فى مصر حسب ما يقرره هو سنة ٥٤٤١هـ = ١٠٤٩م، ورأى الكثير من الخيرات والعجائب، وعندما قرر العودة إلى خراسان كان ذلك عن طريق الصعيد الأعلى وبلاد العرب والعراق.

خلال رحلة العودة تحدث عن أسىوط ورأى فيها زراعة الأفنيون، وعمائم من الصوف المصرى الذى لا مثيل له فى العالم... ثم وصل إلى قوص ورأى فيها أبنية عظيمة من الحجارة تبعث على العجب، ثم وصل إلى أخميم، ووجدها مدينة واسعة عامرة رجالها أشداء، وعن طريق النيل وصل إلى أسوان... وعلى بعد أربعة فراسخ من هذه المدينة طريق ولاية النوبة، وهى ولاية أهلها جميعا نصارى.

وبعد أن أسهب فى وصف أسوان يقول: "ورحلت عن هذا البلد فى الخامس من ربيع الأول سنة اثنين وأربعين وأربعمائة = ٢٩ يوليو ١٠٥٠م. وكان الطريق

(١٤) يقصد بيا كسوة الكعبة الشريفة أوسنارة الكعبة، وكانت ترسل مع الصرة والمحمل المتجيزين إلى الأراضى الحجازية. ولكسوة الكعبة مراسم فى صنعها وحملها وإرفاقها بالمحمل وإلباسها للكعبة المشرفة. وسوف نرى هذا فى ثنايا الرحلة إلى القاهرة.

يتجه نحو الجنوب... وفي العشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة = أغسطس ١٠٥٠م بلغنا مدينة عذاب، وهي تقع على شاطئ البحر، وبها مسجد جمعة وسكانها خمسمائة، وهي تابعة لسلطان مصر، وفيها تُحصل المكوس على ما في السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن، ومنها تنتقل البضائع بالإبل إلى أسوان في هذه الصحراء التي اجتزناها، ومن هناك تنتقل بالسفن إلى مصر في النيل^(١٥).

هذا باختصار شديد أهم ما أردتُ أن أعرضه من هذه الرحلة التي تمت قبل رحلة أوليا جلبي بفترة زمنية ليست قصيرة؛ حيث بدأت عام ٤٣٩ هـ = ١٠٣٩م وانتهت ٤٤٢ هـ = ١٠٥٠م، بينما كانت رحلة أوليا قد بدأت بعد أن أدى فريضة الحج في موسم ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠م. وذلك بهدف إتاحة الفرصة أمام القارئ ليكتشف الفروق التي حدثت في مصر خلال الفترات التي تقع بين هذه الرحلات.

(١٥) انظر الرحلة بالتفصيل في:

- ١- سفرنامه، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٠م.
- ٢- سفرنامه، رحلة خسرو القبادياني، تأليف أبي معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي، ترجمة وتقديم الدكتور أحمد الببلي. الرياض ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م.

رحلة عالي مصطفى باشا الغليبولي^(١٦)

من خلال كتابه "حالات القاهرة من العادات الظاهرة"

زار عالي مصطفى باشا الغليبولي مصر لأول مرة عام ١٨٧٦هـ = ١٨٦٨م عندما كان يعمل في خدمة لالا مصطفى باشا اليوسوي^(١٧)، وجاء إلى مصر

(١٦) عالي مصطفى باشا الغليبولي (٩٤٨ - ١٠٠٠ هـ = ١٥٤١ - ١٦٠٠ م). كان مؤرخاً، له كتب عدة مثل "موائد النفائس في قواعد المجالس" و"مناقب هزواران"، وله أشعار معتمدة. عمل، وهو مازال شاباً، في خدمة لالا مصطفى باشا اليوسوي بوصفه كاتب أسرار له. وعندما عين اليوسوي والياً على الشام (١٥٦٢ - ١٥٦٣ م) سافر معه. ولما عين اليوسوي أيضاً سرداراً على اليمن اصطحب عامله عالي مصطفى الغليبولي معه. وجاء إلى مصر، وعندما تمكن والي مصر سنان باشا الأرناؤوط من عزلها عاداً إلى إستانبول وكانت زيارته الأولى لمصر قصيرة، ولكنها تركت في نفسه أثراً طويلاً ظهر في أعماله التي كتبها فيما بعد.

وبعد سبعة وعشرين عاماً تمكن عالي من أن يزور مصر بعد أن عمل في العديد من الوظائف المالية، وعندما اعتلى السلطان محمد الثالث العرش عام ١٥٩٥ م خلال شهر يناير كان عالي يحاول أن يستكمل كتابة "كنه الأخبار" حول تاريخ العالم، فكتب قصيدة يثنى فيها السلطان الجديد بالجلوس على العرش، فكافأه السلطان بإعادة تعيينه "كاتباً" للإنكشارية لكن عالي لم يقبل هذا المنصب وطلب بدلاً منه دفتردارية مصر حتى يتمكن من إتمام كتابه مستفيداً من المصادر والمراجع الموجودة في القاهرة. ولكن طلبه لم يتحقق، ومنح دفتردارية "سيواس" في الأناضول وإمارة أماسيا. وكان عالي موجوداً هناك في محرم ١٠٠٤هـ = سبتمبر - أكتوبر ١٥٩٥م.

ولم يمض وقت حتى تحققت رغبته في التوجه إلى مصر. ولكن وجوده في القاهرة لم يدم طويلاً أيضاً، فعقب وصوله إلى مصر ركب سفينة واتجه من السويس إلى جدة. وكان خلال هذه الرحلة مشغولاً بإنهاء كتابه الأخير "موائد النفائس في قواعد المجالس" ويذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه طلب إمارة مصر من السلطان محمد الثالث عقب وصوله عالي إلى جدة، أضاف جديداً إلى كتابه مقدماً من إياه نسخة إلى الأغا غصنفر الذي كان حينذاك أغا دار السعادة في سراي السلطان في إستانبول. ويتضح أن عالي باشا كان في طريقه إلى الحجاز وأنه تولى إمارة جدة وأميناً للميناء فيها. انظر:

- Gelibolulu Mustafa Ali Halatül - KAHİRE MİNE'L - ADATİ'Z - ZAHİRE.

Sadeleşiren Orhan Şaik Gökyay . Kültür. ve turizim Bakanlığı yayınları :

587 . 1000 temel Eser Dizisi : 103 Birinci baskı Aralık 1984.

(١٧) لا لا مصطفى باشا اليوسوي: كان وزيراً ثانياً في عصر كل من سليم الأول وسليمان القانوني، وصاهر السلطان سليمان القانوني لجدارته. أبلى بلاءً حسناً في حرب المجر ومحاصرة رودس، وتولى إمارة مصر وولايته عقب وفاة خير بك عام ٩٢٨هـ. حارب المماليك الذين قاوموه وتمكن من إعادة الهدوء والسكينة إلى الديار المصرية. ظل والياً على مصر لمدة ثمانية أشهر ونصف أشهر، ثم عاد إلى دار السعادة. توفي عام ٩٣٥هـ عندما كان وزيراً ثانياً. (انظر: قاموس الإعلام ش ساسي).

معه عندما عيّن سرداراً على اليمن. وترك الخدمة بعد أن تمكن سنان باشا الأرنؤوط^(١٨) - عندما كان والياً على مصر - من إبعادهما، وكانت زيارته الثانية بعد مرور سبع وعشرين سنة من الأولى، وقد تولى خلال هذه المدة العديد من الوظائف المالية، ثم طلب - في قصيدة قدّمها إلى السلطان محمد الثالث^(١٩) عندما اعتلى العرش في ١٠٠٤هـ = يناير ١٥٩٥م - دفتردارية^(٢٠) مصر، حيث كانت القاهرة - حسب رأيه - تمثل أهمية كبرى في إتمام الكتاب الذي كان يؤلفه عن تاريخ العالم. ولم يُجب إلى طلبه إلا أنه بعد فترة وجيزة توجه نحو مصر، ولكن

(١٨) سنان باشا الأرنؤوط: من الصدور العظام الذين تولوا الصدارة في عصر كل من السلطان مراد الثالث ومحمد الثالث خمس مرات متفرقة. يُنسب إلى الأرنؤوط تولى العديد من المناصب ثم ولى ولاية مصر عام ٩٧٧هـ، وهو الذى ألحق الأراضى اليمنية بالدولة العثمانية، ولقب بعدها بلقب الغزى عام ٩٨٢هـ. عيّن لخمس مرات أيضاً سرداراً أعظم أى قائدًا عامًا للجيش العثمانية. توفي عام ١٠٠٤هـ عن عمر تجاوز التسعين عامًا، ودامت مدة صدارته سبع سنوات. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى حـ، والرحلة الحجازية، هامش ص١٩٦).

(١٩) السلطان محمد الثالث: بن السلطان مراد الثالث بن سليم خان الثانى، السلطان الثالث عشر من سلاطين آل عثمان، واشتهر بفتح قلعة أكرى. ولد فى قسبة "صارت" عام ٩٧٤هـ. تولى السلطنة عقب وفاة والده وقد بلغ السابعة والعشرين من العمر. توجه لمحاربة المجر ونجح فى تفريق الجهود الصليبية التى اتفقت ضده، كما عقد صلحاً مع إمبراطور ألمانيا عقب عصيان جلالى حسن باشا فى الأناضول، توفي سنة ١٠١٢هـ وخلفه على العرش ابنه أحمد الأول. أمر فى حياته بإغلاق كل الحانات ومعاقبة كل من يشرب الخمر، وكان يوقف الكثير من غنائم فتوحاته على الحرمين الشريفين. اشتهر بحبه الخير. (انظر قاموس الأعلام. ش. سامى مجد ٦، والرحلة الحجازية هامش ٢ ص١٣٥).

(٢٠) الدفتردارية: مصطلح مالى وإدارى كان مستخدماً فى الدولة العثمانية. والدفتردار هو منسك الدفتر، وكان يُطلق عليه فى المصطلح الإسلامى "المستوفى". كان منسك الدفتر فى الدولة العثمانية يُعدّ من أركان الدولة المهيمنين. وقد حذد السلطان محمد الفاتح فى (قانون نامه آل عثمان) رتبة ومهام الدفتردار، وكان موكلًا بهم تسجيل وقيد دخول ومصرفات شتى الإدارات، وحدد للفاتح ألقابهم. وكان هناك "دفتردار خاصى" و"دفتردار أمينى" أمين الدفتردار. والدفترخانه المكان الذى تحفظ فيه نفتر الحسابات، و"دفتردار خاقانى" وهو المسئول عن حسابات السلطان. وهناك دفترخاقان أمينى، ودفترخاقان ناظرى. ثم دفترخاقان نظارتى: أى وزارة دفتري = السلطان كان كَتَدَا الدفتر من الموظفين المهيمنين فى الدولة العثمانية. (انظر: محمد ذكى بكالين؛ عثمانلى تاريخ ديملى وتريملرى سوزلى، جلد ١).

هذه الزيارة أيضا لم تستمر طويلاً؛ حيث ركب سفينة صغيرة واتجه نحو جدة. وكان خلال هذه المدة مشغولاً بتأليف كتابه "موائد النفائس في قواعد المجالس". وقد تولى إمارة ميناء جدة. أما على الأرجح توفي عالى مصطفى الغلبولى سنة ١٦٠٠هـ = ١٦٠٠م.

والكتاب "حالات القاهرة من العادات الظاهرة"^(٢١) عبارة عن مقدمة وفصلين وتذييل. يذكر في المقدمة أنه كتب كتابه هذا بناءً على طلب الأصدقاء الذين رغبوا في أن يكتب ذكرياته عن مصر. وينتهي كلامه بمدح غضنفر آغا حاميه والذي كان يشغل منصب آغا دار السعادة في السراى السلطاني في إستانبول.

القسم الأول من الكتاب في مدح الجوانب الإيجابية والحسنة التي رآها في مصر، أما القسم الثاني فقد أفرد فيه الحديث عما كان لا يعجبه في مصر من مساوئ وعادات سيئة، وخلال هذا أفرد الحديث عن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ذكرت في حق مصر. ويفسح المجال لرسالتين كتبهما الشاعر التركي دفترزاده مولاً جمالى^(٢٢) عام ٩٧١هـ = ١٥٦٣ - ١٥٦٤م وأرسلهما إلى تركيا. وكان جمالى يقدح مصر في هاتين الرسالتين.

(٢١) وُجِدَتْ في مكتبات إستانبول ثلاث نسخ من مخطوط "حالات القاهرة من العادات الظاهرة"، الأولى في مكتبة الفاتح تحت رقم ٥٤٢٧، ولهذه النسخة كاتبان. ووفقاً لما ذهب إليه النساخ الثاني فإنها كُتِبَتْ خلال شهر شعبان عام ١٠٣٤هـ = مايو / يونيو ١٦٢٥م، وليس بها اسم الناسخ. الثانية مخطوط في مكتبة سليم آغا في إسكدار، في إستانبول رقم ٥٧٧. وليست بها اسم المكتبة، في نهايتها تأريخ ١٠٤٠هـ = ١٦٣١م. والثالثة مخطوط فيما بين كتب أسعد أفندى Esat efandi في مكتبة السليمانية في إستانبول رقم ٢٤٩٧. هناك نسخة رابعة في كتالوج المكتبانه الخيدوية بالقاهرة. ولكن يبدو أن هذه النسخة قد فقدت، وقد ترجمها إلى الإنجليزية البروفسور أندياس تتيز في فينا عام ١٩٧٥. (انظر: أورخان شائق كوكياى، المرجع السابق).

(٢٢) دفترزاده مولاً جمالى: من الشعراء العثمانيين الذين تخلصوا بهذا المخلص "جمالى"، وقد اشتهر بلقب دفتردار زاده. كان صاحب قدرة على قول الشعر المصنوع. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامى جلد ٣).

أما الخاتمة فقد ركز فيها الحديث عن أوضاع مصر باختصار بعد أن انتقلت إلى الإسلام والمسلمين. وأما التذييل فقد ركز فيه على الإدارة السيئة في مصر، وأن هذه الإدارة وسوء الاستغلال هما اللذان أديا إلى أن تفقد مصر بركتها وخيراتها.

وقد احتوى القسم الأول والثاني على مرنّيات على وملاحظات عن مصر، وما لفت نظره فيها؛ فأرضها مباركة خصبة معطاءة، يزرع فيها وينبت من الزرع ما هو غير موجود في تركيا، وأن سبب خصوبة أرض مصر أنها تروى بمياه النيل. ثم يتحدث على عن نهر النيل، وعن مواكب الاحتفالات التي تتم عند فيضان النيل وما يصاحب ذلك من عادات وتقاليده. ثم يتحدث عن أهرام الجيزة التي يسميها "جبال الأهرام".

ثم يركز الكاتب ملاحظاته ومشاهداته على مدينة القاهرة. ويتحدث عن إعجابه وتقديره وحيرته أمام ما شاهده في أسواق مصر من البضائع المختلفة والنظافة الباهرة والأمن المستتب. ولكنه لم يغفل الإشارة إلى قذارة الحوض الشافعي^(٢٣)، وعدم الرعاية في المشافي وإهمال المرضى. ويعود ويمتدح استعداد الخفراء ويقظتهم الدائمة. ورغم هذا فإن أعراب البدو يستطيعون الدخول إلى أعماق المدينة ويسطون على المدينة ويرتكبون الجرائم.

يُعطي على مصطفى باشا أهمية لرجال المدينة ونسائها؛ وهل هم منحدرون عن الأرستقراطية التركية (الملوكية) أم أنهم من المحليين الأصليين...! ولكنه يرى بعض الوجود السوداء، ويبراهم على درجة من السوء. وأمام نساء

(٢٣) الإمام الشافعي: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد في غزة بفلسطين وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ، وقبره معروف بها. كان ذكياً مفرطاً في الذكاء، أفقياً وهو ابن عشرين سنة. له تصانيف كثيرة من أشهرها "الأم" في الفقه سبعة مجلدات. (الأعلام ص ٢٦).

أما الحوض الشافعي: فهو الحوض الذي يمكن الوضوء من سيأهه. ويقام في قضاء الجامع لتجديد الوضوء أو غمس الرأس والأعضاء به، ويشترط أن تكون مياهه متجددة ونظيفة وطاهرة.

القاهرة يقف على مهبوراً؛ فين يتمتع بجاذبية، وحسبه ما سمع؛ فين من الناحية
الأنثوية رائعات، ويصرح أنه في هذا الجانب لا يتحدث عن تجربة بل بما سمعه.
ويلاحظ تفشى الأمراض بين المصريين وبخاصة مرض العيون. ولكن مما يلفت
نظره أن كلاً منهم في حاله؛ ولا يهتمون بمن دخل أو بمن خرج، ويكثرون السلام،
ويتمتعون بسرعة تكوين الصداقات.

ويركز على في حديثه على خصائص النسوة المصريات ومميزاتهم،
وأنهن لا يعددن الطعام في المنازل بل يتبعنه من الأسواق ويأكلن في الأسواق،
وأن النسوة لا يتصرفن تجاه أزواجهن بشكل أنثوى ومنزلى؛ فلهن ألبسة مختلفة
تختلف عن الأتراك والعرب واليهود. وإن دل مظهر الشعب - حين زيارته
الأخيرة - على فقره ولم ير ما كان يراه سابقاً من طنطنة وثياب فاخرة. أما
الأطفال والصبية فيسيرون عرايا ولا يلبسون إلا ما يستر عوراتهم فقط.

ثم يفسح على المجال للحديث عن الأعياد المختلفة لدى الشعب المصري،
ويحكي عن كل عيد واحتفال بشكل مُسهب. فقد تحدث عن الأفراح واحتفال
المصريين بفيضانات النيل، وخروج محمل الحج واستقبال العائدين من الحج.

وتحدث عن "ليلة المحتسب"^(٢٤)؛ أى ليلة رؤية هلال رمضان والاستعداد
لاستقبال شهر الصيام.

أما أهم السليبات التي لفتت نظره فهي زيارة السيدات للقبور وما يقمن به
من عادات سيئة وصراخ وعويل ساعة الدفن، والردائل التي ترتكب من قبل الجند
والعساكر، وما يحدث من المهنيين في المقاهى والحمامات.

(٢٤) ليلة المحتسب : ليلة رؤية شهر رمضان، وكانت تُقام فيها احتفالات عظيمة يُشارك فيها كل
أرباب المهن، وتحدث عنها أولياجلبي بإسهاب في حينه. (انظر : ليلة المحتسب في رحلة
أولياجلبي إلى مصر القاهرة أم الدنيا) .

كما يسبب عالى فى الحديث عن القواد والأمراء والقضاة الذين يحكمون مصر، ويخصص للحديث عن هذا الجزء الثانى من الكتاب. ويُرجع الفقر والفاقة والمساوى إلى سوء الإدارة. وأن أحوال مصر كانت ممتازة عندما كان يحكمها حكام وولاة جيّدون وخيّرون وقضاة عدول؛ فقد كانوا جميعاً أصحاب نظام وانتظام وعدل، وكان بعضهم يتّصف بالمروءة والسخاء. وقد أوقفوا أنفسهم على خدمة الشعب، يتصفون بالصدق والاستقامة، وأنه رأى ولاة فى مصر زاد دخلهم السنوى عن خمسمائة ألف فلورى^(٢٥) أو ستمائة. ولكن كان فيمن بينهم أيضاً الخائن أحمد باشا الذى كان يقف خلف الاستقلال....!

ومنهم كرد باشا النهم والمصرف، ولكن عند وفاة الخادم على باشا لم يجدوا خلفه سوى أربع وستين قطعة ذهبية فقط.

يشمل التذييل على خلاصة ما لفت نظر عالى مصطفى باشا فى مصر خلال زيارته الأولى، وقد لفت نظره ثلاث خصائص، بركة مصر وخيراتها ونظام الجند وانتظامهم وجمال الأخلاق. وكانت العلاقة التى تربط بين الأتراك الذين يعيشون فى مصر والمحليين جيدة. ولكن خلال الزيارة الثانية التى جاءت بعدما يقرب من ثلاثين سنة رأى أن كل شيء قد تغيّر؛ ضاع الخير والجمال الذى كان سائداً، وفقدت مصر جمالها، وحلت محلها مصر التى تتألم النفس من أجلها. وعندما يحاول تحليل ذلك يجد أن السبب فى هذا الخلل راجع إلى الذين يتولون الخدمة فى مصر وعدم نضجهم الإدارى. وتعيين الذين يتولون الخدمة من الخارج وليسوا من المحليين.

(٢٥) فلورى Flurin . Flori . filori: عملة أوروبية سادت لفترات طويلة فى الدولة العثمانية، كانت تُقيّم بالذهب. ضربت أول الأمر فى فلورنسا فى القرن الحادى عشر الميلادى، ولقيت رواجاً كبيراً فى كل أنحاء الدولة العثمانية إلى جانب الدول الأوروبية. كانت عبارة عن درهم واحد قيمته أربعون أفج (بيضة) ووزنها قيراط واحد. استخدمت فى الدولة العثمانية منذ عهد محمد الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦ هـ = ١٤٥١ - ١٤٨١ م) وكان قيمة الدرهم منها ٤٧ قرشاً و ٣٠ بارة، عرفته البلاد العربية وبخاصة فى موسم الحج. (انظر عثمانلى تاريخى، وأد الصفصافى القطورى: تأصيل مسميات السكة، والرحلة الحجازية ص ٣٥ هامش ٤).

أما النقطة الثانية التي نفتت نظره في اختيار الولاة والإداريين من بين هؤلاء الذين لا أولاد ولا ذرية لهم حتى تعاد ثرواتهم بعد الموت أو العزل إلى الدولة... ويتساءل عالى وهل كان هذا يحدث في زمن السلاطين العظام...؟

كما يذكر عالى أن كثيرا ممن تولوا إدارة مصر كانوا من الجيلاء الذين لا علم لهم، وأن البعض منهم كان من المختلسين الذين لم يكن يحرص أى واحد منهم على تسجيل الدخل بالكيفية الصحيحة والصادقة. أمثال سرخوش حسن باشا . ويوضح عالى أن ما صوره القاضى زكريا زادة يحيى^(٢٦) يمكن أن يضيف إلى ما ذكره الكثير من المعلومات.

كما يُذكر عالى مصطفى باشا بثقل الضرائب التي كانت تُفرض على الشعب؛ فهناك ضرائب الدولة، ونقود قهوة والى، و"طلبة" والكشاف^(٢٧) بوصفهم إداريين محليين، عدا طلباتهم المجحفة التي كانوا يطلبونها لتغطية إسرافهم. وقد أدى هذا إلى أن ترك الناس أراضيهم وتركوا زراعتهم، واستولى بعض المرابين على أراضي البعض الآخر. ومحاولات جمع ضرائب الدولة عن سنوات قادمة

(٢٦) يحيى أفندى بن القاضى زكريا، تولى مشيخة الإسلام ثلاث مرات منذ عهد السلطان عثمان الثانى حتى عهد مراد الرابع، وكان من شعراء القرن الحادى عشر. توفى والده وهو فى مشيخة الإسلام عام ١٠٠٠ للهجرة. وهو نجل زكريا أفندى الأنقروى، ولد فى دار السعادة. تلقى علوم عصره، ثم سلك طريق القضاء. صار مفتيا لحلب والشام وأدرنة وقاضيا على إستانبول عام ١٠١٢هـ، ثم أصبح قاضى عسكر الروملى والأناضول. عُيِّن فى منصب الفتوى وظل بها سنة وخمسة أشهر. عزل فى عهد مراد الرابع لخلاف بينه وبين الصدر الأعظم كمانكش على باشا. عاد إلى مقام الفتوى عام ١٠٣٤هـ وظل به هذه المرة حتى استشهاده أخى زادة حسين أفندى. عُيِّن مفتى الأناط وظل فى هذا المنصب عشر سنوات، وبعد أن أصبح موجودا مع السلطان حين ضم روان وبغداد توفى عام ١٠٥٣هـ وتم دفنه مع والده. له أشعار رائعة، وقد بنى مدرسة أمام منزله. (انظر: قاموس الأعلام، ش سامى، مجلد ٦ ص ٤٧٩٢).

(٢٧) الكشاف والكشوفية (مصطلح مالى) الكشوفية نوع من النقود التي كانت تذهب من مصر إلى الدولة العثمانية، وترد فى الوثائق تحت اسم "مالى كشوفية". وبعد التنظيمات الخيرية ١٨٣٩م كان يُطلق عليها أموال الكاشف. وهو الموظف الذى كان يُعين على بعض من نواحى مصر. ويدفع مبلغا من المال مقدّر الحصول على تلك الوظيفة. والمبلغ الذى كانت ترفع كانت تدخل ضمن خزينة "خرج السلطان". (انظر: إسكندر بن ٢ ص ٢٥١).

مقدمًا... ويختم على كلامه في هذا الجزء بأن هذا السياق والمسار إذا ما استمر فلسوف يؤدي في القريب العاجل إلى انهيار الدولة وتفرقها، بل ستصبح مصر غير عاجزة عن دفع ضرائبها فقط، بل غير قادرة على إطعام جندها، وتعجز عن الدفاع ضد الأعداء الذين يتربصون بها.

وسوف نوجز الحديث عن الأوضاع التاريخية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية في مصر، من خلال هذه المخطوطة التي نعدّها رحلة مهمة.

الناحية التاريخية والإدارية:

لقد أوجز على باشا في مخطوطه عن تاريخ مصر أثناء العصر الإسلامي، وإن كان الجزء الأكثر أهمية هو ذلك الذي يحوي ٢٧ واليا قد حكموا مصر خلال مدة ٨٢ سنة من فتح العثمانيين للمدينة.

وكان لديه العديد من الانتقادات لتلك الحكومة، ويرى على أن الولاة في مصر كانوا خاضعين للحكام العثمانيين، وإن كانت هناك استثناءات قليلة لبعض الذين تجرّى في عروقيهم الطبيعة الفرعونية التي أرجعها لشربهم من ماء النيل.

كما أوضح شغل الشعب المصري واجتهاده بالمكائد والوشايات المضادة للحكام وكبار الموظفين، وتفرسهم إزاء ما يُصيبهم من مصائب أو حين عزلهم.

وقد تبين على باشا نظام الإدارة والوظائف المتعددة الموجودة في تلك الفترة وبعض الطبقات المسيطرة منهم، ولاحظ سيطرة (الغلمان) على الولاية وحماية الحكام لهم، وكيف أن الأحوال تتدهور في مصر بسببهم... هذا غير أن هذه الطبقة قد كثرت في المدينة وارتقى الكثيرون منهم مراكز راقية ومربحة، وكانت تدفع لهم أجور مرتفعة جدًا.

أما عن الحكام فقد اشتهر الكثير منهم بإدارتهم الجيدة واهتمامهم بالعدل، وهناك أيضًا من لحقت بهم صفات مشينة. كذلك أورد على انهيار دور الدولة

العثمانية في مصر، وخصص العديد من الفقرات التي تحدث فيها عن الجنود والتشكيلات العسكرية المختلفة.

الناحية الاقتصادية:

إن عالي قد لاحظ في زيارته الأولى ازدهار المدينة ووفرة المواد الغذائية، ولكن بعد وقت قصير أصبحت طبقات الشعب تُعاني أمور المعيشة وقلة الرزق... واستغرب المؤلف ذلك، وقد استشهد في عدة مواضع بالأحاديث والآيات من القرآن الكريم التي تبين أن مصر هي إحدى كنوز الله في الكون، وأنها مصدر النعم، وحرص على إظهار هذه النعم. وتحدث عن خصوبة أرض مصر وكثرة محاصيلها، وخاصة المحاصيل التي لا تنمو في تركيا وغير معروفة بها...

ولاحظ المؤلف كثرة الأعياد، وسأل كثيرا كيف أن كثرة الأعياد لا تؤثر في اقتصاد البلد... وتعرض أيضا في نقاط عدة لحياة الفقراء وكيف يعيشون في زهد وتقشف. إلا أننا نلاحظ رغم وجود هذه الطبقة الفقيرة فإن هناك طبقة التجار الأغنياء القادرين على امتلاك الجاريات الحبشيات.

وكما بين أن هناك بعض الرجال الذين اغتوا عن طريق الفساد وجمع الضرائب الزراعية، وكيف أن النقابة الخاصة بالإيراد الزراعي "الكشاف" هي وسيلة للتسلق الاجتماعي لبعض الجنود، والنكبة النكباء لدفع الضرائب... فقد كثرت أنواع الضرائب، وهناك الجزية الملكية، هذا بخلاف جمع "الكشاف" لمبالغ من إيرادات السنة التالية مقدما، وإجبار الفلاحين على بيع ألاتهم الزراعية... هذا بخلاف السرقات التي تحدث.

وقد أرجع عالي المصائب الاقتصادية وعدم الأمن للإهمال وعدم أهلية الحكومة... فالسلطات لا تكبح جماح زيادة أسعار المواد الغذائية، ولا تسيطر على حالات الفوضى التي تحدث في الأسواق العدة... وبين لنا المؤلف الطرق الملتوية

للسماسة، وكذلك طريقة المعاملة فيما يختص بالسُّكر والملح، وطريقة التعبئة في المحلات وكون السكر غالبا ونادرا في ذلك الوقت.

الناحية الاجتماعية:

ركز على فييا على العادات والتقاليد الخاصة بالشعب المصري والأعراف المتبعة في مناسباتهم. وقد قسم مشاهداته في هذا الموضوع إلى ملاحظات إيجابية وملاحظات سلبية تستحق اللوم والتوبيخ. فذكر عدة من العادات والتقاليد المصاحبة لمناسبات مثل: موسم فيضان النيل، وكسوة الكعبة، وزيارة المقابر، ورحيل قوافل الحجاج وعودتهم، واحتفالات الزواج، وكذلك الاحتفال بالعيدين... ورغم إعجابه ببعض التقاليد في الأعياد فإنه انتقد بشدة كثرتها وتنوعها. وقد أعجب بمستشفى قلاون المحصنة ضد الحريق، وإن كان قد ضجر بالحالة السيئة للمستشفى العقلى وقذارة الترع...

ولاحظ كثرة المقاهى في مصر، وذكر طبيعة الناس الذين يجلسون فيها وتفاصيل عدة أخرى، وقارننا بمقاهى تركيا... وخصص عدة من الفقرات عن الجنود وملابسهم... أما النساء فقد أكثر الحديث عنهن، ونلاحظ أن نظرة الاستعلاء واضحة في وصفه لهن، وإن جاء عن طريق المقارنة بين المصريات والتركيات في طبيعتين وشكلهن وأزيائهن...

وكذلك تحدث عن مظاهر الرجال وملابسهم في مناسبات عدة، كما لاحظ تعدد بعض الأمراض المتفشية بين الناس؛ مثل أمراض العيون وغيرها.

وقد يُقيد هذا الإيجاز عند الانتقال إلى رحلة أوليا جلى؛ حيث كان الفاصل الزمني بين الرحلتين ما يقرب من مائة عام... فكيف كانت الأحوال التى رآها أوليا بعد هذه المدة ؟

أوليا جلبي، حياته والمناصب التي تولاها

أوليا جلبي: أوليا تشلبي = شلبي

من هو هذا الأوليا؟ أين ظهر وترعرع؟ ما كنيته وما شيرته...؟ ما الظروف والدوافع التي وقفت خلف رحلته هذه...؟ ما قيمة هذه الرحلة تاريخيًا وجغرافيًا...؟ وما مكانتها بين الرحلات الإسلامية...؟ تساؤلات كثيرة تتتابع إلى ذهن بمجرد سماع اسم هذا الرحالة التركي المسلم.

لقد أجمعت الآراء على أن ميلاد أوليا جلبي^(٢٨) كان في العاشر من محرم سنة ١٠٢٠ هـ الموافق ٢٥ من مارس سنة ١٦١١م في أوفقاني بمدينة إستانبول، وأطلق عليه والده اسم "أوليا جلبي" تيمناً باسم صديق حميم له، صار فيما بعد أستاذًا لأوليا.

(٢٨) أوليا جلبي Evliya çelebi: وينطق اسمه أوليا تخفيفاً لأوليا ولي. وأوليا. جلبي çelebi أو تشلبي أو باللهجة المصرية شلبي.

أصل المعنى جلب أي الله باللغات التركية والمغولية القديمة، ودخلت عليها (ي) باء النسبة العربية فأصبحت جلبي أي المتوكل والمعتمد على الله فيكون المعنى للاسم الولي الرباني أو الولي المعتمد على الله. واختلقت الآراء حول مولده؛ فينك من يجعله في الخامس والعشرين من فبراير بدلاً من مارس وإن كانت معظم الآراء متفقة على أنه ولد في العاشر من محرم عام ١٠٢٠ هـ = الموافق ٢٥ مارس من عام ١٦١١م في حي أوفقاني بمدينة إستانبول.. إن والده هو الذي اختار له الاسم، فلربما يكون قد أراد أنه أن يكون صوفيًا، يملك طريق الصوفية المودى إلى الله. (انظر: لتترجم، ترجمة الترجمة لأوليا جلبي. دار الأفاق العربية ١٩٩٩م).

أما أبوه فهو درويش محمد ظلي^(٢٩) وجده دميرجي أوغلي قره أحمد ويوصل نسبه إلى الصوفي الشهير أحمد يسوي^(٣٠)، أما أمه فهي الأخرى ذات نسب وحسب، تصل في قرابتها إلى الصدر الأعظم ملك أحمد باشا^(٣١). أما الجد الرابع لأوليا

(٢٩) درويش محمد ظلي: هناك آراء كثيرة بهذا الصدد؛ فهناك من يجعله محمد ظلي بن درويش، ومن يجعله درويش محمد ظلي، ومن يجعله درويش محمد آغا ظلي. والد أولياجلبي، وقد عاصر هذا الوالد تسعة من السلاطين العثمانيين اعتباراً من السلطان سليمان القانوني، وتوفي عن تسعة عشر ومائة عام. بدأ منادماً ومُصاحباً للسلطان القانوني، ولحسن صوته عمل مؤدباً أساسياً في جامع سليم الثاني في أدرنه؛ ولما كان فناناً فقد أصبح رئيساً لجوارحية السراي اعتباراً من عصر سليم الثاني هذا، ثم تدرج وتدرّب على العديد من الأعمال التي طوّرت ونمّقت الفنون لديه. كانت له محلاته التي تعمل في الجواهر، فخرجت من تحت يديه قطع فنية نادرة منها ساعة جميلة جعلها في خاتم السلطان محمد الثالث، وباب الحزَم المشغول خصيصاً لجامع السلطان أحمد. وأُرسل به إلى مكة خصيصاً لصنع المزراب الذهبي الذي صنعه بيديه لتصريف مياه الأمطار من فوق سطح الكعبة المشرفة؛ والدولاب الذي صنعه من قنطار من الفضة - قدم النبي - أثر النبي (صلى الله عليه وسلم) في مصر، واليواسات، والأبواب الفنية الرائعة التي صنعها بنفسه وهي لجامع "استركون" .. وخرجت من تحت يديه عدة من البُسُلات والآيات وأبيات من الشعر كتبها بالخط العربي الجميل لكي تزُدان بها الأسبلة والمحاريب والمنابر في عدة من المدن والأحياء التي طاف بها أوليا فيما بعد، وذكر أنها من إبداعات والده (انظر: جعفر أرقليج ص ٦).

(٣٠) أحمد يسوي: صوفي كبير، صاحب مذهب صوفي يحمل اسمه، وقد ظهر في التركستان في محيط صوفي، تتلمذ على يد العالم المشهور أرسلان بابا، ثم رحل إلى بخارى ليتلقى العلم على يد الشيخ يوسف الهمذاني. بعد أن أتم دراسته شكل طريقته الصوفية الخاصة به، ونالت رواجاً كبيراً في بلاد ما وراء النهر. توفي عن عمر ناهز السنتين سنة (٥٦٢ هـ = ١١٦٦ م)، وقد جمع آراءه الصوفية في كتابه "ديوان حكمت" = ديوان الحكمة. (انظر د. عمرو عبد الباقي، الرحالة التركي أولياجلبي، مجلة كلية اللغات والترجمة، العدد التاسع، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩ م، وتورك أدبياتده ايلك متصوفلر، فؤاد كوبرلي، إستانبول سنة ١٩١٨).

(٣١) ملك أحمد باشا: من الأشخاص البارزين في الدولة العثمانية. تقلب في مناصب كثيرة حتى صار صدراً أعظم في زمن السلطان محمد خان الرابع، فقد نال وظيفة سَلْحَدَار سنة ١٠٤٨ هـ ثم عين والياً على ديار بكر، فأُضرم. وبوصاية من قيا - ابنة السلطان مراد الرابع شغل ولاية حلب لمدة تتراوح ما بين خمسة أعوام وستة، ثم عين والياً على بغداد سنة ١٠٦٠ هـ وفي العام نفسه ولي الصدارة العظمى، ثم عزل بعد أن شغل هذا المنصب لمدة ثلاثة عشر شهراً. وعين بعد ذلك والياً على سلمرة. وكانت وفاته سنة ١٠٧٣ هـ (انظر قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ج ١ ص ٧٩٢ - ٧٩٣، وانظر مقال موزتمان المنشور بدائرة المعارف الإسلامية التي سبقت الإشارة إليها وانظر سياحاته ج ١ ص ٢٧٨) ويعد =

فيو "ميرعالم ياوز أرسنان"، وكان من كبار حراس محمد الفاتح، وله جامع بإسمه، بالحي الذي ما زال يحمل اسمه في مدينة إستانبول حتى الآن. حي "ياووزسنان". وكانت للعائلة بيوت كثيرة في هذا الحي، وقد ولد أوليا في أحدها. وقد احترق وأعيد البناء في حياة أوليا جليبي... وقد تغير هذا الحي الآن إلى "أتاتورك بولوارى". ومن الطريف حسب قول أوليا نفسه أنه كانت للعائلة محلات دباغة تبلغ ثلاثة عشر محلاً يعمل بها أكثر من مائة عامل. ولم يبق منها إلى الآن إلا الاسم فقط، وما زال في الحي شارع يسمى "صاغريجي-صوقاغي" أى شارع الدباغ.

حفظ أوليا القرآن؛ فلقب بـ "حافظ"، ولما كان ابن جواهرجي السراي، وتعلم في القسم الداخلى بالسراي فلقب بـ "جليبي" أى المذهب، والمتعلم، ومن هنا فإن الاسم الكامل له هو "الحافظ أوليا جليبي بن درويش محمد ظلى". وحسب العادات والأعراف التركية العثمانية القديمة كانت هناك مراسم واحتفالات تُقام لتسمية المولود؛ منها الأذان في الأذن اليمنى وفقاً للأعراف الإسلامية.

وقد قام بهذا - كما سبقت الإشارة - شيخ الإسلام صنع الله أفندى^(٣٢)، وهو الذى أطلق عليه لقب أوليا، ثم انضم إلى الحفل كيسوه دار محمد أفندى، وكان

=المستشرق موزمان من الباحثين القلائل الذين أبرزوا ملك أحمد باشا على أنه خال لأوليا جليبي، فقد اكتفت مصادر أخرى كثيرة بالقول إن أوليا يعد من أقارب ملك أحمد باشا الصدر الأعظم. وأوليا جليبي نفسه هو أحد هذه المصادر (انظر سياحتهما ج ١ ص ٢٤٥) وأحمد وفيق باشا (انظر مقدمة المجلد الأول من سياحتهما وقاموس الأعلام لشمس الدين ساسى مادة أوليا جليبي. وانظر كراتشكوفسكى، الأدب الجغرافى العربى المجلد الثانى ترجمة صلاح الدين هاشم ص ٦٤٨) ويقول الدكتور جاويد بابصون "والذى يمكن قوله فيما يتعلق بما بين أوليا وملك أحمد باشا من صلة قرابة هو أن أم أوليا جليبي ربما كانت أختاً للصدر الأعظم ملك أحمد باشا وربما كانت من أقاربه" أى أنه ليس هناك من الوثائق ما يعين الباحث على القطع بأنها كانت شقيقة هذا الصدر الأعظم (انظر ج بابصون، المصدر السابق، ص ٤٠١، و د. عمرو عبد الباقي، الرحالة التركى أوليا جليبي، مجلة كلية اللغات والترجمة ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م العدد التاسع ود. الصنصافى أحمد المرسى، المجلة نفسها، العدد العاشر).

(٣٢) شيخ الإسلام صنع الله أفندى: هو صنع الله أفندى بن الحاج مصطفى بن جعفر أفندى، ١٥٥٢ - ١٦٢١م وهو شيخ الإسلام الثالث والعشرون فى الدولة العثمانية.

شخصاً محترماً محبوباً من الجميع، فاحتضن الوليد، وأذن في أذنه... وهو الذى أطلق عليه اسم محمد، من هذا المنطلق يصبح "محمد أوليا جلى بن درويش محمد ظلى". وأياً كانت الأسماء والألقاب، فقد وصلنا الاسم الذى عرف به وهو "أوليا جلى"، ووالده هو درويش محمد ظلى.

للوالد تأثير كبير، وذكريات كثيرة، ومآثر حميدة؛ كانت تمنح أوليا الفرصة لكى يتحدث عن والده فى ثنايا كتاب الرحلات التى قام بها فيما بعد.

وكلمة "درويش" التى تسبق أو تلحق اسم "محمد ظلى" لابد أنه اكتسبها لمسلكه الدينى، أو الصوفى الذى لازمه؛ وذلك أنه كان من المداومين على حضور جلسات الذكر فى تكيّة الشيخ عزيز محمود خدائى^(٣٢) الذى كان من مشاهير مشايخ عصره. وكان الوالد دائماً ما يصطحب ولده، ويجعله يشارك فى المراسم والترااتيل والإنشاد الدينى، ويجالس كبار المرشدين والمريدين فى التكية. لقد وفدت بدايات العائلة من أواسط آسيا، وتوطنوا حتى زره، وكان فى كوتاهية^(٣٣).

(٣٢) عزيز محمود خدائى: من كبار مشايخ الطريقة الخلوتية، اشتهر بكثير من أشعاره التى تدعو إلى الزهد، والعبادة الخالصة لوجه الله. بعد أن أتم علومه سلك حلك القضاء، فانتسب فى بادئ الأمر إلى الطريقة المولوية، وأخذ العيد على شيخها، واستقر بطريقته فى إسكيدار، وعمل بالوعظ والإرشاد فى أواخر أيامه. توفى ١٠٣٨هـ. وضريحه من المزارات المفتوحة حتى العصر العثمانى. وكان يقع فى جنوب شرقى ولايات خدا وندكار وبروسه، وهى من المدن التى لعبت دوراً مهماً فى الحضارة الإسلامية على مر العصور، بها العديد من الآثار الإسلامية التى ترجع إلى العصور السابقة من السلاجقة والعثمانيين. وفى العصر الحديث هناك قضاء يحمل نفس الاسم. وتقع بالقرب من ولاية أنقرة. وأراضيها تنطلى حوالى ١٨٠٠٠ كم^٢ من مساحة تركيا المعاصرة، تتمتع بطقس جميل وحركة سياحية نشطة. (انظر: شمس الدين سامى؛ قاموس الاعلام ج ٥).

(٣٣) كوتاهية: تقع على بعد ١٢٠ كم من بروسه وفى الجنوب الشرقى منها. ترتفع عن سطح البحر ٩٣٠ متراً، منطقة جبلية، وهى مركز لواء. مدينة ثرية بالجوامع والمدارس والمكتبات العامة فى زمن الرخالة، وكانت بها مدارس خاصة لغير المسلمين أيضاً. ومن أشهر جوامعها (أولو جامع) الجامع العظيم الذى بناه يلديريم بايزيد، وبها آثار تعود للعصر السلجوقى والكرمانيين. مدينة واسعة على حافة وادى فسيح أراضيها خصبة، تزدان بالحدائق والبساتين والآثار المعمارية القديمة والحديثة والمعاصرة. (انظر: قاموس الاعلام، ش. سامى، مجلد ٥ ص ٣٩١٠).

ثم شيدت العائلة بيوتاً لها في كل من "برغامة"^(٣٥) و"بورصة"^(٣٦)، وامتلكوا مزرعة في صانديقل^(٣٧). وعند فتح إسطنبول، على الرغم من أن العائلة قد انتقلت إليها فإنها لم تقطع صلاتها بما هو خارج العاصمة، أما الأم، والتي لم يشأ أوليا ذكر اسمها - كعادة الشرقيين - فهي فتاة أباضية^(٣٨) وفدت هي الأخرى من قفقاسيا (بلاد القوقاز)، وأضحى خالة أو ابنة خالة ملك أحمد باشا الذي صار وزيراً، ثم صدرًا أعظم في الدولة العثمانية، وقد تزوجها "جواهرجي" القصر درويش محمد ظلي... ومن هنا كانت صلة أوليا چلبى بملك أحمد باشا وطيدة طوال حياته، وبسط أحمد باشا عليه عطفه وحمانيته، كما حظى برعاية زوجته أسمهان قايا سلطان ابنة السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠م)، ولذا كانوا ينسبون أوليا أحياناً إلى ملك أحمد باشا. كما كانت تربطه قرابة مع دفتردار زاده محمد

(٣٥) برغامة: إحدى المدن الصغيرة القريبة من بورصة، ومناخها معتدل، وزراعية.
(٣٦) بورصة أو بورسة أو يورسا: إحدى أشهر المدن التركية المعاصرة في غربى تركيا الآسيوية، فتحها أورخان بن عثمان واتخذها عاصمة للبلاد عام ١٣٢٦م. وكانت أول عاصمة للدولة العثمانية. ثم نلتها أدرنة ثم إسطنبول عام ١٤٥٣م، ولها مكانة مرموقة في الحضارة التركية العثمانية؛ حيث شيدت بها عدة من المساجد والجامع والمدارس والأضرحة العثمانية. وظلت إلى عهد بعيد من الفتح العثماني لمدينة إسطنبول المنفذ الأساسى للسلطين العثمانيين. تشتهر بمياهها المعدنية وجبالها الشامخة وبصناعة الحرير. (انظر للمترجم إسطنبول عبر التاريخ وروعة الحضارة، القاهرة ١٩٩٩، ص ٢٣).

(٣٧) صانديقل = صانديقل: مركز قضاء، سكانها جميعاً كانوا زالوا من المسلمين، تابعة لولاية خداوندكار. بها العديد من الآثار الإسلامية التي ترجع إلى العصور السابقة. ويقع في شمالها الغربى سنجق كوتاهية. وفي جنوبها الشرقى قونية. وتحيط بها الجبال المرتفعة. وقد كانت كبيرة كثيرة المراعى في العصر العثمانى، ينبع منها نهر مندريس الكبير. في جنوبها الغربى توجد بحيرة (أجى گول) وهي متعددة المحاصيل في العصر الحديث. تكثر بها المعادن الطبيعية وتربطها بدة من المدن الطرق الحديدية، والطرق البرية الجيدة. بها ميساء معدنية للاستشفاء (انظر شمس الدين سامى، قاموس الأعلام، ج ٤).

(٣٨) أباطة = أبازة: تقع في شمال قفقاسيا، وفي الشمال الغربى من بلاد الجركس؛ يمتاز مناخها بالاعتدال، وأرضها خصبة رغم أنها جبلية، ويعمل الأهالى فيها بالرعى، ومشهود لهم بالشجاعة. دخلت سيطرة الروس، لذلك اتفقوا مع الترك والتتار لمحاربتهم. (انظر. ش. سامى. الأعلام ص ٤٠٣).

پاشا ، وإيشير پاشا^(٢٩)؛ فقد كان الأخير يخاطبه دائما قائلاً "أوليا الحافظ" أو "الحافظ أوليا"، أما دفتر دار زاده فقد كان يصطحبه، ويجعله في معيته أينما ذهب.

إن أوليا، على الرغم من ولعه بالحديث عن أسرته، فإننا لا نجده يتحدث عن أمه إلا في مناسبتين اثنتين فقط، الأولى عندما رأى الحناء في قدميها، وأعجب بذلك، والأخرى عندما كان يراها وهي تُطرز بخيوط الذهب المكرميات والملاءات "الشراشف" وأغطية المخدات. وأنه ذكر أن من بين المحتويات التي تركتها جدته لأمه ما بين أربعين وخمسين ديناراً ذهبياً من سكة السلطان مراد الثالث، ويتحدث أحياناً عن زوجة أبيه... وربما يكون مراد ذلك إلى وفاة والدته وهو في سن صغيرة.

أما الأخوة فلم يذكر أوليا جلبى سوى أخ عُرف باسم محمود، وبضع أخوات، إحداهن تُسمى "إينال" وهي تكبره، وقد تزوجها "كل إيلياس پاشا الأقرع صولاق أوغلى" الذى أعدم فى سراى جنكل كوى، خلال الثورة التى قام بها فى عيد مراد الرابع... ويتضح من حكايات أوليا أنها لم تعيش طويلاً بعد إعدام زوجها الذى كان قد اختطفها من كوتاهية، وأن إحداهن كانت فى سراى قايا سلطان، ولم يذكر شيئاً عن الأخريات.

أما الأسرة من ناحية الأب ومن ناحية الأم فتتنمى إليها مجموعة من الشعراء؛ كالشاعر موللا فيراقى، وقول أوغلى محمد جلبى، وإبراهيم جلبى الكرمانلى الذى كان يقرض الشعر متخلصاً بـ "شريفى"، وعلمدار موللا محمد بن

(٢٩) دفتر دار زاده محمد پاشا ، وإيشير پاشا : كانا من موظفى السراى السلطاني ومن المقربين من والد أوليا جلبى درويش محمد ظلى عین محمد پاشا واليا على أرضروم، وقد خرج معه أوليا جلبى مصاحباً له فى الأناضول ، وقد مكث ذلك من زيارة مدنيها والكتابة عنها. وقد تولى إيشير پاشا الصدارة فى عيد محمد خان الرابع ١٠٦٤هـ لمدة شهرين فقط. صار والياً على الشام عام ١٠٥٦هـ، ثم ولى ولاية طرابزون وسيواس وعاد إلى ولاية حلب. تزوج من عاتشة سلطان وأصبح صييراً للسلطان، وتحت إصرار من الإنكشارية تم إعدامه. اتصف بالظلم والمراعاة وإن كان صوفى المشرب. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامى).

يعقوب. كما لا يمل أوليا الحديث عن عظماء العائلة، ومدافنها التي تحتوى على الكثيرين من المشاهير فى معظم مدافن كوتاهية، وبورصة، وشتى أحياء مدينة إستانبول^(٤٠).

طفولة أوليا وتعليمه:

مما سبق نلمح فى حياة الرحالة أوليا جلى الجور المترف الذى تربى فيه وعاش طفولته المبكرة. ولقد مكنته مناصب الأقارب، ووجود والده فى السراى، من تعليم راق ومتميز.

درس أوليا جلى فى المدرسة الابتدائية، وكان طالبا فى مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندى فى الحى نفسه الذى ولد فيه، وظل يتعلم لمدة سبع سنوات على يد المعلم أخفش أفندى. وكان يداوم على حفظ القرآن الكريم حتى أتقنه على يد معلمه وشيخه أوليا محمد أفندى، وحسب قوله هو فقد ظل فى كتاب سعدى زاده إحدى عشرة سنة للدراسة والتعليم.

كما درس التجويد، والقراءات، وصمم على التفرغ للعلم. بينما كان يتعلم على يد أبيه فن الخط، وفنونا أخرى كصقل الأحجار الكريمة والكتابة عليها^(٤١).

كانت لأوليا اهتمامات بالموسيقى والإنشاد ونراه فى سنة (١٠٤٥هـ- ١٦٢٥م) حافظاً، ومرتلاً فى جامع الأياصوفيا... واجتذب اهتمام السلطان مراد، والحاضرين فى احتفال ليلة القدر، وقدره وطلب أن يكون من مصاحبيه^(٤٢).

(٤٠) ص ٤٠١ . M. Cavid Baysun

(٤١) ص ٧ . Evliya Çelebi Hayati, Sanat, Eserleri.

(٤٢) أوليا جلى، سياحته سي؛ ج ١ ص ٢٤٤.

ويروى أوليا جلبي هذه الواقعة الميمة في حياته على النحو الآتي:

كانت ليلة القدر من شهر رمضان لعام ١٠٤٥ هـ = الموافق ١٦٤٦م، وكما يحدث في كل عام كان عدة آلاف من الحضور في جامع الأياصوفيا... وفي تلك الأثناء، وبينما كان أستاذي محمد أفندي يختم القرآن الكريم، وبسبب رغبته وإصرار والدي درويش محمد أغا وبعد صلاة التراويح في مقصورة المؤذنين الموجودة في المسجد، وفي ليلة القدر تلك، بدأت في ختم القرآن الكريم... وعند الانتهاء من سورة الأنعام خرج كل من قوزبكجي محمد أغا وسلحدار ملك أحمد أغا من المقصورة، وألبساني تاج يوسف المقصّب بالذهب، وسط هذه الجموع الغفيرة؛ وأمسكاني من يدي قائلين: "تفضل. إن صاحب السعادة السلطان يريدكم..." وأحضراني إلى مقصورة السلطان^(٤٣).

وأدرك السلطان مراد انفعال أوليا فسأله: "في كم ساعة تستطيع ختم القرآن؟"... فرد أوليا: "مولاي السلطان، لو شئت فإبني أختمه في سبع ساعات، ولكنني أختمه إن شاء الله في ثمان ساعات دون إفراط أو تفريط". فأحسن السلطان عليه بحفنة من الذهب قائلاً: "إن شاء الله تكون مصاحبى"^(٤٤).

وكان لابد أن يتعلم في الأندرون (= القسم الداخلي بالسراي)^(٤٥)، وهنا تابع تعلم اللغة العربية والفارسية، وفنون الخط العربي، إلى جانب ذلك كان مُعزّماً بقراءة التاريخ والابتهالات الدينية. ولهذا حفظ بعض المختارات من گلستان

(٤٣) Reşad Ekrem Koçu. S.10 – 77

(٤٤) Zuhuri Danişman: Evliya Çelebi Nasil Musahip Oldu? Tarih Mev. Sa: 24

aralık, 2 Cilt 1951, s: 1168 – 1168+

(٤٥) الأندرون: مصطلح عثماني كان يُطلق على مدارس السراي أو البلاط السلطاني، ويعنى الأجيّة التعليمية، أو المدارس والإدارات التي تمد الموظفين الذين سيعملون داخل القصر وفي البلاط الهامبوني، وبمد السلطان والقصر بكل ما يلزمه من العلماء والقواد والإداريين والحرفيين، وقد كانوا جميعاً يتخرجون في هذه المدارس، وقد كان طلاب هذه المدارس يجمعون في الحروب "النيوشيرمة" ويربون على تعاليم الإسلام وطاعة السلطان والعمل على خدمته، وكانوا من الشباب الأتراك والمسلمين النابهين، وقد كانت بحق مدارس نظامية داخلية محكمة التنظيم. (انظر: المصدر السابق، محمد زكى باقطين).

سعدى^(٤٦) ومثنوى جلال الدين الرومى^(٤٧)، وكان يستشيد ببعضها فى كتاباته، وخلال رحلاته التى دوتها فى سياحته.

دخل أوليا القصر، وسلموه إلى رئيس أغوات السراى، واختاروا له غرفة بالقرب من الجناح السلطانى، وألبسوه ملابس لائقة، وعلموه كيفية التحرك والتصرف فى حضرة السلطان... ورويدا رويدا بدأ فى حضور مجالس السلطان. وحسب رواية أوليا نفسه فقد كان يجيد الشئ الكثير من فنون القول والشعر العربى والفارسى والسريانى واليونانى، وفنون الغناء الشعبى التركى، والموسيقى والذكر والأدب، وكان يحفظ الكثير من الشعر من بحر الطويل، ومن القصائد وترجيح بند، وتركيب بند^(٤٨)، والمرئية، والعيدية...^(٤٩).

(٤٦) گلستان سعدى: سعدى؛ هو الشيخ مصلح الدين الشيرازى، من أعظم شعراء إيران وحكامها المتصوفة. ولد فى أواخر القرن السادس الهجرى وفى عصر ابن زكى بمدينة شيراز. ونسب لهذا الحاكم فاشتهر بسعدى، عاش ١٠٣ سنة، بعد سن الطفولة قضى ٣٠ عامًا فى التعليم، و ٣٠ عامًا فى العسكرية والسياحة، و ٣٠ فى الزهد والعبادة، كتب كتبه المشهور گلستان سعدى أى "حديقة سعدى" وهو فى سن ٦٧ من عمره، نالت كتبه "بوستان" و "گلستان" شهرة واسعة فى عالم الأدب، أثر فى كل من أتى بعده من شعراء الفرس والترك. وانتشرت أشعاره فى هذه المناطق الشاسعة. وكان يحفظها كل من يشتغل بالفكر والأدب. (انظر: شمس الدين سامى، قاموس الأعلام ج ٤).

(٤٧) مولانا جلال الدين الرومى: (١٢٠٧ - ١٢٧٣م) من أكبر شعراء التصوف فى العالم الإسلامى، عالم، وفيلسوف ومؤسس الطريقة المولوية. ولد فى منطقة بلخ بخراسان. كان والده سلطان العلماء بهاء الدين. ووالدته مؤمنة خاتون من عائلة الإمبراطورية الخارزمية، ترك بلخ متوجيا إلى مكة سنة ١٢١٢م ثم انتقل عن طريق الشام إلى الأناضول، وعندما وصل إلى قونية عاصمة الدولة السلجوقية كان على عرشها السلطان علاء الدين كيكاو، فاستقبله بحفاوة بالغة سنة ١٢٢٨م. وله كتب عدة فى التصوف ولكن أشهرها قاطبة هو كتاب المثنوى؛ وقد ترجم إلى العربية من قبل الصديق العزيز المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم الدسوقي يوسف شتا، وله "ديوان كبير" الديوان الكبير. و"مجالس سبعة" المجالس السبعة. وكلها تدور حول التصوف والعرفان وما يتعلق بهما من أدب ومراسم. وله مكتوبات، وهى رسائل فى الوعظ والإرشاد. (انظر: أ.د. الصفصافى أحمد المرسى، إستانبول عبق التاريخ وروعة الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٤٤ هامش).

(٤٨) ترجيح بند وتركيب بند: من فنون الشعر الفارسى والتركى، وقد حرص الشعراء الفرس والترك على أن ينلى كل منهم بدله فىهما.

(٤٩) Zuhuri Danişman.s 116 - 118

وَيُصَفُّ أَوَّلِيَا نَفْسِهِ وَهُوَ فِي مَرَحَلَةِ السَّرَاي، بِأَنَّهُ كَانَ فِي حَوَالِي الْعِشْرِينَ مِنْ عَمَرِهِ، وَكَانَ رَشِيدًا نَجِيبًا، عَلَى عِلْمٍ بِمَجَالِسِ الْأَدَبِ وَحُلُقَاتِ الذِّكْرِ وَالْعِلْمِ، وَأَنَّهُ وَهُوَ فِي حَضْرَةِ السُّلْطَانِ، كَانَ حُلُوَ اللِّسَانِ طَلِيقَةً... مُنَادِمًا خَفِيفَ الظِّلِّ. هَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا جَعَلَهُ يَنَالُ رِضَاءَ السُّلْطَانِ وَرِعَايَتَهُ، وَشَرَفَ صَحْبَتَهُ^(٥٠).

قَضَى أَوَّلِيَا فِي السَّرَايِ أَرْبَعَةَ أَعْوَامٍ، تَعَلَّمَ فِيهَا الْكَثِيرَ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفَنُونِ، وَتَعَرَّفَ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ رَجَالَاتِ عَصْرِهِ بَعْدَ أَنْ أَمَضَى سَبْعَ سَنَوَاتٍ أَوْ ثَمَانٍ فِي الْمَدْرَسَةِ^(٥١) Sipah، إِلَّا أَنَّ عِلَامَاتِ التَّبَرُّمِ وَالسَّأَمِ بَدَتْ عَلَيْهِ؛ فَطُلِبَ الْإِذْنُ مِنَ السُّلْطَانِ لِيَلْتَحِقَ بِقَوَاتِ السِّبَاهِيَّةِ^(٥٢) فَوَافَقَ لَهُ، وَخَدِمَ فِيهَا بِرَاتِبٍ قَدَرَهُ أَرْبَعُونَ أَقْجَه^(٥٣) قَبْلَ أَنْ يَخُوضَ السُّلْطَانُ مَرَادَ^(٥٤) حَرْبَ بَغْدَادِ، إِلَّا أَنَّ أَوَّلِيَا لَمْ يَسْتَمِرْ طَوِيلًا فِي السَّلَكِ الْعَسْكَرِيِّ، وَلَمْ يَشْغَلْ رُتَبًا عَالِيَةً فِي هَذَا الْمَجَالِ.

(٥٠) المرجع السابق، ص ١١٧٠.

(٥١) المدرسة: اصطلاح تعليمي كان يُطلق على "دار الفنون" أو "دار العلوم"، وأول من أنشأ مدرسة على هذا الطراز في العهد العثماني هو أورخان غازي، ثم نص محمد الفاتح في قانونه على امتيازات تقدم للقضاة والمدرسين. وكانت مدرسة إزنيك وبورصة وأدرنة من أهم المدارس التي أنشأها العثمانيون في عهودهم الأولى. وبعد أن فتح محمد الفاتح إستانبول أنشأ جامعته "مدرسته" الشهيرة في إستانبول، والتي سميت بمدرسة "صحن ثمان"، وكان للطلاب فيها أماكن للإقامة جنبًا إلى جنب المدرسين. وكانت تدرس فيها العلوم النقلية والعقلية معًا. وزاد عدد المدارس "الجامعات" في عهد القانوني وأنشئت "دار الشفا" أي كلية للطب، وإلى جانبها "دار الحديث" وكلاهما بجوار الجامعة المشهورة (السليمانية)، ولم تحدث الثانية في التعليم في الدولة العثمانية إلا تحت الضغوط الأوروبية بعد عهد التنظيمات، فأصبح هنالك ما يسمى بالتعليم المدرسي والتعليم الحديث. (انظر: M. Z. Pakalin, O.t. Deyimleri ve Terimleri Isb. 1971).

(٥٢) السباهية هو الاسم الذي أطلق على الفرسان الخيالة الذين كانوا يشتركون في الحروب العثمانية، مع حاملي السلاح الذين يُجبرون على تأمين الاحتياجات من الحيوانات في زمن الحرب، مقابل الأراضي التي يأخذون عشورها ورسومها، المسماة بـ "التيمار" في التشكيلات العسكرية العثمانية. وكانوا يقومون بأعمال الهجوم والحراسة في مواجهة العدو، وقد استحدث نظام السباهية منذ زمن السلطان أورخان. (انظر: پالکین، ص ٣، ص ٢٣٠).

(٥٣) أقجه Akçe كلمة تركية تدل على سكة فضية صغيرة، وكانت تعد من أكثر العملات العثمانية تداولاً. تغيرت قيمتها من فترة لأخرى تبعًا لتغير الظروف الاقتصادية للدولة العثمانية، وكانت الكيسة منها تحتوي على خمسمائة قرش. عُرِبَتْ بكلمة بيضة وأبيض... فكان يُقال خمسة أبيض... وقطعة بيضة.

(٥٤) السلطان مراد: المقصود هو السلطان مراد الرابع بن السلطان أحمد الأول، ووالدته هي "ماهبيكر سلطان". ولد في ١٦١٢/٦/٢٧م، وتربى في دائرة والده سلطان في سراي طوب

وقد شغف بالسياحة والرحلات وهو لم يزل شاباً، وذلك بعد أن وقع تحت تأثير ما كان يسمعه من قصص وروايات عن البلدان البعيدة عن والده، ومن رجالات الفكر والعسكرية الذين كانوا يجتمعون في منازلهم في كثير من المناسبات، ودفعه هذا الشغف أن يطوف - أولاً - بإستانبول، ويدرسها شبراً شبراً، ويتعرف على كل معالمها ومآثرها ويعيش ليلاتها ويتمتع بملاهيها وملاعبها.

وطبقاً للعنعنات التركية، يربط أوليا جليبي شغفه وبدأه للسياحة والرحلات برؤيا؛ فقد كانت هذه الرؤيا في ليلة عاشوراء سنة ١٠٤٠هـ (١٦٣٠م) وحسب روايته هو أنه في هذه الليلة المباركة رأى النبي صلى الله عليه وسلم، وتحت تأثير هذا الموقف يتلثم، وبدلاً من طلب الشفاعة يطلب السياحة؛ حيث قال "السياحة يا رسول الله" بدلاً من أن يقول "الشفاعة يا رسول الله"^(٥٥). وما إن رأى سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) منه ذلك حتى طمأنه بالشفاعة والسياحة معاً.

يذهب أوليا جليبي إلى مشايخه وأساتذته ويقص عليهم رؤياه. ويطلب منجم تفسير هذه الرؤيا. فذهب إلى الشيخ المولوى عبدالله دهنده في حى قاسم باشا فيطلب منه أن يفسر له هذه الرؤيا، فيوصيه الشيخ قائلاً "ابدأ بتحرير تاريخ إستانبولنا العزيزة" فيشمر عن ساعده، ويتحفا بالمجلد الأول من سياحته سنة ١٠٤٠هـ (١٦٣٠م) وفي سنة ١٠٥٠هـ (١٦٤٠م) ما بين أبريل ومايو يرحل إلى بورصة مع صديق له يسمى "أوقجي زاده أحمد"، وبعد عودته من هذه الرحلة التي لم يستأن والده فيها ينصحها والده أن يسجل ملاحظاته أولاً بأول في كتاب

قايى. ظهر في أشد فترات الدولة العثمانية اضطراباً، وتولى السلطنة وهو في سن صغيرة؛ فأعطى ذلك الفرصة لأمه ولقادة الإنكشارية أن تتدخل في أمور الحكم. نجح في القضاء على الكثير من ثورات الإنكشارية، وحقق بعض الانتصارات للدولة. فتح بغداد عام ١٦٣٩م بعد أن كان قد حاصرها عام ١٦٣٠م، وعقد بعض معاهدات الصلح مع حكام البلقان. كان مُحِبّاً للأدباء، وإن أعدم الشاعر نفعي سنة ١٦٣٧م. تولى السلطة في ١٠/٩/١٦٢٣م وتوفي ليلة ٨/٩/١٦٤١م. اهتم بالحرمين الشريفين وتأمين القوافل.

(٥٥) أوليا جليبي سياحته سى، ج١. المقدمة.

للرحلات^(٥٦) ويأذن له بالترحال، فيترجه نحو "إزميت"^(٥٧) في ١٠٥١ هـ حزيران (يونية) سنة ١٦٤١م وبعد أن يمضى شهرين في إستانبول يتوجه إلى طرابزون^(٥٨) في صحبة كنتجي عمر باشا^(٥٩) الذي عُيِّن واليًا عليها، وكانت رحلته الثالثة هذه عن طريق البحر الأسود في ١٠٥٠ هـ = ٢٨ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٦٤٠م، ومنها توجه إلى أنابا^(٦٠) Anapa انضم إلى الجيش المتوجه للاستيلاء على قلعة أزاق^(٦١) Azak، ولما انتهت هذه الحملة بالفشل

(٥٦) رحلة أوليا جلبي : قام أوليا جلبي بمجموعة كبيرة من الرحلات بدأها بمعالم العاصمة آنذاك إستانبول، ثم انتقل إلى الضواحي ثم أخذ يرافق الجيش العثماني في سفرياته وغزواته بوصفه كاتبًا في الجيش . وقد مكنته هذه الوظيفة من زيارة عدد كبير من دول آسيا وأوروبا . واختتم رحلته هذه بمرافقة قافلة الحج لشامية عام ١٠٨٠ هـ وبعد أن أدى فريضة الحج توجه إلى مصر مع قافلة الحج المصرية.

جمع كل هذه الرحلات في عشرة مجلدات، كان المجلد التاسع والعاشر عن رحلته إلى الأراضي الحجازية عبورًا لبلاد الأناضول وسوريا حتى وصل إلى المدينة فمكة المكرمة ومنها إلى مصر أم الدنيا . وظل بها ما يقرب من ثمان سنوات، زار خلالها أيضًا كلاً من بلاد الفونج والسودان وبلاد الحبش ثم عاد إلى مصر لاستكمال وصف ما بها ، ولسوف نرى ما رآه أوليا جلبي بعد أن أدى فريضة الحج إلى أن عاد من بلاد الحبش.

(٥٧) إزميت: مدينة في تركيا على شاطئ بحر مرمرة، هي بقومينا القديمة. كانت مرفأً للأسطول العثماني على أيام وزراء عائلة كبرولو في القرن ١٧. تشتهر بالتبغ وصناعة الورق. (انظر المنجد)

(٥٨) طرابزون: مدينة تركية على البحر الأسود تشتهر بالمنتجات الغذائية والتبغ، أنشأها اليونان في القرن ٨ ق. م. ثم ضمها الرومان إلى إمبراطوريتهم في القرن الأول الميلادي. نقل إليها الكيسيس الأول قاعدة الدولة البيزنطية بعد تأسيس الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية. استمرت فيها من عام ١٢٠٤م إلى ١٤٦١م. وكانت طرابزون العاصمة ومن مدنها سنوب. خضعت مرارًا للسلاجقة، وكانت لها علاقات تجارية واسعة مع جنوة. أصبحت مركزًا للأدب والفنون، فتحها العثمانيون عام ١٤٦١م (انظر المنجد).

(٥٩) كنتجي عمر باشا: عُيِّن واليًا على طرابزون. وقد صحبه أولياجلبي حين توجه إليها. وكتب عنها وعن البحر الأسود والمدن الواقعة عليه خلال رحلته الثالثة.

(٦٠) أنابا: إحدى المدن التي زارها أولياجلبي حين رافق الجيش المتجه لمحاربة الروس واسترداد مدينة أزاق عام ١٦٤١م.

(٦١) أزاق = أزوف: تقع في الطرف الجنوبي من روسيا، تتبع شمال بحر زاق، تابعة لمدينة روستوف، كانت تابعة لبلاد القازاق. كانت ذات أهمية كبيرة في وقت ما. احتلها الجنويون في وقت ما. خضعت في القرن ١٤ الميلادي للقيجاق، كما تمت السيطرة عليها من قبل تيمور لنگ ٥٧٩٥ هـ. وتم فتحها من قبل محمد الثاني الملقب بالفاتح عام ٨٧٦ هـ. سيطر عليها پترو

توجه نحو (بهادرگيراي خان) ^(٦٢) بالقرم ^(٦٣) لقضاء الشتاء. وقد أمضى شتاء هذه السنة فسي (باغچه سراي) ^(٦٤) Bahçesaray. ثم عاد إلى إستانبول بعد أن شارك في استرداد قلعة الأزاق. ومكث أربع سنوات في إستانبول. وفي سنة ١٠٥٥هـ = ١٦٤٥م شارك في فتح "خانيا" ^(٦٥) Hanya مع يوسف باشا ^(٦٦) الذي كان يقود حملة غريت ^(٦٧) Girit ثم عاد إلى إستانبول. وفي العام التالي مباشرة خرج إلى

الأول لمدة ما ولكن تم استردادها. ولكنها تركت لروسيا وفقًا لاتفاقية بين الروس والعثمانيين في سنة ١١٨٨هـ. (انظر: قاموس الأعلام ش. سامي. مجلد ١ ص ١٧ / ١٧٦).

(٦٢) بهادرگيراي خان = بهادر گرای: من خانات بلاد القرم. هو نجل سلامت گرای. تم عزله في زمن السلطان مراد الرابع ١٠٤٦هـ بسبب حروبه ضد العثمانيين. اتفق مع غريمه وعاد إلى بلاد القرم. إلا أن عساكره تشتت. وعندما دخلت قلعة أزاق تحت إدارة القازاق في بداية تولى السلطان إبراهيم عام ١٠٥٢هـ بعث بأسطول كبير بقيادة سياوش باشا. فانتصر سياوش وتم عزل بهادرگرای. توفي في نفس السنة وتولى مكانه أخوه الأصغر محمد گرای. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامي. جلد ٢ ص ١٤١٣).

(٦٣) بلاد القرم: تقع جنوب روسيا. شبه جزيرة تقع فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاق، طولها حوالي ٣٠ كم واتساعها ٩ كم. مرتبطة بروسيا بشريط برى. أهلها من التاتار المسلمين. لغتهم تاتارية تنتمي إلى أسرة اللغات الألتائية. قريبة من التركية. خضعت للسلطة العثمانية منذ عام ٨٨٠هـ وكانت تعد من الممالك العثمانية الممتازة. استقلت خانية گرای بحكمها منذ عهد منغلي گرای... وكان آخر خن يتولى إدارتها هو نجيب گرای حيث استولت عليها روسيا خلال توسعاتها، واعترفت الدولة العثمانية بهذا الوضع منذ المعاهدة التي تمت مع روسيا عام ١٧٧٤م. هاجر عدد كبير من سكانها إلى الممالك العثمانية. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامي. جلد ٥ ص ٣٦، ٥٣)

(٦٤) باغچه سراي: واحدة من أكبر ولايات شبه جزيرة القرم، تقع على بعد ٣٠ كم من شمال سيواستبول. معظم سكانها من التاتار المسلمين. بها قلة من الأرمن والروس واليهود. كانت عاصمة خانية القريم القدماء ومازال سرايهم باقيًا حتى الآن. بها مؤسسات إسلامية كثيرة كالمدارس والجوامع والحمامات... إلخ. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامي. جلد ٢ ص ١٣٢٤)

(٦٥) خانيا = كانيا: ميناء في جزيرة كريت خضع للحكم العثماني.

(٦٦) يوسف باشا: كان قبطانًا بحريًا في زمن السلطان إبراهيم خان. وتولى قيادة الأسطول عام ١٠٥٤ - ١٠٥٥هـ وهو الذي توجه لفتح ميناء كانيا وجزيرة كريت عام ١٠٥٥هـ (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامي جلد ٦ ص ٤٨١٦)

(٦٧) حملة غريت: جزيرة يونانية في البحر المتوسط اشتهرت قديمًا بمدينةها التي انتشرت على سواحل المتوسط الشرقية، من مدنها كانيا، كاندى أو هيراكليون. دخلت تحت النفوذ العثماني عندما فتحها يوسف باشا عام ١٠٥٥هـ = ١٦٤٥م.

الأناضول بوصفه مؤذنا ومُصاحباً للدفتردار "زاده محمد پاشا" الذي عين أميراً للأمرء على أرضروم^(٦٨). وقد مكنته هذه الرحلة من التجوال والتطواف بكل مدن الأناضول وبقاعها، ثم عاد إلى أرضروم، والتحق بالحملة التي قادها الدفتردار زاده ضد أمير الشوشيك^(٦٩) Şuşik، فتمكن بذلك من مشاهدة بعض مناطق آذربيجان^(٧٠) مثل جورجستان^(٧١) Gurcistan، ثم كُلف أولياً جليبي ببعض المهام، وحمل بعض الرسائل إلى "خان روان"^(٧٢) Revan فتمكن من الطواف، ومشاهدة

(٦٨) أرضروم: Erzurum: مدينة في شرق تركيا. مركز صناعي وتجاري. كانت تسمى في العهد البيزنطي بـ "ثيودوسيوبوليس" فتحها حبيب بن مسلمة ٨٦٥٥هـ، واحتلتها السلاجقة في القرن ١١م وأطلقوا عليها اسم أرضروم أي أرض الروم. عقد فيها مصطفى كمال أول مؤتمر قومي عام ١٩١٩م خلال حرب الاستقلال.

(٦٩) الشوشيك = شوشة: مدينة مهمة مرتبطة بخانية قراباغ، تبعد حوالي ١٤٠ كم عن ولاية واليزاوتبول الروسية، تقع على ارتفاع ١١٠٠م على نهر "كور"، تتمتع بشوارع فسيحة واستحكامات متينة وبيوت جميلة، كان معظم سكانها من التاتار وأقلية من الأرمن. تشتهر بصناعة السجاد اليدوي والحريير الطبيعي. تبعت آذربيجان قبل الاحتلال الأرمني.

(٧٠) آذربيجان: كانت بلداً تشتهر بالبراكين الملتهبة دائماً، تقع على بحر قزوين. ذات تاريخ حضاري طويل، ظهرت فيها عدة من الدويلات والخانيات دخلها الإسلام، وظهرت فيها دول إسلامية كبيرة كالصفويين وقبلهم خانيات كبيرة. وقعت في محل النزاع بين الصفويين والعثمانيين من جهة وبين الإيرانيين والروس من جهة أخرى. ظهرت فيها أول دولة ديمقراطية في المنطقة. أنزلتها روسيا القيصرية ثم السوفيتية في دائرة نفوذها، استقلت عام ١٩٩١م. خضعت للحكم العثماني خلال رحلة أولياجلي.

(٧١) جورجستان = بلاد الكورج: منطقة شاسعة في بلاد القفقاس، تقع جنوب سلسلة هذه الجبال، وهي تقع بين جبلي قارص وأريوان على القسم الأعلى من نهر "كور" يوصلها الجغرافيون والغربيون إلى حدود البحر الأسود، بينما هي أقرب إلى بحر الخزر. في شمالها بلاد الجركس وشمالها للشرقي داغستان، وفي جنوبها الشرقي شيروان. أصل الجورجيين حول نهر "كور" توطنوا الحوض الأعلى لنهر كور، وقد اختلطوا بكل سكان وأهالي قفقاسيا. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي. جلد ٥ ص ٢٨٣٦).

(٧٢) خان روان Erivan: أكبر المقاطعات التي خضعت للروس فيما بين بلاد قفقاسيا. وهي مركز ولاية تحمل نفس الاسم، تقع على بعد ٢٣٠ كم من جنوب تفليس. تقع على نهر "زنكة" المنقرع من نهر أراس. بها جوامع شريفة وكنائس عامرة. وسوق واسعة وحدائق وبساتين، وربها مصنع للمدافع ومعسكرات جمّة. تشتهر بغزل القطن ونسجه. تقوم بدور مهم في التجارة بين الأناضول وروسيا. أغلب سكانها من الأرمن. تبعت الإدارة العثمانية عدة مرات. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي. جلد ٣ ص).

مناطق گموشخانه^(٧٣) Gumuşhane وطورطوم^(٧٤) Tortum. وبعد أن شارك في حملة جورجستان عاد إلى أرضروم وأمضى الشتاء بها، ثم عاد مع الدفتردار زاده محمد باشا إلى إستانبول، وقد كلفه محمد باشا بمهام كثيرة، ووساطات لجمع كلمة أمراء الأناضول للمشاركة في القضاء على عصيان (واردار على باشا) ^(٧٥) الذي كان يهدد كيان الدولة آنذاك. ويحكى هو نفسه أنه بسبب العواصف الثلجية التي هبت خلال إحدى هذه الرحلات ضل طريقه؛ فوجد نفسه وسط الجلايين أمثال حيدر أوغلي، وقاطرجي أوغلي وقد ساعدته هذه الصدف على التعرف عن قرب على ثورة الجلايين^(٧٦) والكتابة عنها هي وثورة (واردار على باشا) وقد أعطى معلومات قيمة جدًا عن هاتين الثورتين.

(٧٣) گموشخانه Gumuşhane: مكان مرتفع يقع بين طرابزون وكلكت، تشتهر بمناجم الفضة قديمًا، وبها مياه معدنية. على الرغم من أن هواءها بارد فإنها صحية لارتفاعها. أهلها مهرة في الزراعة رغم قلة أراضيها. وهم يعيشون الآن على قطع الحجارة والعمل في المناجم. فولكها شهيرة. وثروتها الحيوانية تمكنها من صناعة الجلود وتصديرها. بها عدة من المساجد والمدارس والجوامع والتكايا والكنائس القديمة. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي جلد ص ٣٨٩٠).

(٧٤) طورطوم = تورطوم Tortum: قضاء مرتبط بأرضروم، سميت باسم النهر الذي يجري فيها. تقع على الحدود مع روسيا، القسم الأعظم من سكانها من المسلمين، وأقلية من الأرمن. مناطقها مرتفعة إلا أن بها واديين خصيبين، تنتج الكثير من الفاكهة، وهي التي تمتد أرض الروم بمختلف الفواكه والخضر. غاباتها كثيفة، وتشتهر أيضًا بالأخشاب التي تمتد بها الولايات المجاورة وتنقل حتى ولاية وان في جنوب شرقي تركيا. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي، جلد ٣ ص ١٦٨٥).

(٧٥) واردار على باشا: كان من أمراء البحر في عصر السلطان محمد خان الرابع، كما كان كَتخدا والده سلطانا، عند عزل أتولي حسين عين قبطانا للبحرية وبعد أن ظل بهذا المقام سنة عين قائدًا لجيش بلغراد. وهو الذي فتح قلعة (واردات). توفي عن عمر ناهز الخامسة والسبعين، (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامي جلد ٤ ص ٣١٨٩).

(٧٦) جلاي: مصطلح إداري عثماني يطلق على المعاصي أو الخارج عن القانون أو من يعمل ضد السلطان، وقد كان هذا في البداية اسمًا لأحد العصاة الذين ظهروا بالقرب من طوقات، ورفع راية العصيان ضد السلطان سليم الأول (٩١٨ - ٩٢٧ هـ = ١٥١٢ - ١٥٢٠ م) وادعى المهديّة والتف حوله عدد كبير من قطاع الطرق وأتباع المصائب، وكان سبب قلاقل كبيرة = للدولة تم القضاء عليها. ولكن ظل اسمهم يطلق على كل العصاة الخارجين على الدولة (انظر: محمد زكي باقلاين، المصدر السابق).

يعود رحَّالنا إلى إستانبول (١٠٥٨ هـ ١٦٤٨م). ولكنه يتوجه مع أمير أمراء الشام مرتضى پاشا^(٧٧) إلى الشام في ١٠٦٠ هـ (١٨ سبتمبر ١٦٤٨م) ويظل بها حتى ١٠٥٨ هـ (١٤ تموز ١٦٥٠م)، وخلال هذه المدة التقى الشهابيان في لبنان، مما أتاح له رؤية الكثير من بلدان سوريا وفلسطين ومناطقهما. وبعد أن يطوف بالكثير من مدن وسط شرق الأناضول (الجمع الأموال لسيواس) يعود إلى إستانبول، وتسير الأمور لصالح أوليا جلبي، فيُعين خاله ملك أحمد پاشا صدراً أعظم، وبالتالي يصير أوليا جلبي أمين الجيش المتوجه لتأديب الجالين، ويعاصر سوء إدارة خاله ويرى عن قرب ما يدبر في القصر من خطط وخدع، ومكائد. ويصاحب بعضاً منها وهو في رفقة ملك أحمد پاشا، وبعضاً منها وهو وحده. وقد كان يقاوم رغبة خاله هذا في أن يدفع إلى السوق بنقود مزيفة للقضاء على الأزمة الاقتصادية، وكيف أن هذه السياسة قد أدت إلى عواقب وخيمة، وإلى ثورة الحرفيين.

ولما عزل الصدر الأعظم وعُين أميراً للأمراء على أوزي Ozi أتيحت الفرصة لأوليا جلبي ليقوم بأول رحلة له في بلاد الروميلي^(٧٨)، واستمرت هذه الرحلة من ١٠٦٢ هـ (٢٣ أغسطس سنة ١٦٥١م) إلى نهاية ١٦٠٤ هـ (حزيران ١٦٥٣م)، وكانت هذه الرحلة في بعض منها في رفقة ملك أحمد پاشا، وفي بعض منها وحده، وكان يقوم بحمل الرسائل المهمة بين روسجوق Rusçuk وإستانبول، وذهب إلى سلسترا، وطاف بقرى بلاد الأوز ومراكزها، وكتب عما رآه من غرائب وعجائب في قرى "بابا داغي" وزار صوفيا، ولما تم عزل الپاشا عاد معه إلى إستانبول، وقضى بها فترة أنسته فيها ملاهيها وملاعبها متاعب الرحلات الطوال التي قام بها.

(٧٧) مرتضى پاشا: عُيِّن أمير الأمراء على الشام في عام ١٠٦٠ هـ = ١٦٤٨ م وصاحبه الرحالة أولياجلبي في هذه الرحلة وظل بها حتى عام ١٦٥٠م والتقى الشهابيان في لبنان.

(٧٨) أوزي والروميلي = روم إيلي وروسجوق وسلسترا وصوفيا: كلها مدن تابعة لإقليم (الروم إيلي) أي بلاد الروم التي أصبحت تابعة للدولة العثمانية بعد عبورها إلى الجانب الأوروبي. ومعظمها الآن داخل بلاد بلغاريا الحالية.

عُيِّنَ ملك أحمد باشا واليًا على وان^(٧٩)، فتوجه في معيته قريبه أوليا جلبى. وظل الرحالة في جنوب الأناضول من ١٠٦٦ هـ (٩ مارس ١٦٥٥م) إلى ١٠٦٧ هـ (٢٤ حزيران سنة ١٦٥٦م)، وأتيحت له الفرص لزيارة كل مدن جنوب الأناضول وإيران.

وقد اختلط باليزيديين^(٨٠)، وجمع عنهم الكثير من الوثائق والمعلومات. ولما تم نقل ملك أحمد باشا واليًا للمرة الثانية على بلاد الأوزتوجه أوليا جلبى معه إلى سلسترا ودخل في خدمة محمد كيراي الرابع^(٨١) خان للقرم، وشاهد هزيمة القزاق^(٨٢) الذين هاجموا بلاد الأوز، وكان هو الذى حمل أنباء هذه الهزيمة إلى إستانبول. وبعد عودته إلى مقر الولاية كان يكلفه خاله بنقل الرسائل بينه وبين زوجته قايا سلطان Kaya Sultan.

(٧٩) وان: منطقة تقع في جنوب شرقي تركيا. وكانت من الولايات العثمانية الآسيوية، شمالها أرضروم وغربها بتليس. وفي الجنوب الغربي ديار بكر، وجنوبها كانت ولاية الموصل. أراضيها مرتفعة، بها بحيرة وان الشهيرة. وبها جبل الجودي الذى يزيد ارتفاعه عن أربعة آلاف متر. وهو الجبل الذى رست عليه سفينة سيدنا نوح، ويتبعها "حكارى" وما يزيد عن مائة ناحية وما يقرب من ألفى قرية. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامى، جلد ٦ ص ٤٦٧٢ - ٤٦٧٦).

(٨٠) اليزيديون: طائفة من المسلمين اسمًا ولكنهم يعبدون عن الإسلام، يعيشون في كردستان ولبنان وفلسطين. وعقيدتهم يشوبها الكثير من الأمور الدخيلة على الإسلام. يشركون الشيطان مع الله سبحانه وتعالى جل شأنه في خلق العالم، ويعتقدون أن طرد الشيطان قد زاد من قدرته. ويعبدون إبليس، ويزيد هو الذى أوجد لهم هذه الطريقة. قلة قليلة تعيش مشتتة، وتدل معتقداتهم على بعدهم عن العلم والدين. (انظر: قاموس الأعلام، ش. سامى، جلد ٦ ص ٤٧٩٨).

(٨١) محمد كيراي الرابع: واحد من خانات القرم الذين ينتسبون إلى سلالة جنكيزخان. مؤسس هذه الخانية هو ملك حاجى كراى خان، وقد توارثوا الحكم في بلاد القرم. ويُعدُّ محمد كراى الرابع الخان الرابع عشر فى بلاد القرم، وعاصمة بلادهم "قازان" وهى من العواصم الإسلامية المهمة فى شبه جزيرة القرم.

(٨٢) القزاق: سكان جمهورية قزاخستان أو القزاق، وهى فى جنوب الاتحاد السوفيتى السابق. تقع بين بحر قزوين وبحيرة أرال وتركستان الصينية، كانت عاصمتها ألماتى. استقلت عن الاتحاد السوفيتى السابق ونالت استقلالها فى التسعينيات من القرن العشرين. غنية بالمواد الخام كالفحم والحديد والنفط والرصاص، وتضم مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية.

سافر إلى البوسنة^(٨٣) مع ملك أحمد باشا الذى عين واليًا عليها ولكنه بقى فى إستانبول شهرًا للعلاج بعد أن جرحه واحد من رجال كوبرلى محمد باشا^(٨٤) ١٥٧٢ هـ (١٦٦١ - ١٥٧٥ م) وهو فى الأناضول؛ فطاف بكل سواحل الأناضول، ثم توجه إلى أدرنه^(٨٥) مرورًا بكوبرلى محمد باشا (١٥٧٢ هـ = ١٥٧٥ - ١٦٦١ م) فى "جناق قلعة"^(٨٦)، وبعدها انضم إلى الحملة التى قادها "كوسه على باشا" على "واراد"^(٨٧) Varad واعتبارًا من ١١٠٧١ هـ (٢٦ مايو سنة ١٦٦٠ م) طاف ببلاد الأرناؤوط، والأويغار (البلغار، وبوهيما المجر)^(٨٨)، وظل بها حتى ١١٠٧٣ هـ

(٨٣) البوسنة: البوسنة والهرسك أو البوشناق من جمهوريات يوغسلافيا السابقة، عاصمتها سراييفو، وسكانها من الصرب. ظلوا تحت الحكم العثماني حتى معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م، حيث انتقلوا إلى حكم النمسا ثم اتحدت مع دولة يوغسلافيا عام ١٩١٨م. شهدت أحداثًا عنيفة عقب سقوط الاتحاد السوفيتي القديم وتفتتت جمهورية يوغسلافيا. وما الأحداث التى شهدتها إلا شاهد على العنصرية السائدة فى تلك المناطق.

(٨٤) كوبرلى محمد باشا : مؤسس عائلة كوبرلى التى تولت الصدارة العظمى فى الدولة العثمانية لفترات طويلة، ولعبت دورًا بارزًا فى تاريخها. تقابعت فيه وفى ذريته الصدارة. وقد تولى على بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) سنة ١١٠٧٠ هـ = ١٦٦٠م.

(٨٥) أدرنه Andrinople: مدينة تركية أوروبية، كانت من مدن الإمبراطورية البيزنطية. فتحها العثمانيون ١٢٦١م واتخذوها عاصمة لدولتهم بعد بورصة وقبل فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م. بها آثار إسلامية غاية فى الروعة مثل جامع السلطان سليم والجوامع ذات الثلاث شرفات.

(٨٦) جناق قلعة = قلعة سلطانية: مضيق الدردنيل المتحكم فى مدخل بحر مرمرة إلى البحر الأبيض المتوسط. ويُطلق عليها "القلعة السلطانية" وهى على الساحل الأناضولى لهذا المضيق، وهى منجق مستقل. بها جوامع ومساجد شريفة، تتحكم فى المدخل إلى كل من البحر المتوسط وبحر مرمرة. منطقة غنية بالمعادن وبالأزراعات، ولعبت دورًا بطوليًا خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) وقد أقيمت الاستحكامات بها منذ عصر محمد الفاتح ثم قام كوبرلى محمد باشا عام ١١٠٧٠ هـ بإقامة استحكامات جديدة، مما جعلها تتحكم فى مدخل البحر المتوسط. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى. جلد ٥ ص ٣٦٨٥).

(٨٧) على باشا واراد: قاد الحملة المتجهة إلى وارادين الواقعة بين بلاد المجر والنمسا وكرواتيا. وهناك أيضًا وارادين الكبرى، تبعد عن المجر بحوالى ٣١٠ كم. تقع على نهر كوروس وبها عدة من المصانع، وقد خضعت للحكم العثماني ضمن بلاد الأرناؤوط.

(٨٨) بلاد الأرناؤوط وبلاد البلغار وبلاد المجر وبلاد بلغراد: هذه كلها مناطق تقع فى شبه جزيرة البلقان، وقد خضعت جميعها للنفوذ العثماني فى فترات مختلفة، وظلت خاضعة

=مارس ١٦٦٢م) وبعد أن أمضى الشتاء في بلجراد عاد إلى إستانبول ثم خرج منها إلى النمسا مع الجيش المتجه إليها تحت قيادة فاضل أحمد باشا (١٠٤٥ - ١٠٨٧ هـ = ١٦٣٥ - ١٦٧٦م)^(٨٩)، ويقص علينا أوليا جلبي الغرائب والعجائب التي شاهدها ولمسها بنفسه في بلاد النمسا وهولندا والسويد؛ حيث زارها بعد يوهيميا، وهذه الحكايات على الرغم مما فيها من مبالغات فإنها في غاية الأهمية لدراسة تاريخ تلك البلاد، وعاداتها، وتقاليدها، ومعالمها خلال هذه العصور، وتصل مبالغات الرحالة أوليا إلى أن يقص علينا أنه التقى في فينا بالإمبراطور ليوبولد الأول Leopold I ومونتوسوكي Montecucoli، وأنه زار بلاد الإسبان، والدنمارك، وأنه وصل حتى دونكاركية بجواز السفر الذي تسلمه من الإمبراطور، وعلى الرغم من أن هذا الكلام في حاجة إلى تحقيق إلا أنه يعطي الكثير من تاريخ تلك البلاد وعاداتها وتقاليدها، وعلى مدى سعة اطلاع الرحالة أوليا جلبي. وبعد أن عاد من هذه البلاد كلف بمهام التفتيش على قلاع المجر، ولذلك وافته الفرصة لكي يطوف بكل قراها وقصباتها، ويحكي لنا في كتابه "سياحته" أنه وصل إلى بلاد القرم، بعد أن تجول في أردل^(٩٠) Erdel، والبغدان، والأفلاق وينتقل من القرم إلى قفقاسيا عن طريق البر. ويسجل أنه انضم إلى قافلة أحد السفراء الروس من ترك Terek حتى الأفلاق، وعلم بها أن الجيش العثماني قد تحرك نحو كريت. فتوجه جلبي نحو (باغچه

للعثمانيين إلى أن ظهرت فكرة القوميات بتحرير من روسيا القيصرية فروسيا البلشفية؛ فاستقلت هذه المناطق عن الدولة العثمانية وإن ظل بها عدة من القبائل التركية ولغتها جنبا إلى جنب الصرب ولغاتهم. (٨٩) فاضل أحمد باشا : من عائلة كوبرلي، اشتهر بحبه للعلم، وحمايته للعلماء، تولى منصب الصدارة بعد عدة من المناصب في الدولة العثمانية، وأجرى بها عدة من الإصلاحات. ولد سنة ١٠٤٥ هـ = ١٦٢٥م وتوفي سنة ١١٨٧ هـ = ١٦٧٦م.

(٩٠) أردل Erdel والبغدان Buğdan والأفلاق Eflak وترك Terek: مناطق في شبه جزيرة البلقان وأواسط آسيا، وهى من المناطق التي زارها أولياجلبي وكتب عنها في رحلاته الأخرى. وكنت معظمها في المناطق الخاضعة للدولة العثمانية أو تلك التي على علاقات طيبة معها.

سراي)، وشارك عادل گرای^(٩١) في بعض حروبه، ثم عاد بطريق البر إلى إستانبول ومضى في هذه الرحلة ما بين ١٠٧٤هـ (تموز سنة ١٦٦٣م) حتى ١٠٧٨هـ (١١ مايو سنة ١٦٦٧م). وبعد أن استراح بعض الوقت توجه إلى زيارة بعض مدن الروميلي "كسلانيك" وأدرنه، وساح بكل بلاد اليونان والمورة "وتساليا"^(٩٢) وعاصر - بل شاهد - استيلاء العثمانيين على "قانديا"^(٩٣) Kandiye، وشارك في إخماد عصيان ماينا Mayna وبعد أن طاف بسواحل بحر الأدرياتيك مروراً ببلاد الأرناؤوط عاد إلى إستانبول. وكانت هذه الرحلة فيما بين ١٠٧٩هـ (٢٦ يناير ١٦٦٨م) إلى ١٠٨١هـ (٣١ أغسطس ١٦٧٠م).

رحلته إلى الحجاز:

أصاب أوليا جلبى - الذى زار الكثير من البلدان ورأى آلاف المدن - نوع من الحزن والكآبة لعدم قيامه بالحج وزيارة الأماكن المقدسة، فحزم أمره وأعد عدته للقيام بالرحلة الرابعة عشرة، والأخيرة في حياته، ألا وهي رحلة الحجاز ومصر. فاستراح عدة أشهر وأعد غلمانته، ورافق قافلة الحج التركية، والتي كانت تضم حجاج كل دول البلقان وإستانبول.

وشاهد ووصف لنا مراسم توديع القافلة وتسليم الجمل الذى يحمل المحمل، وكيف أن السلطان بنفسه - وفى معيته الصدر الأعظم وشيخ الإسلام - قد حضر هذه المراسم، وقد كانت فرقة الموسيقى السلطانية تعزف أمام قصر السلطان قبل موعد قيام القافلة بزم طويل، وكان معنى ذلك إيذاناً وإعلاماً للجميع باقتراب موعد القافلة، فيقدم الأمراء والأثرياء وأهل الخير هداياهم لتكون في عهدة أمير القافلة، حيث يوصلها إلى سكان مكة والمدينة ومجاورى الحرمين الشريفين.

(٩١) عادل گرای: من حكام القرم. وگرای فى الأصل اسم قبيلة ثم تحولت إلى خانبة فى بلاد القرم وكان أول من أطلق عليه هذا الاسم هو ملك حاجى گرای. وعاصمة خانبة القرم هى قازان وكان عادل گرای هذا هو الحاكم السابع عشر فى سلسلة حكام خانبة القرم.

(٩٢) سلايك وتساليا وقانديا وماينا: كلها مناطق فى شبه جزيرة البلقان وحول بحر الأدرياتيك، وفى إقليم الروميلي بالنسبة للدولة العثمانية، وما زالت هذه المناطق فى بلاد المورة واليونان.

وفي وصف دقيق وممتع يصف لنا الكاتب رحلته؛ منذ أن قامت من إستانبول حتى انتهى من أداء شعائر الحج، ويقدم لنا شعور المسلم المؤمن في مواجهة الصعاب، وكيف أن القافلة كانت تتحمل مالا يطاق؛ من برد وجوع وعطش وهي تعبر الصحراء القاحلة^(٩٢). كان كل هذا من أجل الإيفاء بركن من أركان الإسلام. وكثيراً ما كان يتحفنا ببعض من أشعاره الجياشة وتضرعاته ونوسلاته في الحرم النبوي وأمام أستار الكعبة الشريفة.

يقدم أوليا جلبي أوصاف الحرمين الشريفين وما فيهما من تحف، وعدد المآذن والأبواب والأعمدة والشبابيك، وأطوال كل منها، وتعريفاً كاملاً بسكان البقيع من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم). كما يصف لنا - وصفاً دقيقاً - كل ما كان يصادفه من قلاع وحصون ومساجد وتكايا، ويعرفنا بأقطاب العلم، وبأوصاف للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والإدارية، والتشكيلات العسكرية والتقسيمات الإدارية للشام والحجاز.

لقد أتم أوليا جلبي طواف الوداع، وأتم فريضة الحج في موسم سنة ١٠٨١هـ = ١٦٧١م واستقر رأيه على مرافقة قافلة الحج المصرية عند عودتها لكى يقوم برحلته إلى مصر؛ فيلتقى بشريف مكة، ويتجه إلى جدة لمقابلة الوالى العثمانى ليستأذنه فى الرحيل، ولم يفته أن يخبرنا بتجارة جدة، وبنوع الحجاج وأجناسهم والسفن وما يحملهم الحجاج المصريون فى رحلة الذهاب والإياب من مكة والمدينة وجدة التى كانت تجمع فى خاناتها تجارة الشرق والغرب.

وقد رافق أوليا قافلة الحج المصرية بعد أن شحن كتبه وهداياه، مع بعض من عبيده وغلماينه، فى إحدى السفن المتجهة إلى السويس بحمولتها من البن والدخان، وبضائع الهند والصين وجاوة، ورقيق الحبشة وإفريقيا. ويذهب الرحالة إلى مصر عبر طريق العقبة وطور سيناء حتى يصل إلى السويس، ومنها إلى

(٩٢) راجع فى ذلك: أوليا جلبي، الرحلة الحجازية، من ترجمتها، دار الأفق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م.

القاهرة مروراً ببلييس والصالحية. ويسجل لنا أنه تردد بين القاهرة وبلييس عدة مرات؛ لاستقبال عبدالرحمن باشا^(٩٤) الذي عُيِّن والياً على مصر في (١٠٨٧ هـ = ١٢ تموز سنة ١٦٧٦م).

وفي اعتقادي أن كتاب "سياحته" لأوليا جلبي من أدق وأوفى ما كتب عن الحجاز ومصر في القرن السابع عشر، فلواستبعدنا المبالغات في تفسير بعض الظواهر لاعتبر هذا الكتاب سجلاً وافياً لما كان في الحجاز ومصر من آثار ومساجد وجوامع وتكايا وزوايا، ومستشفيات وبیمارستانیات، وكنائس وخانات وقصور، وبرك وترع وقنوات، ومعسكرات وعائلات. وكذا مرجعاً لا يستهان به للوضع الاجتماعي والاقتصادي والعسكري والإداري لمصر، في هذه الحقبة التاريخية الغامضة من تاريخ مصر؛ فقد طاف الرجل بكل مصر، حيث ذهب إلى دمياط عن طريق النيل ثم إلى الإسكندرية ورشيد، ووصف لنا كل مدن الدلتا ومراكزها وقراها، ثم رافق حامية متجهة إلى السودان فتعرف وعرف لنا كل مدن الوادي، حتى وصل إلى أعماق السودان والحبشة وبلاد الفونج، والتقى بملكها ووصف لنا ما كانت عليه هذه البلاد والقبائل من تخلف، وما كان يسودها من عادات وتقاليده وأعراف^(٩٥).

بقي أوليا جلبي في السودان والحبشة مدة طويلة، وعاد إلى مصر عن طريق ساحل البحر الأحمر، وسجل كل ملاحظاته ومشاهداته، والتي كان يدعها بالمراجع في مجلده العاشر والأخير في مجموعة رحلاته.

(٩٤) عبدالرحمن باشا: عُيِّن والياً على مصر في عام ١٠٨٧ هـ = ١٦٧٦م. وكان أوليا جلبي من الذين استقبلوه عند قدومه إلى القاهرة، وعُرف بـ "عبد الرحمن باشا كتحدا" وما زال هناك جامع يحمل اسمه في القاهرة.

(٩٥) انظر: أوليا جلبي سياحته، رحلة أوليا جلبي إلى مصر والسودان وبلاد الحبشة، ج ١٠ إستنبول ١٩٣٨، والترجمة التي بين أيدينا.

طريقة أوليا جلبى فى التاريخ:

كان أوليا جلبى يدون ملاحظاته ومشاهداته عن البلد أو المدينة التى يمر بها، ثم يرجع إلى كتب التاريخ والرحلات التى سبقته إليها وخاصة النقاة منها، أمثال القزوينى^(٩٦)، والمقرئى^(٩٧)، والطبرى^(٩٨)، والذهبى^(٩٩)، وجلال زاده^(١٠٠)، وصولاق زاده^(١٠١)، والأطلس الصغير. ثم يدعم هذا كله بالرجوع إلى القوانين والسجلات وكتب المناقب، وسجلات الولايات ودفاترها وميزانياتها. وقد كان يستخدم أساليب عصره فى القياس، فما إن يمر بجامع أو قلعة حتى يحصى الأبواب

(٩٦) القزوينى: محمد بن عبد الرحمن، جلال الدين ٨٧٣٩ = ١٣٣٨م فقيه شافعى، أديب ويعرف بالخطيب، من أحفاد أبى دلف العجلي. ولد بالموصل وتوفى بدمشق، قاضى القضاة فى مصر ودمشق حيث ولى الخطابة بها. له آثار باقية تلخيص المفتاح والإيضاح فى المعانى والبيان. (انظر: المنجد).

(٩٧) المقرئى: (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ = ١٣٦٥ - ١٤٤١م): أحمد بن على عبد القادر، تقي السنين المقرئ مؤرخ الديار المصرية. ولد ونشأ ومات بالقاهرة وولى فيها القضاء والإمامة مرات، واتصل بالملك الظاهر بركات، من مؤلفاته المواعظ والاعتبار والخطط والآثار. (الأعلام - ج ١ ص ١٧٧).

(٩٨) الطبرى: محمد بن جرير، أبو جعفر. ت. ٣١٠ هـ (٩٢٣م). مؤرخ وموسوعى ومفسر ومقرئ ومحدث، ولد فى أمل (طبرستان) تنقل بين إيران والعراق وسوريا ومصر، وأقام أخيراً فى بغداد حيث توفى. اختار لنفسه مذهباً فى الفقه. له جامع البيان فى تأويل القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، وتذييل الآثار واختلاف الفقهاء وأدب القضاة. (انظر المنجد).

(٩٩) الذهبى: محمد بن أحمد شمس الدين. ت. ٥٧٤٨ هـ (١٣٤٨م). مؤرخ، محدث من الأئمة، تركمانى الأصل. ولد وتوفى فى دمشق، رحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان. له مصنفات كثيرة منها: دول الإسلام، والمشتبه فى الأسماء والأنساب، وتاريخ الإسلام الكبير، وتذكرة الحفاظ، وميزان الاعتدال فى نقد الرجال. (انظر المنجد).

(١٠٠) جلال زاده: مصطفى جلبى: نحو ١٤٩٠ - ١٥٦٧م. مؤرخ عثمانى، صاحب الصدر الأعظم إبراهيم باشا فى سفره إلى مصر عام ١٥٢٤م والسُلطان سليمان الأول فى حملته على فارس ١٥٣٥م وعلى المجر ١٥٦٦م، له طبقات المماليك ودرجات المسالك ومبائر سليم خان. (انظر: المنجد).

(١٠١) صولاق زاده: من مشاهير الخطاطين العثمانيين، نسخ من ابن عيسى والبيضاوى والفخر الرازى. مازلت آثاره فى مكتبات إستانبول. (انظر: قاموس الأعلام ش. سامى جلد ص ٢٩٧٣).

والأدوار والمخازن، ويقيس بالخطوة والزراع كل ما يصادفه من آثار وأطلال. كما كان يعود إلى سجله أو ما رجع إليه من مراجع في كتبه السابقة على حد قوله هو.

طبغات سياحته:

اعتمدت النسخة رقم ٤٥٨٤٦٢ في مكتبة برتو باشا أساساً في طبع سياحته، وقد أشرف نجيب عاصم وأحمد جودت على طبع المجلدات الخمسة الأولى سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م). وقام أمره قره جه صو^(١٠٢) سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) بطبع المجلد السادس، وقام كليسلي رفعت بطبع المجلدين السابع والثامن سنة ١٩٢٨ م.

أما المجلدان التاسع والعاشر فقد أشرف على طبعهما أحمد رفيق فيما بين سنتي ١٣٥٤ و ١٣٥٧ هـ (١٩٣٥ - ١٩٣٨ م)، كما طبعت مقتطفات ومختارات من رحلة أوليا جلبي في إستانبول سنوات (١٣٥٦ هـ = ١٨٤٠ م) و ١٣٦١ هـ (١٨٤٥ م) و ١٣٧٩ هـ (= ١٨٥٦ م) والقاهرة سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ م). واستطاع رشاد أكرم قوچي اختصاره وطبع خمسة مجلدات منه فقط، وقام مصطفى نهاد أوزون باختيار لوحات تتعلق بالحياة في القرن السابع عشر من سياحته لأوليا جلبي وطبع هذه اللوحات في مجلدين. واستطاع المؤلف نفسه أن يجمع ما كانت الرقابة قد منعت طبعه في حينه وشكل بذلك مجلداً ثالثاً. وفي سنة (١٣٩٠ هـ = سنة ١٩٧٠ م) قام ظهري دانشمان بإعداد طبعة جديدة مختصرة تقع في عشرة مجلدات أيضاً.

(١٠٢) برتو باشا ونجيب عاصم وأحمد جودت وأمره قره جه صو وكليسلي رفعت وأحمد رفيق وأكرم قوچي ومصطفى نهاد أوزون وظهري دانشمان: هؤلاء من المؤرخين والكتاب المحدثين الذين عاصروا الانقلاب الحروفي ١٩٢٨ م، وأشرافوا على نقل كتاب أولياجلبي من الخط العربي العثماني إلى الخط اللاتيني التركي الحديث وقد طبع المجلد التاسع والعاشر، والذي نحن بصدد ترجمته إلى الحروف الحديثة عام ١٩٣٨ م، تحت إشراف أحمد رفيق فيما بين ١٣٥٤ و ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٥ و ١٩٣٨ م.

وقد ترجمت مقتطفات ومختارات من سياحته لأوليا جلبي إلى الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية، والروسية، والمجرية، والرومانية، والبلغارية، والصربية، واليونانية، والأرمنية، وغيرها من اللغات الغربية^(١٠٣).

إن أوليا جلبي - الذى قضى سنوات طويلة بطوف، ويجول، وهو فوق صهوة جواده - قد امتلك مهارة فائقة فى ركوب الخيل وسباقها، وكان يتمتع - إلى جانب ذلك - بروح مرحة، فقد كان ميالاً إلى الفكاهة. وقد مكنته هذه السنوات وهذه الرحلات من اكتساب علوم ومعارف غزيرة، إلى جانب كونه خطاطاً ونقاشاً وموسيقياً وشاعراً. وقد كتب لوحات فنية وأشعاراً دينية وعلقها فوق جدران الحرم النبوي فى المدينة المنورة، خلال زيارته للمسجد النبوي سنة ١٠٨٢ هـ (١٦٧١م)، وإذا كانت أشعاره التى أوردها فى كتابه سياحته تنسم بشيء من الركاكة والبساطة فإن نثره يدل على أنه كان يمتلك ناصية اللغات الإسلامية الثلاث: (العربية والفارسية والتركية) وأن أسلوبه التركى كان من النوع السلس المتدفق، وكان يستخدمه فى الكتابة وكأنه يتحدث أو يقص على مستمعيه ما يشنف به آذانهم، وتطيب به نفوسهم، ويسعد به فؤادهم حتى ولو أدى ذلك إلى بعض الأخطاء اللغوية^(١٠٤).

ولما كان حجم الكتاب كبيراً؛ حيث يتجاوز النص التركى ألفاً ومائة وخمسين صفحة، ويصعب طبعه كله مع هذا المدخل ومع الجزء الخاص بمصر، والذى ألحقه بالمجلد التاسع والتعليقات والهوامش على ما ورد من أسماء ومصطلحات عسكرية وإدارية وصوفية؛ فقد رأيت أن يخرج فى خمسة أجزاء كما سبق التنويه. وحتى تزداد الفائدة يمكن مراجعة الآثار والمراجع التالية:

Cafer Erkiliç. Evliya Celbi. Ist. 1947. - ١

Leman Nusret. Evliya Çelebinin Hayatı üni, Kip, Tez, 173. - ٢
Ist. 1939.

Ayfar Güçlü, Evliya Çelebi Seyahatnamesi üni. Kip. Tez. Nu 1473. Ist. 1947. (١٠٣)
Cafer Erkiliç. Evlia Celbi. Ist. 1969.

(١٠٤) اتسمت كتابات أوليا جلبي ببعض الأخطاء اللغوية.

۳ - M. Çagatay Ulucay, Evliya Çelebi. Ist. 1957

۴ - Meşküre Eren, Evliya Çelebi Seyahatnamesi.

Birinci Cildinin kaynaklari üzerinde Bir Araştırma. Ist. 1960

۵ - Zuhuri Danişman. Evliya Çelebi Seyahatnamesi. Ist. 1970..

۶ - أوليا جلبى وكتابه سياحتنامه، أ. د. الصفصافى أحمد المرسى، مجلة كلية اللغات والترجمة، العدد العاشر ۱۹۸۵ ص ۲۱۷ - ۲۲۷.

۷ - أوليا جلبى، الرحلة الحجازية، ترجمها عن التركية وقدم لها الأستاذ الدكتور الصفصافى أحمد المرسى القطورى، دار الآفاق العربية للقاهرة ۱۹۹۹م.

(المترجم)

* * *

الفراغ من رحلة الحجاز والاتجاه نحو مصر

كان أوليا جلبى بعد أن أَدَّى فريضة الحج في موسم ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢م قد التقى بأمير قافلة الحج المصرية في حضور والى جدة، وقرر في هذا اللقاء أن يتوجه إلى مصر برفقة القافلة المصرية عند العودة... فشن كتبه ومستلزماته مع بعض من غلمانه في السفن المتجهة إلى السويس ورافق هو القافلة برأ... وبدأ يكتب عما شاهده في طريقه من جدة حتى وصل إلى السويس ومنها إلى القاهرة. وقد رأيت تسمية هذا القسم "الفراغ من رحلة الحجاز والاتجاه نحو مصر". وفيما يلي هذا القسم.

بعد أن أتم أوليا جلبى فريضة الحج وطواف الوداع اتجه بعدها إلى جدة، وزار مدفن أمنا حواء في ضواحي المدينة.

دخل أوليا جلبى بعد ذلك إلى مدينة جدة، ووصف لنا ما بها من المآثر وقلاعها القديمة - كما هو مسجل في الرحلة الحجازية - ولما كانت أمتعته التي بعث بها من مكة قد وصلت، فقام بوضعها في سفينة الرئيس فنجانجى^(١٠٥)، ووضع معها عشرة من أجولة البن في فرقاطة القبطان حسن رئيس، وخمسة أجولة أخرى في مركب النائب مع اثنين من الطواشيّة وواحد من مماليكه.

قام أوليا جلبى بتوديع أخيه في الرضاة، وحاكم (أو والى) جدة بقلاجى محمد بك^(١٠٦)، وعاد إلى مكة المكرمة مع ثلاثة من الغلمان.

(١٠٥) الرئيس فنجانجى والقبطان حسن رئيس: من ربانة السفن التي كانت تعمل بين مينائى السويس وجدة خلال رحلة أوليا جلبى إلى مصر عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢ م.

(١٠٦) محمد بك: كان واليا على جدة عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢ م، ويقول أوليا جلبى إنه أخوه في الرضاة. أى أنه ولد أيضا في إستنبول، وترجع في سلك المناصب العثمانية. وكان له قصر في القاهرة رآه أوليا وتحدث عنه.

كان الحبيج مستعدين للاتجاه إلى المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي الشريف والسلام على حضرة رسول الله ﷺ، قام العبد الفقير أوليا جلبي بالاستئذان من حسين باشا^(١٠٧) لمرافقة حجاج مصر. فأحسن إليه بمائة فلورى وسبعة جمال، وسلمه خطابات إلى وزير مصر كتحدا^(١٠٨) إبراهيم باشا^(١٠٩)، وقام بالتوصية اللازمة لقواد القافلة المصرية، ونال دعواته وودّعه، وتلت ذلك مغادرة مكة.

(١٠٧) حسين باشا: كان واليا على الشام وقائد حاميتها خلال موسم الحج الذى سافر فيه أوليا ٨١٠٨١ = ١٦٧١ م، وجاء تعيينه عقب القلاقل التى عمت مكة فى الموسم السابق. ووضع تحت إمرته ثمانية آلاف جندي، كان قائدا شديدا المراس، تعامل بشدة مع البدو والأعراب مما أدى إلى هدوء موسم الحج، وعمل على تحسين العلاقة مع شريف مكة.

(١٠٨) كتحدا *Kethüda*: مصطلح يطلق على المعتد أو الوكيل الذى كان يرعى شئون الوزراء أو كبار رجال الدولة أو الأغنياء نيابة عنهم. معتمد وكيل، وفى النواحي الإدارية كان يعاون الصدر الأعظم أو الوزير أو الناظر المختص فى تسيير أمور الدولة. فى البداية كان من خواص الصدر الأعظم ورجاله، ثم أصبح من رجال الدولة وموظفيها وكان يطلق عليه كتحدايك، وفى عهد السلطان أحمد الثالث تولى نظارة الداخلية، وعاون الصدر الأعظم فى أمور الدولة.

ألغى هذا المنصب فى عهد السلطان محمود الثانى ١٢٤٤ = ١٨٢٨ م. وأحل محله نظارة الملكية فى سنة ١٢٥١ = ١٨٣٥ م.

أما كتحدا العسكرية فكان عنوانا أو رتبة تمنح لكبار ضباط الإنكشارية، وكان لكل سلاح معتمد وهو ما يوازي فى العصر الحديث (قائد سلاح). وكان يعاون أغا الإنكشارية فى الأمور العسكرية، ولما كانت تنشئة وتعليمه يتمان داخل العسكرية، وفى بعض الفترات التاريخية فاقت نفوذه أغا السلاح نفسه. يعمل له حساب من قبل كل قواد المعسكر الآخرين. وهو واحد من ديوان قائد علم قوات الإنكشارية. كما كان لقباً يُطلق على من يقوم مقام لوالى أو الكلف أو رجالات الدولة، ويعنى الوكيل أو المعتمد أو مدير الأعمال. ثم أصبح لقباً إدارياً يُطلق على معاونى الصدر الأعظم الخصوصيين ثم أصبحوا من موظفى الدولة. وكان يُطلق على من يقدم خدمات جليلة للدولة كتحدا بك، وفى عهد السلطان أحمد الثالث أصبح معاوناً للصدر الأعظم فى الأمور الداخلية ومن هنا أصبحت له كتبه وقلمه الخاص به.

أما عسكرياً فقد كان يُطلق على كبار ضباط الإنكشارية وكان يُعهد إليه بمعاونة أغا الإنكشارية، زاد نفوذهم حتى غطى أحيانا على نفوذ أغا المعسكر.

وكان لحرس القصر كتحدا يسمى "كتحدا البوابين" يرأس حراس أبواب القصر السلطانى. ويقوم مقام الساعى فيما بين السلطان والصدر الأعظم. لقبه الأوروبيون بلقب مشير القصر، أو مدير القصر، أو ناظر القصر.

وكتحدا بوابى القصر الهمايونى: كان يُطلق على أمرى البوابين والحراس الذين يقومون بالخدمة على أبواب القصر السلطانى. وهذا اللقب مذكور فى دستور الفاتح ص ١١، وكان يقوم بالخدمة فى مجلس السلطان وديوانه. ويقوم مقام الساعى فى حمل المكاتبات المتبادلة بين السلطان والصدر الأعظم، وقد عبر عنه المؤرخون الأوروبيون بـ "مشير القصر" أو "ناظر القصر" وكان يُكلف بمهام رسمية على مستوى الدولة العثمانية. (انظر محمد زكى بافلين)

(١٠٩) كتحدا إبراهيم باشا: كان واليا على مصر حين سافر أوليا جلبي إليها بعد أداء فريضة الحج عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧١ م وكان برتبة وزير أى وال.

وفى اليوم السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ألف واثنين وثمانين من
الهجرة النبوية رافق أوليا جلبى الجنود الألفين العائدين إلى مصر. وفى مساء
اليوم التالى - يعنى مساء اليوم السابع والعشرين - تحركت قافلة الحج المصرية
المتجهة إلى المدينة المنورة، وأخذ يلوح للأحبة الذين يودعونهم، وقلبه يهفو إلى
السلام على الحبيب المصطفى.

وسوف نترك الحديث من الآن فصاعداً إلى أوليا جلبى نفسه لكى يحدثنا عن
المنازل والمراحل التى مر بها.

الجزء الخاص بمصر فى نهاية المجلد التاسع

من رحلات أوليا جلبى التى بلغت عشرة مجلدات، والمتعلق بالأماكن التى كانت
تابعة لمصر، كالعقبة وسيناء حتى الوصول إلى السويس

... وقرأت سورة التكاثر داخل مزارات المعلاً، وبعد ساعة وصلنا إلى:

زيارات وادى العمرة

و فى هذا المكان من السنة صلاة ركعتى الوداع. البعض لا يؤديهما، ولكن أديتهما، ودعوت للوالدين. وتابعنا المسير، وبعد ست ساعات وصلنا إلى:

منزل قصبة وادى فاطمة

مكان يكثر فيه نخيل البلح والبطيخ، والنباتات التى تنمو على المياه المتوافرة، إلى:

منزل بئر عصفان

يكثر فيه ماء الحياة. وتابعنا المسير ناحية الغرب أيضاً داخل الصحراء لمدة اثنتى عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى:

منزل الكذبة أو الجذبة

موقع فى الصحراء، يخلو من الماء.. وتركناه واتجهنا نحو الشمال فى الصحراء لمدة سبع عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى:

منزل نبع رابعة

قُصية بيا ماء عذب. وفيها رأينا هلال شهر المحرم لسنة ثلاث وثمانين وألف. وقطعنا منها ثلاث عشرة ساعة فى الصحراء، حتى وصلنا إلى:

منزل سبيل مستحسن

ليس به ماء. وشرنا أيضاً خمس عشرة ساعة فى الصحراء، حتى:

منزل قصبة بدر حنين

هى قصبة معمورة، بيا مياه عذبة.

مغامرة (١١٠)

شاءت حكمة الله أن يظل واحد من جمالنا في مكانه، فنقلنا أحماله على جمل آخر. واستمر خدمنا في السير مع الحاجاج، وبقيت أنا وغلماان بجانب هذا الجمل وملاحظته، وظللنا هكذا حتى بدت تباشير الصباح. ونحن على هذا الحال ظهر فتى عربى بدوى يرتدى قميصا وفى يده نبوت، فقال: "أش هذا جمل بطلان" وأنزل على الجمل ضربتين من نبوته فنهض الجمل المسكين من شدة الضربة وسار... فسعد الحقيير، وكنت أمنى النفس بالوصول إلى بدر حنين، ولم يكن لدينا أخبار عن ابتعاد الحاجاج. فما كان من الجمل إلا أن أطلق يبعبعته: "عوع" وسقط على الأرض.

وعلى الفور أنزل العربى عدة ضربات من نبوته على الجمل، ولكن بلا فائدة. فقال البدوى: "ولكن القاهرة ستكون قريبة، يا سلطانى هذا جمل لحم شحم مليح وسمين، جمل مليح..." لا بد أنه سيقوم، فليس له وجود. ووقفنا بجوار الجمل، وعلى الفور نادى البدوى: يا صالح، ويا عبدالحق. وعلى الفور سمعنا صدى، وعلى الفور قصدنا ثلاثة من الأعراب، فأدركت أنا المسكين أن اليوم فى يوم كربلاء. فوضعت يدى على السيف فوراً... وأولجت من كنانتى بضعة رماح فى عنق جزمى، وكانت هناك بندقيتان ومسدسان على استعداد للعمل، وكلها معلقة فى خصرى. ونبيت على غلمانى أيضا أن يكونوا على أهبة الاستعداد. وعلى الفور ظهر ثلاثة من الفلاحين وقد أمسكوا فى أيديهم بالنبايبست واتجهوا نحونا. فما كان منا إلا أن أطلقنا صيحتين أيضا، فتركنا الأعراب وفروا فوراً، واتجهوا نحو صدى الصوت الذى سمعوه، وكانت صيحة رجل أوزبكى. وصاح علينا قائلاً: هانحن أيتها الأصدقاء الفرسان.

(١١٠) كان أوليا چلبى إذا ما رأى حدثاً أو شيئاً غريباً أو حدث له حادثٌ يخرجُه عن سياق الرحلة كان يطلق عليه تمغامرة أو تمعجزة. وبعد أن يقصنا يعود إلى سياق الرحلة.

وعلى الفور أطلق العبد الفقير العنان لجواده وانطلق نحوهم، وعند وصولي كان رجال المشاة قد تخلصوا من الأعراب وناولوهم بسيوفهم، وأتى أحدهم إلينا، وصاح باللهجة الأوزبكية أن اتبعوني، فأطلقت أنا الفقير طلقتين، ومن بعدى مملوكاى أطلقا طلقتين ابتهاجا، وحمدنا الله.

وقد أصابت رصاصة رستم واحدا من البدو فسقط ميتا، وكان واحد من الأوزبك قد جرح أثناء العراك في رأسه إثر ضربة نبوت شديدة فسقط شهيدا، وفر الأعرابيان الآخران. فقام الغلمان بجمع حزام ماله وبعض أثوابه، وانتظرنا حتى قبيل الصباح، وقمنا بدفن المسكين في الرمل. وعدنا إلى جوار الجمل، ورأينا ألا فائدة تُرجى منه فتركناه. وانطلق الأوزبكي الآخر أمامنا، وما هي إلا مسافة قليلة حتى صادفنا جمع آخر من البدو، ودارت بيننا وبينهم معركة انتهت لصالحنا بفضل ما كان معنا من بنادق وطبنجات. وتوالت هذه الهجمات علينا خمس مرات في الطريق، وحمدنا الله على أنه لم يقع منا أى خطأ.

وأخيرا وصلنا بدرحنيين بسلامة، ولكن كانت قد حدثت ولولة داخل الجيش الإسلامى وهم يتصايحون: لقد تأخر أوليا جلى بجمله في الخلف. فأطلقت البنادق، وتساءل الجميع هل هناك شيداء... وحمدنا الله فقد وصلنا إلى قافلة الحجاج المسلمين. وتناقلت الألسنة معركة، وقد عاتبني كثيرا الكتخدا أحمد روم قائلا: "ألا تخاف على روحك؟ أمن أجل جمل تتخلف عن الموكب؟" وأحسن على بجمل، وكان جملا لا يساويه عشرة من جمال بلدة الشام. ومن بدرحنيين سرنا ثلاث عشرة ساعة بين الوادى والتبة وفي طريق صخرى حتى وصلنا إلى:

منزل قصبة الجديدة

بها ماء هو نبع الحياة. ومن هذا المكان اتجينا شمالا، وفي طريق صخرى أيضا بين الوادى والتباب سرنا اثنتى عشرة ساعة ووصلنا إلى قبور الشيداء، ومن

هناك وفى طريق صخرى أيضا قطعنا تسع عشرة ساعة بين الوادى والتباب حتى وصلنا إلى باب على، وعبرناه إلى:

منزل قلعة المدينة المنورة

قد سبقت الكتابة عنها، ولكن بقينا يومين فى هذه الروضة. ولقد تمت الإقامة فى جامع الروضة المطهرة، بحيث لا يستطيع اللسان التعبير عنه. ولو أردت تفصيل القول عنه لطال الكلام، ولكن فى ليلة السابع من المحرم سنة ألف وثلاث وثمانين اجتمع العلماء والصلحاء، والأئمة والخطباء، والمشايخ والأعيان وأشرف المدينة فى الحرم الشريف للمدينة المنورة، وازدان داخل الجوامع الشريف والمنارات المباركة باثني عشر قنديلاً، وأشعل فى آلاف الأماكن الشمع الكافورى، وأضيئت بالفوانيس كل جوانب الجنان، وكان مقام حضرة صاحب الرسالة يشع نوراً فوق نور، وقد جلس جميع الحضور من شتى الطوائف والأجناس والأصناف فى أماكنهم، وأحضرت منصة فى وسط الجامع. وعرج عليه منشد المولد^(١١١)،

(١١١) منشد المولد: عرف الأدب التركى نوعاً من الشعر الدينى، عرف بالمولد، وهى مدائح نبوية. وأهم هذه الأعمال "وسيلة النجاة" لـ "سليمان جلبى" (١٨٢٥ - ١٤٢٢م)، الذى نجح فى التعبير عن عواطفه الدينية بطريقة صادقة، ألّغى بها الطبقات المثقفة جنباً إلى جنب الطبقات الشعبية. وقد استخدم المولد للدلالة على تلك القصائد التى تنشأ بمناسبة للمولد النبوى الشريف، وما يصاحب الذكرى من ابتهاجات دينية. وقد اختلفت الآراء الدينية حول الاحتفال بالمولد، فمن يقول إنها بدعة، ومن قائل إن الإشاد وقراءة القصائد الدينية ليس بدعة، وإنما البدعة هو ما يصاحب ذلك من طبل وطرق للدفوف وما شابه ذلك، ومن قائل إنها بدعة حسنة ولأن العرب هم أول من احتفلوا بمولد النبى صلى الله عليه وسلم عند زيارة المنزل الذى ولد فيه يوم ميلاده. وأقام الفاطميون الاحتفالات الباهرة فى مصر، ثم انتشرت حتى شملت العالم الإسلامى، وبدأ الاحتفال بالمولد النبوى فى الدولة العثمانية بأخذ شكلاً رسمياً، منذ عهد مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٣هـ = ١٥٧٤ - ١٥٩٥م). وأنه قد أخذ مكاناً فى تشريفات السلطان منذ سنة ٩٩٦هـ، وما زال ينشد إلى يومنا هذا، فى تركيا فى مناسبات كثيرة خاصة مولد سليمان جلبى. (انظر: د. نجلا بك أولجاي إسلامى تورك، أدبياتى، إستانبول سنة ١٩٦٦ س ١٤٠١ - ١٥٣).

ومولد سليمان جلبى هذا، كتبه مؤلفه وهو فى الستين من عمره، حين كان يعمل إماماً فى مسجد بورصة فى عهد بايزيد الثانى (٨٥١ - ٨٩١هـ - ١٤٤٦ - ١٥١٣م) رغبة منه فى إظهار فضائل الرسول محمد ﷺ، ومكنته بين الرسل.

وبدأ الإنشاد في مقام الحجاز، وبعده صعدت وبدأت التلاوة، وعلى المنوال نفسه والمشايع يرددون. وانطلاقاً من مضمون الحديث الشريف بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة انطلق العشاق إلى الصعود الروحي إلى الجنة المأوى. واستمتع الجميع بحلاوة الصوت وطلاوته، حتى وجدوا فيه غذاء الروح، وشملتهم نشوة الروح. واستمرت هذه المصاحبة الروحية لمدة ثلاث ساعات كاملة.

ثم نهضت جملة أمة محمد وقوفاً في الحضرة النبوية تعظيماً وإجلالاً لحضرته. وخلال ذلك كان الأغوات^(١١٢) - خدام الرسول وسدنة الحرم النبوي من الطواشية - يحملون المباخر المشتعلة بالعود والعنبر، وينثرون ماء الورد والعطر السلطاني في كل الجوانب، حتى صارت أدمغة كل الموجودين في الجامع النبوي معطرة، وبعدها دارت طاولات السكريات والأشربة المختلفة على كل الحضور،

= وعدد النسخ الموجودة في مكتبات إستانبول وحدها إحدى وخمسون نسخة، لمواد مختلفة. وأرجح الآراء حول عدد أبيات هذه القصيدة هي أنها ٣١٧ بيتاً.

وأهم المباحث التي تتناولها القصيدة توحيد الباري والتماس الدعاء، وبيان خلق العالم، وبيان فطرة العالم، وروح محمد، وبيان ظهور النبي محمد، وبيان معجزاته صلى الله عليه وسلم ومعراج النبي، وهجرة النبي من مكة إلى المدينة، وبيان ما يجب أن تكون عليه أمة محمد، ثم بيان بالنصح والإرشاد. (انظر: د. الصمصامي أحمد القطوري، ود. إنريس نصر، دراسات في الشعر التركي، القاهرة سنة ١٩٧٨ م، مولد سليمان شلبي، ص ٣٥ / ٥٣).

(١١٢) الأغوات جمع أغا. من آغالار Ağalar: مصطلح عسكري وإداري كان يستخدم في العصر العثماني ويُطلق على كبار موظفي الدولة.

كانت الأغاوية من المناصب المهمة قبل تنظيمات ١٨٣٩م = ١٢٥٥هـ. وكان يُطلق بصفة عامة على ضباط الإنكشارية. ثم بدأ يُستخدم لمن لا يعرفون القراءة والكتابة وكبار ملاك الأراضي الزراعية. كما كان يعني الكرم وعلو الجناح والفضيلة.

ولغوياً تدل على السيد الكبير، والشقيق الأكبر، ويُطلق على العم، ويُطلق كذلك على رئيس الحي وصاحب الكلمة فيه، وعلى رئيس القبيلة أو العشيرة.

ثم بدأ يأخذ أشكالاً مختلفة وفقاً للوظائف التي يتولاها، فهناك أغوات الديوان، وأغوات الإنكشارية وأغوات الحرم.

وأغوات الحرم كانوا يختارون من الطواشية الذين قاموا بأعمال الخدمة في الحرم وبين الحرم السلطاني وفي قصور العظماء ورجالات الدولة. وكان يُطلق عليهم "حرم همنيون" وبعضهم كان من الطواشية البيض والبعض من الطواشية السود. وظل الأمر كذلك إلى أن تم إلغاء هذه العادة في زمن السلطان أحمد الثالث ١١٢٧هـ = ١٧١٥م. (انظر محمد ذكي باقطين).

واستقى كل العطشى، وأكلوا من الحلوى ما تيسر. استمرت الصحبة الخاصة على هذا المنوال سبع ساعات. وأنهيها المجلس بالدعاء الخير وعلى الصباح قمنا بكل الزيارات الممكنة ووصلنا مرة أخرى إلى مقام حضرة حمزة، وهناك تناولنا الطعام مع أمير الحج أوزبك^(١١٣) في ضيافة شيخ الحرم داود آغا^(١١٤) ثم وصلنا إلى المدينة. وبعده وقبيل الصباح غُزِفَ النغير، واستعد الركب للرحيل. الغريب أن حجاج مصر يبقون يومين فقط في المدينة. ولا تكفيهم هذه المدة للاستمتاع، لأنهم يعودون إلى بدرحنيين لمسافة ثلاث مراحل مرة أخرى، ولكي لا يتلحقوا مع حجاج الشام في هذه الطرق والأرقة الضيقة، فيم لا يمكثون في المدينة طويلاً، ولكنهم يصلون إلى مكة قبل الشوام، ويمكثون طويلاً، وذات مرة التقى حجاج الشام مع اثنين من الجند في الجديدة، فقام قتال عنيف. ومنذ ذلك الوقت والمصريون يمكثون يومين في المدينة، ثم يتحركون، وما كان من الفقير عند سماعه للنوبة الثالثة من النغير حتى مثلت بين يدي سيدنا رسول الله ﷺ، وتعلقت بالشبكة الشريفة، ومرغعت وجهي العاصي، وأتممت زيارة الوداع وتلوت هذا الدعاء:

السلام عليك يا رسول الله نسألك أن تسأل الله ألا يقطع آثارنا من زيارتك وحرملك، وأن يعيدنا سالمين وغانمين إلى أوطاننا، وأن يبارك فيما وهب لنا من الولد، وحوّل إلينا من النعيم، وأن يرزقنا الشكر على ذلك. اللهم لا تجعل هذا آخر زيارة لقبر نبيك، فإن توفيتني قبل ذلك فأبني أشهد في مماتي وأشهدته في حياتي أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(١١٣) أمير الحج أوزبك أو تدامير: كان أميراً لقافلة الحج المصرية في العام الذي حج فيه أولياجلبي ورافقه عند العودة إلى مصر بالطريق البري عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢م. ولسوف يتحدث عنه الرحالة بالتفصيل في الفصول والأجزاء التالية.

(١١٤) داود آغا: كان شيخاً للحرم المكي خلال زيارة أولياجلبي وأداته فريضة الحج عام ١٠٨٢ هـ = ١٦٧٢م وقد أضاف أوليا مع أمير قافلة الحج المصرية أوزبك بك.

وأخذت أتراجع وأنا أردد "الوداع يا رسول الله"، "الوداع يا رسول الله".
وأتممت بشكر الله الذى يسّر الزيارة، وقَبِلْتُ عتبة السعادة ورويدا رويدا خرجت من
باب السلام، ووصلت إلى خيمتى، وبينما كنت أستعد لتدارك الطريق خرجنا من
قلعة المدينة، من بوابة الشام إلى الضواحي، وسرنا حتى وصلنا إلى:

زيارة بوضاعة

بها مسجد، وحوض ماء. كان متنزها ومسيرا لصاحب الرسالة وكان يتعبد به،
وتوسلنا في هذا المقام أن نعود سالمين وغانمين إلى مسقط رأسنا إسلامبول المحميّة،
ومنه واصلنا المسير في طريقنا من المدينة ناحية القبلة لمدة ست ساعات إلى:

منزل بئر على

في هذا المكان يستريح حجاج مصر، ويحركون منه إلى:

منزل قبور الشهداء

ومنه إلى:

منزل الجديدة

وينطلق الركب منه، وبعد خمس ساعات بصير طريق بدر حنين عن
يسارنا، وفي المكان الذى نتجه منه إلى داخل الوادى فى طريق مصر تتراءى لنا
أعلام دليل قافلة الشام الشريف، فيتم الدخول فوراً فى طريق مصر والذى يطلقون
عليه "عقبة درب بين"، كان مكاناً صعباً وموحشاً ومحاطاً بصخور شديدة الانحدار.
وكان أمير الحج المصرى المرحوم رضوان بك^(١١٤) قد طهره. وعنده يفرق

(١١٥) رضوان بك: "أمير الحج" كان من القادة العسكريين الذين تولوا إمارة الحج المصرية فى العصر
العثماني. وكان أول من تولى إمارة الحج فى الإسلام هو الخليفة الراشد أبو بكر الصديق عام
٥٩ هـ. ثم صارت تخول إلى من يراه الخليفة مناسباً من العلماء أو القادة العسكريين،
وعندما ضم سليم الأول الشام ومصر عام ٩٢٣ هـ = ١٥١٧م صار السلطان العثماني هو
للمخول باختيار أمير الحج. وكان لمصر أميرها وللقافلة التى تخرج من إستانبول أميرها. كان
أمير الحج هو المخول برعاية قافلة الحج وحمايتها فى الذهاب والعودة. وفى أواخر عهد الدولة
العثمانية صار أمين الليرة هو الذى يقوم بهذه المهمة.

طريقا الحج المصرى والحج الشامى، عبرنا هذه العقبة، ومررنا فى طرق صخرية ووعرة، وبعد ثمانى ساعات وصلنا إلى:

منزل ثقيفة

ليس به ماء، ولكن رضوان پاشا كان قد أنشأ بركة تحت قاع صخرة، ووضع السواقى التى تملأ هذه البركة عن آخرها حتى ترتوى الحيوانات. وليس هناك من ممر آخر غير هذا المنزل يتجه إلى غرب مصر، وسارت القافلة لمدة أربع عشرة ساعة فى طرق رملية داخل واد فسيح، وبعدها وصلنا إلى:

منزل قصبة ينبوع البحر

أوصافه: مكان صحراوى رملى، ذو صخور صفراء، وجبال منحدره، وفى أحضانها حوالى ثلاثمائة بناء متواضع، هى بيوت الأعراب، بها ما بين سبعين أو ثمانين دكاناً، وبها مياه عذبة متدفقة من عيونها، وبها بئر معمورة. قصبة عمرانة، بها جامع صغير له منارة من الطراز القديم. ولكن ليس بها مدرسة أو حمام أو خان أو عمارة.

ولكن بساتين النخيل كثيرة جداً، وبلحها ورطبها لذيذ جداً، يخضع سنجد فيها لحكم الشريف، ويحكمها الشريف بخمسائة رجل. وأكثر سكانها جمالة، وهم الذين يحملون غلال أهل المدينة وبضائعهم. بها جمال كثيرة، وأهلها منعمون. وبها قضاء رتبة شاغله مائة وخمسون آقچه. يتم التصديق بها مع مرتبات علوفة ملا المدينة المنورة، وتدفع من قيل آل عثمان. وماؤها وهواؤها لطيف. وفتياتها رائعات يتسمن بالبهاء وحسن الطالع. وعلى الجانب الأيسر لينبوع البحر هذا جبل يُسمونه:

جبل رسوى

جبل شاهق بلا حاصل أو محصول. جميع المفسرين والمؤرخين يقولون إنه فى آخر الزمان سيظهر من هذا الجبل "محمد مهدي الحنفى" الذى يظنون أنه

هو وأصحابه قد دخلوا إلى غار فى هذا الجبل، وبأمر من الله سُدَّ الغار، وكان هو وأصحابه يرزقون من عند الله. وفى بعض الأزمنة يقول بعض سالكى الطريق أنهم قد استمعوا لصدى التوحيد، وهذا القول شائع على ألسنة أهل مكة والمدينة، "إن الله على كل شىء قدير" حتى أنه قد صدر الفرمان الأمر بالبقاء يومين فى ينبوع هذه، وإذا كنا قد عزمنا على زيارة هذه الأماكن إلا أنهم منعونا، وبعدها توجهنا إلى ينبوع البحر وسنبين ذلك. ومن ينبوع البحر اتجهنا ناحية الجنوب فى طرق أحياناً صخرية، وأحياناً رملية، حتى وصلنا إلى:

قلعة ينبوع [ينبع] البحر

تحت سيطرة حضرة الشريف وإدارته، وبها قائمقام الشريف برتبة أمير لواء. وتدير أمور الحكومة بقوة قوامها خمسمائة جندي. وهناك قائمقام من طرف أمير جدة لضبط أعمال الجمارك التى يذهب نصفها لحضرة الشريف، والنصف الآخر يذهب لحاكم جدة لتوظيف فى دفع المرتبات. وهى قضاء بمرتبة ثلاثمائة، ويُعين صاحبه من قبل آل عثمان. ولكنها الآن توجه إلى مولى المدينة بوصفها إحساناً يُضاف إلى العلوقة، ولكن يُحصل من جمركها لخزينة مصر.

ميناء مكة هو جدة... وميناء المدينة المنورة هو ينبوع [ينبع] هذا. وبينها وبين المدينة المنورة أربع مراحل أو منازل، والمأمول هو الوصول فى ظرف يومين. وهى مدينة صغيرة على شاطئ البحر، وليست مدينة كبيرة. جعلتها مائة بيت متين البنين، معمورة، بها عدة جوامع ذات محاريب، تُقام بها صلاة الجمعة والخطبة وعدا ذلك هى مساجد إدارة الجمارك على شاطئ بحر القلزم، أو البحر الأحمر. وتأتيها السفن سنوياً من الأقاليم السبعة محملة بشتى البضائع والأمتعة. ويؤخذ من التجار الزكاة وفقاً للشريعة والقانون، بها مجموعة من المحلات، وليس بها دار للحديث أو سوق للأقمشة النفيسة، لكن بها وكالات ومخازن على ساحل البحر ومقاهٍ.

جملة سكانها تجار، وهوأواها كهواء المدينة لطيف، ومياها عذبة، وتمورها أيضا نظيفة ولذيذة. وفي بحرها سمك المرجان وسمك المسك الذى لا نظير له. يأتيها سنوياً خمسمائة سفينة ما بين كبيرة الحجم والصغيرة.

أوصاف سفن جلّبه، يعنى السفن اليمنية

نوع من السفن الحصرية المختلفة، ويطلقون عليها جلّبه، وهى قادرة على مجابهة مخاطر البحر وأهواله فى تجوالها وتنقلها بين الحبشة واليمن ذهاباً وإياباً. وهى طراز عجيب وغريب من السفن، تُصنع من خشب الأشجار واللوف والحصير، ومساميرها من الخشب، وتربط هذه المسامير بسلب من اللوف والحصير اليمنى والحشى، وتربط الحصير بحبال اللوف بعد أن تُشد جيداً، ثم تُغطى بالزفت والقطران وزيت السمك، وبعد أن يغلى هذا الزفت والقار يصب داخل وخارج هذه السفينة فتصير كالقلعة المتينة. وهكذا تسير متهادية بين بحار الشعب المرجانية المترامية.

وتحمل آلاف الأرباب من الغلال وآلاف الركاب وتتجول بين الحبشة واليمن. وأشرعتها من الحصير، آلاتها من جنوع النخيل. وهذه السفن لا تدخل فى صناعتها المسامير، فمياها بحر القلزم هذا تذيب الحديد وتقطع السفن إرباً إرباً. ولكن هناك غير سفن اليمن والحشى؛ فهناك سفن "المرادية" و"المحمدية" و"الخاصة السلطان" وجملتها اثنتا عشرة قطعة من سفن مكة والمدينة وتحمل الغلال الأميرية. وهذه أيضاً جميعها من السفن الخشبية، ولكن خشبها من الأشجار الهندية الصفراء، ومن أشجار الإبط والمنط، وهى لا تُصاب بأذى وسط بحار الشعب المرجانية التى هى كالمسامير. ولكن أشرعة هذه السفن ليست من الحصير كالجلّبه اليمنية، فجميع أشرعتها من قماش القطن الإسكندراني المنقوش، وكل واحدة منها تحمل ألف إردب من الغلال، وتتسع لما بين ألفين وثلاثة آلاف من الحجاج والتجار، وتلك السفن تُبحر فى بحر السويس ذهاباً وإياباً. وفى كل منها ألف وخمسمائة زير من المياه. وجميعها مرصوصة بجوار بعضها البعض، ومفاتيح مخازنها مع

ربان السفينة، وهو المسيطر عليها، ولا يتم التجاوز ولو لقيراط واحد. وإذا ما تم الإفراط في استخدام المياه ففي هذا تهلكة خطيرة، فلا تُمنح قطرة مياه واحدة زيادة عن الحاجة، لأن بحر السويس هذا سرداب بحري، فاللهم عافنا.

ففي إحدى السنوات توقفت الريح من الاتجاهين. إحداها متجهة من السويس إلى جدة واليمن، والأخرى هي الرياح الشرقية القادمة من اليمن وجدة. وكنتاهما لازمة للاتجاهين. وإذا تصادف ولم تهب هذه الرياح، فمن الممكن أن تظل السفن في هذا السرداب سنة كاملة. وربآن السفينة يخاف أن يُصادف بمثل هذا الموقف؛ فلذلك فإنه وملاحى السفينة يسيطرون على المياه العذبة فيها، ويبدلون الماء بالتدريج... اللهم عافنا إذا ما سارت الأمور على غير المراد، وإذا ما تعطلت السفينة، أو تعرضت لمحنة، أو أصيبت بعطب؛ فلا أمل في النجاة أو الخلاص.

فمياه هذا البحر تبتلع الجسد البشري وتنزبه في ساعة واحدة. وفيه سمك ملعون يُسمى سمك القرش؛ فهو يلتهم الإنسان كما يلتهم ثمرة التين. وحسب قول المؤرخين العرب فإن هذا النوع من السمك موجود في هذا البحر منذ عصر حضرة سيدنا موسى [عليه السلام]، ونتج عن غرق فرعون في هذا البحر. هو نوع من السمك المهيّب والخطير، وإذا ما تم الخلاص من ورطة سمك القرش هذا، وإذا ما خرجنا إلى جانبي هذا البحر وشطآنه، فإن الأعراب والبدو والعرايا أولاد النصارى لا يعطون الأمان، ويقتلون الإنسان، وإذا لم تصادف أحداً من الأعراب فإنك تُشوى من شدة الحرارة، ولو تم الخلاص من هذا فإن الأرواح تُهك لعدم وجود العمران، اللهم عافنا.

أين وأين الخلاص؟ وأين مكان السلامة!!

وفقاً لمآل هذا القول فلا خلاص ولا نجاة في بحر القلزم هذا، ولكن إذا ما أحسن جناب الباري بأيام موافقة، فإن السفن الهندية تبحر من ميناء السويس إلى الأعماق، وتصل إلى جدة بعد عشرة أيام وعشر ليالٍ. وهناك سفن عدة تبحر لمدة خمسة أيام لهذه المسافة فقط. وأكثرها تضع ظروف الهواء في حساباتها، وحجاج

الرجبية يقضون فى هذا البحر ما بين خمسة أيام وعشرة ويصلون إلى جدة، ويجاورون الحرمين لمدة خمسة شهور، ويقضون رمضان الشريف فى مكة، ففى وسط البحر والأعماق لا توجد شعب مرجانية؛ ولكنها تكثر بالقرب من السواحل والشطآن، وكثير من صغار السفن والجُلَّنة والفرقاطات تذهب بالقرب من الساحل. ويُطلق على ملاحى هذه السفن من الفلاحين "ريان".

وفى مقدمة السفن ساق شجرة طويلة، يجلس عليها أو على مقدمة السفينة هذا الريان المرشد. وبينما تسير السفن بالأشعة فإن هؤلاء المرشدين يراقبون البحر. وإذا ما كانت هناك شعب مرجانية فى خط سير المراكب، فإنه ينادى من مكانه أن تتجه السفينة إلى اليمين أو إلى اليسار؛ وعلى الفور يقوم الرئيس بتوجيه الدفة إلى الاتجاه المطلوب، وتتخلص السفينة من الشعاب، وإذا ما حرك الرئيس الدفة عكس الاتجاه المطلوب فإن السفينة تتعرض للشعاب المرجانية وتتحطم، ولا يكون هناك أى احتمال للنجاة أو الخلاص. ولكن إذا ما تطف الخالق، وتم العبور بسلام تصل السفينة إلى مرساها فى وقت العصر، وتبيت هذه الليلة حيث تكون، فلا احتمال للإبحار ليلاً، وإذا لم يتم الوصول إلى مرفأ، وكانت الأيام مخالفة فإنها تعود حيث مرسى الأمس، وتلقى مراسيها للإقامة حتى الصباح. وخلاصة القول إن السفن تبحر منزلة تبيت ليلاً وتبحر نهاراً، ولكن السفن الهندية تتجه نحو الأعماق وتسير ليلاً ونهاراً دون انتظار.

قول فى وصف أشكال الشعاب المرجانية

إن خطاب البارى "كن" فكانت الأرض والسموات والبحار السبعة من العدم. ولم تكن هذه الشعاب المرجانية موجودة داخل بحر القلزم هذا. وبعد أن قصد جميع الأعداء هدم مكة المكرمة أو السيطرة عليها، وخاصة من أصحاب الفيل وأبرهة، وهذه كلها مسطورة فى الكتب المقدسة، ولما نزلت رسالة النبوة على حضرة المصطفى وهو فى الأربعين من سبنة المبارك دعا الله أن يحفظ مكة والمدينة، وأن يصونهما من الانقراض ما دام الزمن يدور، فأمر الخالق سبحانه بحر القلزم هذا من ناحية اليمن والحبشة وحتى السويس أن تكسوه الشعاب، فكان ذلك.

ولم يعلم كفّار البرتغال شيئاً عن ذلك. وعندما قصدوا الهجوم على مكة بثلاثمائة قطعة من السفن ووصلوا إلى جدة فإن السفن جميعها تحطمت على الشعاب المرجانية، وهلك الجميع. وحتى هذا الأوان قد تاب الكفار عن قصد مكة بسوء.

وخلال حكم الظاهر بيبرس لمصر استولى الكفار الإسبان على القدس الشريف، وظلت تحت سيطرتهم ثمان وسبعين سنة، وتعاون من الدروز والقيمانيين!! والمروانيين جمعوا مائتي ألف من الكفار، وكانوا يقصدون هدم الكعبة المشرفة، ونقل الجسد الطاهر لصاحب الرسالة إلى القدس. ولكن عند وصولهم والآلاف غيرهم من الكفار عند المكان المسمى "جغيمان" بادرتهم أرواح مائة وأربعة وعشرين من الرسل وسبعين ألف روح من أرواح قطب الأقطاب، وجميع رجال الله، وقابلوا الكفار، وانضم إليهم عربان الموال وقبائل بني زهد وأولاد آل عالي أمور، فسحقوا هؤلاء الكفار في شتى النواحي، وعندما عادوا إلى ذلك المكان المسمى "جغيمان" أعمل الأعراب العرايا فيهم سيوفهم ورماحهم، وغنموا كل أموال الكفار وأمتعتهم، وهذا كله مسجل ومفصل في كتب الكفار. وحمداً لله أن تاب الكفار عن القصد إلى مكة برّاً أو بحراً، وأصبحوا عبرة لكل الكفار. ومازال الكفار يحجمون عن الهجوم على مكة خشية من الشعاب المرجانية تلك المعجزة العظيمة. ولكن داخل أعماق بحر القلزم فإن أشكال الشعاب المرجانية عالم آخر، ففي أعماق البحر بأمر الله عالم من الأشجار والغابات الكثيفة بحيث يصعب وصفها أو التعبير عنها. وداخل البحر هناك شعب مرجانية كأنها أشجار المرجان. ولكن في نهايات أشجار الحور هذه أشجاراً أخرى من الحجارة؛ حتى إذا ما صعدت على سطح البحر فإنها تتحطم من شدة الحرارة.

ومياه بحر القلزم هذا من الصفاء لدرجة أن المشاهد يرى ما في أعماق البحر لبعد قد يصل إلى ستين ذراعاً أو سبعين؛ يرى الأسماك وجميع أنواع شجر الأخشاب والشعاب والمحار والقواقع. وبعض القلاع

الهندية السوداء أحياناً تتعرض لبعض الرياح وسوء الأحوال الجوية، وتصل أخيراً إلى بر السلامة بعد أن تكون قد حطمت العديد من الأفرع والأوراق، ولكن إذا كان المركب ضعيفاً فإنه يهلك بفعل الشَّعَاب المرجانية. قضت حكمة الله أن تكون هذه أشجاراً من الحجارة "إن الله على كل شيء قدير".

ولو غرقت سفينتان من سفن السويس في هذا البحر "اللهم عافنا" يحدث القحط والمجاعة والغلاء في مكة والمدينة، وفي سنة ١٠٨٢ هـ عندما كان الكتخدا إبراهيم باشا وزيراً على مصر، فإن السفينتين المحمدية والمرادية، وسفينتين آخرين قد غرقوا جميعاً وعلى متونها ستمائة ألف إردب من الغلال، وفقد أيضاً ألفان من التجار والحجاج وترتب على ذلك قحط وغلاء عظيمات في مكة والمدينة المنورة، لأن بحر السويس هذا بحر بلا أمان.

أوصاف بحر السويس، يعنى بحر القلزم أو البحر الأحمر

هذا البحر كالجزيرة، على الجانب الشرقى من محيطه يقع بين اليمن والحبشة مضيق يسمى مضيق "زليع"، وهو كاللسان أو مضيق ممتد كاللسان. وعلى قول الملاحين والربابنة فإن طول هذا البحر حتى السويس أربعة آلاف ومائة ميل، تبدأ من بدايته وحتى مخرجه في الجهة الشمالية. ومن بنادر اليمن يقع بندر على الجانب الغربى، يقع بندر جدة وهو يخدم مكة، ثم بندر ينبوع البحر ويتم المرور من أرض تُهامة وعلى طريق مكة تقع "أزم" و"مويلح" و"كفاقي" و"قولوندر".

وهناك خليجا الحمام والطور وقلعتهما، ونهايتهما عند بندر السويس، وهو بندر عظيم. وفي جهته الجنوبية تقع بلاد أعالي الصعيد، وبندر وقلعة القصير. وإن سكان مدينة "قبا" على شاطئ النيل يفدون إلى مرفأ القصير هذا، وبالسفن فى ظرف ليلتين تصل السفن منه إلى ينبوع. ومن هذا البندر يتم الانطلاق إلى بلاد الفونج حيث "بندرات"، ومنها على ساحل هذا البحر أيضاً يتم الوصول إلى "جبل

عجلولة" فى ولاية الحبش^(١١٦) وبندر "دونقلاب" دنقلة، وبندر "آب" وبندر "سواكن"، ومدينة "كيف" ومدينة "دهلك"، وجزيرة وادى موسى، أو "موص أووا" و"حرق أووا"، وبندر "زولة" والقلعة الهندية، وبندر "طوزلة" وبندر "بيلولة" وبندر "زِيلع"، وهذه البنادر كلها تابعة للحبشة وعلى ساحل بحر القلزم. وعلى الشاطئ المواجه، شمال البحر الأحمر، توجد سواحل اليمن، وفى مواجهة بندر زيلع تتسع نواحي اليمن. بعض أماكنه يبلغ اتساعها مائتى ميل، والبعض الآخر ثلاثمائة ميل. هكذا فإن البحر الأحمر بحر بلا أمان، ولكنه أمان من الكفار، والسلام.

أوصاف قلعة ينبوع البحر

ونحن فى هذا البندر، تجولنا فى ينبوع البحر. والميناء فى مكان مفتوح، وترسو السفن بين الشعاب المرجانية. وعلى حافة هذا الميناء توجد قلعة ينبوع، وهى من مباني السلطان من خلفاء مصر، وقد بناها سنة (...) على شكل مربع. لها بؤاية، وعليها محافظ ورجال حصار ودفاع عنها. يحصلون على تعييناتهم من حاصلات الجمارك، بها اثنا عشر مدفعاً سلطانياً، وذخائرها وجباناتها مكتملة. ويوجد داخل القلعة جامع قديم. وقد تجولنا فى هذا البندر أيضاً، وعلى بُعد مسيرة ساعة تقع بلدة ينبوع البر. وفى هذا المكان أصدر أمير الحج المصرى أوزبك بك أمراً للحجاج المغاربة بالتحرك والتقدم، وسيرهم فى الطريق.

فى بيان حجاج قوم المغاربة

يتجاوز عدد حجاج المغاربة عشرة آلاف حاج. ولهم سردار، أو قائد خاص بهم، وهو من العلماء العباسيين. مدججون بالسلاح والبارود، وهم يتجهون نحو

(١١٦) الحبش: بعد أن ضم العثمانيون بلاد اليمن بعد الحجاز ومصر انتقلوا إلى الحبشة وربطوها فى بعض الأزمنة إدارياً بولاية جدة والحجاز، لكى يحكموا سيطرتهم على البحر الأحمر. وكانت آيالة الحبش وجدة مرتبطة بساليانة مقدارها ١,١٨٠,٠٠٠ آقچه (بيضة) سنوياً.

مصر، ولكن الأمر الغريب أنهم على الرغم من شدة الحر فإنهم يتابعون السير ويقطعون المراحل حتى الغروب. ومع الغروب يتوقفون وينصبون خيامهم ولوازم استراحتهم، يضعون سائر أموالهم وسط الخيام، وحولها صبيانهم ونسوانهم وبغالهم وخيولهم، ويُبْرَكُ الجِئَانَةُ جمالهم فيما حولهم وعلى أطرافهم، ويقدمون العليقة لسائر الحيوانات. ويحيط جميع حجاج المغرب - كبيرهم وصغيرهم - بأموالهم، ويتعاضدون يداً في يد وكفّاً في كف في حماية أرزاقهم. ويتأهبون الحراسة حتى الصباح، وتحت إمرة قائدهم ما يقرب من ثلاثمائة بندقية وتحت تصرف راميهما. وهم يتبادلون المناوبة والحراسة مع الجيش.

وإذا ما استغرق المغربي في نوم الراحة فإذا ما أعلت فيه حتى السيف لا يستيقظ، فالنوم عندهم آخر الموت. وكانوا يتبعون الوسيلة نفسها في مكة. وجميع الأعراب يعرفون أن عرب المغاربة سيوفهم قاطعة، وأموالهم وزهبيهم كثير، ولهذا فإن البدو يكمنون لهم. وفي كل سنة يعتادون على ذلك. وهم ينتظرون في استراحتهم هذه حتى الصباح، ثم يبدأون سيرهم، ولكنهم قوم في غاية اللؤم والخسة؛ فمع كل واحد منهم حمولة ما بين جملين أو ثلاثة أو خمسة جمال وأحياناً عشرة جمال محملة بالبضائع والأموال القيّمة. وهناك أيضاً من يسرون على أقدامهم متكئين على الله من مرحلة إلى أخرى، ومن خيمة إلى غيرها وهكذا يصلون إلى مصر. وبعدها يظلون أربعة أشهر أيضاً في الصحراء، وينتقلون من صحراء إلى صحراء حتى يصلون إلى الجزائر وفاس ومرجناكس أو مرانكش، حتى تلمسان. خلاصة الكلام حجاج المغرب وحجاج بودين وتجار حجاج بلخ يصلون في سنة، وفي سنة يعودون، لأن بلادهم على مسافات بعيدة.

بعد ذلك يملأ الحجاج جميعاً قربهم بالمياه ويحملون جميع احتياجاتهم من المياه من ينبوع البئر؛ لأن أمامهم منزلين لا تتوافر فيهما المياه. بعد ذلك عَزَفَ النفر، وبينما كنا نعبّر الأماكن الرملية المستوية متجهين نحو الغرب كنا نصادف بعض شجيرات أمْ غيلان أى شجر السَّمَر، وبعض الممرات الصخرية

الضئقة. ففي المكان المسمى (...)) سمعنا أنه كانت قد وقعت أحداث هنا سنة ١٠٨١ هـ؛ حيث قام الشريف حمودة^(١١٦) - على غفلة - بمهاجمة الحجاج المصريين، ودارت حرب وجدال عظيم. وبوصول الإمدادات إلى الأعراب تعرض الحجاج المصريون إلى التفريق والنشت. واستشهد من العساكر المصرية ستمائة رجل على ساحة الرمال، واستشهد ما يتجاوز هذا العدد من الحجاج والخدام، وتم دفن شهداء الجند واختلطت رءوس كل الشداء وسيقانهم وأرجلهم، وظلوا كأخلاق القديد، وحتى خلال السنة التي كنا فيها كانت قد خرجت أجساد بعض الشداء خارج الرمال. وتحولت من شدة الحرارة إلى حجارة ممتدة فوق الرمال، وقد زرنا مرقدهم، وقرأنا الفاتحة على أرواحهم الشريفة، وبعد مسيرة اثنتى عشرة ساعة وصلنا إلى:

منزل وادى نار

يسمى هذا المنزل باسم "وادى الخرزتين" أيضا. أى مكان الخرزتين، ويتملك الجميع هنا خوفان، أحدهما من العرب والآخر من رياح السموم. ويقدر الخالق على منات من البشر أن يموتوا كل سنة هنا من رياح السموم فى وادى النار. وحتى فى سنة حجنا وفى وقت الضحى وفى الشتاء هلك سبعة عشر رجلا هنا فى وادى النار من رياح السموم. وادى النار وادٍ مختلف، تحيط بجانبيه صخور ملساء صلبة، تشوى الرعوس من شدة الحرارة. ولا أثر فى هذا المكان لما يسمى المباني أو الماء، ولكن لابد من الوقوف فيه وتقديم العلف للجمال، وفى هذا

(١١٧) الشريف حمودة: من أشراف مكة وأمرانيا الذين كانوا على رأس الإدارة فى بلاد الحجاز، وكثيرا ما كان يقع الخلاف بينه وبين الإدارة العثمانية فى مصر، ومن أشهرها ما حدث عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧١م؛ حيث هاجم قافلة الحج المصرية وفى معيته الكثيرون من البدو والأعراب، وأوقع خسائر كبيرة فى قافلة الحج والحجيج، ولكن تم تأنيبه فيما بعد. وهو ابن الشريف عبد الله الذى يبدأ به فرع العبللة. كان يحكم مكة مع الشريف ابن زيد سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦م ولما نشب الخلاف بينه وبين الدولة أقام فى ينبع. وقام القوات المصرية، ولكن لما اشتد عليه الضغط فر فيما بين البدو ولكنه فى عام ١٠٨١ هـ = ١٦٧١م عقد الصلح مع الشريف سعد وانسحب إلى الطائف، وتوفى هناك سنة ١٠٨٥ هـ = ١٦٧٤م. (انظر: الرحلة الحجازية للمترجم هامش (١) ص ١٧٩).

المكان يؤكل الثوم والنعناع، ويجب دهن الأذان بالثوم، ولا بد من لف الأنف والشم بقطعة من القماش الحرير الأسود أو قطعة من قماش القطن البورقاليين، ويجب عدم الخروج من المحفات والهواج.

حمدا لله أن رياحا لطيفة قد هبت في زماننا، وكان الجو معتدلاً إلى حد ما. ولكن أيضاً توفي سبعة عشر رجلاً. وسرق الكثير من أمتعة الحجاج. ويجب الاحتراز من شرب الماء في هذه المنطقة، والبعض يضع في فمه قطعة من الحصى أو الرصاص لتذهب العطش، ولا يحتاج لشرب الماء. ولكن للرصاص محاذير؛ فإذا ما لامس الرصاص الأسنان فإنه يعطب الأسنان. ولكن مشروب التمر هندي المذاق يذهب الحرارة والعطش وهو يلائم الطبيعة هنا. هناك حديث شريف في صدد التمر هندي مجمله الحمضيات مقبضة إلا التمر هندي. ولكن الحذر من كثرة شرب الماء في هذه الطرق واجب. لأنه يحدث لنا للإنسان، وإذا ما تم تناول القليل من مأكولات الزفر، فتحد من كثرة شرب الماء. وإذا ما شرب فإنه يحدث إسهالاً، ونهاية الإسهال هو التسمم والعياذ بالله وينتهي بالموت، اللهم عافنا.

خلاصة الكلام يجب عدم تناول مثل هذه الأطعمة في الطريق إلى مكة، ويجب شرب القليل من الماء. و بعد قطع سبع عشرة ساعة في الطرق والوديان الرملية والصخرية العالية والمرور بين أشجار أم غيلان وصلنا إلى:

منزل نبط

وإد جبلى صخرى، لا زرع ولا ماء فيه. وقد هاجم الشريف حمود هنا أيضاً القوات المصرية، ولكن الجنود المصريين كانوا على أتم الاستعداد، وقد قُتل من المصريين خمسون رجلاً، ومن الأعراب والبدو خمسمائة وخمسون رجلاً لقوا حتفهم. إن هؤلاء الذين سقطوا من الطرفين كانوا ممددين فوق الرمال، وتحت الرمال كالقديد المضمحل، ولقد زرناهم أيضاً. ومن نبط اتجهنا أيضاً إلى الجنوب الغربى، وقد سرنا ثلاث عشرة ساعة بين الأشجار اللطيفة، وشاهدنا طيور القمري البيضاء وهى تتطاير فيما بينها، حتى وصلنا إلى:

منزل الحورة

وهذا اسم منطقة حوران القريبة من الشام، ويسكن فى هذا الوادى قبيلة تُسمى "حوران"، وكان بنو حوران من أنساب حضرة شيت يعيشون فى هذه الولاية المسماة حوران.

وكانت مدينة ذات بناء عظيم، ولا توجد أطلال اليوم من هذه المدينة، ولذلك يسمونه وادى الحورة، مياهه كثيرة وتمرح فيه أعداد غفيرة من الطباء والغزلان، وهو أيضا تحت سيطرة حضرة الشريف، ويشمله الأمن والأمان، وعندما أطلق النفير وقت ظهور السحر عبرنا من مكان يسمى (بين القرى)... وقد استمر سيرنا اثنتى عشرة ساعة، كنا نشاهد فيها الطرق الصخرية التى تكثر فيها الطباء، حتى وصلنا إلى:

منزل حنك القرى

ويعنى فم القرى فى اللغة العربية. وهى مرحلة يابسة، ناقلة بلا فائدة. وهواؤها ليس جيذا أو ممدوخا إلى حد كبير. وهذا الوادى أيضا تحت حكم الشريف وسيطرته؛ فى غاية الأمن والأمان. وقد تحركنا منه، وشرنا إلى الجانب الغربى فى أرض منبسطة واسعة لمدة ست عشرة ساعة، حتى وصلنا إلى:

منزل أكره... Egre

واد بين جبال شاهقة، ولكن فيما بين جوانب جباله الأربعة قرى عامرة. كان صبيان البدو ونساؤهم والذين يقطنونها يحضرون متاعهم ويبيعونه للحجيج. ولكن كانت مياه أكره هذه مالحة؛ فإن العربان كانوا يوزعون المياه التى يحملونها على بعيرهم.

وبالقرب من أكره هذه توجد مدينة طرفيا على حافة شاطئ بحر القلزم، أو البحر الأحمر، خرابة حتى الآن. ولكنها كانت مدينة عظيمة، حتى إن مصر

بجانبها كانت تبدو بليدة؛ وقد كانت مدينة من مدن فريديون^(١١٨). وما زالت أطلال مبانها على شاطئ البحر، وما زالت منائرها وأعمدتها وقبابها ظاهرة للعيان. إنها أطلال تل على أنها كانت ملاذ عمران.

إن فريديون كان قد آمن بسيدنا نوح [عليه السلام]، حتى إنه كان ممن ركبوا السفينة. وقد بنى هذه المدينة بعد الطوفان وظلت عامرة لمدة خمسمائة عام. حتى إن سيدنا هوذا [عليه السلام] ترعرع فيها وآمن فيها.

وفي بعض الأزمنة كانت هناك مدينة بالقرب من صخرة نافقة صالح على طريق الكعبة من ناحية الشام، وبأمر الله فإن الحجاج الذين يرون هذا الممر يسرعون، وعلى بعد ميل منها توجد منارة، ما زالت ظاهرة حتى الآن، يسمونها "عمود فريديون"؛ فإن فريديون قد مدَّ جداراً بين هذه الجبال حتى نعبّر من هذا المنزل الذي أطلقنا عليه أكره أى المائل. وما إن نصل إلى بحر القلزم حتى نرى جدار الحدود، وما زالت أطلال المباني قائمة وظاهرة. وفيما بيننا أشكال غريبة وعجيبة لا يرى مثلاً في العالم، حتى كأنها كنتك التي في مدينة أثينا في بلاد الروم.

ولما كان فريديون هذا معمرًا فقد كان له أحد عشر ابناً، "طور" وابنه هو "رديم" Radim وابن "وديم" "پشنك" pişenk وابن "پشنك" "أفراسياب"^(١١٩) Afrasiyab. وكان لفريديون ابن آخر هو "إيرج" وابنه هو "غوشنك" Guşenk، وابن "غوشنك" "منوچهر" Menuçehr.

(١١٨) مدن فريديون: وفقاً للتاريخ الأسطوري الإيراني القديم فإن فريديون هو الحاكم الخامس لسلالة البيشداديين. وهو حفيد جمشيد، وقد فتح عنيذاً من بلاد الترك والعرب، ويعتقد البعض أنه مذكور في كتب الهند القديمة.

(١١٩) أفراسياب Afrasiyab: من ملوك إيران القدماء الذين ذكروا في شيننامه الفردوسي، وهم من الأبطال الأسطوريين في الأدبيات الفارسية القديمة.

وقد آمن مینوچهر بسیدنا موسی (علیه السلام) حتی إنه دخل صحراء التيه مع حضرة موسی وطاف فیها. وقد عاش لمدة مائة وعشرين سنة. ولقد أمر بحفر "خنادق حول المدن والقلاع التي كانت تحت حكمه وسيطرته. وقد عُرف هذا عنه، حتی یقال إن هناك مدينة خربة عظيمة كانوا یطلقون علیها "دادیان عراقی" أي "العراق العامر" على حواف جبل البرز. كانت هذه من تشييد مینوچهر هذا. وقد بنى خندقاً على جوانبها الأربعة، ويقولون إنه كان عميقاً. وكان لفريدون ابن آخر يسمى "سلم" ابنه كان "گاو Gāv الأصفهانی"، كان ابنه "قارب" بطلاً. كان هؤلاء جميعاً إخوة، وأبناء إخوة، بعضهم یرقد فی بلاد "عراقی دادیان" أي العراق العامر، والبعض یرقد فی مدينة غازان. وهرب أربعة من أبناء مینوچهر، ووصلوا حتی ولاية النمسا، ومازال على الجانب الأيسر من قلعة إكره أطلال كثيفة لأرض یطلق علیها "أوروترك" وكانت قلعة منيعة؛ فسكنوها.

ومازال أقوام النمسا إذا ما سألوا أحداً قاتلين له من أنت... ؟ فإن كان لا يعرف اللغة النمساوية، فإنه یجيب باللسان الفارسی من جراز. "من جاردن" مازالت مستمرة فی اللسان المجری. وحتى إن المجريين الحاليين هم من نسل مینوچهر. ولذلك فمازال بعض الكلمات الفارسية مستخدمة فی اللسان المجری لأن ذلك قد حدث فی بلاد العجم. ولكن بضعة من أبناء مینوچهر بن فريدون مدفونون بالقرب من موقع (إجره) إكره الذي تحدثنا عنه عند الحديث عن طریق مصر إلى الكعبة. والفقير قد رأى أطلال هذه المدينة الخربة، وبعدها ظللنا أربع ساعات نسیر إلى الغرب من (إجره) إكره هذه؛ أحياناً فی وادٍ منبسط وأحياناً أخرى فی طرق صعبة وعرة، حتی وصلنا إلى:

منزل قلعة وش^(١٢٠)

ولها اسم آخر هو "وجه إبراهيم پاشا" لأن الذي بناها هو إبراهيم پاشا، وقد أقامها على ربوة مرتفعة على شكل مربع. وهي قلعة متينة البنیان. جملة ما

(١٢٠) منزل قلعة وش: أي وجه. وقد بناها إبراهيم پاشا على ربوة عالية. متينة البنیان على شكل مربع. زارها الرحالة أولياچلی.

حولها دائراً ما دار ثلاثمائة خطوة، لها قبة تطل إلى الشمال، وبداخلها عدة بيوت عربية. وبها مسجد وبالقرب منه توجد بئر ماؤها ماء الحياة. تدار سواقيها بالثيران والأبقار وتُصب في بركة عظيمة خارج القلعة بحيث تتلاطم فيها المياه. يشرب منها الحجاج والدواب كافة حتى يزول عطشهم، وفي قلعتها "دزدار"^(١٢١) ورجال أو جنود حصار. وهم مضادون للمصريين، وبعض المصريين يفدون إلى ما يقرب من منزلين من هذا المكان ويبيعون للحجاج بضائعهم ومتاعهم.

وتبركاً تم إحضار ماء النيل إلى ما يقرب من سبع عشرة مرحلة من هذا الموقع. وهذا المكان أيضاً تحت سيادة الشريف، يتمتع بالأمن والأمان. ومن هنا أيضاً اتجينا ناحية الغرب بين وديان موغيلانية وأماكن متدرجة تكثر فيها أشجار السواك الذي كنا نقطعه، وبالقرب من شاطئ البحر يوجد مرفأ يسمى "الوجه"، والبدو الذين يسكنون فيما بين الجبال يحضرون بضائعهم إلى هذا المرفأ، وينقلونها إلى جبل الطور أي إلى حدود السويس. وعبرنا هذا البندر، وبعد أربع عشرة ساعة وصلنا إلى:

منزل إسطنبول عنتر

وإد واسع، ومكان تكثر فيه أشجار السواك وأشواك الجمال. وقد كان في الزمن القديم إسطنبولاً لخيول الملك عنتر^(١٢٢). ومنذ ذلك الأزل وهم يطلقون عليه إسطنبول عنتر، وكانت هنا مدينة عظيمة في الزمن القديم ما زالت أطلال أثارها تدل على أنها كانت بنايات مصنوعة من الطوب الأحمر. ما زال بها ثلاث أبار ذات مياه عذبة. جوانبها الأربعة معمورة، ومن هنا يقوم ساكنوها من البدو والأعراب

(١٢١) الدزدار Dizdar: مصطلح عسكري يدل على محافظ القلعة. وينقسم الاسم إلى مقطعين، دز بمعنى القلعة أو الحصار بالفارسية، ودار بمعنى صاحب. أو أغا القلعة. وهو المسئول عن كل ما يتعلق بالقلعة. وترسل إليه الأوامر مباشرة. (انظر: باقالين. ج ١ ص ٤٦٩).

(١٢٢) الملك عنتر: من الملوك القدماء، كثير الثراء. أنشأ في الزمن القديم مدينة عامرة على الطريق بين مكة والمدينة. وكانت له خيوله الكثيرة وكان لها إسطنبوليا الكبير. وما زال يطلق على المكان إسطنبول عنتر على الرغم من اندثار أثار المدينة، وقد زار أوليا أطلالها ووصفها كما سبق.

بإحضار منتجاتهم من المأكولات والمشروبات وبيعها للحجاج. وهذه المنطقة أيضا تحت سيادة الشريف. وعلى الجانب الشرقى لهذا المكان توجد جبال. ويتم الوصول إلى المدينة المنورة من هنا في يوم وليلة. وبها طريق سلطاني^(١٢٣)، ولكن لم تكن

(١٢٣) طريق سلطاني: مصطلح إداري يطلق على الطرق الرئيسية الواقعة بين الحرمين الشريفين، ولما كان السلاطين هم الذين يقيمون بها فقد سميت بذلك، وكان حجاج بيت الله الحرام يتوجهون إلى المدينة المنورة بعد الانتهاء من مناسك الحج للتشرف بزيارة المسجد النبوي الشريف، والسلام على النبي المصطفى، وزيارة الروضة المطهرة، والحجرة المعطرة، وكانت القوافل تسلك طرقا عدة، رأينا أنه من المناسب الإشارة إليها، وخاصة الرئيسية أي السلطانية.

الطريق السلطاني: إن أول منزل للخارجين من مكة المكرمة هو القرية المشهورة المعروفة بـ "وادي فاطمة". إن هذه القرية تبعد عن مكة مسافة ست ساعات سيرا بالجمال. وتشتهر بعيونها الجارية، وحدائقها وبساتينها الياضعة التي تشتمل على النخيل وسائر الأشجار الأخرى. والمرحلة الثانية للخارجين من مكة المكرمة تكون عند البئر المسماة "بئر عسفلن"، كما تسمى هذه المرحلة أيضا "بئر التفل". وتبعد مرحلة بئر عسفلن اثنتي عشرة ساعة عن قرية "وادي فاطمة"، ومياه تلك الأبار رقيقة وعذبة حلوة المذاق. ولما كانت مياه تلك الأبار مخلوطة بمياه وجه الأنبياء ويريق سيدنا ونبينا (عليه وعليهم التحية)، فإن مياه النيل والفرات، وربما ماء الكوثر تغطيها على طلائوتيا. وهذا في هذا الموضع توجد البئر المشهورة بين العرب بـ "بئر التفلة". والمسافرون من بئر التفلة يصلون إلى قرية "خليص" بعد ثماني ساعات من تحركهم، وقرية خليص تبعد عن مكة المكرمة بثلاث مراحل، وتشتمل على عدة من الأبار والعيون الجارية، كما أن بها الكثير من البساتين وحدائق النخيل العشر.

وكانت القوافل المترددة بين مكة والمدينة تواصل سيرها إلى "قضية" بعد استراحة قصيرة تمكنها من الاستسقاء في مرحلة خليص. وقضية هي المرحلة الرابعة وبينها وبين خليص اثنتا عشرة ساعة سيرا بالجمال. ومرحلة قضية بها ثلاث آبار، إلا أن مياهها ملحة بعض الشيء، وذلك لقربها من البحر. ولما كانت هذه القرية المذكورة وفيرة الأسماك فقد لقيت استراحاتها رواجاً بين المسافرين المحليين المترددين عليها.

والقوافل المتحركة من هذا الموضع تصل إلى "رابع" التي تبعد مسيرة ست عشرة ساعة عن قضية من ناحية المدينة المنورة. ومع أن هناك بعض التباب الصغيرة الممتدة على طول الطريق بين مكة المكرمة ورابع، فإنها غير مرتفعة بالقدر الذي يحجب الرؤية. ولذلك كانت معظم المواقع في هذا الطريق تروى البحر بسبب قرب منطقة رابع من البحر كذلك. ولما كانت الطرق الموصلة بين قضية ورابع معبدة ورملية في معظمها، فلذلك كان السير فيها مريحاً. وكانت الطرق الموصلة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة تعتمد عند رابع، وكان أكثرها استعمالاً يسمى "الطريق السلطاني".

والمرحلة الأولى للطريق السلطاني "الرئيسي" أي الاستراحة الأولى للقوافل المتحركة في رابع، كانت في موقع "مستورة" الذي يبعد ست ساعات عن رابع. وببجدة المرحلة التي تقع في الميدان الصحراوي المسمى "منخفض ميمون" بتران: إحداهما عذبة المياه، والأخرى مالحة. وبعد مرحلة مستورة تصل القوافل إلى استراحة "بئر الشيخ" وهي ذات نبع عذبة المياه، وتبعد اثنتي عشرة ساعة عن مستورة. ٣

الجمال والبيغال والتخت روان تسلكه، وعلى الجانب الغربى من إسطنبول عتقر كانت هناك طريق تتصف بالمطالع والمنازل قام أمير الحج رضوان بك بتطهيرها... وقد قطعنا خمس عشرة ساعة بالتوقيت الحنفى وسط أشجار السواك والبلسام وأشجار النبق وأشجار شوك الجمل، حتى وصلنا إلى:

والمسافرون من بئر الشيخ يصلون إلى قرية "صفرا" التى تبعد عن بئر الشيخ اثنتى عشرة ساعة، وبين هاتين المرحلتين بئر مشهورة تسمى "ابن حصانى". وإذا كنت قرية صفرا كبيرة إلى حد ما ويقطنها حوالى خمسمائة نفس، إلا أنهم جميعا مازالوا يعيشون حياة البداوة، هذه القرية المذكورة تمتلك المياه الجارية والأشجار المتعددة إلا أن معظم مغروساتها محصورة فى أشجار النخيل والليمون والحناء. وبعد صفرا بثلاث ساعات تقع قرية "حمراء"، وهى أيضا ذات مياه جارية وأشجار يانعة عدة، وتنتج هذه القرية أجود أنواع الحناء وزيت اللبان الذى يتجمهر عليه الحجاج والمسافرون عند المرور بها. وأكثر القوافل المسافرة من صفرا لا تتوقف فى الحمراء، بل تواصل سيرها إلى الموقع الموجود فى مدخل "جديدة" الضيق والمسمى "الحوبة جية"، والمسافة بين هذين المنزليين ست ساعات. وتوجد المياه الجارية فى موقع الاستراحة. وتصل الرحلة بعد "الحوبة جية" إلى "بئر عباس"، وتقع بئر عباس على بعد خمس ساعات من المدينة المنورة من جهة "الحوبة جية" وعند التوجه إلى هذه المرحلة تمر القوافل من ممر "جديدة". وتوجد قريتان صغيرتان بين هذين المنزليين. والقوافل المسافرة من بئر عباس تصل إلى "بئر الشربوفى" بعد اثنتى عشرة ساعة، وهناك أيضا بئر مياهها عذبة حلوة. وبعد التحرك من "بئر الشربوفى" بأربع ساعات، تصل القوافل إلى موقع "سيدا"، وهناك أيضا بئر مياهها عذبة مستساغة.

وبين هذا الموقع والمدينة المنورة أربع عشرة ساعة، وأهالى المدينة المنورة الكرام يستقبلون زوار مكة المكرمة وحجاجها القادمين لزيارة المدينة المنورة فى البستان المسمى "آبار على" الواقع على بعد ساعتين من جهة مكة المكرمة.

وليس من المعتاد توقف المارة من هذه الطرق فى هذه المنازل والبقاء بها؛ إنما الأمر حسب رغبة الجمالين الذين يودون التوقف فى كل مرحلة بها آبار للتزود بالمياه. ولا يوقفون فى الاستراحات التى ليست بها مياه. وعلى أى حال فإن دخول المدينة المنورة فى اليوم السادس من القيام من رابع يمد من العادات القديمة التى تعودت عليها القوافل. والطريق المذكورة قديمة بالنسبة للمحامل الشريفة وقوافل الحجاج، وعلى الرغم من قلة مياهها، فإن منازلها ومطاعمها شبه محنومة، أما الطريق المذكورة أنفا فتوجد عليها سلاسل الجبل التى تحيط بجانبىها حتى مرحلة "بئر عباس". ولما كانت الطريق تمر ببعض الممرات الضيقة فى أكثر مراحلها، فإن هذا كان يشجع البعض من عربان قبائل "بنى حرب" على السيطرة عليه من حين لآخر والسطو على أموال القوافل المترددة. وربما وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى أن ينقلبوا وتسلب معاً، مما يدفع قوافل الحجاج لمسلمين وموكلب الزوار وسائر المسافرين إلى أن يسلكوا الطريق المسماة بـ "أفراع وغابر"؛ وهى التى كان قد افتتحها حضرة السلطان منذ بضع سنين خلت بسبب صرناها وعدم خطورتها. انظر للمترجم: الرحلة الحجازية...

منزل قلعة أزل

وأزل^(١٢٤) هو اللسان العربي... وفي عام (...) قام (...) من سلاطين مصر ببناء هذه القلعة. لها باب واحد، وفي كل ركن من أركانها يوجد برج. ومحافظ القلعة هو من متفرقة^(١٢٥) مصر، وفي معيته سبعون من الأنفار، وعشرون قطعة من المدافع السلطانية من مستحفظان^(١٢٦) البلوكات السبعة^(١٢٧) ولها ذخائرها.

- (١٢٤) أزل: قلعة تقع على طريق الحج بعد إسطنبول عنتر. وكانت بها في زمن أوليا جلبي قلعة ولكن لم يذكر شيئا عن بناها. وهو يصفها ويصف قواتها كما هو في النص.
- (١٢٥) المتفرقة Müteferrika: مصطلح يُطلق على أرباب الخدمة الذين كانوا يعملون في خدمة السلطان والوزراء ورجال الدولة. وكان يُطلق على رئيسهم الذي يعمل في السراي "متفرقة باشي" أي رئيس المتفرقة. أول ما نصادفه عن هذه القوات كانت في "قانوننامه" محمد الفاتح. وهم الذين يعملون في خدمة الصدر الأعظم والوزراء. كما كان يتم أخذ أولاد القواد والنيشانجية للعمل في خدمة السلطان تحت هذا الاسم.
- وكان أبناء الصدر الأعظم الذين يلتحقون بهذا العمل يتقاضون ستين آقچه، بينما أبناء الوزراء يتقاضون خمسين آقچه، وأبناء الأمراء يتقاضون خمسا وأربعين آقچه. وكان يُطلق عليهم أحيانا "واجب الرعايا أغالر" أي أغوات يجب رعايتهم.
- وكانوا في الجيوش الإنكشارية يمثلون الميسرة "متفرقة صولغان". كما كانوا في لوقت السلم يعملون في خدمة أغوات الإنكشارية في سائر بلوكاتهم. (عن محمد ذكي پاقالين ح ٢ ص ٦٣٧).
- (١٢٦) مستحفظان - مستحفظ Mustahfiz: مصطلح عسكري كان يُطلق على بعض من قوات الإنكشارية الذين يعملون في الحفاظ على القلاع والدفاع عن الدولة، وكانت أعدادهم تزداد أو تقل حسب عدد القلاع ومدى أهميتها. وليس بينهم وبين قوات الإنكشارية الأخرى فرق من ناحية التمارين إقطاعات التي كانت تمنح لهم. وقد تم إلغاء هذه التشكيلات العسكرية مع إلغاء قوات الإنكشارية. كما ألغيت تيماراتهم. (انظر: محمد ذكي پاقالين ح ٢ ص ٦٣٠).
- (١٢٧) البلوكات السبعة: المفرد بلوك Bölük، بمعنى قسم أو جزء أو مجموعة، وكان في العصر العثماني يُطلق على قسم من القوات التي تعمل في الولايات وتساعد على حفظ الأمن وجمع الضرائب، وكانوا يختلفون وفقا لمعسكراتهم، وفي بداية الأمر كانت الإنكشارية تتكون من مجموعات، كل مجموعة من ألف والألف من مئات والمئات من عشرات، وكان يُطلق على قائد البلوك لقب "ياياباشي" أي رئيس المشاة.
- في بداية الأمر تشكلوا من أربعمائة في غاليبولي وانقسموا إلى ٨ بلوكات، وكل بلوك كان مكونا من خمسين نفرا. وكان أولاد المعج في إستانبول ٣١ بلوكا، وكان في مصر سبعة بلوكات في كل معسكر من معسكرات الإنكشارية، وكان يدفع ببعضهم للمساعدة في الحفاظ على القلاع. (انظر: محمد ذكي پاقالين ح ١ ص ٢٤٢).

وداخل بابها الحديدى يوجد جامع، وبها حوالى خمسين داراً متناثرة. وداخل القلعة
بئر عذبة المياه وتدار سواقينا بالأبقار والثيران فتجرى مياهها خارج القلعة، وعلى
جانبها الأيسر أحواض شافعية، تَمُوج بيا المياه، يشرب منها سائر عباد الله فتجرى
فيها الحياة.

وتقع هذه القلعة بين مصر ومكة. وجملة عساكر تجريدتها تصل فى يومين
وتمكث بها. فيصير ما بها جيشاً عظيماً. وجميع عساكر أزمم وأغواتهم يستقبلون
الحجاج فى موكب عظيم، ويصطحبونهم إلى داخل قلعة أزمم، وعند دخولهم إلى
قلعة أزمم تطلق مجموعة من طلقات البنادق والمدافع ويصير بها ابتهاج عظيم.
ويقوم قائد أزمم أيضاً بإطلاق دفعة من طلقات البنادق والمدافع والتي تصل طلقات
المدافع التى تطلق فيها إلى ست دفعات، ليعبروا بها عن سرورهم.

ويشارك أمير الحج أيضاً فى هذه الاحتفال بإطلاق ست نوبات من مدافعه
وبنادق جميع العسكر حتى ابن سماء وادى أزمم تظلم نهاراً من دخان المدافع
والبنادق التى تطلق. وينادى المنادون تباعاً بأن الأوامر قد صدرت بالقعود يومين.
فينزل على الفور الجمال عشرة الآلاف التى جاءت فى صحبة عساكر أزمم،
حمولاتها من الأمتعة والمأكولات والمشروبات، ويكون بدو القرى المحيطة بأزمم
وعربانها قد أحضروا هم أيضاً منتجاتهم، ويصير هناك بيع وشراء عظيم، بعضهم
يشترى أوقية البكسماط بپارة^(١٢٨) واحدة أو پارتين.

وبهذا تعود الروح والحياة إلى الحجيج الذين كانوا قد أصابهم الإرهاق،
ويرتوى الجميع ويسقون أبعارهم، وتصبح هناك سوق وكأنها سوق قلعة مزيريب

(١٢٨) پارة Para: مصطلح مالى يُطلق على عملة معدنية كانت تساوى ٤٠/١ من القرش، وقد
استعمل للدلالة على النقود بصفة عامة. انتقلت من الفارسية إلى العثمانية بمعنى السكة، وكانت
قيمتها أقل من الأقجة وأصغر منها فى التعامل، وكانت تمثل كسور القرش.
كانت تجمع فى محفظة كبيرة ثابتة العدد تسمى پارة كيسه سى. أى حافظة أو كيسة النقود.
(انظر: محمد ذكى پقالين ح ٢ ص ٧٥٢ - ٧٥٣).

فى الشام. ويستعيرى الحاج ما يكونون قد فقدوه من الجمال والأباعر والخيل
والبغال استعدادا لبقية الطريق، ويأتى من مصر ليوألا الحاج من المأكولات
والمشروبات والحلويات من أبحائيم فى مصر.

وبها يتحول وادى أزم وكأنه وادى "حلوى"، وبها يتحول لسان جماليها
وحماليها إلى حلو الكلام، وينالون من الحلوى الشىء الكثير، وكثيرا ما ينال
البعض منهم بقة "صرة من القماش" بلا مقابل. وبعد نهاية اليوم الثانى ومع بزوغ
النهار يطلق النغير... وتتجه القافلة أيضا ناحية الجنوب وسط أشجار أشواك الجمال
وأشجار السواك واللباسم والطرق الرملية. و عبرنا هذه المسافة فى اثنتى عشرة
ساعة، حتى وصلنا إلى:

منزل القسطل

هكذا باللسان العربى؛ ويطلقون عليه أيضا ساحل "سلمة" و"منزل كفافى". وهو
يمتد من قرب مكة ومن ينبوع رابعة، وينتهى ويغيب فى بحر السويس. وهذا
المنزل صار مشهورا حيث قدم حضرة مرزوق الكفافى، وأنشأ قبة فوق صخرة
عالية تطل على البحر وهو مدفون بها. ومرزوق الكفافى هو وأبو السعود الجارحى
من الذين نادوا على السلطان سليم الأول^(١٢٩)، وهو مازال فى إسلامبول قائلين:

(١٢٩) السلطان سليم الأول ٨٧٥ - ٩٢٦ هـ = ١٤٧٠ - ١٥٢٦ م: لقب بـ"ياورز الفظ". وهو
تاسع سلاطين آل عثمان، ابن بايزيد خان، حفيد محمد الفتح ووالد سليمان القانونى. جمع
بين السلطة والخلافة بعد أن ضم الشام ومصر والحجاز. وسع من حدود الدولة فى آسيا
وأفريقيا. شمل خير الدين بارباروس برعايته، تولى العرش ٩١٨ هـ، وحاول خلق جنسية
عثمانية تشمل كل العناصر الإسلامية التى دخلت حوزة الدولة ليخلق بذلك تكتلا إسلاميا
يصد به الصفويين، وانتصر عليهم سنة ٩٢٠ هـ = ١٥١٤ م فى موقعة چالديران، ولم يدفعه
إلى ذلك إلا رغبته فى كسر شوكة الصفويين لتعاملهم مع البرتغاليين. توفى عن إحدى
وخمسين سنة بعد أن قضى فى السلطة ثمانى سنوات وثمانية أشهر فقط.
عند دخول سليم الأول إلى مصر ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م كان الخليفة المتوكل على الله هو
صاحب الحل والعقد والأمر والنهى فى الديار المصرية... ولكن بعد أن استقرت الأمور له
نقل الخليفة ومن فى معيته إلى إسطنبول مع الآلاف من الفنانين والحرفيين المصريين
وخلال المراسم التى تمت فى جامع الأياصوفيا تم التنازل عن لقب الخلافة وجبنتها من
قبل آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث؛ وهكذا أصبح سليم العثمانى خليفة للمسلمين.
وجمع بذلك بين السلطة السياسية والدينية فى البلاد. انظر: ابن إياس ج ٥ حوادث ٩٢٣ هـ
وكتك . Osmanlı Padişahın Ansiklopedisi, C. I. S 214

يأسئليم، يأسئليم، تعال اجلس على المصرة. وقد استمع سليم الأول النداء فأنا أعلم أن هذا صدى قطب الأقطاب. وعلى الفور اتجه بإيمانه إلى مصر. ولسوف نحرر ذلك في موضعه إن شاء الله.

ومنزل قسطل هذا مكان رملى على شاطئ البحر، تكثر به أشجار النخيل الربثانية؛ أى التى نبتت بالعناية الإلهية ولم يغرسها أحد، ومياهها سامة للغاية. مكان تكثر فيه الرمال، وأى إنسان يسقى حيواناته من مياه ينز هذا المنزل، فإن كبده يخرج، ويصبح وكأنه فانوس الخيال. ومياهه مسيلة للغاية، والعارف بذلك يتصرف بحكمة ويعقلانية مع ماء هذه البئر. وعلى طريق مكة إذا لم تشرب الجمال والبغال لمدة يومين فلا يصيبها ضرر.

وجميع الحجاج يقيمون استراحاتهم هنا على شاطئ البحر ويستمتعون بمشاهدته والاستحمام فيه، ولكن لا يجوز المكوث طويلاً، حيث إن مياه البحر تصيب عورة الرجل بالضرر، ولكنها تجلى العيون، وتزيد قوة الإبصار. إنه بحر زائد الملوحة، لكن أسماكها المتنوعة لا توجد فى بحر أخرى، وكلها أسماك مائدة لذينة. وجميع الحجاج يصطادونه بالشباك، ويأكلونه حسب القول الشائع "أكلت السمكة حتى رأسها"^(١٢٠)، وعلى الجوانب الثلاثة لهذا المكان قرى عامرة بالبدو والعربان، فيأتون بكل متاعهم وبالماء الزلال الذى وضعوه فى القرب، ويسقون الحجاج وحيواناتهم. وجميع هذه القبائل تأتى بجمالهما وأغنامهما ويغسلوننا على شاطئ هذا البحر.. وجملة الحيوانات نصاب بالطاعون من تأثير المياه السامة. وإذا ما سقط حاج من الحجاج الذين يحطون رحالهم فى برائن الرعشة فلا خلاص ولا علاج له، ولكن الذين يقعون خلف مياه هذا البحر فلا يصيبهم ضرر من المياه، ولكن كل الضرر من لصوص البدو والعربان وسارقي الجيش؛ بحيث يدخلون خيام الذين ينزلون إلى المياه ويسرقون متاعهم وكل ما تصل إليه أيديهم. فالاحتراس واليقظة لازمان وإذا ما اكتشف أمره فإن اللص يجد الخلاص بالقاء نفسه فى اليم.

والكثير ممن لا دين ولا أخلاق ليم يأتون من أزلهم مع هذا الجيش، وما إن يلاحظوا أن البعض قد سقط نائماً من شدة التعب والإرهاق، على الفور يدخل اللصوص، ويسرقون كل ما يصل إلى أيديهم صباحاً أو مساءً، حتى إنهم يمكنهم أن

(١٢٠) أكلت السمكة حتى رأسها: قول شائع بين شعرب يعيد معنى أنه أنجز الأمر وأنهائه، وأن هذا يدل على أن أوليا كان واقفاً وقوفاً طويلاً على اللغة العربية.

يسرقوا الكحل من العين... وإذا لم يجدوا كحلاً سرقوا العين ذاتها، ومن هنا فالحرص ألزم لأن جملة اللصوص في شراكة مع القضاة، ولذلك فيم يبلعون الجمل وكأنه عصفور صغير، ويُطلق النغير أيضاً في هذه المرحلة، وفي هذا المكان يتم الاستمرار في السير في هذا الطريق نحو الغرب على شاطئ البحر، ويكون قائد أزم وجنوده قد بقوا في المؤخرة وهم يعانون من المرضى والذين لا دواء لهم وقد أركبهم على المحفأة الأميرية... ويسير الموكب وعن يساره اليم وعن يمينه بحر الرمال... ويستمر السير أربع عشرة ساعة، حتى نصل إلى:

منزل قلعة قويلان، يعنى قلعة المؤيلج

قد تم بناؤها في عصر السلطان سليمان خان^(١٣١) سنة...، وهى قلعة متينة ثرية البناء على شكل مربع، مقامة فوق مكان رملى مستوٍ يبتعد عن شاطئ البحر،

(١٣١) سليمان خان: هو سليمان القانونى [٩٠٠ - ٩٧٤ هـ = ١٤٩٥ - ١٥٦٦ م]، أعظم سلاطين بنى عثمان، ابن سليم الأول. اعتلى العرش سنة ٩٢٦ هـ. ولقب بالقانونى لعدله وكثرة القوانين التى سنّها، وصلت الدولة العثمانية فى عهده أقصى اتساعها. لقبه الأوروبيون بالعظيم Magnifique وصلت فتوحاته إلى المجر سنة ٩٣٦ هـ، وحاصر فينا غرباً ووسع فتوحاته فى آسيا فضم كل إيران وبغداد وأذربيجان ووصل إلى خليج البصرة سنة ٩٤١ هـ = ١٥٣٤م. كانت له عمارات فى كل العالم الإسلامى، وامتدت مدة سلطنته ٤٨ سنة. وكان عند وفاة السلطان سليم الأول واليا على مغنيسيا (مانيصة) تولى السلطنة ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره. وكان عليه أن يتابع انتصارات والده، ففتح بلجارد وحاصر فينا، ولولا خيانة زوجته اليهودية روكسلان (خرم سلطان) وصدره الأعظم إبراهيم باشا لتحوّلت النمسا إلى ولاية عثمانية. لقب بالقانونى لكثرة القوانين التى أصدرها لتنظيم حياة الإمبراطورية العثمانية. حول البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود وبحر مرمرة إلى بحيرات إسلامية عثمانية، لم تكن الأساطيل الأجنبية تستطيع دخولها بدون إذن سابق، وقد اعتمد فى ذلك على الأمير الجزائرى خير الدين بارباروس الذى عينه قائداً للأسطول العثمانى.

لم يغفل السلطان سليمان القانونى عن إنشاء تصروح المعمارية، من جوامع وكنيات قصصن عثمان، ونور الحديث، والجسور والقزائى والحمامات والاستراحات فى شتى ربوع الدولة العثمانية. كانت للمدن الإسلامية المقدسة مكة والمدينة والقدس مكانة خاصة فى نفس القانونى، فأوقف عليها الكثير من الأوقاف الخيرية، وولاهم خير قواده، وكلّف لها تطورا معماريا وحضاريا، ومازلت ماثلة للعيان حتى اليوم، فجدد الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، وأمن قوافل الحج المؤدية إليها، وأقام المتخلف والحصون والقلاع والأباز والمطاعم، على طرق القوافل لخدمة الحجاج.

أشرف على بنانيا سليمان باشا الطواشي البدستى^(١٣٢). وليس هناك على الطريق

(١٣٢) سليمان باشا الطواشي البدستى؛ وهو من الطواشية، والطواشية جمع طواشى Tavaşi مصطلح فى السرايات والقصور بدلا من الخادم، وكانت هذه الطائفة تختار من الذكور الذين يتم خصيصهم لكى يحال دون قدرتهم على القتال. فالخدمة فى القصور معروفة منذ أقدم العصور، وقد شاعت بين المصريين والبابليين والآشوريين القدماء، ثم راجت عند اليونانيين، ثم انتقلت الطواشية، منهم إلى الرومان والفرنجة، ويقال إن أول من قام بيدا العمل سميراميس الملكة الآشورية فى الألف الثانى قبل الميلاد.

ويسجل التاريخ أسماء عدة من الذين اشتركوا بالقيام بأعمال جليلة، وكانت لهم دراية وخبرة بكثير من الأمور، وأن البعض منهم قام بأعمال فداية وبطولية كبيرة؛ منهم مرمس Mermes الرومانى، وكان منهم من تولوا المناصب العليا فى الهند وفارس والصين وكانوا من أصحاب النفوذ فى أواخر عهد الدولة الرومانية.

ويسجل التاريخ أيضا أن بعض الخصيان "الطواشية" قد تولوا المناصب العالية كالصدرة والوزارة فى العهد العثمانى أمثال على باشا الخادم، وسليمان باشا الخادم.

وقد تم الاستمرار فى هذه العادة فى العالم الإسلامى لعدة أسباب؛ كالخوف والغيرة على الحرم السلطانى وعلى الرغم من تحريم ذلك بل تحريم عملية الخصى هذه فإن بعض الحكام قد غضوا الطرف عن منعها وكان زيد بن معاوية أول من استخدم الطواشية فى الإسلام، فلقد استخدم يزيد طواشيا يدعى "فتح" فى وظيفة "تاور" له. ثم تبعه الخلفاء الذين جاؤا بعده فى هذه السنة، وهذا أدى إلى كثرة استخدامهم فى العالم الإسلامى.

ولما زادت الرغبة فى استخدامهم زاد تجار الرقيق من اليهود فى أسعائهم، وبالفوا فى ذلك. وكان هؤلاء بيذا الشكل وقد لاقت رواجاً كبيراً على أيدي هؤلاء التجار اليهود وأسوا مجموعة كبيرة من المستشفيات للقيام بهذه الخدمة وكانت أشهرها هى تلك التى تأسست فى مدينة ويردن Verdun وقد اكتسبت شهرتها خلال سنوات الحرب الفرنسية الألمانية. ولقد نشط تجار الرقيق خلال هذه الحرب، وجمعوا أطفالاً لا حصر لهم، وقاموا بخصيمهم، وقد مات الآلاف منهم من جراء هذه العمليات الوحشية، ومن بقى منهم على قيد الحياة كانوا يرسلون إلى إسبانيا حيث يباعون للعظماء والأثرياء بشئ باهظ، ثم رويذا رويذا راجت عمليات تبادلهم بوصفهم هدايا مثل الخيول أو أدوات الصيد وما شابه ذلك.

فمثلاً كان حكام الفرنجة كى يداخونوا الحكام العرب المسلمين فى الأندلس كانوا يبعثون إليهم مجموعة من الطواشية ضمن الهدايا التى يبعثون بها إليهم. فعندما أراد حاكم برشلونة وطارغونة تجديد الصلح مع الخليفة المستنصر فى الأندلس أرسل له عشرين طواشياً من أطفال السلاو، وعشرين قنطراً من القراء الثمين، وكان الخلفاء يشكلون منهم فرقاً خاصة لخدمتهم والعناية بأمور القصر والخدمة داخله، وكانت طوابير الطواشية تحتل مكانها بين الطوابير الأخرى بالاحتفال بالجلوس على العرش، أو تعيين ولي للعهد أو سائر المناسبات الأخرى.

كان أكثر الطواشية جلبوا إلى العالم الإسلامى من الأندلس؛ حيث تتم عملية الفصى فى الأماكن القريبة منها، أو من ناحية خورلسان حيث كان بعض تجارها يشتررون العبيد من بلاد السلاو ويقومون بهذه العملية لهم ثم يبيعونهم. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنهم كانوا يشتغلون فى شئون الحكم والإدارة لما يملكونه من نفوذ بسبب حساسية الأماكن التى كانوا يختمون فيها. ٣٣

بين مكة ومصر قلعة نضاهيها في المثانة. جملة مدارها ستمائة خطوة دائراً ما دار، لها ثمانية أبراج قوية البنيان. ولها باب حديدى قوى يطل على الجانب

كما يقال إن بعض المتعصبين المسيحيين كانوا يقومون بإجراء هذه العمليات لأنفسهم لتقل الرغبة الجنسية والشهوة في داخلهم. ولكي يوقفوا حياتهم للحياة الأخروية، ومن أشهر هؤلاء أوريجان Origen الإسكندراني وكان عالماً كبيراً في العقائد المسيحية؛ بل شهدت العصور الوسطى بعضاً من المذاهب الدينية المسيحية التي كانت تقوم بهذه العمليات لوقف حياتهم على العبادة فقط وكان لهم صوتهم المسبوح في إيطاليا.

أما في الدولة العثمانية فقد كان هناك الأغوات البيض أى الطواشية الذين يجلبون من البلدان الأوروبية، ويطلق عليهم أقباغ الألبان، أما الطواشية السود فقد كان يطلق عليهم "خادم أقباغ" أى الأقباغ الخادم، وكانوا يجلبون من الحبشة أو من إفريقيا عامة. كان مراد الثانى أول من استخدم الطواشية البيض للخدمة فى السراى. قاموا بالخدمة فى أول الأمر ثم رويذا رويذا بدأوا يكلفون بأعمال إدارية داخل السراى وفى أجنحة الحريم، وقد وصل البعض من هؤلاء الخدم البيض إلى الوزارة والصدارة العظمى.

أما الطواشية الزنوج فقد كانوا فى أدنى المراتب فى الخدمة، وكان يطلق عليهم (الأدنى). وكان الخادم الجديد يمثل فى بادئ الأمر بين يدي أقباغ دار السعادة أى بين يدي خادم العتبة السلطانية، ثم يسلم إلى "أوضه لاله" أى مربى الأوضة وبعدها يصبح من الخواص. ثم يرسل أقدمهم تبعاً إلى الأقباغ "أقباغ الباب الرئيسى" لقيده فى سجلات السراى.

وكان جميع هؤلاء من الطواشية أى من الخصيان ثم يربون على الطاعة والخضوع، وأول دروسهم تقبيل اليد ممن هم أقدم منهم من المربين، وهم أيضاً من الطواشية. وكان يطلق على الحديث منهم "الأقباغ الأعجمى" أى الذى لا يعرف شيئاً بعد.

وكان خمسة منهم يتولون نوبة الخدمة على باب الحريم فى السراى السلطانية، أو على باب الحريم فى أى قصر. ويطلق على أقدمهم "كلفتة النوبة". وكان أقباغ عتبة السعادة هو السدى يسلمهم المفاتيح ويتسلمها منهم عند تجديد النوبة.

يتلوهم فى المرتبة "الأوسط"؛ وهم بدورهم أربع درجات، أقدمهم يتولى تنظيم النوبتچيات أى النوبات أمام الأبواب ويشرف عليهم، وهم المسئولون عن فتح الأبواب وغلقها... ثم يتدرج الأقدم فيعين غلاماً على الباب الرئيسى إلى أن يصل إلى أن يكون المسئول عن بوابة السراى الرئيسة، ثم يحظى صاحب الحظ الوفير منهم على لقب "أقباغ عتبة السعادة". وهذه أعلى منزلة فى السراى السلطانية. وفى سنة ١١٢٧هـ = ١٧١٥م لما تولى دامت علي باشا والى مصر الصدرة فى عصر السلطان أحمد الثالث، أصدر أوامره بإلغاء نظام الطواشية لكى يتخلص من لقب الطواشى الذى كان يلزمه خاصة وأن الطواشية الزنوج أى السود كانوا يجلبون من السودان إلى مصر ومنها إلى بقية ولايات الإمبراطورية. وبعد أن يتم خصيمهم فى مصر. على الرغم من هذا المنع، فإن هذا لم يمنع الدولة العثمانية وإن كان بشكل أقل.

وكان أقباغ دار السعادة أى أقباغ عتبة السعادة عند تغيير السلطان، أو كبر سن الأقباغ يبعث به للعمل والخدمة فى الحرمين الشريفين.

الشمالي. فوق طاقته العلوية تاريخ لسلیمان خان بالخط الجلی، ولكن لا يحيط بهذه القلعة أيضا أى خنادق. بها محافظ من متفرقة مصر. وسبعون نفرا من رجالات الحصار، وبها مستحفظان من البلوكات السبع. بداخل القلعة ثمانون بيتا عربيا، وبها جامع وحمام. وبداخلها ما يقرب من عشرين مكانا لبيع الاحتياجات الضرورية.

وأمام بوابة القلعة شجرة نبق ضخمة للغاية، كما توجد داخل القلعة أيضا بئر جارية عذبة المياه، عليها ساقية تدار بالثيران والأبقار، وتصب مياهها فى الأحواض الموجودة خارج القلعة والتي يُسقى منها سائر الحجاج ودوابهم. وحول القلعة من جوانبها الأربعة بستان نخل يُسقى من بئر عذبة. وعند وصول الحجاج المسلمين إلى هذه القلعة تُطلق طلقات مدفعية ووابل من الطلقات النارية بجهة وترحينا. ويبقى بها الحجيج لمدة يومين. توقف خلال لياليها - كما هو الحال فى بدرحنين - الفوانيس الشمعية والمشاعل والمصابيح، فتتحول ظلمة الليل إلى ضوء النهار. وفيها أيضا تقام سوق مؤقتة حيث يحضر القرويون من نواحيها الأربع كل محاصيلهم ومنتجاتهم؛ حيث تأتى بها النسوة والصبية والرجال فيبيعون ويشترون ويحققون أرباحا مزيدة وفوائد جمّة لا يمكن التعبير عنها. وكانت غنمستان وكمية من الطعام بما لا يتجاوز ديناراً ذهبياً وستة أسبات من التمر بألف پارة.

وعندما يتم الوصول من أزم إلى هنا تكون بداية حدود مصر. وهذا المكان ليس تحت سيادة الشريف وحكمه بل هى تحت رعاية الشيخ (...)(^{١٣٢}) من مشايخ مصر. وإذا ما ضاع شىء يتم تعويضه من الشيخ. وخلاف قلعة المويلح هذه، فعلى شاطئ البحر توجد قلعة المويلح القديمة. وإلى جانب أنها صغيرة فقد تجمعت عليها عوامل الخراب، ويُقال إن سبب خرابها أن وصل إليها أحد الأولياء الواصلين قادمًا

(١٣٢) رعاية الشيخ: ترك الرحالة أوليا اسم الشيخ بدون أن يذكره على أمل أن يملأ هذه الفراغات فيما بعد، ولكنه لم يتمكن من ذلك. وقد تكرر ذلك فى ثلثيا الكتاب كثيرا وبخاصة للأسماء والتواريخ.

من الكعبة الشريفة وأصابه المرض. وحين أرقده المرض ظنوا أنه يحمل دنائير كثيرة وحاولوا قتله طمعا في الذهب. وعند تقشيره لم يجدوا سوى بقسمطة واحدة، فندموا على محاولة قتله، ويتركونه عدة أيام دون رعاية فشاعت حكمة الله أن يشفى من مرضه ولا يتوفاه الله، فدعا عليهم قائلا: "لَيْتَ الخراب من بئدكم. وألّا تطول أعمار أنسالكم. وألّا تعرف أبدانكم الشفاء من أمراضها"، ومنذ ذلك اليوم وحتى اليوم وأهلها يملكون من شتى أنواع المرض. وأصاب الخراب حتى بنيان القلعة، وظلت خربة. وعلى باب هذه القلعة كتب: "عمر هذا القلعة المتين السلطان برقوق عز نصره" (١٣٤).

وداخل بحر السويس أمام قلعة المويلح هذه بحر زاخر بمختلف أنواع المخلوقات والقشريات والحشرات، بحيث لا يوجد مثل لها في بحر آخر أو بحيرة أخرى. بيا سمك القرش الذى يبلغ طوله أربعين زراعا أو خمسين زراعا. وبحيث تخافه وتخشاها كل الحيوانات البحرية الأخرى، بعضيا يذير عراكا شرسا فى الأعماق مع السفن المتجئة إلى السويس، وإذا ما صادف أى إنسان فى البحر يلتئمه، وكثيرا ما تشعل السفن نارا فى مؤخرتها لتخوفه، فهذا المخلوق يخاف من شعلات النيران ويهرب بمجرد إشعالها. ويحكى أنه فى جزيرة دهلك Dahlek فى بلاد الحبش بلغ قرش من هذا النوع صياد لؤلؤ، ولما كان الغواص شجاعا ومرنا فقد قام على الفور بشق بطن سمك القرش المفترس هذا بالسكين التى كانت معه، ووجد الخلاص والإنقاذ بهذه الوسيلة. وهذه الحكاية مشهورة ومعروفة بين غواصى بلاد الحبش وملاحيتهم. فلو خاف الغواصون من هذا القرش لما اصطادوا لؤلؤة واحدة ولما حصلوا على قرش واحد.

(١٣٤) السلطان برقوق: هو برقوق بن أنصر - أو أنسر - العثماني أبو سعيد سيف الدين الملك الظاهر، أول من ملك مصر من الجراكسة، تولى فى دولة المنصور القلاوونى أتابكة المعسكر وانتزع السلطنة من أخربنى قلاوون الصالح أمير حاج سنة ٧٨٤ هـ، وتلقب بالملك الظاهر وانقادت إليه مصر والشام وقام بأعمال من الإصلاح، وبنى المدرسة البرقوقية بين القرين بمصر، ومدة حكمه أتابكا وسلطانا ٢١ عاما، ومن عماله جسر الشريعة بالخور وقناة العروب بالقنس، وكان حازما شجاعا فيه ذهء ومضاء، مات فى القاهرة سنة ٨٠١ هـ - ١٣٩٨ م. (الأعلام ٤٨/٢).

وأمام قلعة المويلج هذه أنواع شتى من الأصداف والمحار والقواقع والشعابين وأصنام التتبن وأسماء متحجرة وطاسات حجرية، وقواقع وقشور صدفية تشبه قلانس الدراويز، ورخويات تشبه حلوى المجاذيب وقشريات فرائشات وزواحف وكأنها نفير البكدائية^(١٣٥). إن هذه النوافير القشرية بعضها يكون كالجواهر المصقولة، وبعضها يكون كطاسات المنقلة أى أنها تشع ضوءاً وتوهجاً كتنو هج النيران، ولا مثيل لها فى ديار أخرى. وتدخل إلى بحر السويس أسماك ثعابين المحيط التى يبلغ طول بعضها ميلاً. وبعضها يشبه المنارة المضئنة. بعضها ينثر المياه من منخاره وكأنها فسقية أو نافورة يصل رذاذها إلى عنان السماء إذا ما اتجه نحو سطح الماء.

ورأيت فى بحر السويس أمام موقع مويلج هذا نوعاً من السمك له قرون لا توجد إلا على أفراس البحر فقط. إن أنواع أسماك بحر القلزم هذه من العظمة والتنوع والغرابة ما إذا حاولت أن أحرر أو أكتب عما هو موجود منها فى بوغاز مويلج هذا لما اتسع المجال، ولا أمكن تخيلها حيث لا شبهة لها فى أماكن أخرى. وربما يصاب البعض بالملل من ذكر تلك الأنواع التى لم يرها أو يعرفها أو يعرف فوائدها. وما الامتناع عن الكتابة ناتجاً عن العجز وعدم المعرفة، بل للاستمرار فى الرحلة والترحال.

والآن، ومرة أخرى نحو الغرب من المويلج هذه وعلى شاطئ البحر تمتد المناطق الرملية. وبمحاذاة البحر سرنا لمدة أربع عشرة ساعة فى طريق صخرى،

(١٣٥) نفير البكدائية: آلة كان ينفخ فيها البكدائية. وغالباً ما تكون مصنوعة من قرون الحيوانات. وكان البكدائى يعلّقها فى خصره وينفخ فيها إعلاماً بوجوده بين الأهالى. والبكدائية طريقة صوفية، مؤسسها حاجى بكداش ولى. ويرجعها البعض إلى سيدنا على كرم الله وجهه، وك حاجى بكداش فى نيسابور عام ٦٤٥ هـ، وفى عام ٦٨٠ هـ أشار عليه الصوفى أحمد يسوى بالتوجه إلى الأناضول. فاستقر بالقرب من قيرشيز. توفى عام ٧٣٨ هـ. انتشرت طريقته فى قرى الأناضول. ولهم دور كبير فى توطيد الترك فى الأناضول. أفكارها باطنية ولابد من المرشد. وتشكيلاتها سرية. كانت تستخدم مجموعة من الرموز والإشارات الخاصة بها. انتشرت بين الإنكشارية فى الجيش العثمانى. انتسب إليها بعض السلاطين. بها أفرع تختلف عن بعضها.

ولكنه على الجانبين مزدان بأشجار المسواك وشوك الجمل ونباتات عطرية تعبق الجو برائحها التي تتسلل إلى الأنوف؛ فتصيب الأدمغة بالثملان، حتى وصلنا إلى:

منزل عيون القصب

تعنى باللغة العربية يُعبر قصب السكر، أو بنر السكر، بها عيون أو آبار عذبة المياه. هذه المنطقة تحت سيطرة مشايخ قبيلة أولاد النبي صالح (عليه السلام) وحكيم. لو ضاع أى شيء فيم ملزَمون به، ويلزَمون بإحضاره. وما إن تمر ساعة ويقدم العلف للجمال حتى يعزف النغير ويتم السير. وسلوك الطريق مع ظيور شفق النيار. وشاءت حكمة الله أن صادف طالعنا خلال هذا الحج الشريف أن وصولنا إلى طريق قافلة الشام مر سريعا، وأنا أدينا فريضة الحج وكانت عودتنا أيضا مصادفة لعودة قافلة الحج المصرية، ومرت هذه العودة أيضا سريعا. وربما لو تصادف وأن تقابلت القافلتان لحدثت مشكلات، ولكن فى الواقع كان توجه قافلة الشام وسيرها رويذا رويذا، ولم تكن هناك عجلة فى كل زمان، بل كان المسير رويذا رويذا وتم الوصول بقافلة الشام خلال عشرين يوما، وفى المدينة مكثنا اثني عشر يوما، وكم كان هذا لطيفا. وتم المكث فى كسل الطرق ودخلت القافلة إلى الشام مع مولد الشهر الجديد.

أما ذهاب القافلة المصرية إلى الكعبة فكان الأمر يتطلب المسير لمدة ثمان أو عشر أو خمس عشرة ساعة مستمرة. كانت تسير بتأن. وتمكث القافلة المصرية فى مكة خمسة وعشرين يوما يقضونها فى اللجو والصفاء، ولكن عند العودة كانوا يسيرون خمس عشرة ساعة أو سبع عشرة ساعة مستمرة. ويستريحون يومين فقط فى المدينة، ويتعجلون، وأحيانا ما كانوا يجعلون المرحلتين مرحلة واحدة وهم متجيبون نحو مصر. لذا كان هناك القول المشهور والمعروف بين الحجاج الذى خلاصته: "ليكن ذهابك مع القافلة المصرية وعودتك مع القافلة الشامية"، والواقع كان كذلك، ويجب أن يكون كذلك، ولكن الفقير، توجه بسرعة من الشام وعاد مسرعا مع القافلة المصرية، ولكن الحمد لله، فقد ذهبنا وغدنا فى ذوق وصفاء.

ولكن هناك حالة طيبة للحجاج المصريين؛ ففي أيدي الدالين ساعات لتبيل الأوقات الخمسة؛ ففي الوقت الذي تحين فيه الصلاة، فمهما كانت الراحة من دابة أو حمل يوقفونها في أي مكان ويؤدي جموع الحجاج الصلاة، ويقدمون العلف للخيول والجمال، حتى يتناولوا هم أيضا طعامهم ويستريحوا ساعة كاملة، ويشرب آلاف الحجاج القوية اللذيذة ويستريحون. وهم في كل مساء فيما بين المساء والعشاء يحطون رحالهم ويعقلون جمالهم، وبعد أداء صلاتهم ينامون ويكونون كمن قيل ليم "موتوا بأمر الله"، ويصبحون نائمين وكأنهم في وادي أهل الكيف، ونام جميع أفراد القافلة حتى الجمال والدواب الأخرى من كل ذوات الروح، يصيرون وذرات الرمال في سكون تام ونوم عميق وذلك لأن طريق مصر هذا في غاية الأمن والأمان.

وبعد ذلك ما إن يرفع الدليل الذي في مقدمة القافلة رايته حتى يتبعه الآخرون وتتطلق الأبواق وتنفق طبول المسير. وما إن تتحرك مقدمة القافلة حتى يصل الخبر في ظرف ساعة إلى آخر من هم في مؤخرة القافلة من العساكر، فيتحركون هم أيضا، ذلك لأن طرق مصر هذه لما كانت في معظمها تمر في معابر ضيقة لا تتسع إلا لمسيرة قطارين من الدواب بجوار بعضهما البعض، ولذا فإن بداية القافلة حتى آخرها كانت سبعا وثمانين درجة؛ وخلال عامنا هذا تصادف أنه عام الحج الأكبر، فكان حجاج المسلمين كثيرين ولكن لا تكون هناك استراحات من تلك التي يطلق عليها "رادة"، استراحة الساعة هذه عند الذهاب إلى الشام؛ لأنه ليس هناك أمن أو أمان في طريق الشام. فأشقياء البدو فراغنة. وطريق الشام متسع فسيح وعلى جانبي الطريق صحراء ممتدة، والطريق يتسع لسير أربع نختروانات، وعلى جانبها يمكن أن تسير أربعة قطارات، وربما ثلاثة قطارات عن اليمين وثلاثة عن الشمال وتسير الجمال ممتدة. وعن ميمنة قافلة الحج الشامية يسير قائد الميمنة وفي معيته عساكر القدس و نابلس، أما الميسرة فيحيط بها جند الشام، يسيرون ليلاً ونهاراً، ذلك لأن منازل الراحة بعيدة، وهم يؤدون صلواتهم ويتابعون

سيرهم فوراً. ولكن مياههم عذبة ولذيذة وطرقهم صحراوية. ولكن فى العودة، هم أيضا يستريحون فى تلك الاستراحات التى يطلق عليها "زاده" أى استراحة قصيرة ثم يتابعون سيرهم.

أما طرق مصر فهى صخرية أحيانا وأحيانا أخرى تعبر من وادٍ، ومياهها غير عذبة أو لذيذة. ولكن هناك أمنا وأمانا، فيحيط بحجيج مصر جنود سبعة بلوكات، يسير على الميمنة معتمد أى كتحذا أمين الحاج والجنود الشراكسة (الجراسكة). وعلى الميسرة يسير جنود أمير الحاج مع المؤخرة والسباهية Sipah أى الفرسان والكنثيان گونوليان^(١٣٦) Gönüllü Yan (المنطوعة) وجميع المستحفظان والعزبان^(١٣٧)، ومذقعة الخزينة وقطع المدافع والجميع مدحج بالسلاح. يسرون فوق جمالهم ونوقهم وأفراسهم خلف أمير الحج. ويأتى قائد أزلم وفى معيته ست قطع من المدفعية فى أعقاب الجند وكأنهم المؤخرة. وإذا لم يأت جنود أزلم خلف حجاج مصر فلا يكون لهم مؤخرة عسكرية. ولكن فى قافلة الحج الشامية فالمؤخرة مكلفة. ومن مغائم العساكر المصرية حسن حالهم؛ فى الأوقات الخمسة، وفى الأماكن التى يستريحون فيها، يشعلون مشاعليم وفوانيسهم، وفى نصف الليل يقومون بمراسمهم حيث يكلفون بإعداد القهوة ويوزعون على الناس والحجاج الحلويات والسكر والبوريك والفسدق والبندق والجوز والتمر واللبن،

(١٣٦) الكنثيان = گونوليان Gönüllüyan: قوات من المتطوعين الذين ينضمون إلى الجيش خلال الحروب، ولم يكن أى منهم ينتسب إلى الإنكشارية أو إلى القوات النظامية فيما بعد. وكان رئيسهم يطلق عليه "گونللو آغاسى" أى الآغا أو الضابط المتطوع. وكان يحق لأبنائهم الانضمام إلى الإنكشارية. وهؤلاء هم الذين كانوا يقيدون فى دفتر الإنكشارية ولهم علوفة.

(١٣٧) العزبان: تعبير استعمل بشأن الجنود الذين كانوا يستخدمون فى الأعمال المختلفة، وعزبان تعنى من لا زوجة له، وكانت تستخدم فى التشكيلات بلفظ الجمع "عزبان" وقد وُصف العزبان فى خدمات السفن فى النصف الأول من القرن الخامس عشر، وكانوا يشكون من مجموعات من سبعة أشخاص إلى ثمانية. ويحصل الواحد منهم على أربع أقمشة، وقد استمرت تشكيلات العزبان البحرية والقلعة حتى ألغيت الإنكشارية فى عهد محمد الثانى. ياقطين ١/١٢٨.

ويبدلون من العصيدة والعقيدة [السكر المعقود] والفواكه الجافة الشيء الكثير بحيث لا يعلم مقدارها سوى الله.

وجميع الناس يملأون جيوبهم بالحلويات والسكر والبندق، وطالما هم سائرون في الطريق وهم يتسلون بها. وإذا كان المنزل قريباً، فيبقون ساعة ثم ينادى أتباع "ابن حلوان البدوي" الذين يبلغون أربعين رجلاً وقد توشحوا بالوشاح أو الشيلان الحمراء قائلين وهم فوق ربوة عالية: "يا حجاج... الحمد لله... منزل... مأوك قريب وبركاتنا كثيرة". ومن حكمة الله أن هؤلاء البدو يسمعون صوتهم إلى كل الحجاج، فيسعد كل من يسمع النداء حيث إن المنزل أصبح قريباً. ولكن الحكمة في ذلك هي أنه بمجرد أن تسمع جملة الجمال هذا النداء حتى تسرع وتصير كالنتين ذي السبع رءوس، ولا يستطيع المترجل خلفاً أن يلحق بيا بأي حال من الأحوال ولكن قبل نداء هؤلاء المنادين - والله تعالى عالم بأننى قد تحققت من ذلك بضع مرات - فقد كانت بعض الجمال تسير ببطء وسط قطارها من ثقل الأحمال التي يحملونها وكانت تسير وهي نائمة على الرغم من مشاغل بنى البشر التي تشغل خلفها. فقد كانت الجمال تسير وهي نائمة... ولكن الجمال ما إن يروا إن بعض الجمال نائمة تماماً وأنهم قد جاءوا إلى منطقة صخرية صعبة المآل حتى ينبهوا الجمال، قائلين "إيدك... إيدك". ففي الحال تصحو الجمال ويمرون من هذا المكان الصعب.

وهكذا... فإن جملة العكام والسقائين وحملة المشاغل والطبالة والجمع الغفير يمرون وهم يصفقون ويتغنون بعبارة "الله ينصر السلطان"، وهكذا وفي كل ليلة يعظمون الطريق، وإذا ما كان وقت الصبح بقريب ففي ظلمة الليل البهيم لا يصلون إلى المراحل التي يحطون فيها الرحال، لأنهم إذا ما حطوا رحالهم في ظلمة الليل فإن صيحات الجند وولولاتهم تجعل الجميع لا يجد حتى زراعة في هذا الظلام، وربما أن الذين بقوا في الخلف لا يجدون من هم في المقدمة، ويفقدون أثر القافلة ويقعون في عسرة صعبة... ولذا فإذا ما كان وقت الصبح بفريب فإنهم يستريحون

بعد أن يكونوا قد أناخوا الجمال بحمولاتها. وهم عندما يكون السير ليلاً فيم يخافون من شيء ما قبل الوصول إلى مكان الاستراحة.

فى الحقيقة إن طرق مصر آمنة؛ ففيها ينام العظيم والجمال وحتى اللنام، فليس فيها لصوص أو حرامية. ولكن فيما بين الحجاج أنفسهم ومن بين الجمالة والحمالة والعكام والقواصين والسقاء وعازفى الميتران^(١٣٨) وحملة المشاعل - فيما بين هؤلاء لصوص - ومن بينهم وبخاصة فيما بين عساكر أزلم قد اندس وجاء معهم العديد من النشالين والنصابين والحرامية وفى بهيمة الليل فربما يسرقون، فيم يسحبون الجمل من القاطرة وينفلتون من العساكر، وما إن يصحو صاحب الجمل من النوم حتى يجرده حتى من ملابسه، ويتركونه عرياناً ويبلغ الجمل بما يحمل". وكثيراً ما تتطلق وسط سكون الليل الصيحات والصرخات والولولة.

وفى طرق مصر لا خوف إلا من لصوص المنازل هؤلاء. ولا بد من الاحتراز منهم والعياذ بالله. لهذا فإن الموكب المصرى إذا لم يصل إلى مرحلة ما فله لا يحط رحاله ليلاً؛ وإنما أحياناً ما يتوقفون عند وقت صلاة ويكون التوقف وقت الضحى.

(١٣٨) الميتران: مفرداً ميتر، الـ"ميتر" اصطلاح موسيقى يعنى الموسيقىار الذى يقوم بعزف النوبة أمام باب أحد رجالات الدولة العظام أو القواد الكبار. وتجمع على ميتران؛ أى مجموعة الموسيقيين الذين يعزفون السلام الوطنى أو السلطانى أو النوبات المختلفة فى الجيش. وكانوا يعزفون على الطبل والزمر، ويطوفون الأحياء تبشيراً بسير المحمل إلى الحجاز. ويجمعون الهبات والتبرعات لهذا الغرض.

ومنهم "ميتران علم" أى الفرقة الموسيقية المنوط بها عزف سلام العلم، أو السلام الوطنى فى وقت الحرب. و"ميتران طبل وعلم" وهى الفرقة الموسيقية المكلفة بعزف الموسيقى فى القصر السلطانى، وفى حضرة السلطان وقائدها يسمى "ميترباشى". أما الفرقة الخاصة بالسلطان فكانت تسمى "ميترخانة خاقانى" أو "ميترخانة همايون" ويقول هاسر جزء ١ ص ٣١٣: إنها فرقة الشرف التى تعزف أمام الوزراء والقواد وقت الحرب، وتذكرهم طبولاً بأوقات الصلاة أيضاً عند الجهاد. ويبين أدوات الميترخانة كالتالى: ١٦ زورنسا، و ١٦ طبلية، و ١١ مزمارا و ٨ نقارات و ٧ أجراس أى "صاجات" و ٤ أوستانز. وكان عددهم ٧٢ فرداً، أما إذا اشترك السلطان بنفسه فى الحرب فيتضاعف هذا العدد. وقد ألغى نظام الميترخانة مع إلغاء معسكرات الإنكشارية سنة ١٢٤١هـ - ١٨١٦ م، واستبدل به نظام موسيقات الباندو.

ولكن إذا ما كان المنزل بعيداً فإن النفير يعزف وقت الظير ويرحلون. ولكن إذا كان المنزل قريباً فإن نفير التحرك يُعزف. وعلى هذا المنوال تُقطع المنازل والمراحل وتطوى المسافات ويتم الدخول إلى مصر. وخلاصة الكلام؛ أنه قد تم التحرك من منزل عيون القصب وقت العصر. ومرة أخرى في اتجاه الغرب. وعلى ساحل البحر الأحمر كان السير ومشاهدة الجزر المختلفة التي تظهر من بعيد وسط البحر. كانت القافلة أحياناً تسير وسط الرمال وأحياناً فيما بين التراب وأحياناً أخرى تمر فيما بين الصخور. وقطعت القافلة الطريق على هذا المنوال لمدة ٤ ساعات، حتى وصلنا إلى:

منزل مقابر حضرة النبي شُعَيْب (عليه السلام)

إن الحجاج المسلمين يكثر في وادٍ متسع تكثر فيه البساتين والحدائق وبساتين النخيل. وعلى الجانب الشرقي من هذا المكان وعلى بعد ثلاث آلاف خطوة توجد قصبة معمورة وكأنها بستان إرم. بها جامع وحمام مختصر. وحولها قرى عامرة معمورة بلا حصر أو عدد. ومن جملة هذه القرى قرية حضرة سيدنا شُعَيْب (عليه السلام) وهي قرية عامرة. وجميع سكانها من ذرية حضرة سيدنا شُعَيْب ونسله ويعيشون فيها.

ومن أعمدة السكان الذين يعيشون على حدود هذه الناحية أولاد بنى شاهين^(١٢٩)؛ فلو ضاع شيء على هذا الطريق فهم ملزمون به وبارجاعه. وفيها منزل حضرة شُعَيْب؛ وهو عبارة عن مغارة من بساتين النخيل. وما زالت الآبار التي حفرها بيديه الكريمتين قائمة وظاهرة، وإن كريمتي حضرة سيدنا شُعَيْب وهما ترعيان الغنم أحضرنا أغنامهما للسقى، ولكن كانت هناك صخرة عظيمة على

(١٢٩) أولاد بنى شاهين: من القبائل العربية المنتشرة في الشام وفلسطين وسيناء، وتمت أصولهم إلى آل شاهين من بنى خالد. وكانوا - وما زالوا - في نواح أظننها الجليل في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية. (انظر: معجم قبائل المملكة العربية السعودية. تحقيق حمد الجاسر - القسم الأول [١- ظ] ط ١ الرياض. ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).

فوهة البئر، ولم تستطعها رفعها، فوقفنا وقد تملكتهما الحيرة، وشاءت قدرة الخالق أن كان سيدنا موسى [عليه السلام] فى سياحته، وعندما وصل إلى هذا المكان شاهد حيرة هاتين الفتاتين، وعلى الفور أدرك السبب ونهض بإزالة الصخرة المذكورة، وأسقى جملة أغنام سيدنا شعيب، وعندما عادت الكريمتان إلى دارهما ذكرنا ما حدث لوالدهما، فأجابهما حضرة سيدنا شعيب بأننى أعلم أن من يدفع هذه الصخرة لا بد وأن يكون صاحب قوة خارقة ومعجزة. وعلى الفور وصل إلى حضرة سيدنا موسى (عليه السلام) وزوجه من إحدى كريمته.

وظل سيدنا موسى زمناً طويلاً صهراً لسيدنا شعيب، وكان يرفع له أغنامه التى كانت تبلغ عدة آلاف، فقد كان سيدنا شعيب يملك أغناماً كثيرة وكان نبياً منعماً جداً. ولكنه كان ضريباً منذ أن ولدته أمه، ولم يكن قد ولد نبى غيره أسمى. وكان حضرة سيدنا يعقوب (عليه السلام) أيضاً ضريباً، ولكن هذا كان نتيجة حزنه على فراق سيدنا يوسف (عليه السلام) ولكن بعد أن وصل إلى ابنه بعد سبع عشرة سنة فى مدينة الفيوم هو وأهله وعياله، احتضن سيدنا يوسف [عليه السلام] حتى عاد النور والضياء إلى عينيه الغزليتين، ورأى فلذة كبده.

ولكن سيدنا شعيباً نزل من رحم أمه مبصراً وصار ضريباً. وما زالت فى هذه القرية أغنام لا يمكن أن تشبهها الأغنام الأخرى التى كان يحضرها الحجاج المسلمون، ولها طعم فى لذة الأغنام الرومية ذات الصوف الأجد، ولها رائحة مسكية، وحتى لو أكل الرجل غنمة واحدة لما شعر بقل أو تخمة قط، فهى - أى أغنام هذه القرية - سريعة الهضم. إن سكان هذه القرية على هذا الزعم لأنها من سلالة الأغنام التى رعاها سيدنا موسى فى هذه المنطقة.

زيارة بنات حضرة سيدنا شعيب

إن بنات سيدنا شعيب الثلاث مدفونات في غار هناك، وهذا المدفن مزار للحجاج المسلمين، وعلى الجانب الجنوبي لهذه القرية وعلى شاطئ بحر القلزم هناك مدينة "مذنين"؛ كانت مدينة عظيمة، حتى أنها كانت من مدن مصر الأثرية العظيمة، وأثارها تدل على أنها كانت مدينة معمورة، والفقير قد زارها بهذا القصد، وما زالت فيها آثار لقباب وقلاع وأبنية عظيمة. وبها آلاف الأعمدة التي ما زالت رءوسها ظاهرة باهرة.

وقد بعث النبي لقوم هذه المدينة، ولما لم يؤمنوا بسيدنا شعيب أهلكتهم صاحب العزة والقدرة وخرَّب ديارهم. وكان شقيق سيدنا شعيب من سكان هذه المدينة وكان يسمى مدين، ولما كان هو الذي بنى هذه المدينة فلذلك سميت بمدينة مدين. وفي الآية الكريمة ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ [هود ٨٤/١١]. فالمقصود من هذه الآية الكريمة مدينة مذنين. ولقد كانت هذه المدينة عامرة حتى نزل العذاب على أهل مدين هذه فصارت خرابًا. وحسب قول المؤرخين فإن نسبهم يعود إلى أزريا Azerya بن سام. وقد جاء حضرة سيدنا شعيب إلى بيت المقدس وحج به. ثم سكن في "خطبين"؛ وهي قرية تقع في الجانب الجنوبي لبحيرة "مبنة" بالقرب من مدينة طبرستان ثم توفي بها. وهو مدفون في أعقاب عظيمة داخل صخرة عظيمة هناك. أمّا بناته فمدفونات في قرية "شعيب النعم"؛ ولما كانت من حرم رسول الله فلا يُسمح بالدخول داخل المغارة، بل تتم الزيارة من الخارج، وفي هذا المحل يحفر كل فرد أمام خيمته بئرًا فتخرج منها المياه العذبة. وهذا لا يحدث مثله في قرى أخرى. فما إن يتم الحفر على عمق شبرين أو ثلاثة حتى تظهر عيون المياه كالمرآة الرقراقة.

وجميع سكان القرى الفقيرة المحيطة يدبرون احتياجاتهم من المأكولات والمشروبات من هذه القرية. ويحضرون عندهم اللذيق ويقدمونه غنيمة للحجاج. وليست هناك على طريق مصر مياه لذيذة وعذبة في عذوبة مياه هذه العيون ولذتها إلا مياه "الزعرانية"، ولكن طريقها بعيد، وهي بعيدة عن الطريق، ويقولون

ان عين الزعفرانية هي عين قد حفرها سيدنا موسى بيديه الكريمتين بينما كان يرعى الغنم. وبسبب لطافة هواء وعذوبة مياه "شعيب النعم" هذه فإن الحبيب والمحبوبة فيها في غاية اللطافة. وجميع الحجيج يملئون قلوبهم منها. وفي وقت العصر يُعزف نغمة الرحلة... ونتجه أيضا نحو الجانب الغربي، ونمر أحيانا في صحراء وأحيانا وسط رمال ووسط أشجار المسواك، ونستمر في طريق سلطاني أي رئيس لطيف لمدة ١٤ ساعة حتى نصل إلى:

منزل شرف بني عطية

يُطلق على القبائل التي تسكن هذه المناطق "بني عطية"؛ لأنهم ينتسبون إلى ابنة سيدنا هود (عليه السلام) التي كانت تُسمى "عطية"، وكانت نجما منيرا. وهم فرسان بدو، خيولهم كحيلانية، ويتجاوز عددهم عشرة آلاف. وهم مسيطرون على هذه النواحي حتى نواحي الشام. وهذه المناطق هي دعامتهم. وتوجه عطايا السلطان إلى بني عطية. طريق تكسوه أشجار شوك الجمال وأشجار المسواك، وهو وادٍ لطيف. وفي هذا المكان أيضا فإن بعض المهربين والمستقبلين يحضرون هداياهم ويبيعونها هنا للحجاج. كما يحضرون معهم المياه العذبة، لأن مياه هذه المنطقة مالحة.

وقد نهضنا أيضا من هذا المنزل واتجهنا ليلاً إلى شاطئ البحر، وأحيانا نكون بعيدين عن البحر، وأحيانا قريبين منه، واستمر السير تسع ساعات. حتى وصلنا إلى:

منزل ظهر الحمار

هكذا باللغة العربية ظهر الحمار، لأنها في حقيقة الأمر منطقة رملية فوق ظهر صخري. وهي عبارة عن قرية عربية مكونة من خمسين بيتا، وسط أشجار النخيل السامق الذي يبلغ آلاف كثيرة. مياهها أيضا مالحة. ولكن حيواناتها نافعة. يمكن بيع الحجاج المصريون وهم متجهون إلى مكة. ولكن مكثهم قصير،

واستراحاتهم بدون إنزال أحمالهم، وعندما يتحركون يكون مسيرهم موازياً لساحل البحر، والاتجاه كما هو المعتاد كل يوم نحو الجانب الغربى.

وفى هذه المرة كان البحر مانعاً؛ مما اقتضى الاتجاه نحو الشرق على ساحل الخليج، فساحل البحر صخرى صعب مكسوٌ بصخور منساء؛ مما كان يضطر الحيوانات أن تخوض فى البحر مما يسبب متاعب وإرهاقاً لبنى آدم والحيوانات معاً، ولما كانت هذه المسافة مسافة مرحلتين فقد اضطررنا إلى الاتجاه بسرعة نحو منزل كان الضباب يكسو، وبعد مسيرة يومين كانت الطرق التى نسلكها تتراءى منها الجبال الواقعة على الجانب المواجه من الخليج.

ولكن من سلاطين مصر السابقين ظل يعمل كل من السلطان فرج^(١٤٠) والسلطان برقوق لسبع سنوات أو لثمان سنوات، حتى ردموا فى هذا الخليج؛ وذلك حتى لا يلف حجاج مصر ويدورون لمسافة ست مراحل حول هذا الخليج متحملين مشاقاً وصعباً جمّة. وقد نفذوا هذا بقوة السواعد وهمة النفوس، ولم يكونوا فى تلك الأزمنة يفكرون فى المكاسب أو فى الأمور السهلة، ولم يقضوا أعمارهم فى التمتع والتلذذ بالطيبات. فلقد ردموا الأماكن الرملية الرخوة على جانبي هذا المضيق لمسافة ألف ذراع فى كل جانب، وفى الوسط بقى مكان يبلغ مائة ذراع طويلاً وبعمق عشرة أذرع.

(١٤٠) السلطان فرج: هو الملك الناصر فرج بن برقوق (الظاهر) ابن أنص (أو أنس) العثماني أبو السعادات زين الدين، من ملوك الجراكسة بمصر والشام، بويغ بالقاهرة سنة ٨٠١ هـ بعد وفاة أبيه، وكان صغير السن. امتنع بعض ملوك الشام عن الطاعة له فخرج بالجيوش لقتالهم سنة ٨٠٢ هـ فلقوه فى الرملة بفلسطين فهزيمهم ودخل دمشق وأعلن الأمان، وهدأت الأمور وعاد إلى مصر. وفى سنة ٨٠٣ هـ ناوش، طلائع تيمورلنك فى الشام، ثم أظهر أنه مضطر للعودة إلى مصر فترك دمشق نهياً لهم. قيل إنه أفرط فى قتل ممالك أبيه فخرج بعضهم إلى غزة وبلاد الشام، والتف حولهم كثيرون من جبل نابلس وغيره، وانتظمت له الأمور سنة ٨١٤ هـ بعد اضطرابات عدة، ولكن باقى الممالك نادوا بخلعه حتى تم لهم ذلك فقيده وسجنوه فسي قلعة دمشق، ثم أثبتوا عليه الكفر وقتلوه فى القلعة. (الأعلام ٤٠/٥).

وإذا كان سلاطين آل عثمان قد أصدرُوا فرماناتيم لواحد من وزراء مصر وتابعوا الحفر لكانت مهمة عظيمة، وبخاصة أن البوغاز المذكور على جانبيه صخور ملساء. ويمكن تقنيًا ببضعة ألغام من الألغام المعتادة في مثل هذه الأمور، وكذلك كان يمكن ربطه بالأجزاء المتينة في كلا الجانبين. وكان من الممكن أن الصخور المفتحة على كلا الجانبين تنصب في البحر. لم تكن هناك حاجة لحمل صخور صلبة وإحضارها من تلك التي تمثل غاية الأذى للجمال، ولكن السلف لم تكن لهم مهارة أو دراية كافية بهذه الألغام. كانت هذه العلوم في تلك الفترة وفقًا على البنادق وأل عثمان فقط.

وإذا كان بوغاز 'قم' هذا الخليج قد وصل إلى ظهير الحمار لكان في ذلك اختصار للحجاج المصريين بمسافة ست مراحل في الذهاب والإياب، ولما كانت هناك حاجة للمرور إلى العقبة التي تعرف بأنها برزخ المصائب في كل الأفاق، ولما كانت هناك حاجة أيضًا للمرور على قلعة العقبة، بل كان التوجه يتم مباشرة إلى ظهير الحمار، فلما كانت هناك مشكلة تم المكث في شرف بني عطية لمدة تسع ساعات. وعلى هذا المنوال هناك ثلاث عشرة مرحلة على طريق مكة إلى الطريق المصري. وبعد قضاء يومين في المدينة المنورة، كن من الممكن - مثل قافلة الحج الشامية - البقاء هنا اثني عشر يومًا، ولكن من الممكن الخلاص من العذاب الأليم لمرحلة العقبة. والله تعالى فلييسر هذه المهمة العظيمة والخيرات الجليلة لسلاطين آل عثمان... آمين... يا معين.

وبعد ذلك نهضنا من ظهير الحمار عند وقت الظهر وفي الأماكن التي استرحنا فيها... ونحن متجهون نحو ساحل الخليج المذكور على الجانب الشرقي ظهرت لنا قوة عسكرية على الطرف الآخر وكانت عظيمة التسليح والزينة... وما هم إلا عساكر العقبة الذين قدموا للاستقبال، والتقى بهم سائر الحجاج. واستمر المسير لمدة تسع ساعات حتى خرجنا من ظهير الحمار، ووصلنا إلى:

منزل قلعة العقبة

أمر بننايا السلطان سليمان خان سنة (...) وعند دخولنا إلى هذه القلعة أطلقت المدفعية من داخل القلعة عدة طلقات، وكذلك أطلقت البنادق عدة دفعات؛ فرد عليهم جنود العقبة بالمثل بحيث صار احتقالا عظيما. تم البقاء هنا يومين. وكان قد صدر الفرمان، فتم الشروع في ترميم القلعة وتعميرها، وتم التفتيش ورؤية الذخائر والمهمات. وقد أمر السلطان سليمان خان وزيره المقبول والمقتول إبراهيم باشا^(١٤١) ببناء سبعة أبراج داخل قلعة مصر. ووضع فيها الإنكشارية^(١٤٢). وقد تم بناء هذه

(١٤١) إبراهيم باشا: كان صدرا أعظم في عهد السلطان سليمان القانوني. تولى الصدارة سنة ٩٢٩هـ وظل بها ١٧ عاما. من أسرى البنادق. ترقى في المناصب ورافق السلطان سليمان في الكثير من المعارك ولكنه اختلف معه حول فتح بغداد. وكان ذلك سببا في إعدامه سنة ٩٤٢هـ.

(١٤٢) الإنكشارية: لغويا 'بني جري'، ويطلق عليهم الأوروبيون Janiser. أما عسكريا؛ فيو اسم يطلق على فرق المشاة النظاميين التي كونها الترك العثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي الثامن الهجري، وأصبحت أكبر قوة عسكرية عندهم، وقد مكنتهم من الفتوح الواسعة التي قاموا بها.

ويطلق عليهم أحيانا اسم الـ 'قابي قولي' أي عبيد الباب السلطاني، أو الرقيق السلطاني، نظرا لارتباطهم بالسلطان شخصيا. وكانت هذه التشكيلات العسكرية موجودة عند السلاجقة والمماليك، ولكن العثمانيين أدخلوا عليها الكثير من التنظيم والانضباط، خاصة في عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩م = ٧٦٢ - ٨٧٩٢) وكان تدريبهم وتعليمهم العسكري مركزا على الطاعة وتحمل الجوع والعطش وكافة الصعاب. وترقيتهم مبنية على الشجاعة والطاعة، ولذلك أثبتت الإنكشارية وجودها في كل فتوحات الدولة العثمانية سواء في آسيا أو في أوروبا أو في شمال إفريقيا.

أما لباس الرأس عندهم فيو قلنسوة من الصوف الأبيض، وتنتلي من خلفها قطعة من القماش رمزا للبركة التي منحها إياهم مرشدهم الشيخ حاجي بكداش كما يعتقدون. وعلى لباس الرأس شارة عبارة عن ملعة من الخشب، وكانت ألقاب الضباط بمختلف مرافق المطبخ كالجوراجي باشا (رئيس طهاة الحساء) وأشجي باشا (رئيس الطباخين)، وأهم الأشياء في الكتيبة هو القدر الكبير (الغازان). وكانوا يجتمعون حوله لا لتناول الطعام فقط؛ بل للتشاور، وكان قلب القدر دلالة على العصيان والثورة.

وكانت الفرقة منهم تسمى أوجاف أي المعسكر أو الموقد، وتنقسم إلى وحدات حربية تسمى كل منها 'أورطة' أي فرقة، وهي ثابتة العدد، مختلفة القوة، تتراوح من ١٠٠ - ٥٠٠ - ٣٠٠٠ جندي. وهذه الفرقة تقيم في ثكنات تسمى 'أوضة'.

القلعة أيضا في هذه السنة، قريبة من شاطئ البحر. ثرية البناء في فضاء رملي مسطح ومنخفض. قلعة متينة عامرة... مفرجة. على شكل مربع. دائر مدارها أربع مائة خطوة. بها ثمانية أبراج، تطل على الغرب من خلال باب حديدى مكتوب عليه تاريخ سليمان خان. داخل القلعة يوجد جامع وحمام وطاحونة مختصرة تديرها الخيول. بها خمسون منزلاً للأفراد. بها محافظ من متفرقة مصر، وستون رجلاً من رجال الحصار. ولا يوجد بها خندق. تحيط بجوانبها الأربعة بساتين النخيل. وتم حفر بئر على عمق نراع أمام كل خيمة، يخرج منها الماء العذب. وعند قبلة القلعة توجد بئر عظيمة وبركة كبيرة مياهها رائقة وهوؤها أيضا لطيف، وفي شرق القلعة يقام سوق كبيرة وكانت سوق دوليان^(١٤٣) Dolyan، وعلى جوانبها الأربعة يسكن بدو قبيلة بنى شاهين، وجميعها مناطق معمورة وعامرة.

وجملة العربان والأطفال والصبيان والنسوان يحضرون أمتعتهم، يبيعون ويشتررون من الحجيج، ويكسب الجميع مكاسب عظيمة لا يمكن التعبير عنها. وتحضر الآلاف من الجمال المأكولات والمشروبات من مصر ومن غزة والرملة وقاقون وعجلون و نابلوس و خليل الرحمن والقدس الشريف بحيث يصير شينا

(= غرفة = عنبر). أما في ميدان الحرب فكانت الفرق تقيم في سككات عبارة عن خيام واسعة مستديرة، وقد نقشت عليها شاراتهم المميزة لكل منهم. كان يرأس الفرقة قائد رتبته "كجورى أغاسى" أى أغا الإنكشارية. وهو يتولى، فوق عمله الخاص، أمر الشرطة وحفظ النظام في المدينة.

لقد تنوعت أسلحتهم الحربية في الدفاع والهجوم تبعا للزمن الذى يعيشونه. ولكن لكثرة مشاكلهم وعصيانهم فى فترات ضعف السلاطين، السلطة المركزية، ومعارضتهم لكل ما هو جديد أو أى تطوير فى الجيش بحجة أن هذا بدعة وكل بدعة ضلالة - عندما أرادت الدولة أن تأخذ بالنظام الجديد، مما دفع السلطان محمود الثانى بالقضاء عليهم فى ٩ من ذى الحجة ١٢٤١هـ = ١٠ يونيو سنة ١٨٢٦م فى أت ميدانى، وفى مذبة شسيبية بتلك التى نفذها محمد على الكبير ضد المماليك فى القلعة.

وكانت معسكراتهم تنتشر فى كل الولايات العثمانية، وتسمى باسم الولاية الموجودة فيها؛ فهناك إنكشارية الشام، وإنكشارية مصر وإنكشارية اليمن... إلخ (انظر: باقالين).

(١٤٣) سوق دوليان Dolyan: يبدو أنها سوق مشهورة رأها نثرخالة أونينجلى وأعجب بها، وضرب بها المثل هنا دليلاً على وفرة المعروض من المبيعات.

يصعب التعبير عنه. ويقوم من يشاء من الحجاج بتغيير جمالهم الضعيفة وتبديلها، وتتف الجمال عند عين مياه العقبة ويشرب حتى الارتواء من الماء العذب الزلال، ويحمل الحجاج ما يشاءون من الأرزاق. وتصل مقدمات فرق الجند والحراسة أولاً إلى العقبة، فيقيمون الخيام عند وسط دبودار بلى.

وجميع الجنود مدججون بالسلاح، ويقفون وهم على أهبة الاستعداد. فلربما يحتاجهم العدو وهم عند مضيق العقبة، أو يغتتم العدو فرصة المرور من هذا الممر الضيق ويعلنون عليهم الحرب والجدال. فأولاً تعبر جنود العقبة لإصلاح ذات البسین إذا ما نشب أى خلاف، ثم تتلوهم قوة أمير الحاج أولاً. فإن الجانب الشمالى للقلعة يطل على البحر، ويستمر السير فى مناطق رملية فى اتجاه الشمال لمدة ساعة. أما الطريق الرئيسى لفم العقبة الصخرى فهو طريق صخرى، كل صخرة فيه وكأن عزم فرهاد^(١٤٤) جعل كل واحدة منها تتجه إلى أوج السماء. ويتم عبور هذه الصخور، وينزل عن الجمال ويتم التنزه فى وديان هذه المنطقة لمدة نصف ساعة. ثم يتم بعد ذلك الاتجاه نحو العقبة الكبرى وهى (نعوذ بالله) علامة من علامات يوم المحشر. وفيها يتم السير على الأقدام من قبل الجميع؛ الصغير والكبير والصبيان والنسوان. وكم هو صعب على أولئك السيدات الرقيقات الصعود إلى أعلى فى الطريق الرئيسى إلى ما يقرب من سبع مائة وخمسين خطوة، وبينما الجمع يصعد نحو المكان المسمى "ديودار بلى" يكونون وكأنهم يصعدون فى طريق علوى نحو أوج السماء لمسافة سبع مائة وخمسين خطوة أو كأنهم فى صعود نحو السماء داخل ميزاب يتجه إلى أعلى. وعند هذه المنطقة تكون البغال غير قادرة على حمل الأمتعة ونقلها خلال صخور "ديودار بلى"؛ مما يجعل جميع من عبروا ينتظرون أمتعتهم لفترات طويلة.

(١٤٤) فرهاد: كان عاشقاً لشيرين، وتروى أساطير الفرس أخبارهما نثراً وشعراً؛ كانت شيرين ملكة وهى زوجة كسرى الثانى وذات أصل مسيحي. وكان فرهاد من كبار موظفى بلاط زوجها الذى علم بقصة الحب، طلب منه الزوج أن يحفر قناة لتوصيل الحليب إلى محبوبته. وعندما أنجز الميمة عرف الحقيقة، فلقى بالآلة التى كانت فى يده إلى أعلى فوقع فوق رأسه وقتلته. أوحى قصة حب فرهاد لشيرين وموته من أجلها مقطوعات غرامية وجدانية كثيرة لشعراء الفرس والترك وسواهم.

إن هذا المكان كأنه عنق بعير، فيؤى مطلع ضيق ومعوج، بوغاز جانبه الشرقى وادٍ منحدر فى هذا الموقع تُنتك الجمال والبغال والدواب أضعاف أضعاف ما تحمله من مكة حتى هذا الموضع، وأحياناً ما يتم الإلقاء ببعض الجمال التى لم تقو على عبور هذا الممر العلوى؛ فينقون بها إلى أسفل بعد خنقياً، فتطير إلى الأعماق وكأنها طير يطير. وتتطاير أشلاء الحيوان المسكين، وبعضها يسقط بما يحمل إلى أسفل من الزحام، ويبقى صاحبه وقد سيطرت عليه الدهشة. وبعض الجمال كانت تنفق؛ فيحلون أغلالها وينزلون أحمالها ويلقون بها إلى أسفل. وكفى نفق فى هذا النفق من الحمير والبغال والجمال والخيول منذ أن فرض الذهاب إلى مكة المكرمة...! كم هو مكان صعب، البعض يشبهه كعنق البعير المعوج، أو أنه بوغاز ممر ضيق جملته ثلاثمائة خطوة، ومحرر عليه ترميمات السلطان الغورى^(١٤٥) والسلطان سليم خان وتطيرهما لهذا البوغاز؛ فقد تم تحرير ذلك على لوحة من الرخام الأبيض المربعة. ولم يتم تطهيره بعد ذلك إلا فى عهد السلطان مراد الرابع الذى أمر رضوان بك أمير الحاج بصرف مبالغ طائلة. وعدا هذا لم يتم تطهيره بمقدار ذرة واحدة. ولكن لو استخدموا فيه أيضاً الألغام المتفجرة لصار طريقاً سلطانياً أى رئيساً.

خلاصة الكلام وحاصل المرام أننى العبد الفقير سيّاح العالم أولياً الذى زار وكشف عن ثمانى عشرة سلطنة خلال سياحاته التى امتدت ٣٣ عاماً، لم ير فى حدة وارتفاع وضيق وخطورة مثل هذا المكان فى أى مكان آخر. فاللهم احفظنا. وليس من الميسر السير بالجمال فى هذا الطريق لأن أمانات العباد وحقوقهم أمر

(١٤٥) السلطان الغورى؛ هو قانصوه بن عبد الله الظاهرى نسبة إلى الظاهر خوش قدم الأشرفى، نسبة إلى الأشراف قايتباى الغورى أبى النصر سيف الدين الملقب بالملك الأشراف سلطان مصر، جركسى الأصل مستعرب خدم السلاطين وولى حجابة الحجاب بحلب. ثم بويى بالسلطنة بقلعة الجبل فى القاهرة سنة ٩٠٥ هـ، بنى الآثار الكثيرة وكان مولعاً بالموسيقى والأدب، قصده السلطان سليم العثمانى بعسكر جرار، فقاتله قانصوه فى مرج دابق على مقربة من حلب؛ وانيزم عسكر قانصوه فأغشى عليه وهو على فرسه فمات قيراً وضاعت جنته تحت سنايك الخيل. مات سنة ٩٢٢ هـ، الأعلام ٥/١٨٧.

مُشْكَل، ولكن السير فيه بالخيول والبغال أمر ممكن، وما إن يتم الخروج من المكان المذكور باسم "ديويدار بلى" Düveydar Bcli والصعود إلى سطوح العقبة فهناك مَطْلَع حاد لمدة ساعتين، ولكن المرحوم رضوان بك طيّر هذا المكان بحيث لا يكون هناك أى بشر يغدر به فى هذا المكان، فرحمة الله عليه. ولكنه مرتفع سَماوى أى يصل إلى عنان السماء... وأحياناً ما كان يسمع صدى صوت الغرباء على وجه السماء، أصوات مرحّبة بسيدنا إدريس وسيدنا عيسى (عليهما السلام) وسيظل هذا الوضع إلى آخر الزمان... والمعروف أن تجار الهند والسند واليمن وسبّاحهم يعبرون عقبة العقبة هذه المشهورة فى كل الآفاق بعقبة الجمل... وغيرها، فكل العقبات الممتدة من بين مصر ومكة ميسرة. وكما سبقت الإشارة فإنه لا بد من المرور والسير خلال هذه المراحل الست ذهاباً وإياباً. فيه فائدة ففى كل يوم يتم صرف ألف دينار ذهبى، وإذا لم يكن هذا مُيسراً، "فَالْحَقِيقَةُ الْمُجَرَّدَةُ هِيَ السُّلْطَنَةُ الْعُظْمَى".

وإلى جانب ما سبق فإن الهجّانة يجوبون المنطقة لتحقيق الأمن، وبعد التقدّم إلى الأمام تتم الاستراحة ما بين سبع ساعات أو ثمان تكون ما بين النوم والاستراحة. وبعد هذا العناء الذى تتعرض له القوافل يتم التوجه من قلعة العقبة إلى مرحلة:

منزل سطوح العقبة

مرحلة ممتدة من السهل إلى التدرج العلوى، تستغرق يوماً وليلة للعودة بها، حيث يضطر الحجاج للانتظار من شدة الزحام، وما إن يتم عبور الجميع يتجمعون على هذه السطوح التى هى عبارة عن صحراء عظيمة الاتساع ممتدة من جبل العقبة حتى نهايته. لا يوجد بها أى ماء، إنما يُستجلب من البدو الذين يُحيطون بها، أو أن تؤمن المياه اللازمة من قلعة العقبة قبل التحرك. وأحياناً يكون من حسن الطالع ومن رحمة الله أن ييطل المطر وتتكون الخلجان ولكنها لا تمكث طويلاً فى

هذه الجبال من شدة الحرارة... ومن لطف الله أيضا أن حرارة هذه المناطق يتحملها المرء أكثر من شدة البرد، فلا بد من الاحتماء من شدة المطر ومن شدة البرد إذا صادف موسم الحج موسم الشتاء؛ لأن برده هذه المناطق شديد ومؤثر جدًا بحيث يمكن أن يؤدي بالمرء إلى الهلاك. وتتجمع جموع الحجاج في هذا المنزل ويُطلق النغير استعدادًا للرحيل، ويتم الاتجاه نحو الغرب والنزول من هذا المطلع إلى أسفل إلى تلك الطرق التي تم تطهيرها وتعبيدها، وتُشاهد على الجانبين زهور النباتات البرية والجبلية. ويتم العبور من بين النخل العتيق بعد جمع الكثير من هذه الزهور، وبعد السير أربع عشرة ساعة يتم الوصول إلى مرحلة:

منزل أبيار علانية

مكان واسع فسيح، به أبار ذات مياه عذبة وكأنها ماء الحياة، يطلقون عليها أبيار علانية. والأببار جمع بئر، ولكن الكثير من أبارها مع مرور الزمن امتلأت بالرمال، وهذه المناطق أيضًا تحت سيطرة أولاد شاهين، وقد أطاعوا السلطان سليم وانقادوا له، ومنهم أيضًا من كان يعارض مصر ويتحصن بعقبات العقبة ويظلمون بها... ومع أن جوانبها الأربعة معمورة إلا أن مأكولاتها ومشروباتها تأتي من الأطراف والأكتاف المجاورة، ويحصل عليها الحجاج... وعند هذه المرحلة يتم انفصال حجاج القدس وغزة ويتجهون نحو القدس في قافلة عظيمة. ومن هذه المرحلة ينطلق المبشرون^(١٤٦) Müjdeciler نحو مصر. يصلون إلى وزير مصر وينالون الخلع الفاخرة وينالون العطايا والمراتب العالية.

(١٤٦) المبشرون Müjdeciler مزده جيلر: مصطلح إداري كان يُطلق على من يبلغ السلطان خبر وصول قافلة الحج وخبر عودتها. كان يقوم بها بعض ممن يعملون في خدمة أولياء العهد. وكانوا يرافقون القوافل في الذهاب والعودة ويبشرون بسلامة الوصول. واستمرت هذه الأصول حتى انفصال الحجاز عن الدولة العثمانية. وكان المبشر يتلقى الإحسانات والعطايا من السلاطين والولاة. وكان رئيسهم يسمى "مزده جي باشي" أي رئيس المبشرين. وكان منهم مبشر أول ومبشر ثان. ولهم مخصصاتهم ضمن مصروفات قافلة الحجيج.

ويستمر السير من أبيار علانية نحو الغرب فى طرق صخرية ووسط أشجار المساوك والنبق والخروب... ويستمر السير وسط هذه الطرق الصخرية المشجرة طوال الليل وحتى الصباح. وبعد خمس عشرة ساعة يتم الوصول إلى:

منزل قلعة نخل

وهى من مآثر (...) سنة (...) بنيت على شكل مربع، بنيت من الحجر. مدارها دائرة ما دار ثلاثمائة خطوة، لها محافظ من متفرقة مصر، وفى معيته جنود من السبع بلوكات، بيا ست قطع مدفعية بذخائرها. للقلعة بوابة، بداخلها جامع وحوالى عشرين بيتاً للأنفار. وبداخل القلعة مصادر مياه.

وهذه القلعة تقع داخل واد، وجملة الحجاج يحلون ويحطون رحالهم داخل المراعى والرمال لكى يستريحوا. ومع أن هذا المكان قريب من طور سيناء فإن كل البرايا والرعايا يحضرون مأكولاتهم ومشروباتهم وثمارهم اللذيذة من النواحي القريبة ويبيعونها للعساكر. وقد قام الفقير بأخذ خمسة رجال من المشايخ البدو ومعى اثنان من مماليكى، وكنت أنا الفقير معهم فصرنا ثمانية رجال، وتوجينا نحو طور سيناء كما سألين، أولاً شاهدنا أشجار الخروب داخل واد من الحجارة بعد أن توجهنا إلى الجنوب وبعد أن خرجنا من قلعة نخل... وبعد هذه المشاهدة سرنا خمس ساعات حتى وصلنا إلى:

أوصاف منزل جبل طور سيناء

تُطلق طور على مجموعة من الجبال فى سيناء. وأصبحت كلمة طور علماً على مجموعة من الجبال القريبة من القدس الشريف وطور سيناء. وعلى قمة الجبل الشاهق الذى يلامس السماء فى جبل الطور توجد أطلال مدينة مدين لسيناء شعيب[عليه السلام]. وجبل العقبة يبدو أسفل هذا الجبل، كما تبدو من بعيد زرقاء مياه البحر الأحمر (القلزم)، ولكن على الجانب الأيسر من البحر وعلى بعد مسيرة ثلاث ساعات وسط الجبال يوجد مكان (...) هو ذلك المكان الذى كلّم فيه الخالق

تبارك وتعالى حضرة سيدنا موسى ثم سيدنا عيسى [عليهما السلام]. ولهذا أقام الإسكندر البطليموس فوق ذروة هذا الجبل ديراً عظيماً بحيث لا يوجد مثيل له على أرض الفلك الدوّار. وما زال هذا الدير مزداناً ومزيناً بحيث إن كنيسة القيامة في القدس الشريف وبيت الله "الكعبة" بجواره، وكأنيما من ناحية الزينة ذرة على وجه الشمس. وبه رهبان وقساوسة وبطارقة من أقوام ستة وعشرين قوماً من الأمة المسيحية. وفيه يقومون برياضات نفسية قاسية، فيم يعيشون على الشعير وقليل من الحنطة والتمور والزيتون واللوز مع فنجان من اللبن... ويأتيه زوّار من كل بلاد الكفر وكذا مساعدات... وداخل هذا الدير راهبات ورهبان هم غاية في الجمال؛ يقومون بالخدمة في الدير ليلاً ونهاراً... ومطبخ هذا الدير لمن هم عدا الرهبان، وهو مزدان بكل ما لذّ وطاب، وفيه ما ينافس مطبخ كيقاوس^(١٤٧) من الطباخين... بحيث يمكننا إعداد الطعام الذي نتمناه مهما كان. وفي مخازنه وعنابره كل ما تشتهي النفس حتى من لبن العصفور وماء الحياة، وكلنا نَقْدَم للزائر ولمن يريد، وفي الواقع رهبان هذا الدير وراهباته كثيرون. ولكن منذ عصر سليم الأول وهو تحت سيطرة الروم الكفرة. ولو أردنا أن نسجل أوصاف هذا الدير فلسوف يطول الكلام، ولكن قمنا بزيارته ومشاهدته والتفرج عليه. وهو مضاء ليلاً ونهاراً بالقناديل، وله قبة وبه قبة ضيقة لسيدنا نوح. وقد رجونا حافطها العنيد في الزيارة وطلبنا رؤيتها... فلم يقبلوا... فقلت: يوم أمس وصلت إلى الكنيسة، فلم يأخذني الرهبان وليكن عهدي أن أحتضنك وأحملك إلى السيد المسيح يوم الحشر.

(١٤٧) كيقاوس (قايوس - كيكائوس): الأول قايوس شمس المعالي ابن وشمكير. رابع أمراء بني زياد، خلف أخاه باهستون في حكم جرجان وطبرستان. ثار عليه الجيش وعزله، واعتيل. كان فلكياً وشاعراً وخطاطاً، وله قصائد بالعربية والفارسية. قايوس (عنصر المعالي كيكائوس) ابن إسكندر بن قايوس، ملك جرجان وطبرستان ١٠٤٩ - ١٠٦٩م. تنازل عن العرش. له (قايوس نامه) أو (مرآة الملوك). وهناك اثنين من سلاطين السلاجقة يحملان نفس الاسم حكما آسيا الصغرى. الأول كيقاوس الغالب عز الدين (١٢١٠ - ١٢١٩م) أرغم الأرمن على دفع الجزية. والآخر كيقاوس عز الدنيا والدين، نزع أخاه ركن الدين السلطة، وحكم غرب قيزيل أرمق. توفي عام ١٢٧٩م في القرم.

فما إن قلتُ هذا حتَّى فتَحُوا بابَ القبةِ خوفاً من حضرة سيدنا عيسى. فولجنا إلى الداخل فكان مقام حضرة سيدنا موسى ومقام حضرة سيدنا عيسى ومقام حضرة أمنا مريم البتول [عليهم السلام]، وعلى الجانب الشرقي من هذا المقامات كان هناك:

مقام الحواريين

وهو مكون من اثني عشر مقاماً، ولقد زخرفوا وزيّنوا هذه المقامات بحيث لا يمكن أن يعبر عن جمالها اللسان أو يمكن وصفها بالكتابة. جملة مياهها في الصهاريج وتحمل من الوديان السفلى بالحمير. وهذا الجبل تحول إلى فُتات عندما تجلى صدي رب العزة لموسى عليه السلام... ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف ١٤٣/٧] كما نزلت في حقه آية أخرى في سورة المؤمنون، وقد نصت الآية ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٣/٢٠] وينزل الغمام - أي المطر - دائماً فوق الجبل كذا وبخاصة على مكان التجلى، وما زالت هذه الآثار باقية وظاهرة إلى الآن. والحاصل أنها كانت أماكن زيارة عجيبة؛ ولكنها بقيت في أيدي الكفرة؛ ولو بقيت في أيدي المسلمين لتحولت إلى خرابات... ولكن الكفرة يرمونها، ويقدمون الهدايا إلى والى مصر وأعيان البلوكات السبع وأغا السويس وإلى مشايخ العريان أي البدو، وأوجدوا معهم العلاقات والألفة حتى يحافظوا على أوقافهم، حتى أنهم قدّموا إلى العبد الفقير دخاناً وجلداً، وكأنها عجيبة مسك يستنشقها المرء وكأنها خميرة عنبر. وقدّم بطريك الفرنج إلى أنا العبد الفقير هدية عبارة عن ساعة وأوراق باينته تُقيد بأن رحالة العالم قد قدّم إلى طور سيناء وزاره وتمتع بالزيارة وبأنه لا يستطيع أى من ملوك الديار السبع منعه من الزيارة حيث إن البطارقة السبعة قدّموا هذه الأوراق.

وبعد أن تسلّمنا البايانتات توجّهنا إلى قلعة الطور ومن هناك عندما أردنا التوجه إلى السويس... فكانت الطرق صعبة. وقالوا لو أنك سلكت هذه الطرق فلن تلحق بالحجاج، وطلبوا العودة من المسالك التي أتينا منها. وأنا الفقير رأيت أن قلعة الطور قلعة صغيرة على شاطئ البحر، ففقت بمشاهدتها والتفجّج عليها،

وعلى أى حال فإن هناك رهبانا ينزلون من جبل طور سيناء إلى أسفل الجبل، وأقاموا فى وادٍ واسع بساتين وحدائق غناء وكأنها حدائق إرم ذات العماد، وبها حديقة مثمرة وكأنها بساتين العجم، وبهذا الوادى حدائق مثمرة وكأنها مرام قونية Konyanın Meramı، ومياهها تشبه مياه ملاطيا المتلجة، وبها تفاح لذيذ وكثير وسفرجل وتين، وثمارها تشبه أجمل ثمار ديار العجم.

وسفن الطور تنتقل بين السويس والطور وتحضر ثمارها إلى مصر أى القاهرة وتباع هناك، وداخل هذه البساتين الكثير من العيون الجارية، تجري مياهها وكأنها مياه النيل وتصل إلى قلعة الطور وتروى مزارعها وبساتينها وحدائقها... وكل سفينة من سفن الطور هذه التى تذهب إلى السويس تحمل من تلك العيون المياه إلى السويس؛ لأن كل قرية تباع فى السويس بعشرة پارات، وقد قَدَّمُوا إلى العبد الفقير الكثير من فاكهة هذه البساتين... وعلى الفور جرينا نحو الطريق... ورأينا أن الحجاج قد تحركوا من قلعة نخل وفى منتصف الطريق لحقنا بهم، وكان الوقت منتصف الليل ونسير على ضوء القمر. وقبيل الصباح استرحنا... فقمنا ببذل الثمار والفواكه إلى إخوان الصفا... ونال كل الأحبة ما استحقى من الثمار... وفى وقت الشافعى^(١٤٨) ملكنا الطريق المتجه إلى الناحية الغربية وسط الصخور وأشجار السنط والمسواك، وقطعنا تسع ساعات وسط الوديان حتى وصلنا إلى:

منزل رئيس الطغراء^(١٤٩)

ليس به ماء، بابسة بلا مار Bi mar أى بلا ثعابين. وتوقفنا فى هذه المرحلة من أجل الاستراحة، وقبيل وقت البروغ صدحت النوافير واتجهنا أيضا

(١٤٨) وقت الشافعى: أى لوقت الذى يسبق بزوغ شمس لصباح. وهو لوقت تصبح فيه صلاة لصبح حضرا.
(١٤٩) الطغراء Tuğra: اسم الإشارة التى تحمل توقيع السلطان فى العصر العثمانى. وكانت تختتم أو توضع على الفرائض والأوامر السلطانية والبراءات والمعاهدات بوصفها علامة على توقيع السلطان. وقد استخدمت منذ عهد السلطان أورخان حتى نهاية الدولة العثمانية. وكانت لها شروطها وأركانها اللازم اتباعها. انظر فى ذلك للمترجم "الوثائق العثمانية الدبلوماسية دراسة حول الشكل والمضمون". للقاهرة.
وتجد الحديث عنها بالتفصيل وصور كل طغراوات السلاطين العثمانيين فى كتاب "الوثائق العثمانية دراسة بين الشكل والمضمون" للمترجم.

نحو الغرب، وكانت الطرق ذات صخور ملساء ووديان ملتوية... وقطعنا ثمانى ساعات حتى وصلنا إلى:

منزل النواطير

وهذا أيضا وادٍ صخوره ملساء وليس به ماء، وقد استرحنا فيه حتى وقت الشروق، وقدمت الأعلاف إلى جميع الجمال والحيوانات، ومع ظهور الشفق أطلقت نوبات التحرك ونادى المنادون والداللون (بأننا - أيها الحجاج - سوف ندخل هذه الليلة إلى صحراء النّيه، ويالها من ليلة. تراصوا وترابطوا مع بعضكم البعض، فمن يتخلف سوف يضيع. فى هذه الليلة لن ينظر الأب إلى ابنه، أو الابن إلى أبيه، فكل شأن يُغنيه. حافظوا على أمتعتكم وجمالكم وعضوا عليها بالنواجذ فرمال صحراء النّيه كالبحر، يخرج منيا البدوى قاصدا أموالكم وأرواحكم، ولا يتورعون عن نيب كل ما تصل إليه أياديهم). ولقد تجول سيدنا موسى [عليه السلام] فى بحر صحراء النّيه هذه أربعين عاما. لقد نادى المنادون على جميع الحجاج وشرحوا ليم هذا ولقد استمع الحجاج إلى هذا النداء، وفتحوا أعينهم من الدهشة وتوجهوا نحو الطريق، وكان كل فرد يحاول بكل عناية وبكل جهد الحفاظ على أمتعته وعلى مزاداتهم أى زمزمياتهم وعلى المياه المحفوظة فى قريهم، وقطعنا المنازل بهذا الشكل. وبينما كنا ننزل إلى بطن وادٍ ظليل وأشجاره بانعة الخضرة يطلقون عليه "خاروب" كان لا بد من ذكر:

أوصاف برزخ النّيه ووادى بحر الرمال والصحراء التى لا أمان لها

ما إن وطأت أقدامنا بحر الرمال هذا، والعظمة لله وحده، حتى غاصت أقدام الخيول والبغال والحمير وجميع الجمال فى الرمال حتى ركبهم. وبدأ الحجاج والخدّام يصيحون ويتصايحون قائلين الله... الله. محاولين تشجيع الجمال وحثهم على السير، ولكن أى فائدة...! فالجميع كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، فعيون كل الحيوانات قد ابيضت، أو كأنها طاس قد امتلأت بالدم، وعند وقت الغروب استراحت القافلة وبعد صلاة المغرب أشعلت المشاعل بالآلاف وأوقدت القناديل

والشموع بحيث سار الحجاج المسلمون على ضوءها، وتحولت ظلمة الليل إليهم إلى ضوء النيار المبهر. وعلى هذا المنوال استمرت القافلة في قطع المنازل، ولكن صحراء التيه هذه، يا ليا من صحراء، وياله من وادٍ صامت بحيث إن المرء لو فقد رفيقه، ولو طال عمره مائة عام فلن يستطيع الخلاص من هذا الوادي الرملي، فالنجاة غير ممكنة.

مصراع: "فلا الباب الذي أتيت منه ظاهر ولا الممر المتجه إليه واضح"

فلا خلاص لمن يتوه في هذا التيه، فيلاكه محقق؛ إما من النصور والعقبان الجارحة أو من الحيوانات المفترسة أو من الحيات والثعابين السامة. والفقر إلى الله قد رأى بنفسه شيئاً كأنه كثبان رملي، أو كأنه قطعة من الجبل الأسود فتعجبت، وسيّرت جوادى نحوه لمعرفة كنه هذا الشيء. وعند اقترابي بدأ في التحرك، وما إن أصبحت على وشك لمسة حتى تواتت الصيحات المنطلقة حتى ارتعدت وارتبك جوادى الذى تحتى، فعاد الفقير القيرى على الفور، وما إن رأى الحجاج هذا الثور الوحشى حتى انطلقت من بينهم الصيحات فما كان من طائر العقاب هذا حتى ارتفع إلى عنان السماء، وغاب عن العيون. ومثله الكثير من هذه الطيور الجارحة، وغيرها من الطيور الضخمة كالنعام، وقد رأينا منها أفواجا عديدة. وهذا العقاب أيضا أمكنه صيد عجل جبلى، فتوجينا نحوه أنا ومجموعة من الفرسان، فوجدناه قد فقا عيني هذا العجل وأخذ يلتهمه، فأطلقت رصاصة، فانطلق هذا الطير نحو السماء، وأخيرا اندفع الخدام الذين فى معية الفقير نحو العجل وعالجوه بالذبح، وبدأوا يقطعون لحمه من جانب وفى طرفه عين لم يبق سوى العظم.

وفى صحراء التيه هذه وفى غيرها من الطرق يمكن أن تجد بعض الجمال السائبة، فعلى الفور يذبحونها، وفى آن واحد يلتهمونها، ولو بقى هذا البعير فبقاؤه رحمة. وكانت المشكلة هى ذبح هذا الحيوان، لأن هذا التيه لا يجوبه أحد سوى الحجاج مرتين، وعدهم فهذا البحر أو هذه البحيرة الرملية هى مسكن الجن.

والواقع أنه مكان مخيف بلا أمان، حتى إن جميع كتب التواريخ تذكر أن سيدنا موسى [عليه السلام] ظل في هذا التيه لمدة أربعين سنة يحط ويرتحل. السبب هو أنه عندما كان سيدنا موسى في ديار مدين، وبينما كان متوجهاً إلى قوم ثمود، قام أهالي تلك الديار برجاء "بلعم بن باعور" حتى لا يقدم سيدنا موسى على مدينتهم. وكان لبلعم بن باعور امرأة مكارة، وكان بلعم متيناً بحبها. فلجأ هؤلاء القوم إليها، فقامت هذه المكارة بالدخول في أحضان بلعم بن باعور، وجعلته بشنى الحيل الشيطانية يقبل رجاءها. وعلى الفور قبل وتواءم بلعم بن باعور مع كلمات هذه السيدة. وما كان لنبي مثل بلعم بن باعور أن يصغى لها، ولكنه أصغى لكلامها ودعا ربه ألا يصل سيدنا موسى بمن معه إلى هذه المدينة. وحينئذ قبل الباري دعاء بلعم بن باعور. وعلى الفور خلق الخالق حول جماعة موسى وجنوده من الجوانب الأربعة صحراء التيه هذه، فشد سيدنا موسى ومن معه الرحال، ولكنهم وجدوا أنه قد ضربت وخلقت حولهم صحراء وبيداء بلا نهاية، ولم يكونوا قد رأوا من قبل هذه الرمال الشاسعة التي تشبه البحر اللامتناهي، فمكث سيدنا موسى وجنوده في جانب من هذه الرمال، ورأوا أنهم على الصباح لم يغادروا هذا المكان.

وخلاصة الكلام، وحسب ما جاء في تاريخ الطبري، فإن سيدنا موسى ظل في وادي التيه هذا أربعين عاماً، وحسب رواية أخرى ظل أربعين يوماً يرحل ويحط رحاله ويرتحل من جديد ثم يجد نفسه يلف ويدور في المكان نفسه مما أوقعه في حيرة.

وبالنسبة لي فإن هذا القول هو الصحيح لأن سيدنا موسى لم يُعْمَر طويلاً إلى هذا الحد؛ فلو أنه قضى من عمره أربعين عاماً ثانياً في صحراء وادي التيه... فمتى كانت حروبه مع فرعون وجداله معه؟ والقول إنها كانت أربعين يوماً وأربعين ليلة هو الأقرب إلى التصديق^(١٥٠). وخلال هذه المدة أنزل الباري على

(١٥٠) في القرآن الكريم ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٢٦)

قوم موسى مائدة من السماء إحساناً عليهم لدفع غائلة الجوع عنهم، وأغدق عليهم مع المائدة حلوى المن والسلوى، وكان على المائدة تين وعنب وتمور وخل وملح وجرجير. وذلك الطعام الذى يُطلق عليه حلوى المن والسلوى ما زال معروفاً^(١٥١)، كما أن هناك طائراً يعيش فى الجبال القريبة من القبر الشريف الموجود بالقرب من القدس الشريفة يطلقون عليه طائر السلوى... وقد أنزل على قوم موسى ضمن المائدة وهو مستوٍ وجاهز للتناول. وقد تناوله جميع قوم موسى ودفعوا به الجوع عن أنفسهم... ولكن يمكن الهلاك فى هذه الصحراء من العطش. فالعطش يوصل إلى الهلاك.

أوصاف تمة صحراء التيه

صحراء تمتد من الطريق المؤدية من مصر إلى أن يصل الطريق حتى بحر القلزم. وفى نهاية صحراء التيه عند المرحلة السابقة، يصل حتى ناحية الغرب، وتتكمش وتضيق فى المكان المعروف بصحراء قطية وأم الحسن، ويصل أيضاً حتى أطراف ولاية النوبة، ولكن يطلق المؤرخون المصريون اسم "الرمال العربية" على بحر الرمال، وهناك جبال شاسعة داخل بحر الرمال وهى من الكثبان الرملية التى تكوّنيا الرياح الشديدة، بحيث لا يستطيع بنو آدم السير فوقها، وتخفى حكمة الله جبل الرمال العظيم فى لحظة من ريح الصرصر، وفى الجانب الآخر تظهر الجبال الكبيرة، بينما كونت الحكمة الإلهية سلسلة من الجبال، تشاهد ألواناً مختلفة من أى جانب، إنها حكمة عجيبة، وغضب جناب الحق على الأحجار الكبيرة الموجودة فى مباني قوم عاد فصيرها رمالاً. هكذا، وقد تكونت الرمال هكذا، لذلك

(١٥١) المن والسلوى: عندما كنت فى إيران عام ١٩٧٦م ولمدة شهرين رأينا فيها حلوى تُسمى المن والسلوى، وهى تشبه إلى حد كبير الملين أو راحة الحلقوم. وقد قام العديد من الطائبات والطنية ونحن بشراء كميات منها وتناولناها، وهى معروفة فى كل من إيران وأذربيجان وبين الشيعة.

من يشكك كثيراً في ذلك يكون أثماً، حيث توجد آية شريفة في السورة المخصصة بهذه الأسرار. فالله جل وعلا ذكر في الآية ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات ٥١/٤١].

في بيان مدينة قازان

بالقرب من صحراء التيه، وبالقرب جداً من بحر القلزم، توجد مدينة "جراستان"، وتوجد بها مئات الآلاف من المغارات العظيمة القريبة لبحر القلزم والمرحلة القريبة في صحراء التيه، وقد جمعت رفاة مائة ألف من البشر من بنى آدم مرة واحدة في داخل كل كهف، وهي رفاة الذين لم يغرقوا في بحر القلزم من قوم فرعون، وتوجد عظام الأذرع والسيقان في كومات كبيرة عبارة عن ثلاث أو أربع كومات سوداء اللون، وتمتد ساحات رعوس بنى آدم حتى قازان ووارنا، فالحق سبحانه وتعالى قد نكل بجبابرة فرعون، ولأن فرعون وقومه قد أغرقهم الله بالقرب من بوغاز قولون على شاطئ بحر القلزم. ولكن صحراء التيه تتسع مرحلتين على الجانب الغربي من تلك المدينة، ومدينة قازان أطلال خربة، يوجد حديث صحيح مآله فلتعمر مدينة أثينا ومدينة قازان في آخر الزمان.

حكاية

في نهاية الأمر، بينما كان سيدنا موسى [عليه السلام] في مصر رأى تجلى سبع بيضات. وكان النور المبين يستر جسده الشريف دائماً، وكان يتجول بسين الناس سرّاً، وتعرض جميع شعب مصر لموسى بسبب تجوله المستور، وكانوا يقولون إن جسم موسى مصاب بالجزام، وكان موسى عليه السلام ذات يوم عرياناً على شاطئ النيل، ووضع حوائجه على حجر صغير من أجل التهيؤ ونزل إلى النيل وبعد اغتساله خرج إلى البر، ولم يجد ثيابه فوق الحجر، وعلى الفور تحركت

الصخرة حتى لا تترك موسى عريئاً... وتعبه الحجر حيث توجه داخل مصر. ودخل موسى حتى مصر عرياناً، ورأى جميع أهالي مصر جسم العصا البيضاء الشريفة والسبع بيضات سيدنا موسى، ولسوء النظم أصبح نادماً، وليست لحضرة موسى خرقه من الصوف كانت موجودة فوق الحجر، وضرب بالعصا التي في يده الحجر اثنتى عشرة (...)، فانشقت اثنتى عشرة فتحة أو عيناً، وعلى أى حال تكلم الحجر المشقوق بأمر الله قائلاً: يا موسى أنا أخذت ثوبك بإذن رب العزة وحملتني إلى المدينة، وأحدثت إيماناً بجسديك الطاهر، فقال حضرة موسى: يا حجر لم أعرف أنني ضربتك، وطلب منه المعذرة كما يقول الدراويش لشيخهم، فما كان من هذا الحجر إلا أن قال: يا موسى خذني وأخفني فربما ذات يوم يكون في وجودي شيء لمصلحتك، فأخذ سيدنا موسى الحجر بالإلهام الرباني، وأولج حبلاً في ثقابه وربطه حول عنقه.

ويقولون في رواية أخرى إنه ربطه في خصره، وبطل الحجر الموجود في رقاب الدراويش تذكراً من سيدنا موسى. وبعد ذلك ومع مرور الأيام وبينما يمضي سيدنا موسى هذه الحوادث في صحراء التيه، وبينما كان يتجول متحيراً قال جميع قومه: يا موسى لقد أمنا بك، وعندما صاحوا قائلين: أعطنا الماء في هذه الصحراء كمعجزة. وعلى الفور انطلق الحجر المذكور والموجود في رقبة سيدنا موسى وقال: يا موسى ضعني على الأرض وقل باسم الله واضرب بالعصا، فأنزل سيدنا موسى الحجر من رقبته ووضع على الأرض، وعندما ضرب بالعصا اثنتى عشرة مرة بأمر الله؛ فانفجرت اثنتا عشرة عيناً من الحجر، وكان يشرب من إحداها جميع العسكر ومن واحدة أخرى جميع النسوان، ومن واحدة أخرى الحمير، ومن واحدة البقر، ومن واحدة الغنم، ومن واحدة التيس.

وحاصل الكلام أنه شراب عذب يشرب منه عشرة مخلوقات من مخلوقات الله من اثنتى عشرة عيناً، وكانوا يدفعون به العطش، وأشار سيدنا موسى إلى الحجر فانقطع الماء، وأعاد ربطه في عنقه مرة ثانية، وعلى هذا المنوال يظل

سيدنا موسى يتجول الصحراء أربعين يوماً، وبشأن الحجر المذكور نزلت هذه الآية الكريمة على رسول الحق عن طريق الحكاية : وَإِذْ أَسْتَشَقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُغْتَبِدِينَ ۖ ﴿٦٠﴾ [البقرة ٦٠/٢] هذه قصة عظيمة ولكن

اختصرناها، وهي موجودة مفصلة في تفسير سورة الأعراف.

وبعد ذلك كان الحجر المذكور ينتقل من دولة إلى دولة، إلى أن دخل تحت سيطرة الوليد بن عبد الملك وهو من الأمويين، وقد تم وضعه على المنذنة البيضاء التي سوف ينزل عليها سيدنا عيسى [عليه السلام] آخر الزمان، وهي على الجانب الشرقي من جامع الأمويين، ويشاهده جميع الزوار حتى الآن، وبعد ذلك من شدة ألم سيدنا موسى في وادي هذه الصحراء قال: يا رب ماذا يكون هذا الحال، بقيت مع أمتي في هذا الوادي أربعين يوماً وتجولت مضطرباً سيئ الحال، ما هذا الحال، وجاء النداء من الحق عز وجل بناءً على طلبه قائلاً: يا موسى دعوت عبدي المحبوب بالمجيء لمدينتي (لمكانتي) قبلت رجاءك، وقال أنيكتك في هذه الصحراء، وقال سيدنا موسى: يا رب قبلت دعوتك هل تقبل رجائي، وعندما قال الحق عز وجل أقبل يا موسى، وكان سيدنا موسى سلطاناً عظيماً، ورفع يده إلى السماء قائلاً: إلهي أنت السلطان أطلب من الرب جل وعلا ألا تحشرنا يوم القيامة بمحشر الكفار الذين هم سبب حيرتنا في هذه الصحراء، فأصبح لسان بلعم بن باعور أخرس ونسي في التوراة والزبور، وكان سبب ذلك هو تواؤمه مع كلام المرأة الماكرة وابتعاده عن طريق الحق. ومضى ولسوف يبعث على الكفر. وما إن سمع ذلك حتى انعقد لسانه. إلا أنه جاء إلى سيدنا موسى بغرض الرجاء ولم يتلق ردًا فترك الديار واتجه إلى حضن الجبل، وهو مدفون في جبل أكبرلى العظيم في الناحية الجنوبية لقلعه أرضروم في ولاية أرضروم، وتقوح رائحة كريهة من قبره وكأنها قطران.

قد حُرِّزَ هذا مفصلاً في سياحة عام ١٠٥٦هـ، ولكن جاء ابن بلعم بن باعور إلى سيدنا موسى ومرغ وجهه على قدميه الشريفة، فدعا سيدنا موسى له بكلمات خيرة، وألقاهما من بين شفتيه إلى فمه، ومسح بيده البيضاء على وجهه، وكان آخر نفسه هو النطق بالإيمان.

انظر... فالآن تلك المرأة الماكرة ماتت على الكفر مثل بلعم بن باعور، ولكن ابنه مات على الإيمان، وعلى جانب عجروود لصحراء التيه هذه وعلى شاطئ البحر:

زيارة هودن بن بلعم بن باعور

مدفون داخل قبّة عالية على جبل في المكان المعروف بمضيق القولوندر "بو غاز القلوندر"؛ الذي غرق فيه فرعون عند ساحل بحر القلزم، ويزوره جميع رهبان وملاحى السويس ويطلبون الإفاضة من روحانيته، حتى عندما زرته أنا الفقير رأيت أن بنائه على الطراز القديم، وعندما سألت خدمته حيث كان التاريخ محرراً باللغة القبطية على الجدار فأشار قائلاً: بناء المقوقس القبطي الذي هو من ملوك مصر في زمن سيدنا عيسى. وبعد أن تخلص سيدنا موسى من هذا التيه، ودعا الله قائلاً "إلّهي اجعل مصر في حرز الأمان من شر هزيمة بالجانب الشرقي ولتيلك في صحراء التيه من يأتي على مصر بقصد الخيانة" ومازال تأثير هذا الدعاء قائماً حتى الآن.

فمصر آمنة من هذه الناحية لأن الله عز وجل جعل صحراء التيه هذه عائقاً كالسد أمام العربان الخارجين على القانون، فهو مكان غير آمن (...). وفي الواقع أنا الفقير قد رأيت أماكن غير آمنة كثيرة، ولكن لم أر مكاناً بهذه الخطورة، فلقد تيسر لي رؤية بالوخان في موسكو (...) وقازان وهمشك وژالطير وسراي وداديان العراق وقلعة أراق وقلعة بورغوسان وقلعة ترك في موسكو أيضاً وصحراء هيبات، وغيرها فيما بين القلاع والمدن في ديار موسكو، وبحر جيلان

الرئيسى الموجود بالقرب من بحر الخزر على الناحية الشرقية لهذه الصحراء. وعلى الجانب الغربى عند الوصول إلى بحر الأزاق المتفرع من البحر الأسود، فإن صحراء هيات هذه طولها مسيرة خمسة أشهر من الشرق إلى الغرب. وعلى الجنوب مدينة "قوبان" حدودها ومياها بلاد الجركسى. وعلى الجانب الشمالى منها يقع نهر "تن" الذى ينبع من موسكو. ومن الجنوب إلى الشمال فإن أراضى هيات هذه مسيرة شهرين. وفي بعض أماكنها مسيرة شهر، وبها الآلاف من النباتات والحيوانات البرية. وتنتقل هذه الحيوانات فى قطعان تبلغ مئات الآلاف لعدة مرات، وفيها يقطن مائة ألف مضروبة فى عشر مرات من تاتار النوغاى، ويرتحل فيها كفرة انعماليق بأعداد هائلة يأكلون ويشربون ويرتحلون دائما.

إنها صحراء بلا نياية، ولكنها ليست فى خطورة صحراء التيه، ولا حكمة لكون الناس فى غير أمان. فلا يسأل عما يفعل ! وعلى الجانب الغربى لـصحراء التيه هذه لا تنتهى بحيرة التبنية Tebniye فى صحراء أم حسن. وفى الطرف القبلى تنتهى عند بندر السويس، وتصل حتى مرحلة النواطير التى نزلنا بها فى الطرف المذكور، وتصل فى الطرف الجنوبى حتى ساحل بحر القلزم، ومجموع مساحتها دائراً مادار تستغرق مسيرة شهر، ولكن حكمة الله اقتضت أن يظل سيدنا موسى هائماً أربعين عاماً، وفى رواية أربعين يوماً فى هذه الصحراء، وتجول فى طولها وعرضها ثمانية أقوام، ولكن عبرناها من زاوية ما مع حجاج مصر فى يومين وليلتين، ولكنها كانت كبحر آدم تندفع رمالها كسيل جارف ونحن نعبرها، وأنشأ السلاطين الأوائل أعمدة على طريق التيه داخل الصحراء يقف كل منها مثل المنارة، وعندما كان حجاج المسلمين يعبرونها كانوا يعلقون على تلك الأعمدة قناديل مضاءة، وكان السدالون يسبقونهم ويسبرون من عمود إلى آخر ليجدوا أو يستكشفوا الطريق الصحيحة؛ وإلا فإن السبعين ألف حاج يصيرون كقوم موسى، ويظلون فى تيه وادى التيه الصحراوى هذا. وبه خيرات عجيبة وعظيمة. وحمداً لله فقد عبرنا بسلام فى غضون أربع وعشرين ساعة كاملة. ربهدها وصلنا إلى:

منزل قلعة عجروود

بناها (...) فى تاريخ سنة (٩١٨٥)، وهى قلعة جميلة ذات بناء حجري، شكله مربع على منحدر فى نهاية الطرف الغربى لصحراء التيه، ومحيطها دائراً مدار ٣٠٠ خطوة، ويوجد بها محافظ القلعة ورجال حصار من قبل أغا متفرقة مصر، ويوجد بها باب يفتح نحو القبلة، وماؤها غير عذب، ولكن يُشرب عند الضرورة، وهو عذب بالنسبة للحيوانات، وتوجد بركة فى الجانب الأيسر خارج القلعة فى حوض عظيم شافعى، ولكن لا يوجد بها بستان ولا حديقة ولا أشجار النخيل، ولكن عند بندر السويس - التى تبعد مدة ساعة عن جنوب عجروود - يهب لمقابلة الحجاج بمياه الطور العذبة باليدايا، وعند العودة وصلنا نحن الفقير إلى السويس فى زمن ساعتين.

أوصاف ميناء السويس

وهو خليج عظيم طوله ١٥٠٠ ميل من البحر المحيط، ويطلق عليه المؤرخون بحر القلزم، وقد حده من الغرب بوغاز زيلع الحبشى من الناحية الشرقية، وعلى الجانب الغربى بندر السويس طولاً، وفى الطرف الجنوبى ولاية الصعيد وولاية الحبش، وحتى الوصول إلى مدينة زيلع يوجد حوالى مائة وسبعين مرفأً، وعلى الجانب الشمالى لأرض مكة حتى الوصول إلى نواحي اليمن يوجد مائتا مرفأً، لأن نواحي مكة واليمن كلها معمورة، وقد سبق وشرحنا هذا البحر عند الحديث عن وصف قلعة ينبع.

ولكن بندر السويس هذا يقع فى صحراء رملية فى نهاية الطرف الغربى لهذا البحر. وهو ميناء للهند ومكة والمدينة والحبش، ويحكمه أغا يُعين من قبل أغا أى فى أيلة مصر ومن بين أغوات البابا، وبندر السويس هذا هو واحد من الأربع والعشرين أغوية، تأتيه سنوياً مائة قطعة من السفن التى تكمن من الهند واليمن ومكة والمدينة والحبش، وتحصل رسوم على البضائع ومن جميع التجار

حسب القانون، ويقدم الحساب كل سنة للباشا، لأن جمرك هذا الميناء يدخل ضمن التزام خزانة باشا مصر، وهو من مخصصات الباشا والتزامه، ولو نقص يتم إكماله من قبل الباشا، وتعطى مواجب لوالى مصر، وإنها أمانة عظيمة، ويوجد فى الجمرك مائة خادم مع الحمالين والجمالين والصراف والكتبة.

ويقدم الباشكاتب كيستين للباشا، وكذلك يقدم الوزن خمس كيسات مصرية فى السنة، ولو ظهرت أى خيانة وإذا ما أُدين أحدهم بالرشاوى يعاقب، فهذا مكان للموظف الخبير المدبر والمتبصر، إنه مكان الأغا المحب لسيدده، لأن ميناء السويس وميناء دمياط وميناء الإسكندرية وميناء بولاق هى التى تحفظ ماء وجه الباشا، ولكن السويس أرفع منزلة من الجميع؛ لأنها تحصل علفه للباشا يومياً من جمارك السويس خمسة قروش على كل بضاعة تدخل، ولو تاجر الأغا الذى هو منعم فيكون نور على نور، وهو قضاء شريف سنويته ثلاثمائة بايه^(١٥٢) ناحيته غير معمورة بالقدر الكافى مائة درجة، ولكن يحصل منها خمس كيسات مصرية سنوياً على الرغم من أنها مدينة غير أهلة بالسكان، ولكن جميع منازلها وأبنيتها قوية وسطوحها جميعاً مكسوة بالجص، وجميع الجوامع ماعدا جامع (...) عبارة عن مساجد، ولا يوجد بها سوى مدرستين للصبيان ومدرسة وتكية وليس بها حمامات. وبها وكالات كالفلاح؛ فيذاك، وكالة صقولى محمد باشا^(١٥٣)،

(١٥٢) بايه: Paye: مصطلح إدارى يُقابل الرتبة، وكان يُطلق ويمنح للموظفين المدنيين مع مبلغ معين يقدم من يافالها، كما استخدم لأصحاب المراكز والمرتبات العلمية. وما إن يذكر هذا المصطلح حتى يتبادر إلى الذهن فوراً أصحاب المناصب العلمية. وكانت أصغر "بايه" تمنح للمدرس وأعلى "بايه" كانت تمنح لقاضى عسكر الرومىلى. (انظر: باقالين ج ٢ ص ٧٦٤).

(١٥٣) صقولى محمد باشا = محمد باشا صقولى: تولى الصدرة لمدة ١٥ عاماً فى عهد كل من السلطان سليمان القانونى وسليم خان الثانى ومراد خان الثالث، ينسب إلى قصبة صوقل فى البوسنة، تربى فى السراى السلطانى، وعين فى الضواحي بلقب قيوچى باشا، ثم أُنعم عليه بالوزارة لما أبداه من شجاعة وحسن تدبير خلال فتح طمشوار فى بلاد الرومىلى، ثم عُين قبطاناً سنة ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م، ثم صاهر السلطان بزواجه من "سميخان سلطان" سنة ٩٦٩هـ - ١٥٦١م، ثم أصبح الوزير الثانى عقب ذلك ثم رقى إلى مرتبة الصدرة سنة ٩٧٢هـ = ١٥٦٤م، وعندما توفى السلطان سليمان كتم خبر الوفاة حتى تم جلوس السلطان

ووكالة قولقيران أوكوز محمد باشا^(١٥٤)، وهى بدون مياه ولكن على الجهة الشرقية من شاطئ البحر مياه عذبة يطلقون عليها نابه Nabe، وهى على بعد ثلاث ساعات من السويس، ولو أحضر صاحب الخيرات المياه إلى السويس يكون سببا فى إعمارها سبعين مرة، وبها مائة سوق محدودة.

لكن لا يوجد بها مصانع نسيج للأقمشة النفيسة، وتوجد بها بضائع الهند والسند وسمرقند^(١٥٥) وبخارى^(١٥٦) وقندهار^(١٥٧) وهى معروضة فى جميع الوكالات، وميناء السويس مكان بعيد، يبعد مسافة مرحلتين أو منزلين عن مصر، وكان الملك طوطيس من فراغة مصر فى عهد سيدنا إبراهيم (عليه السلام) من السلاطين الأقباط الحقيقيين. وكان فى غاية المحبة لسيدنا إبراهيم، وكان يُرسل له الغلال وغيرها من الهدايا من مصر عن طريق بحر السويس؛ ولهذا أنشأ هذا المرفأ.

وكان قد أرسل له جارية مسلمة ورعة تدعى هاجر، وتزوجها سيدنا إبراهيم وأتجب منها سيدنا إسماعيل (عليه السلام)، وكانوا يطلقون عليها الجارية هاجر،

سليم الثانى على العرش. أدار أمور الدولة بقدرة وافتدار. شارك فى فتح عدة من مدن البلقان ودولاتها. استشهد بخنجر أخذ المجازيب سنة ٨٩٧هـ = ١٥٧٩م. مدفون فى ضريح خاص به بجوار أبى أيوب الأنصارى. (انظر: قاموس الأعلام. ش. سامى).

(١٥٤) قولقيران أوكوز محمد باشا: من الوزراء العظام وقد تولى الصدارة العظمى فى عهد السلطان أحمد الأول وعثمان الثانى. عين واليا على مصر سنة ١٠١٦هـ، تصدى فيها لكل المعتصبين ولكل حركات العصيان فيها. وأعاد الأمن والأمان بعد أن قتل بضعة آلاف من العصاة. ومن هنا لقب فى مصر بلقب قول قيران "أى محطم العبيد. عاد إلى إستانبول بعد عزله. نال مصاهرة السلطان فلقب أيضا بـ "داماد" أى صير السلطان، وفى عام ١٠٢٢هـ نال رتبة الوزير الثانى. غزل للمرة الثانية عام ١٠٢٨هـ وتوفى فى حلب فى العام نفسه. كن ثريا وله وكالات تجارية تحمل اسمه.

(١٥٥) سمرقند: مدينة مهمة فى جمهورية أوزبكستان المعاصرة.

(١٥٦) بخارى: إحدى مدن جمهورية أوزبكستان المعاصرة، وبها مرقد الشيخ البخارى جامع الأحاديث النبوية ومركز أبحاثه.

(١٥٧) قندهار: ولاية فى أفغانستان الجنوبية، وتعد مركزا تجاريا مهما.

وسمع الملك طوطيس أن هاجر محبة لإسماعيل ولكن كانت محبته هو لسيدنا إبراهيم، فجعل كل احتياجات مدينة مكة من مصر، وكان يرسل إليها الغلال من مصر عن طريق السويس. ولكن لما كان في مصر، ولما كانت كثرة ذهاب تصدير الغلال وجميع الاحتياجات غير الغلال من الظييرة يستغرق وقتاً طويلاً عن طريق البر. جمع جميع مهندسي مصر، وأمرهم بتتبع ارتفاع مياه النيل حتى السويس، فوجد المهندسون أن هذا الأمر يسيل من جانب بني سويف، وفقاً لعلوم الهندسة. وبشروا الملك طوطيس بذلك. فوضع الملك كل ما في قبضته من مال وإمكانات تحت تصرف المهندسين، وسخر العمال الذين بلغوا مائة ألف في سبع مرات أي سبعمائة ألف عامل، وبدأوا الحفر من مقابل بني سويف، وحفروا نيتيراً يشبه الخندق. وتم إكمال العمل في سبع سنوات، وكان النيل المبارك يجري حتى بحر السويس، وكان الملك طوطيس يرسل من أعلى الصعيد مائة سفينة من الذخائر لسيدنا إبراهيم وأهالي مكة في كل سنة، وظل نهر النيل يجري مائتي سنة حتى عصر سيدنا صاحب الرسالة على هذا المنوال.

كان النيل يجري إلى السويس، وبعد ذلك كان الملك روجيل من فراعنة القبط قد سمع بظهور حضرة صاحب الرسالة، وكان يغلط طريق النيل من خوفه قائلاً: "سيسيطر". مردداً أن هؤلاء المحمديين سيسيظرون على مصر في النهاية، ومع مرور الأيام والزمان أصبح مملوءاً بالتراب والرمال وأصبح معطلاً، وبعدده قام أحد سلاطين مصر هو "محمد أكراد" بمشورة وتعليم الإمام الشافعي بجمع مئات الآلاف من بني آدم لعدة مرات، ومثوه من السويس حتى قرب بلبيس داخل العباسية، ومن هناك حتى بحيرة "التبئية" Tebniye ومنها حتى اختلطت مياه بحر السويس بالبحر الأبيض [المتوسط]. وظل الأمر على هذا المنوال سبعين سنة... وأصبحت ولايات مصر وفونجستان وفاس ومرانكش وسواكن عبارة عن جزيرة، ومع مرور الأيام امتلاً هذا أيضاً ثم أصبح معطلاً، ولو كف آل عثمان عن الأخذ من خزينة مصر لظل مفتوحاً كالأول، وكان من الممكن أن تاتى السن سن

السويس إلى البحر الأبيض [المتوسط] ومن البحر الأبيض [المتوسط] إلى السويس، ولكن أفضلها كانت التربة التي أمر الملك طوطيس بأن يجرى النيل فيها حتى السويس.

ولو تم فتح هذا الخليج لأخذت مكة والمدينة غنائم جمّة، ولأمكن كذلك فتح اليمن أيضًا بالأسطول العظيم، وكان من الممكن أن تقع تحت السيطرة آلاف القطع من السفن، وكان حجاج مصر - وهم يذهبون إلى مكة وعند العودة - بإمكانهم أن يتجولوا في التربة المذكورة فيما بين المصانع بالسويس، والأماكن التي كان يجرى نهر النيل فيها إلى السويس ظاهرة، فهي خنادق عظيمة وكبيرة حتى الآن، وبعض أماكنها عميقة بقدر المئذنة، حيث تم تطهيرها بشيء سيل، وفي زماننا بينما كان الكتخدا إبراهيم باشا وزيراً لمصر عرض الأمر على السلطان صاحب السعادة، وطمع في أن يجعل اهتمامه بأن يجعل النيل يجرى كما كان في البداية من مقابل بنى سويف، ولكن صر له فرمان بفتح اليمن، وبناء ما بين أربعين إلى خمسين سفينة حربية في ميناء السويس، فأنشأ عشر قطع من سفن القاذرة الحربية وعشر من الغاليون، وكانت هذه القطع على أهبة الاستعداد في البحر.

وجاء عقلاء مصر وكبار عمالها إلى ديوان مصر وتشاوروا في حضور الپاشا، وقالوا في حضرته: لقد أصبح مسموعاً لدينا أنك طوال مدة بقائك وزيراً على مصر - أمّا الله طول عمركم - أنك سمعت أن أحد فراعنة مصر الأقباط قد مدّ النيل من قرب بنى سويف حتى السويس، وأنت تريد أن تُعيد فتحه، فليسهل الله، ولكن إذا جرى النيل حتى بحر السويس، وعندما يصل من بنى سويف حتى دمياط ورشيد تكون ١٧٠ مدينة ومحافظة وألفان ومائة وستون قرية مزرعة على جانبي النيل قد جفّت وأصابها الجفاف، ومن أين يحصل السلطان على آلاف الكيسات، وبعد انحصار النيل فكيف يكون في التزامك عن ميناء دمياط وميناء رشيد، ولن تأتي السفن بعد أن يُصبح الجمر معطلاً. فمن أين تدفع علوفة واحد

وعشرين ألفاً من عبيد مصر. ففي فتحك لهذا الخليج عشرات المضار والمصائب، والباقي هو فرمان سلطانك".

عندما قالوا ذلك أدار الپاشا الأمر في رأسه، وصرف النظر عن إيصال النيل إلى السويس. ولكن المصريين تشاوروا منات المرات، وظل الأمر في بطن الشاعر. ولكن الفقير قد علم بأنه إذا كانت حرب اليمن هي التي حالت دون فتح هذا الخليج، فإن هذه الحرب لم تتم طوال عشرين سنة. ولكن الأعيان الذين اجتمعوا بالپاشا قالوا له نحن أصحاب عيال وبنين، وسوف يصيبنا الفقر والعوز، وأن المال لا ينفصل عن الروح وأن هذا هو الذي صرف الپاشا عن فتح الخليج. ولكن لو أن النيل قد جرى في هذه التريعة حتى السويس لتخلص الحجاج من مشقة السفر بالبغال والقوافل ولتقلوا بالسفن. ولصارت هناك تجارة ورواج في مكة والمدينة. ونجح أهالي مصر في صرف نظر إبراهيم پاشا عن غزوه اليمن.

وحين عزله بيعت سائر الأخشاب التي كانت موجودة في بندر بولاق وسائر السفن كذلك. وتم التخلص من فتح اليمن، ووصل أهالي مصر إلى مرادهم. ولكن لو تم تسيير ماء النيل كما كان مخططاً أيام الملك طوطيس من بنى سويف لأمكن توصيل الغلال والحبوب إلى مكة والمدينة عند فيضان النيل، ولتم التخلص من هجمات العربان. ووصلت الغلال والحنطة طاهرة، ولما تم تحميل البغال والحمير والجمال مشقة السفر وقلة المياه. وتم التخلص من كراء هذه الدواب التي تبلغ تكلفتها مائتي كيسه مصرية. ثم التجول في السويس ومشاهدتها، وبعد أن عدنا سار الحجاج لمدة خمس عشرة ساعة داخل الرمال والصحراء الرملية. اللهم يسر والسلام.

حتى وصلنا إلى:

منزل مصانع

قام سيدنا موسى [عليه السلام] بمحاربة فرعون مصر والصراع معه في هذا المكان. وفي هذا المكان التيمت حية عصاة موسى كل ما عداها. وظيرت معجزة

سيدنا موسى في هذا المكان، ويسمون هذا المكان أيضا بـ "دار حمرا"؛ حيث إن جملة رمالها وترابها حمراء. ويذكر المؤرخون أن دماء فرعون وقومه هى التى خضبت هذه الرمال والأترربة. ولهذا أطلقوا عليها "دار حمرا". وهى صحراء بلا ماء أو عمران أو أعشاب... مكان يابس ومنخفض، ليست به إشارة للعمران. يَقدم من مصر حمل ألف جمل من المياه إلى هذا المكان. كما يَفد إليه بعض مستقبلى الحاج لا يحط فيه الحجيج، بل يتجشون صوب مصر. ولا يسير فيه سوى الخيالة والهجانة. وهذا المكان أيضا خاضع لأولاد شاهين. وفي هذا المكان أيضا يُضرب النفير، وعند العصر يتجه العزم نحو طريق مصر العظيم، ويتم السير وسط الصحراء الرملية حتى نصف الليل حتى يتم الوصول إلى منزل:

الأزيار

تتم الاستراحة في المكان المذكور، ويمكث جالبي الخراج لوالى مصر هنا بعدد يتراوح ما بين ٤٠ و ٥٠ خيمة، ويصطف أمير الحج وجميع الأعيان والحجاج، ويوزع ألف ثوب وألف من الجلايب ومائة من لحم الخراف و ٢٠ حمل جمل خبز من كيسه الپاشا على جميع الفقراء والخدام، ويلبس ألف فقير بالثياب الجديدة. وجرى العادة أنه في مصر بقدر ما توجد جمال يوجد آلاف من الأعيان والأشراف؛ فبينما يذهب الحاج المسلمون إلى مصر كل سنة، يوجد في الموضع المشهور أزيار في مائة قرية سلطانية وجميع الأواني الحجرية والأحواض الكبيرة وكلها من الفخار، ويتناوب الأعيان واحدا واحدا في جمع جمال جميع أعيان مصر، ويحضرون إليها الماء، ليشرَب جميع الحاج وغيرهم من أصحاب الاحتياج ومن الحيوانات، يشربون من الماء الذى تحضره الجمال، وعندما يذهب عطشهم يدعون لصاحب الخيرات بالخير، وبعد الوصول إلى هذا المكان هناك أربع مراحل مياها غير عذبة. ومن هنا فإن الحاج يرتوون من هذه الأزيار وينطلقون إلى الطريق. وأكثر المصريين يأتون إلى هذا المكان لاستقبال الحاج. ويأتون إلى مكان الأزيار

ويلتقى كل إنسان وينتشر باللقاء. ومن هنا وحسب الوقت الشافعي، وبعد مسيرة ثلاث ساعات يتم الوصول إلى:

مصطبة إبراهيم أغا

في هذه الصحراء يبدو بناء لطيف ومصلى رائعة للصوفية. يعبر جميع الحجاج هذا المكان، ومنهم من يمكث في البركة ومنهم من يذهب إلى مصر، ولكن يأتي أمير الحج في الوقت الشافعي إلى هذا المكان، ويقيم صحبته، ويستعد جميع عسكر الآلاي أي الموكب بمعداتهم، ويزينون أيضا المحمل الشريف، بعد ذلك يرفعون أذان صلاة الفجر، وبعد أداء الصلاة يخرج كتخذا الجاوشية ورئيس المتفرقة والحاصل جمعا من أغوات السبع بلوكات وجميع الأرباب وأشباه الديوان لاستقبال أمير الحج بالموكب العظيمة على نفقة مصر، ويقدم كتخذا الشاشا الهدايا لأمير الحج؛ وهي عبارة عن حصان مطهم فوقه سرج مقصب وسائس لركاب السرج وذو آلة حرب مرصعة وطقم حصان مرصع، ويقابل رئيس كتاب الديوان أمير الحج على المصطبة، ويتقابل مع جميع أعيان مصر، ويتناولون القهوة مغا، ثم يشدون الرحال مفتونين بالأناشيد التي تصدر عن فرقهم، ويمتطي أمير الحج فرسه الكحيلانية التي هي هدية الكتخذا، وتقدم مع الفوج الكبير ثم يتعقبه في مؤخرة الحجاج عازفين كل الآلات الموسيقية، وصار بجوار كتخدا الشاشا ومع جميع الأمراء المصريين ووصلوا من المكان المعروف دار حمرا في ست ساعات.

منزل قرية بركة الحج

عند فيضان النيل تأتي المياه إلى هذا المكان وتصبح كبيرة مثل البحر، هي بلدة على شواطئها مائة منزل ومسجد وبستان وأشجار النخيل، لذلك يأتي إليها أعيان مصر وكتخدا الشاشا وأغوات البلوكات السبع ويقمون خيامهم ومقاراتهم. وينزل أمير الحاج إلى خيمة الكتخذا. وتقام لأعيان مصر وأغوات البلوكات

السبع وأغوات الأوجاقات الجاوشية ولرئيس المتفرقة ولأغا الترجمان وكتخذا
الباشا ورئيس الكتاب وليمة عظيمة، وأنزل كتخدا الباشا أمير الحج إلى
خيمته واستضافه فيها، بعد ذلك ذهب أمير الحج بنفسه للخيمة الكبيرة، ويذهب
كتخدا الباشا وجميع أعيان مصر إلى مصر، ويبقى أمير الحج في البركة تلك
الليلة، ويسعد بطلقات المدافع والبنادق والفشك، وفي الصباح بينما يدخل إلى جامع
جانبلط من الباب الناصري لمصر بالفوج الكبير يخرج وزراء مصر لاستقبال
المحمل الشريف في حالة روحانية محببة وقبلوا المحمل الشريف، وأخذوا بلجام
جمل المحمل فهم بذلك في خدمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويكون ذلك في
خدمته الشريفة وبعد ذلك يقال لأمير الحج أهلاً ومرحباً بك وأنبسه وزير مصر
سموراً فاخراً، وتوجه الباشا للمشاهدة والفرجة.

ويمكث أمير الحج في مسجد جانبلط المذكور، وقد وضع المحمل الشريف
أمام باب المسجد، فيأتي أعيان مصر والرائح والغادي ليقبلوا أطراف المحمل، ثم
جاء جميع العلماء والصلحاء والأئمة والخطباء والمشايخ في مصر إلى هذا الجامع،
وانتظروا المحمل الشريف، وظل الإنشاد لشريف حتى الصباح، وأحيوا هذه الليلة.

تشرفت أنا الفقير بلقاء أفندينا إبراهيم باشا في قصر العدلية، فأحسن عليّ
أنا الفقير بكيسة مصرية، ودخلنا أم الدنيا التي هي نادرة العصر مدينة القاهرة في
اليوم السادس من شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٣هـ، وألحق إبراهيم باشا هذا
الفقير إلى مجموعة الأغوات الذين في معيته وأمر بتجهيز منزل قريب لحضرته،
وتم فرشها بجميع الاحتياجات المعيشية والأواني الحياتية. وتم صرف ألف قرش،
وأُنعِمَ على ببعض من فراء السمور. وطبقة من الثياب المنكف وعبء طواشي،
واعتبروا هذا الفقير بين الأقران. وحظينا بالمبلغ الكافي لاحتياجاتنا من المأكولات
والمشروبات، وداومنا كل ذكر الدعاء بالخير، وتشرفنا بصحبته الشريفة لسيلاً
ونهاراً، وأصبحنا من طبقة الندماء الخواص، كما أحسن عليّ بجواد من أحسن
الجياد الكحيلانية التي تسبق ريح الصبا، وكان مطهما بركاب مزيّن ومذهب

ومُغطى بغطاء من القطيفة المقصبة. وكذا أُنعم على بغذارة سريعة الطلقات، وبهذا وبذاك اكتشفنا ارتفاع القدر من يوم إلى يوم.

وبعد ذلك فى صباح اليوم التالى فى يوم السابع من الشهر الشريف دخل أمير الحج للداخل من باب مصر مع الألاى الكبير المكوّن من أغوات البلوكات السبع وجملة الجاوشية، وقواد الحجيج من البلوكات السبع وجميع حكمدارات الحج من السبع بلوكات، وعلى هذا الترتيب أخذ الآلاف من البشر يتراصون أمام أمير الحج وساروا داخل المدينة ولكن لم تُشارك الإنكشارية أو جنود العزبان فى هذا الموكب، لكن العلماء والصلحاء والفقراء كانوا كثيرين، وتقدم قاضى المهمة وچاويش المكان وبدأوا يعزفون مع جميع جنود أمير الحج وطاقمه الموسيقى، وأخذ صاحب العلم برفع العلم الشريف ومروا (من روملى ميدانى) أى من ميدان الروم^(١٥٨) وفى قراميدان^(١٥٩) قام أمير الحج بتسلم المحمل الشريف إلى الباشا الذى أخذ بيده لجام ناقة المحمل، وقام بتسلمه أيضا للكتخدا، حضور جميع حضائر المجلس نون قاضى العسكر^(١٦٠) بالسجل الرسمى المحمل الذى تم تسليمه للباشا،

(١٥٨) ميدان الروم أو روملى ميدانى: ميدان فسيح ينسب للروم الأتراك بالقرب من القلعة.

(١٥٩) قراميدان: اسم ميدان كانت بالقرب من القلعة فى العصر العثمانى، وكان يستخدم لسباقات الخيل.

(١٦٠) قاضى العسكر: من أرفع المراكز العلمية فى الدولة العثمانية، وقد كان منصب قاضى الجند أو العسكر موجودا فى الدولة العباسية، والخوارزمية، ولدى سلاجقة الأناضول والأيوبيين والمماليك فى مصر والشام، ويعد مراد الأول أول سلطان عثماني أوجد هذا المنصب فى بلاده، وكان جانداری قره خليل أول من شغل هذا المنصب فى الدولة العثمانية. وفى عيد محمد الفاتح تشعب المنصب إلى قاضى عسكر الروملى والأناضول. وبعد فتح بلاد الشام وديار بكر ومصر فى عهد سليم الأول استحدث منصب قاضى عسكر العرب والعجم وعين فيه المؤرخ المشهور إدريس البتلىسى. وكان مكانهم فى التشریفات بعد الوزراء مباشرة، ويجلسون فى صدر الديوان عند انعقاده، ويستقبلون بمثل استقبال الوزراء. ويدخلون على السلطان أربعة أيام أسبوعيا كالوزراء، ويقف نائم السلطان عند استقبالهم فى الأعياد والمناسبات الدينية، ولهم الحق فى الدخول على السلطان بدون إذن فى وقت الحرب، وترتب

فأخذ أمير الحج الحجة الشرعية بيديه، فأمر الحج والكتخذا والديويدار^(١٦١) وحامل علم حضرة الرسول وحملة المحمل وچاوشية المحمل وناظره وقاضيه وسردارية أى قواد البلوكات السبع والكتخذاوات والچاوشية والحاصل قام الپاشا بالباس عدد ١٧٦ خلعة لكل هؤلاء بمناسبة ذلك اليوم الذى تم فيه تسلم هذا المحمل السلطانى. ويذهب أمير الحج بالآلاى^(١٦٢) أى الموكب مرة أخرى مع عسكر الپاشا إلى منزله، فأحسن على جميع أغوات الپاشا بكيسة^(١٦٣) من النقود،

لهم العلوفات أى المرتبات ويعقدون الديوان العسكرى، ويخصص لهم مساعدون، ويشتركون فى مناقشات الأمور الدينية التى كانت تعقد فى الباب العالى لنظر:

Mehmet Zeki Pakalin, Osmanli Tarih Deyimleri ve terimleri sözlüğü, Ist, 1971.

(١٦١) الديويدار: مصطلح عثمانى كان يُطلق على حامل دويلة الحبر والمسئول عنها فى أقالم الكتاب والخطاطين.

(١٦٢) الآلاى Alay: مصطلح عسكرى يُطلق على جماعة أو مجموعة متجانسة تمر فى موكب ما، وأصبحت تطلق على العرض العسكرى. أو الموكب الذى يمر أمام السلطان، والملك، أو الرئيس فى أيام معينة. ومن أهم الشخصيات فى الموكب أمير الآلاى، وقائد الآلاى، وأمين الآلاى. وكاتب الآلاى.

وكذلك أخذ يطلق على مجموعة فى التشكيلات والتظيم العسكرى؛ فالآلاى يضم المشاة، والخيالة والمدفعية، ومن نظم الجيش العثمانى أن الآلاى يتكون من أربعة طوابير مشاة، وخمس بلوكات فرسان، وست بطاريات مدفعية فى كل بطارية أربعة مدافع بأطقمها. وإن كان هذا التشكيل قد طرأت عليه الكثير من التغييرات على مر العصور. وأضيف إليها فى العصر الحديث إمام الآلاى، ومفتى الآلاى، وچاويش الآلاى. وكان لكل آلاى علمه الخاص به يرفعه عند المرور فى الموكب أو العرض العسكرى، وسوف نرى هذا بالتفصيل فى متن الكتاب. (انظر محمد ذكى باقالين).

(١٦٣) الكيسة: Kese - Kise: مصطلح مالى. يدل على الحافظة التى كانت توضع فيها النقود الذهبية أو الفضية. وكانت تتغير قيمتها من عصر إلى عصر آخر، كان يطلق على العملة التى توضع فى الكيسة اسم الأقجة، وحتى عصر الفاتح كان الفيلورى الذهبى يساوى أربعين أقجة. أول الأمر كان الكيس يساوى ٣٠ ألف أقجة أو ١٠ آلاف دينار ذهب، ثم بدأت القيمة تتغير وفقاً للوضع السياسى والاقتصادى للبلاد.

والكيسة: اصطلاح مالى يدل على الكيس أو الوعاء أو الحافظة التى كانت تُستخدم لحفظ مبلغ معين من النقود الذهبية أو الفضية، وكانت قيمتها متغيرة حسب العصور. كما استخدم هذا المصطلح للدلالة على العملة، و(صره) للدلالة على الذهب. وكانت الكيسة السلطانية

وأحضر كتحذا الپاشا المحمل الشریف من قرامیدان إلى باب الوزير، وحنالك
أبرك ناقة المحمل الشریف، وفي هذا المكان تم فك هذا المحمل لأن باب القلعة
صغیر جدًا ولا يمكن إدخال المحمل متكاملًا، بعد ذلك يحمل الشیالون المحمل
الشریف إلى قصر يوسف ويسلم كتحذا الپاشا الكسوة لناظر الكسوة، وفي شهر
المولد من السنة القادمة یباشرون خیاطة كسوتین. والسلام.

المسكوكة فی طرابلس وتونس والجزائر تساوی عشرة آلاف، وفي سنة ١٩٤٤هـ/سنة ١٥٣٧م
كانت عشرين ألفا، وفي سنة ١٠٧١هـ، ١٦٦٠ / ١٦٦١م كانت أربعين ألفا، ومنذ سنة
١١٠٠هـ / ١٦٨٨م أصبحت قیمتها خمسين ألف أقة. انظر محمد ذكي باقالین.

فى بيان منازل طريق الحج من مصر المحروسة حتى الوصول الى مكة والمدينة وبيان الساعات والدرجات لكل منزل

من القاهرة مصر إلى الطرف الشرقى حيث منزل البركة أربع ساعات،
وما بين منزل البركة سبعون درجة. والمصانع تكون ٢٢٠ درجة. وعجرو
خمسائة درجة. وسبعة مائة درجة. ووادى النتيه ٢٣١ درجة. ونخل البلح ٢٣١
درجة. والعدوية ٢٣١ درجة. وهاران ٢٠٢ درجة. والعقبة ١٠٤ درجة. وظهير
الحمار ١٠٠ درجة. وشرف بنى عطية ٢٠٢ درجة. وعيون القصب ٢٠٢ درجة.
والمويلح ٢٠٢ درجة. والشيخ مرزوق الكفافي ١٠٨ درجة. وأزلم ١٢١ درجة.
واسطبل عنتر ٢٣١ درجة. وقلعة الوجه ٢٢١ درجة. وأكره ٢٥١ درجة. وحكى
٢٢١ درجة. وخورا ١٨٢ درجة. ووادى النار ٢٢١ درجة. وبندر ينبوع ٢٢١
درجة. وسقيفة ٢٠٠ درجة. وبندر حنين ٧٠ درجة. والقاع ١٣١٤ درجة. ورابغ
٢٣١. وضارق قديده ٢٠٠ درجة. وأصفان ٢٠٠ درجة. وفاطمة أنا واديسى ٢٢١
درجة، ولكن ذكر ما بين بدر حنين إلى المدينة المنورة ومن بدر حنين إلى البلدة
الجديدة جميعها ١٨١ درجة. ومن جديدة إلى منزل مقابر الشهداء ٢٠١ درجة.
وبعد ذلك من بدر على إلى المدينة المنورة فى ٢٢٠ درجة، وعند الوصول مدينة
ينبع يكون ٢٥٠ درجة. ومن منزل نقب على ٢٢٠ درجة. ويكون مجموع
الدرجات ٧٣٥٠ درجة. ولكن يكون مجموع حساب عدد الساعات ٤٩٠. ثم
التحرير، والسلام. وعند المجيء بحمد الله مرة أخرى إلى مصر تكون جملة
الساعات والدرجات هكذا.

وبعد ذلك وقفت أنا الفقير هنا على قدر الطاقة على أحوال مصر التى هى
أم الدنيا، وتتبع بعض التواريخ ورأيت علامات الآثار. وتجرات على الكتابة
وتسجيل ما اطلعت عليه وعلمته علم اليقين وعين الحقيقة وبحمد الله تعالى، فى هذه
الفترة أكمل هذا المجلد من رحلتنا... تم والحمد لله.

باللغة الهندية (ايزد الاكبناه چلطى هونه) لك الحمد بلا حد ولا غاية ولا نهاية، حيث يسر الله لحبيب الحق فى مصر القاهرة نادرة العصر لكى تصبح هذه الأوراق المظلومة كلباس اللباد فى خرقة الدراويش وأصبحت كاملة، وإذا كانت بداية كتابة هذه الألفاظ ونهايتها فى سنة... خلال أيام حضرة الأصفى... باشا قد وجدت نهايتها، إلا أن المأمول من أصحاب الفضل والعقول الذين يرونها غير كاملة أن يقبلوا عذرى لكثرة السباحة إذا كنت قد تركت فراغات على أمل استكمالها ولم يتيسر ذلك، وكذلك قبول عذرى على أننى لم أكتب دائماً بعبارات متماسكة أو مترابطة، وألاً ينظر إلى هذا التقصير، فبعضه كان بسبب السهو والبعض بسبب التقصير، وكنت قد كتبت بالقلم الرصاص على أمل أن أمحوه وأكمل النواقص... إلا أن هذا الفقير مملوء بالتقصير، المرجو والمأمول عدم نقد السهو والخطأ، حيث إن مجموع سنوات رحلتنا قد بلغت واحداً وخمسين عاماً، وكنت فى بعض أيام هذه الرحلات أنزوى وأعتزل الناس لكى أتتبع التواريخ المختلفة ولكن هذا لم يتيسر.

كما أننا كنا لا نتمكن من التحرير الفورى لكل ما رأيناه خلال رحلتنا ونتركه على أمل الاستكمال، وعلى أصحاب العقول أن يقبلوا هذا العذر. ولكن وفقاً لما استمعنا إليه من أحاديث وتقاسير أستاذنا الشيخ على الشمرلىسى فى مصر، وما كان يتلوه من آيات كريمة وأحاديث نبوية شريفة... فلقد أخذنا إذن الشرف وحررناها خلال ما اعترضناه لمصر المحروسة. وبعد ذلك... وبعد أن وصلت مسوداتنا هذه إلى ختامها شرعت فى كتابة رحلتنا مصداقاً للقول، والعذر مقبول عند كرام الناس... والمأمول هو قبول عذرننا وأن يذكرونا بالخير، والباقى هو الباقى. قلنا اختم يا أوليا بهذا المتنوى:

[الحمد لله أن أوراق هذا الدفتر قد تم تحريرها ولم يبق أبتراً وبينما ليست هناك نياية... فبختامه قد وصل هذا الكلام إلى النياية] الكمال.

وهنا نصل إلى ختام الرحلة الحجازية التى قام بها الرحالة أوليا چلبى عام ١٦٧٢م / ١٠٨١هـ.

المجلد العاشر

مصر والسودان وبلاد الحبش

أولاً: مصر

الجزء الأول: زيارة معالم القاهرة أم الدنيا

الدخول إلى مصر

توطئة

الحمد لله وحده وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً^(١٦٤) عبده وحبيبه ورسوله.

وبعد الحمد الذي بلا حد والثناء الذي بلا عد، هو الخلاق رب العباد. هو خالق كل موجود وكل الموجودات والأرض والسموات، ومكوّن الكائنات من العدم بقوله كن ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف ٥٤/٧].
بيت :

هو ربّي الخالق بلا تعب الكريم .: خالق الأرض رب العرش العظيم

هو الصانع المصور، هو الخالق الذي خلق الأزل، هو الذي أوجد حبيبه المصطفى محمداً بحكمة علمه الأزلي. وهو الذي خلق من التراب صفى الله آدم أباً البشر بيد قدرته ليزين به وجه الأرض، ومنحه روحاً من روحه وجعله كاملاً مكماً، في جنة المأوى مع الحور والغلمان. كان يُخاطب ربه بلا واسطة. وقد سجدت له كل الملائكة، ولكن إبليس أبى واستكبر... الآية ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة ٣٤/٢]، عاش آدم مع حواء في الجنة في ألفة وعشرة، وقال الله سبحانه وتعالى لآدم ذات يوم، ولا تسئل عما يفعل، أمراً وناهياً إياه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ٣٥/٢] وأطاع آدم ربه ولكن بعد سنوات طويلة لما كان الإنسان مجبولاً على النسيان فقد نسي آدم أمر ربه تحت تأثير من

(١٦٤) في نسخ أخرى "المصطفى" وفي نسخ أخرى غيرها لا توجد عبارة "سيدنا ومولانا".

أُمنّا حواء، وأكل حبةً من القمح وفجأة وجد آدم نفسه على وجه الأرض في جزيرة "سرنديل" في بلاد الهند. ونُفِيت الأم حواء إلى جدة ولم يعودا... وكان كلاهما يقيم على وجهه عرباناً يرتدى التاج والحلل.

وفي النهاية، ذات يوم أحضر طير الجنة شعرة من لحية آدم هدية إلى حواء حسب ما ذهب إليه المفسرون، وحمل طائر الجنة أيضاً شعرات يفوح منها روائح العنبر، وقُدِّمها هدية إلى آدم. وكانت هذه الطيور هي سبب إجراء اللقاء بين آدم وحواء على جبل عرفات. وربما تكون سبب تسميته بهذا الاسم لأنهما التقيا وتعارفا من جديد عليه. وعرفات مشتقة من كلمة (عرف) العربية. ولما كان تعارفيهما بواسطة عصفور الجنة فقد دعا كل منهما له بالبركة والخير، فما كان من عصفور الجنة إلا أن توجه إلى آدم راجياً وهو يقول "... يا آدم إن لي مطلباً لقاء ما قدِّمت لكما من خدمة، إن الأفاعي والثعابين خصومي... إنها تلتهم أفرأخي وهي صغيرة، فلا تترك لي فرصة للتكاثر والتزايد. فمطلبي أن تدعني أعيش في رعايتك وحماك، وحيثما كنت أقيم أعشاشي في دارك. ولتهب لي حواء شعرات، ولتهب لي أنت أيضاً شعرات من لحيتك. وسوف أخلطها بالطين وأقيم عشى في جمالك، لعل أنكأثر وأتأسى". فقبل كلاهما آدم وحواء المطلب والرجاء فتناول طير الجنة شعرهما وخلطه بالطين وأقام عشاً ضئيلاً في دار آدم. وهذا هو أصل وجود هذا الطائر وتوطئه في بيوت بنى آدم حتى اليوم.

كانت دار آدم في حضن جبل عرفات، ويُطلق عليها مطبخ آدم. وقد قام سيدنا نوح [عليه السلام] بترميمها وتعميرها بعد الطوفان، وتزار منذ قديم الزمان. ويذهب المفسرون إلى أن حواء قد حملت بابنها شيث في جبل عرفات. وهناك من المؤرخين من يذهب مذهباً آخر، والمتفق عليه أن شيث ابن آدم. وإن كانت هناك عجيبة تروى أن مغزاها ماء ظهره أى "منيه" على تراب الأرض، وشاعت قدرة الله أن خرج بعد عام الابن شيث من تراب الأرض كما خرج أبوه آدم. ويرى البعض الآخر أن الذي خرج من ماء ظهر آدم هو نبات ما زال ينبت في هضبة بنغول Bingol وفي

أرجيس Ercis وفي بورصة؛ حيث جبل الزهبان وجبال البرز ورماوند. ويُقال إن هذا النبات فيه ذكر وأنثى وله شعر ولحي، ويتمتع ببعض من صفات الإنسان كالفتوة والوهن. ويسمونه في العربية "يروح الصنم وعبدالسلام".

يظن بعض الأطباء والحكماء أن أخشاب هذا النبات مقوية؛ ولذا يخلطونها بالمعاجين وفي صنع الأدوية... والأرجح عند المفسرين أن شيث ولد من حواء وهو ابن آدم، ولم يتزوج من المولودة معه، بل توجه آدم إلى ربه بالدعاء بأن يبعث إليه بحوريته من السماء. وجاء جبريل بالحورية فور الدعاء، فتزوجها شيث. وكانت عقدة الزواج والنكاح تُعقد بقول "لا إله إلا الله آدم صفى الله".

ذهب شيث بزوجه حورية السماء التي أسعدته وملأت عليه وحشته إلى جهة حوران حيث بلاد الشام الفحشاء. ويظن أن كلمة "حوران"، مشتقة أو محرفة عن كلمة "حوران" وقد تم تفصيل ذلك في الجزء التاسع.

ومقام آدم حسب إرادة رب العزة كانت جزيرة سرنديب "سرنديل"، وجبل عرفات ثم مكة المكرمة. وشاعت قدرة الله تعالى أن يسعد آدم وتذهب عنه الوحشة فمنحه قصرًا من القصور التي كان يُشاهدتها في الجنة وأقامه في مكة وسمى هذا القصر بـ "البيت المعمور".

يروى بعض الرواة أن البيت المعمور كان من الياقوت الأحمر، ويراه البعض الآخر من الدر الأبيض، ويقول المؤرخون إن الله - جلّت قدرته - رفع هذا البيت المعمور إلى الجنة مرة أخرى قبيل الطوفان الجارف، وخلال الرفع سقط الحجر الأسود من هذا البيت المعمور بعد أن خمد الطوفان واستقرت المياه في باطن الأرض، ويقول البعض الآخر إن الحجر كان أبيض وأنه اسودَّ بسبب فسخ العصاة ذنوبهم به.

وعندما فرض الله على آدم الطواف حول البيت المعمور هبط جبريل إليه، وعلمه كيفية الطواف والعبادة. وظل آدم يعبد الله في البيت المعمور في مكة. يذكر

بعض المؤرخين أن ذرية آدم قد بلغت أربعين ألف ولد، وقد كانوا جميعاً مع أولادهم يطوفون بالبيت ويحجون إليه كل عام. ولكن لم يكونوا يجدون ما يسدون به رمقهم ويذهبون به جوعيم وعطشهم، لأن مكة مكان غير ذي زرع، فأوحى إليهم بالتوجه إلى مصر، فتوطنوا ساحل النيل وسكنوه. وهكذا أصبحت مصر الموطن الرابع، ففلحوا الأرض وزرعوا الكثير من الغلال والحبوب، وكانت السنبلّة تغل بضع مئات من السنابل الممتلئة بالحبّات.

ويذكر الرواة أن آدم ومن معه من ذريته دعوا لأرض مصر باللسان العبرى، ويبررون ذلك بأن آدم حين هبط إلى الأرض أنشأ الله - بسبب عصيته أوامره ونواهيه - اللسان العربى؛ وهو لسان أهل الجنة وخطابها، فعلمه جبريل اللسان العبرى. وما هو العبد الفقير يورد هذا الدعاء بالعبرية ناقلاً إياه من بعض كتب التاريخ القبطية. وما هو النص وترجمته [كما أوردناه]:

خدام طط زلم حوز چيزريا	:	يا ربى احفظ إيمانى من الشيطان
ملازربيا ملازربيا	:	أغثنى أغثنى...
شوزم شاكن طراز ولم شريزتا	:	ولتساعدنى جميع الملائكة
صوازيرى زخربيا	:	هب لى القمح لأخبره
رفذ دلم زيراز زيراز خدام كدام	:	وبعد مماتى عمر
حرز بزيتى زابنتى زارزيرينى	:	هذا البلد لأولادى

زار زيرينى

هذا هو الدعاء العبرى الذى دعاه آدم لمصر وهو على وزن "مفتّعين" وببركة هذا الدعاء فى أكثر بلدان الدنيا خصباً وعمراناً. إلى هنا.

لكن مَنْ دخل أرض مصر؟ و مَنْ ملكها؟ وكيف تم حكمها؟ وكم عدد أفراد حكام كل دولة؟ وما هى مدة حكم كل دولة؟ منذ الأمر الإلهى الشريف حتى اليوم الراهن؟

بيان أوصاف مصر العتيقة العظيمة
المحروسة ذرة الدهر، أعنى القاهرة
المعزية أم الدنيا

وصل العبد الفقير إلى ربه أوليا الميراث من الزياء إلى مصر فى اليوم السابع
من شهر صفر، عام ألف وثلاثة وثمانين من الهجرة النبوية (١٠٨٣ / ١٦٧٢م)
ودققت النظر فى كل ما يخص مصر داخليا وخارجيا، فلم يسعنى إلا الدهشة، ولم
أتمالك نفسى من العجب، فوضعت أنامل العجب والحيرة على شفتى؛ فما رأيته
على أرض مصر من مبانيها العتيقة وأثارها الغريبة العجيبة لا مثيل ليا إلا على
أرضها. فمن أقام طلاسما، وشيد مبانيها الشاهقة... ؟

لقد قرأت الكثير من الكتب ذات القيمة والفائدة الجمّة والتواريخ
المعتبرة، وأنا أحاول جيد الطاقة معرفة كنه هذه الآثار^(١٦٥).

(١٦٥) رجح المترجم إرجاء بين أسماء كتب تواريخ مصر التى رجح إليها الرخالة لكى تكون فى
نيلية الكتاب، مع المصادر والمراجع الخاصة باليوامش، والتى رجح إليها المترجم.

الفصل الأول

فى أوصاف فسطاط مصر بقرب جبل المقطم

كان أول من نزل إلى مصر بعد هبوط آدم من الجنة هو آدم نفسه وولده شيث، فولده أنوش بن شيث فولده قينان فولده مهلائيل، فالنبي هود بن مهلائيل فابنه أخنوخ وهو هرمس. أخنوخ كلمة عبرية، وتسميه الملائكة وفقاً للسان أهل الجنة إدريس، وتسمى كذلك لأنه لقن الناس والملائكة دروساً، وكان مهلائيل ماهراً فى علم النجوم فى عصره وعنه انتشر هذا العلم فى أرجاء الدنيا.

وفى عيد شيث كان الناس يسكنون الكهوف والمغارات، وقد رأى العبد الفقير^(١٦٦) فى مصر آلاف المغارات التى تسع عساكر آل عثمان، وكانت أرض مصر فى عيد شيث تسمى إيلون.

ولد أخنوخ فى مصر وتلقى علم النجوم عن مهلائيل ثم أتقن علم الكتابة وحياسة الملابس عن جبريل، ولما بلغ الأربعين سنة من عمره جاءت النبوة فى مدينة أسوان فصار نبياً للصابئة الذين خرجوا على أهلهم واتبعوه، وأقام على ساحل النيل مائة وأربعين مدينة، وكان ماهراً فى الهندسة والنجوم وجميع الفنون الغربية، وعنه انتشرت كل هذه العلوم حتى عم علمه أرجاء العالم، وما زالت المدن التى بناها على النيل قائمة عامرة حتى إنه لىوجد على أرض الجزيرة المقابلة للفسطاط جبال الأهرام، وقد أمر بينائها سوريد الذى أخذ العلم عن إدريس. وكان سوريد قد عُرف بالعلم قرب طوفان نوح؛ فجمع كل كتبه وكنوزه وحفظها فى جبال الأهرام. ولما توفى آدم وإدريس صارت هذه الأهرام كعبة لأتباعه يزورونها كل

(١٦٦) يقصد الكاتب أولياً جلبي نفسه. وهذا الوصف "لازمة" فى معظم كتاباته.

عام، فيزور الرجل جبل الأهرام الواقع إلى الشمال، وتطوف انسوة باليزم الواقع إلى الجنوب، وعندما كان هو وأدم على قيد الحياة كان يحج كل عام هو وأولاده وأحفاده إلى البيت المعمور الذي كان مكان الكعبة المشرفة الحالية ثم يعودون من حيث أتوا؛ فتارة يتجهون إلى مصر وأخرى يذهبون إلى حوران القريبة من الشام الشريف، وتقول تواريخ الصابئة إن إدريس كان عالماً بكل أمور الدنيا وما فيها، وأنه كتب كل وقائع الدنيا وحفظها في جبال الأهرام.

ويقال إنه لما مات شيث دفنه إدريس في جبل الأهرام، ومن بين المدفونين في الأهرام أيضاً الملك مصريم والملك بيطر بن حام بن نوح عليه السلام.

وبعد ذلك أقام الملك نقراوش - وهو من حفدة شيث وكان كاهناً من الكهنة - مدينة كبيرة في المكان المعروف حالياً بمصر القديمة وسمّاها إمسوس؛ ومعنى كلمة إمسوس باللسان العبرى هو "المدينة الجديدة"، ولكن الأقباط سمّوها القسطنطية وقد عمروها وأصلحوها بعد الطوفان وسمّوها مصريم، ومن هنا صار اسمها الآن مصر، ويقال لها باللسان اليوناني مقدونية، وباللسان العبرى زاربننت، وباللسان العربى القاهرة المعزية؛ والسبب في تسميتها هذه الأخيرة أنه في سنة ٣٧٥ هـ = ٩٨٥م وعندما كان ملك المغرب هو السلطان معز الدين ولسطان مصر هو الإخشيد، حصل معز الدين على موافقة سلطان الإخشيديين على بناء جامع في مصر، وأرسل مملوكاً له أسود اسمه القائد جوهر ومعه ألف خزينة مصرية وخمسون ألف نجار وبنّاء وعامل وحمّال، وجاءوا من المغرب وهم مدججون بالأسلحة ومجهزون أحسن تجهيز.

ولما أوّشك البناء على النهاية حضر السلطان معز الدين من المغرب زاحفاً بجيش جرار يزيد عن مائة ألف، متكرين في ثياب العمال والصناع الذين سبق ودخلوا مصر بحجة بناء الجامع الأزهر. وهكذا انتزع المعز بلاد مصر قهراً ونزعها من يدى أحمد بن على بن إخشيد، وبنى مصر الجديدة التى سميت القاهرة

المعزية؛ ولذلك لا يزال أهل مصر حتى الآن يستعملون عبارتي "يا قهار، يا قابض" الأمر الذي يجعل رجال الله فيها في حالة الانقباض دائماً.

هذا، وإذا ما ذكرت أسماء البندان جميعها لا يُطلق اسم "أم الدنيا" إلا على مصر هذه.

وقد سبق أن ذكرنا أن نقرأوش الملك قد عمّر بعد وفاة سيدنا آدم إمسون ومصر عمارة زائدة حتى كان طول العمران فيها يبلغ مسافة مسيرة ثلاثة أيام، إذ ملّك "نقرأوش" مصر كلها وحكمها مائة وثمانين سنة، حتى إذا ما خرج من هذه الدنيا الفانية عملوا على نقله وحمله إلى جبل الأهرام ودفنوه به.

وقد جاء بعده ابنه "نقرأش" إلى الملك. وكان مثل أبيه أستاذًا بارعًا ذا كفاءة وذكاء، فبنى المدن في ولاية الواحات. ولما توفي دُفن أيضًا في جبل الأهرام، وخلفه أخوه مصرأيم بن نقرأوش على عرش مصر، وكان هذا حاكمًا قادرًا وكاهنًا ساحرًا، إذ جعل بقوة علمه جميع السباع والحيوانات المفترسة المربعة خاضعة لأمره؛ بل إنه جعل الشياطين والعمالقة تسمع له وتحمل له عرشه. ولما مات دُفن في الأهرام، وتولى ملّك مصر بعده من أقربائه ملك يسمى "عبقام" فأجرى العدل بين الأهالي والرعايا. وكان في عهده صعود سيدنا "إدريس" [عليه السلام] إلى السماء في مدينة أسوان فتأثر قوم الصابئة من أمته تأثرًا عظيمًا؛ حتى منعهم الحزن عن الدوام في الطاعات وأداء العبادات، الأمر الذي انتهى إلى تمثّل إبليس كثير التلبّيس عليه اللعنة في صورة إنسان من أبناء آدم، وظيّر بين هؤلاء الناس في لباس الناصح الأمين وخاطبهم بقوله: "يا قوم ! لماذا تبكون دون أن تتحركوا هكذا ؟" فقص عليه قوم إدريس أوجاعهم التي حدثت لهم. فبادر إبليس على الفور قائلاً: "لا تحزنوا ولا تبنوا فإني موجد لكم صورة "إدريس" ليجعلها كل منكم في منزله وليكتفها عن الناس، فإذا نظر إليها فكأنه رأى إدريس وبذلك ينال الصبر والسلوان ويرتاح باله ويطمئن قلبه". ففعلوا كما قال. وقد وجدوا فيه ما يريح بالهم ويسر خاطرهم.

هذا، ولما انقضت أيام الصابئة وانقرضوا وجد من بعدهم أحفادهم هذه الصورة تراثاً في بيوتهم خلفه آباؤهم وأجدادهم السابقون، فعكفوا عليها يعبدونها ويقَدِّسونها حتى تحوّل الصابئة إلى عبادة الأوثان والأصنام. وهكذا ظيرت عبادة الأصنام هذه وشاعت من عهد قوم سيدنا إدريس [عليه السلام]. ولما توفى الملك الذى كان معاصراً لإدريس - وهو عيقام - خلفه فى الحكم الملك "عريق".

إن هاروت وماروت - وهما ملكان عظيمان - معلقان من أرجلهما فى كيف بمدينة بابل لا يزال يسمع صراخهما وفزعهما، وأوصافهما مذكورة فى "تاريخ ابن جرير الطبرى"، ولما توفى عريق جاء بعده ابنه "الوخيم" إلى الملك؛ وهو الذى شيد مدينة "شرق أخميم" وأقام بها سبعمئة دبر. وجاء محله بعد وفاته ابنه "حسليم" فى الملك، وقد عمّر سبعمئة عام، وهو الذى أقام مدينة أسوان على ضفة النيل كما أنه أنشأ المقياس أعنى "أم القياس" الذى بمصر. وقد نظم هذا الملك جميع الترع والقنوات فى أرض مصر حسب القواعد الهندسية ثم زاد عليها شق الترع والجداول وأجرى مياه النيل فى جميع أرجاء مصر، الأمر الذى أدى إلى تنظيم الرى ونمو المحصولات والمنتجات، ولم يكتف بذلك فحسب بل إنه بطّن جميع الترع وفروعها بالرخام السماقى والمرمر الخام، وأنشأ على طول جانبي النيل سدوداً ومدناً عظيمة، وأجرى مياه النيل إلى بلاد النوبة حيث أنشأ بها قنطرة ذات اثنى عشر عقداً لا تزال أطلالها قائمة للعيان.

وكان ظيهور سيدنا نوح عليه السلام فى عيد هذا الملك "حسليم"، وقد زاد فى عصره تعداد الإنس من بنى آدم زيادة عظيمة حتى ضاقت بهم الأرض الزراعية، فاشتد القحط وعم الغلاء فأجبر الناس على اللجوء إلى الوديان وشواطئ الجداول والبحار لصيد السمك يذهبون به جوعهم.

ولما توفى هذا الملك جاء بعده الملك "ترسان بن هر سال"؛ وقد آمن بالنبي نوح [عليه السلام] عندما جاءت النبوة وهو فى الأربعين من العمر. وبعده تولى الحكم الملك "شريق" ثم ابنه "شيلوق" ثم ابنه "سوريد" الذى كان جباراً عتياً،

ففرض الخراج والضرائب على الناس لأول مرة، وهو الذى بنى الهرم الكبير بالقرب من بنى سويف حيث؛ يقال له هرم سوريد وهو مدفون فيه، يدل على ذلك أن حجراً من أحجاره يحتوى على تاريخه بالخط العبرى. وقد جلس بعده ابنه "أفروس" فى الحكم، ولما توفى هذا دفن بجوار أبيه. وقد خلفه ابن عمه فرجون وقد حدث الطوفان وهو القيامة الأولى فى عهده، إذ بطلت بعده جميع أنواع السحر وانمحت العجائب والغرائب والطلاسم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - قد أظهر جميع الكنوز والمعادن المدفونة والمحفوظة فى الجبال وقيعان الأنهار والعيون وفى الصخور من جراء طغيان البحار وفيضان المياه أربعين يوماً ليلاً ونهاراً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت ٢٩/٢٠].

هذا، وقد استقرت سفينة نوح عليه السلام بعد ذلك الطوفان على جبل الجودى بجوار الموصل، ولما كان الخلاص لكل من كان فى السفينة فى يوم العاشوراء عمد نوح فى يومه جمع ما وجد من المأكولات والمشروبات لديهم، وحفر حفرة فى صخرة ووضع فيها وطبخه حتى صار طعام العاشوراء، فأكله ركاب السفينة الذين نجوا وشكروا الله الواحد القهار. وهكذا صار طبخ العاشوراء فى اليوم المذكور من كل سنة اتباعاً لسنة آدم الثانى وهو نوح عليهما السلام عادة ينبغى العمل بها دائماً.

وهناك دليل قاطع على أن نوحاً قد وصل إلى بر السلامة فوق هذا الجبل؛ حيث يقول القرآن الكريم فى إحدى آياته ﴿وَقِيلَ يَتَٰرَضُ ٱلْبَلَىٰءُ مَآءُكَ وَيَنسَمَآءُ أَقْلَىٰ وَغِيضَ ٱلْمَآءِ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودَىٰ﴾ [هود ٤٤/١١] ولما استقر نوح بسفينته سالماً على جبل الجودى أقام به لأنه أرض مباركة، وبنى نوح أول ما بنى بعد الطوفان مدينة "جودة"، وهى بلدة صغيرة فى سفح جبل الجودى بجوار الموصل. ومنيا بعث إلى مصر بيمار بن حام، فبنى مدينة العريش فى أرض "حسان" القريبة من مصر، ثم توجه إلى مدينة بلبيس فأعاد تشييدها لأنه كان يعرف أنها موجودة من قبل الطوفان وأن سبعة عشر نبياً

مدفونون بها. ومنها قدم "بيلر بن حام" إلى مصر فيني "إمسوس" التي هي مصر القديمة. ثم أقام مدينة "منوف". وأما سام بن نوح فقد عمر الشام ثم فلسطين، فأنشأ القدس التي ازدهرت وعمرت جميعاً بأبنائه.

هذا، وقد انتهى العبد الفقير إلى أن تاريخ "خطط المقرئ" لهو كتاب عظيم؛ لأن مؤلفه كان ذا باع طويل في معرفة اللغات العبرية والسريانية والقبطية والعربية واليونانية، وكان مثل فيثاغورث التوحيدى في كثرة الطواف والترحال. وأصدق الروايات التي وردت عن المنشأ الأول لمصر هي رواية هذا المؤرخ الذى يقول إن آدم عليه السلام توطن أولاً بمصر القديمة، ولما توجه إلى الشام بأمر من رب العزة كان لشيث ابن يدعى "عريباب" وللأخير ابن يدعى "نقراوش". ونقراوش هذا كان أذكى أولاد آدم وأرشدتهم، وكان ماهراً في كل العلوم والفنون ولهذا أحبه سيدنا آدم حباً جماً وسماه مصرايم، وكلفه أن يعمر مصر وتوجه هو نفسه إلى بيداء حوران الشام للاشتغال بالزراعة.

ولقد اضطر نقراوش هذا ومعه سبعون يسمون مصرايم إلى الجلاء عن الوطن من جراء ظلم قابيل؛ فأخذوا يهيمون فى الأرض على وجوههم يبحثون عن مرعى مناسب ليم حتى وصلوا جبل جداما^(١٦٧) "جبل كده ماسى" من أرض مصر، فأعجيبهم مناخه ولطف هوائه وكثرة أشجاره فأقاموا به واتخذوه موطناً لهم، لأن جداهم سيدنا آدم - على الرغم من مكوثه مع أبنائه حقبة طويلة بمصر - لم يترك بها شيئاً من الآثار المعمارية البنائية؛ فقد كانوا يكتفون فى ذلك العهد بسكنى الأكواخ والأخصاص.

أما نقراوش هذا بعد أن رزق بمصر ايم فى أرض مصر وصار صاحب عشيرة كثيرة العدد فانتشروا فى أطراف الأرض يوجدون بها أناراً وأبنيسة. وقد كان نقراوش يقوم كل سنة بزيارة جده آدم صفى الله فى الشام وحوران وبمصر

(١٦٧) جبل جداما: كذا فى الأصل، ولعله تحريف من جبل دامر فى صحراء طرابلس الغرب.

فينال بركات دعائه الطيب. وقد أطلق آدم صفى الله اسم "ملك مصرائيم" على نقرأوش هذا، فصار هو أول من نودى فى اللسان العبرى بلقب الملك، وقد ملكه مائة وثمانية عشر عاماً، كان حكمه نافذاً بين جميع العشائر والقبائل، غير أنه كان جباراً عتياً طيلة أيام حكمه. وقد أخذ عن أخيه "زرايل" كثيراً من العلوم الغربية والفنون العجيبة؛ فتوصل بها إلى اكتشاف الكنوز، واستخرج الدفائن من باطن الأرض. ثم أمر جميع أفراد قومه وعشائره بنقل الأحجار والصخور من الجبال لبناء مدينة فى المكان الذى كانوا يقيمون خيامهم فيه، وقد سميت هذه المدينة بعد بنائها "أمسوس"، ولا تزال قائمة موجودة بشاطئ النيل وهى مصر القديمة. إذ إن الشعب القبطى أطلق عليها اسم "قسطاط". وكانت هذه المدينة عامرة حتى جاء الطوفان فخربت ولا تظهر أطلالها وحجارتها الضخمة الكبيرة إلا فى بناء جبل الهرمين. حيث يبلغ حجم كل صخرة منها ٢٥ × ١٥ ذراعاً مما جعل بعض الذين رأوها من المعماريين يقولون إن هذه الأبنية من عمل الجان لا الإنسان الذى يعجز عن إتيان مثليها، فيؤلف المعماريون الناكرون يعرفون أنه بعد هبوط آدم من السماء كان هناك أناس عمالقة يتمتعون بمثل هذه القوة وطول الناح، وأن طول كل شخص منهم كان يبلغ مائة ذراع فى حين أن قامة أى شخص فى زماننا لا تزيد عن ذراعين أو ثلاثة، ومع ذلك فإن هذا الشخص قادر بواسطة علم جر الأتقال على نقل جبل بيستون من مكان إلى آخر، وكان الذى يعارض فى هذا وينكره منكر للقول المأثور والمثل السائر "همة الرجال تنزع الجبال"، ومنكر كذلك لقواعد علم جر الأتقال.

هذا، ولما اكتظ الناس وازدحموا فى مدينة أمسوس هذه، جمع الملك مصرائيم جنوداً كثيرين وزحف بهم إلى الشام للانتقام من "قابيل"، كما أن هابيل قد حشد جيشاً كبيراً فى مدينة فلسطين التى هى الرملة الحالية؛ حيث تقابل الجيشان والتحم الجمعان وسقط مئات من أبناء آدم من أنصار قابيل على الأرض يروونها بالدماء، فكان ذلك أول دم يراق فى سبيل دم هابيل. وكان المتقاتلان مصرائيم

وقابيل. ولما كانت المعركة قد حدثت في صحراء الرملة فقد سميت تلك الجبهات باللسان العبرى "فلسطين" ولقد هزم مصرايم قابيل وغنم منه غنائم كثير، وعاد بيا إلى مصر؛ حيث استعان بيا على تفريع النيل وتوزيع مياهه بحفر الترع والخلجان وتحويلها إلى السهول فجعلها صالحة للزراعة وإدراج الخيرات والمنتجات. لأن النيل كان يجرى على غير هدى فيتجه فرع منه عن طريق ولاية النوبة إلى بحر السويس، وفرع آخر يتجه نحو المغرب؛ حيث يصب في خليج "كبرث" بولاية بنى هلال.

ولكن مصرايم - بفضل علم الهندسة الذي يمتلكه - قد أخذ ارتفاع كل الأراضي فأجرى النيل في الترع والخلجان حسب ذلك وفق مراده ومبتغاه هو، ثم بنى جبل الهرمين تجاه مصر ليكون مدفنًا ومرقدًا للإنسان وكنوزه الكثيرة. وقد عاش ٧١٥ سنة، ولما ودع الحياة دفنوه بجميع كنوزه وخزائنه الكثيرة في الهرم الكبير الذي كانت قد أعدته خصيصًا لذلك، ولقد كانت له ذرية كبيرة عاشت حتى الطوفان في مصر تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه. وملك أرض مصر من أولاده سبعون نفرًا، وكان الذي يجلس على عرش مصر حين حدوث الطوفان يسمى "فرعان".

وكان هناك كاهن من ذرية نفراوش "مصرايم" يُسمى "قليمون"؛ يعرف علومًا كثيرة وفنونًا شتى، حتى إنه بفضل هذه العلوم والمعارف تنبأ بقدوم طوفان نوح عليه السلام وظهور الغضب الإلهي، فبادر إلى مغادرة موطن جده قبل وقوع الطوفان، ووصل إلى سيدنا نوح في مدينة الكوفة وأعلن إيمانه بيا، وهكذا استقر أولاده وعياله في ولاية العراق. وكان لسيدنا نوح ابن اسمه حام، وهذا له ولد يدعى "ببصر" فزوجه الكاهن قليمون ابنته فأصير بذلك إلى سيدنا نوح عليه السلام.

ولما جاء الطوفان ركب قليمون هو وجميع أولاده ومعه كل ما يملك سفينة نوح ونجا من الغرق، وقد استقرت السفينة بعد أربعين يومًا على جبل الجودي

حسب النبا القرآني ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود ٤١/٤٤] فوصلوا إلى بر السلامة، وهناك بادر نوح إلى إنشاء مدينة "جودة" التي تُعد أول بلدة أُسِّت على الأرض بعد الطوفان. وبعد هذا كله أُنشئ سيدنا نوح إلى الكاهن قليمون وصيره المدعو بيطر أو ببصر بالعودة إلى "أمسوس" التي بناها جده "مصرايم" وهي مصر القديمة الحالية؛ فقطعوا المراحل سالكين السبل التي نجت من فيضان ضغيان المياه، حتى وصلوا المدينة المسماة "العريش" على مقربة من مصر فنزلوا بها. والعريش لفظ يُطلق في اللغة العبرية على المحل الذي يقيم فيه الإنسان أو يجلس، وفي أثناء استراحتهم تحت شجرة نجت من الطوفان جاء المخاض "زده زه" أو "جده جه" بنت الكاهن قليمون، فوضعت من زوجها ببصر بن حام ولدا ذكرا أسمياه - أيضا - مصرايم. فكان هذا أول ولد جاء إلى الدنيا بعد الطوفان وهو "مصرايم بن ببصر". وقد أقاموا الاحتفالات والولائم هناك بالعريش مدة، وتبركوا بتلك الشجرة التي كانوا يستظلون بظلالتها؛ حيث أخذوا يعلقون بها خرقا بالية وثيابا قديمة للذكرى، ثم رحلوا عنها إلى بلبيس فأعجبهم مناخها وجوها وقد أقاموا بها مدة. وكانت بلبيس هذه مدينة السحرة قبل الطوفان كما كانت مدينة معمورة. ولكنهم وجدوها خربة (خاوية على عروشها). ثم واصلوا السير حتى وصلوا أرض مصر فلم يجدوا بها أثرا دائما من مدينة "أمسوس"؛ التي كان قد شيدها نقراوش "مصرايم الأول" جد الكاهن قليمون؛ وهي التي يقال لها مصر القديمة؛ حيث قضت عليها مياه الطوفان المتلاطمة. ولم يبق بها شيء ظاهر سوى جبل الهرة الذي كان قد أقيم بإشارة من النبي إدريس تجاه النيل ليأووا إليه. ومع ذلك فإن الذين لجأوا إليه عند الطوفان قد غرقوا بأموالهم وكنوزهم في مياه الطوفان.

هذا، وقد قام قليمون وصيره بيطر بن حام بجولة في أرض مصر للبحث عن موطن يقيمان به من جديد، فلما وصلا أرض "منوف" وجداها طيبة الهواء لطيفة الجو والمناخ، يحيط بها النير من كل الجوانب وكأنها جزيرة لطيفة، فما كان من قليمون وصيره بيطر إلا أن اختارا الإقامة في هذه الوديان الخضراء. ومكثا

بها حقبة من الزمن في خيام وأكواخ أقامها، وقد تناسلا وتكاثرا بمضى الزمان ومرور الأوقات فحصلوا على أموال كثيرة بفضل أعمال الزراعة التي امتيناها. ثم قررا أن يبنيا فيينا ويستقرا بها لما رأيا من كثرة خيرات الأرض وبركات تربتها؛ فبنيا بلدة صغيرة أطلقا عليها اسم "منوف"، ومعناه باللغة العبرية محل الصفاء والانتعاش.

ولا يخفى أن أول مدينة بنيت على وجه الأرض بعد الطوفان هي قرية جودة "الجودي" التي استوت عليها سفينة نوح عليه السلام، وهي بجوار الموصل. وثاني المدن هي بلدة "منوف". وسنذكر في موضعه من الكتاب كيف أن بيطر أنشأ كثيرا من المدن والآثار وعمرها وحول مدينة منوف إلى قصبة عظيمة، ثم أغراه تلمون فجلا عنها مصطحبا أهله وعياله وسافروا إلى مدينة "أمسوس" التي هي مصر القديمة. ولما كانت هذه المدينة أيضا مما أنشأ أجداد قليمون فقد باشروا تعميرها والسكن بها.

هذا، وبعد عام مات الكاهن قليمون فدفنوه في الجرم الأعلى بجوار جده نقرائش مصرائيم، وهو أول من مات بعد الطوفان ودفن في الأهرام.

الفصل الثاني

في بيان من ملك مصر بعد الطوفان

من المعلوم أن بيطر بن حام بن نوح قد استأذن النبي نوحاً بعد انقضاء الطوفان في أن يرحل مع حميه الكاهن قليمون إلى مصر، فأذن له نوح ودعا له ربه ثم مسح فمه قائلاً: "لا يجد الانقراض إلى نسلك سبيلاً، وأن تكون ملك مصر ويطول عمرك ممتعاً بسعادة الدارين". فوصل بيطر مصر وشيد بها مدينة "منوف" واتخذها عاصمة لمملكه.

وقد أطلق المؤرخون اسم "أبي الأقباط" على بيطر هذا الذي خلف ثلاثين ولداً؛ أولهم مصرايم المولود في المكان المسمى بالعريش عندما كان قادمًا بأهله إلى مصر، وكان ذلك تحت ظل الشجرة. ولقد كان مصرايم هذا أعقل أولاده الثلاثين وأكثرهم حباً للعمل؛ حيث كان قد علمه الكاهن قليمون، جده لأمه، علومًا غريبة حتى صار شابًا قويًا فريذاً في عصره، وقد أطلعه على جميع الكنوز والدفائن، ثم توفي بيطر والد مصرايم بعد أن عمّر ثمانمائة وخمسين سنة و١٦٨ يوماً. فدفن في الهرم الكبير بجوار حميه الكاهن قليمون.

وقد تولى ابنه "مصرايم" المولود بالعريش الملك فصار ملكاً مستقلاً عظيماً؛ ينفذ حكمه في إسنا "إسن" والسودان^(١٦٨) "إشودان" حتى بلاد الفونج (فونجستان)^(١٦٩)، واعد إلى أقاليم مصر فوزعها على الأخوة الثلاثين (وهو منهم)، ثم بنى كل واحد منهم في المناطق التي يحكمها مدينة كبيرة لا تزال تسمى بأسماء أولاد بيطر، بفضل دعاء سيدنا نوح عليه السلام. مثال ذلك أن أحد أبناء بيطر كان يسمى

(١٦٨) سنرى تفصيل ذلك خلال الرحلة إلى السودان.

(١٦٩) سنرى تفصيل ذلك خلال الرحلة إلى بلاد الفونج.

"رشيد"، فبنى المدينة التي هي الآن بهذا الاسم، والآخر كان يدعى "دمياط"، وثالث كان "إسكندر"، وآخر تينبر "تينه". وكذا "سيفه" الذي بنى مدينة بنى سويف، وآخر كان يدعى "مينه"، وكذا أشمون وأسيوط وجرجه وتقا "قنا" وقوس "قوص" وإسنه وأسوان "أثوان" وإبريم وصياني وحلفا "حلفه" وسناره وسودان، وغيره من أمثال هذه الأسماء التي كان يسمى بها الأمراء الذين بنى كل واحد منهم مدينة لا تزال باقية على الدهر عامرة وأهلة بالسكان على سواطي النيل حتى الآن. إذ كان هؤلاء الأمراء أنجال الملك بمثابة أمراء العشيرة وزعماء القبيلة. ولكن أخاهم الكبير مصرايم كان ملكاً عظيم الشأن يخضع الجميع لأوامره ويطيعونه^(١٧٠).

وقد أقدم الملك مصرايم على زيارة المكان المسمى بالعريش؛ حيث وضعت أمه تحت الشجرة التي كانت تستظل بها أثناء الوضع فجاء إلى هذه الشجرة وأخذ يزينها بأقمشة مزركشة وأحجار كريمة. ثم اعتكف تحتها يعبد الله حق العبادة. وبعد ذلك شيد مدينة على مقربة منها أسماها "درسان" ومعناها باللغة العبرية "باب الجنة"، ولا تزال آثار البناء ظاهرة لمن يفد من غزة إلى مصر على الجانب الأيمن للطريق السلطاني، وقد هدمها "بختنصر" حينما جاء إلى مصر ودمرها.

ولقد عمر مصر في الأيام الأخيرة كل من السلطان يوسف صلاح الدين^(١٧١) والسلطان قايتباي^(١٧٢) بإنشاء الجوامع والقاعات العظيمة في أرجاء البلاد، بفضل الرخام والمرمر السماقي والعمدان العظيمة التي أخذوها من أنقاض مدينة

(١٧٠) سنرى تفصيل ذلك خلال الرحلة إلى بلاد الفنج .

(١٧١) السلطان يوسف صلاح الدين : يوسف بن أيوب صلاح الدين الملقب بالملك الناصر، من الأتراك، نشأ في دمشق وتعلم الحديث بها، ودخل في خدمة نور الدين محمود زنكي، استقل بملك مصر وخطب للعباسيين وأنهى الحكم الفاطمي سنة ٥٦٩هـ. كان أعظم انتصاراته يوم "حطين" أمام الصليبيين، والذي استرد بعده طبرية وعكا ويافا، ثم افتتح القدس سنة ٥٨٣هـ. توفي في دمشق بعد أن حكم مصر لمدة ٢٤ عاماً وسوريا ١٩ عاماً. خلف من الأولاد ١٧ ذكراً وبناتاً واحدة. مات سنة ٥٨٩هـ (الأعلام ٢٢٠/٨).

(١٧٢) السلطان قايتباي المحمودي الأشرف (٨١٥ - ٩٠١هـ = ١٤١٢ - ١٤٩٦م) : سلطان الديار المصرية. من ملوك الجراكمة، المماليك. بويع بالسلطنة سنة ٨٧٢هـ واستمر إلى أن توفي بالقاهرة. وبلغت مدة حكمه تسعة وعشرين عاماً. (الأعلام ١٨٨/٥).

"درسان" هذه التي دفن بها أحد أبناء مصرايم، أول من بنى هذه المدينة التي أصبحت أثرًا مندرًا، وله فيها قبة عالية تتأطح السحاب لا تزال موجودة إلى اليوم. والسبب في بقاء القبة سليمة حتى الآن هو أن الأقباط ينتسبون إلى هذا المدفون تحت القبة؛ ولذلك يحج إليها جميع الأقباط ويتعبدون لها دائمًا بالتعمير والتسرميم، واسم صاحبها قبطيم بن مصرايم بن بيطر حام بن نوح عليه السلام.

أما مصرايم فقد عمّر سبعمئة سنة، وبنى مصر القديمة وأشاع العمران فيها حتى أصبحت وكأنها قصر مشيد رائع. وقد كثر نسله وزادت ذريته فخلف مائتين من الأبناء، وصار لهم أولاد وأحفاد وكذا إخوته البالغ عددهم زهاء الثلاثين، فقد صار لهم من الأولاد والأحفاد حتى ضاقت بهم الأرض بما رحبت. ولقد كانوا كلهم على دين جددهم (نوح نجى الله)، وكان كل واحد من أبناء مصرايم هذا حاكمًا على إقليم من الأقاليم طيلة عمره البالغ سبعمئة سنة؛ حيث لبي بعد ذلك نداء ربه حسب قوله تعالى ﴿أَرْجِعْنِي إِلَىٰ رَبِّكَ...﴾، [الفجر ٢٨/٨٩] ودفن في الهرم الكبير مع والده بيطر بجوار سوريد المتوفى قبل الطوفان، إذ كان جبل الهرمين في تلك العصور مزارًا للخواص والعوام لأنه مقبرة يزورونها ويتطوفون بها مثل الكعبة. وقد دام الحال على هذا المنوال حتى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وجاء بعده ملك بن قبطم بن مصرايم المولود من الذرية القبطية في مدينة "درسان"، وأخذ يتعبد تحت الشجرة التي خلف أبوه مصرايم باني مدينة درسان تحتها، مما أفاد أخاه، ثم اندثر [هذا التقليد] إلى ظهور عبادة الأشجار ابتداء من قبطم هذا دين جده نوح عليه السلام، وقد ظهر الخلاف والعناد بينه وبين إخوته وأعمامه البالغ عددهم حوالي الثلاثين؛ حيث اتجه كل منهم إلى انتحال نحلة من النحل التي ظهرت من قبطيم بن مصرايم المعروف بعلو الشأن والملك العظيم حتى الآن. فالأقباط جميعًا يرجعون إلى نسل هذا الملك والتاريخ القبطي يبدأ به.

هذا، وقد أخذ قبطيم الملك العلوم عن عالم كاهن من نسل النبي إدريس؛ فتمكن بذلك من تأليف كتب التاريخ التي لا مثيل لها ولا نظير في الأمم الأخرى

سوى كتب الكفار من القبط الحاليين. لأنه بعد هبوط آدم انتشر علم الحساب والنجوم وفن الكتابة والخط، وهى تلك العلوم التى تعلمها الناس كلها عن النبى إدريس، ولم ينبغ فى تلك العلوم أحد كما ينبغ الأقباط الذين ليس لهم مثل فى تحصيل العلوم، ولا يزال أولو الأمر ورجال الحكم فى مصر فى حاجة ماسة إلى معارف هؤلاء القبط، وذلك لإتقانهم علم الحساب، ولحسن فراستهم واستقامتهم وهم فى غاية الدهاء والمكر والأدب والحفاظ على العرض والكرامة، مما جعل أعيان مصر يعتمدون عليهم فى الإشراف على أهلهم وعيالهم وتربيتهم وقضاء المؤن منهم لدقتهم فى الحساب ومسك الدفاتر وتقييد المصروفات فى السجلات، فلا يعرفون حبة إلا ويبادرون إلى قيدها فوراً. فليس لهم مثل فى غير بلاد مصر من البلدان.

إن الشعب القبطى يعتقد أن الملك قبطيم نبى ورسول؛ ولذا يدعون غالباً بقوليم يا قبطيم، وهم متعصبون فى مأكليم ومشربيهم للغاية، والآن هم مسيحيون. وعلى قول توارىخ الصابئة أن هودا ولد فى بلدة "سمنود" فى عهد الملك قبطيم الذى كان الناس فيه يتكلمون باللسان العبرى من آدم حتى عهده. ولما كان هذا الملك متضلعا فى العلوم والفنون فقد نشأت اللغات العديدة والألسنة المختلفة. ولقد كان يتكلم القبطية بفصاحة نالها من الرب العزيز، وبعد أن حكم أربعمئة سنة شرب من كأس المنية، دفن بجوار والده مصرايم فى جبل الهرمين. وجاء بعده أخوه "أشمون" فى الحكم، وأشمون وأشمونين بلدان بمصر من أعمال هذا الملك. وأشمون فى اللسان العبرى اسم للملك الذى على صورة الثور وشكله الذى يحمل الأرض على ظهره. فلذا يوجد فى مدينة أشمون هذه عدد كبير من ذكور الأبقار (الثيران)، ولا يزال المثل يضرب بين عربان مصر بإطلاق بقر أشمونين على من كان متصفاً بالبلاهة والغباوة، غير أن المدينة ليست عامرة كما كانت فى أيامها الأولى، وهى حالياً أطلال وتلال بالعراء ذو ثلاثمئة درجة حولها قرى مغمورة.

وقد خلف هذا الملك بعد وفاته أخوه "أثريب" وتوفي بعد فترة، وخلفه أخوه "صالي" وهذا قد قتل أثناء خروجه للصيد في بلاد الفونج "قوبخستان" وكان ملكاً قوياً شجاعاً. ومدينة "صالي" وقلعتها هي خط حدود مصر من جية بلاد الفونج هي من أعمال هذا الملك "صالي"، ثم خلفه ابنه "ترارس" على العرش وقد ولد في عيد النبي صالح [عليه السلام]. ولما مات هذا خلفه ابنه "ماليق" الذي عاش مائة سنة فقط، ثم انتقل إلى دار البقاء فخلفه أخوه "خربت" بن قبطيم، وجاء إلى الحكم بعده ابنه "كدكن" ومات بلا واد فخلفه أخوه "مالنه" بن "خربت"؛ وقد أقام مدناً كثيرة في بلاد النوبة حتى إذا ما وافاه الأجل المحتوم خلفه ابنه "طوطيس" فكان ملكاً عظيماً وجباراً عتياً.

حكاية

يحكى أن إبراهيم عليه السلام عندما كان قادمًا مع "سارة" إلى مصر، خذلت النفس الأمانة بالسوء الملك الجبار "طوطيس" بأن يمد يده إلى "سارة" ويرادها عن نفسها. فسلَّ الله - سبحانه وتعالى - يده في الحال فطلب من إبراهيم أخيرًا بأن يدعو له ربه بأن يعيد الحياة إلى يده فاستجاب الرب دعاءه، ولكن نفسه الأمانة بالسوء راودته مرة أخرى على اغتصاب "سارة" ومحاولة التعدي عليها، فسلَّت يده مرة أخرى وقد عفا عنه إبراهيم هذه المرة ودعا له بالشفاء فاستجاب الرب وبرئت يده؛ وهنا اعترف الملك طوطيس بنبوة إبراهيم هذه ناطقًا بشهادة "ألا إله إلا الله إبراهيم خليل الله"، وصار مسلمًا ووهب إبراهيم الخليل أمنًا هاجر فولدت له إسماعيل عليه السلام. فإسماعيل مولود من هذه الزوجة القبطية، ثم زاد على ذلك بإعطاء إبراهيم هدايا كثيرة قيمة وأرسله عن طريق بحر السويس إلى جده، ثم إنه - حبًا في لقاء إبراهيم ومواصلة تأييده إياه - عمد إلى شق الجبال تجاه "بنى سويف" وتعميد الطرق حتى مسافة ثلاثة أيام في اتجاه بحر السويس حيث أجرى النيل إليه؛ وبذلك تمكن من إرسال منات من السفن والمراكب المحملة بالمؤمن

والنخائر لتكون نعمة وبركة على أهل مكة، ولقد عاش هذا الملك مائتي سنة منها مائة وثمانون سنة مدة ملكه وحكمه، إذ بعدها انتقل إلى الدار الباقية ليملك هناك أيضا. وقد دفن بجوار والده "خربتا" في جبل اليرمين. ثم خلفته في الحكم كريمنه "خروبا" التي كانت أول ملكة على وجه الأرض، فحكمت سبعين عاما وهي على دين إبراهيم عليه السلام، ولما ماتت خلفتها في الحكم بنت عمها "زالقا" التي كانت ماهرة في السحر ولما جاءها الأجل دفنوها بجانب والدها "مأموم" ومازال القبط يزعمون أن هذه السيدة نبيّة من الأنبياء والرسل، فتحج طوائفهم إلى مرقدتها في مدينة "بينسا"، وتقول توارخيم إن من معجزاتها حتى الآن إظهار المسروقات والمفقودات، ويُرَد على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى قد أرسل إلى بني البشر مائة وأربعة عشر ألفا من الأنبياء والرسل ليس من بينهم أحد من النساء. هذا، وقد عاشت الملكة "زالقا" فترة طويلة، تكاثر قوم القبط وتناسلوا في عهدها حتى استوطنوا جميع أقاليم مصر.

الفصل الثالث

فى بيان أحوال العمالقفة

العمالقفة هم أولاد عملاق، كان ملكهم أيدوس (= عيدوس = وليد العنيد)، طمع فى خيرات مصر ورخائها الذى فى أيدى الأقباط فسير جيشاً كثيفاً إليهم؛ اشتبك فى حرب ضروس مع "رايكا" بنت "ياموم" إلى أن أسفر القتال عن انهزام الأقباط أمام العمالقفة. وهكذا تمكن الوليد البليد من التحكم فى مصر مائة سنة حيث جعلها كلها وفقاً على كنيسة آيا صوفيا، وقد ظل يحكم بالظلم والجور إلى أن سلب الله عليه سبعة من الحيوانات المفترسة فقضت عليه وأنقذت أهل مصر من شره المستطير. كان ضخماً قضت عليه وأنقذت الجسم كبير الجنة كأنه جذع شجرة ضخمة، وكانت كل سنة من أسنانه تزن ثمانية عشر رطلاً؛ مما يدل على أن شعب العماليق كانوا أقواماً ضخاماً.

وقد تملك بعد "وليد" هذا ابنه "ريان" الذى تفيد تواريخ الصابئة أن سيدنا يوسف [عليه السلام] كان فى عهده، ولقب الفرعون يطلق على ملوك مصر الكفار، فإذا أرادوا جمع اللفظ قالوا الفراعنة، هذا وعندما اختار "ريان" زاوية العزلة مبتعداً عن الحياة خلفه سيدنا يوسف عليه السلام مائة سنة أخرى، وكان حكمه لمصر موصوفاً بالعدل التام فتقدمت تقدماً كبيراً فى عهده وعلت علواً عظيماً.

الفصل الرابع

فى بيان كيفية بناء يوسف [عليه السلام] مدينة الفيوم

وكيف حفر بأمر الله بحر يوسف

يقول الشيخ (السيوطى) - رحمة الله عليه - عندما أصبح يوسف فى صباحه مملوكاً لعزیز مصر عشقته "زليخا" وافترت عليه الكذب فسجنه "ريان" فى مدينة الجزيرة وقد ورد ذلك فى القصص القرآنى؛ إذ يقول الله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ [يوسف ١٢/٣٦] ولا يزال هذا السجن حتى الآن فى جامع بلدة "بوصيرا" بالقرب من قسبة الجزيرة فى مواجهة مصر العتيقة، وفى هذا الجامع أيضاً يوجد الصندوق الذى وُضع به موسى وليذا وألقى به فى اليم، أى أن يوسف قد نجا ببركة الصدق فى هذا السجن وأصبح ملكاً على مصر، وعندئذ دعا هذا الدعاء "اللهم إنى غريب فاجعلها لى!" ومن هنا فإن طوائف العبيد والغرباء هم القابضون على خيرات مصر وهم المعززون فيها.

هذا، وبفضل دعاء سيدنا يوسف أنزل الله سبحانه وتعالى على وجه الأرض عشر بركات خيرات، جعل لمصر منها تسعاً ولسائر أقاليم الأرض واحدة، لأن مصر إقليم ليس كسائر الأقاليم، إذ فيه طلائع عجيبة ومعادن وكنوز غريبة.

وبعد ذلك كله أدركت العناية الإلهية يوسف، فنزلت عليه النبوة وهو فى الأربعين من عمره بعد أن كان خليفة فى الأرض، وقد تملك وهو فى الثلاثين. ولما كانت مصر أرض الجبارين فقد تركها ونزل إلى وادى الفيوم حيث الهواء المنعش والجو اللطيف؛ فسعد بها وانتوى الإقامة فيها، لذلك بنى مدينة الفيوم فى ألف يوم فسميت المدينة الفيوم تحريفاً عن عبارة "ألف يوم". ويجوز فى اللغة

العربية أن تخفف الكلمات؛ فتحذف الألف واللام ويقال "فيوم" بمعنى المدينة التي شيدت وأنشئت في ألف يوم.

وبينما كان يوسف ينقل التراب المتخلف عن حفر الخليج بذيل ثوبه الشريف أمر سبحانه وتعالى جبريل الأمين بأن يهبط ويقدم يد المساعدة والمدد لحبيبه يوسف؛ فنزل جبريل كالبرق الخاطف أطاح بجناحه بحيرة الفيوم بضربة قوية؛ فأطار ترابها وأنقاضها وأطلالها إلى السماء وأنزلها إلى (أسفل الغبراء)، وضرب جناحا آخر جهة الصعيد الأعلى ففتح ترعة من النيل جرى فيها الماء حتى بحيرة الفيوم التي لا تزال بحيرة واسعة عميقة تعيش فيها مئات الألوف من الكائنات والمخلوقات العجيبة والزواحف البحرية.

ويقوم أولياء الأمور في مصر بتطهير الترع والقنوات كل سنة بمئات من الأبقار والثيران والأنفار، في حين أن التربة اليوسفية هذه - لكونها من آثار جبريل الأمين - لا يحدث بها جرف أو شق ولا يبقى فيها طمي قط إلى توقف الفلك بل يجرى فيها النيل دائماً. إن ماء النيل إذا دخل البحيرة ينقلب ماؤها مرّاً أجاجاً. وفي ضواحي هذه البحيرة توجد ثلاثمائة وست وستون قرية، كل واحدة منها تشبه إرم ذات العماد أو جنة غناء. وسنذكر - إن شاء الله - وصف مدينة الفيوم في المكان المناسب.

هذا، ولما اشتد فراق يوسف على والده يعقوب [عليه السلام] بادر بالرحيل من بلدة كنعان مع أولاده وعياله، وتوجه نحو مصر لزيارة يوسف الذي كان حينئذ مقيماً في الفيوم. وخلال ذلك خرج الملك "ريان" من عزلته وتقدّم نحو يعقوب بموكبه طالباً دعاءه، ثم أكرمه غاية الإكرام وبعثه وحاشيته إلى الفيوم فهب لمقابلته سيدنا يوسف بالحفاوة اللائقة. وقد اجتمعوا في مكان لا يزال يسمى "ميلين يوسف"؛ على مسافة ميلين من الفيوم حيث البساتين والكروم. ولما تعانق الوالد والولد بحرقه وشوق وفرح وسرور جرى الانتعاش ودبت الحياة في جسم يعقوب، وعاد النور إلى عينيه النرجسيّتين اللتين فقدتا بصرهما من شدة البكاء على يوسف

وفراقه. ثم بادر يوسف إلى عتق تسعين غلاماً من غلمانهِ المماليك شكراً لله، وفرح يعقوب فرحاً مزيّداً ودعا لابنه بالخير والبركة من صميم قلبه، وقد مكث بمصر ستة عشر عاماً متمتعاً ببصره الذي عاد إليه إلى أن وافته المنية وتوفاه الله، فبادر ابنه يوسف حسب وصية الأب إلى نقل رفاته إلى جبرون (أو) حبرون في القدس الشريف حيث يرقد بجوار خليل الرحمن.

ذكر وفاة سيدنا يوسف (عليه السلام)

وبعد وفاة يوسف هلك أيضاً "الريان" الذي كان ابنه "دارم" ملكاً يجلس على عرش بلاد أسوان، وما كاد يسمع بوفاة سيدنا يوسف حتى أعلن استقلاله والعمل على تنفيذ وصية يوسف بأن وضع جثته في صندوق من النحاس الأصفر وألقى به في اليم، فبقى هذا الصندوق في النيل حتى عهد سيدنا سليمان [عليه السلام] حيث قدم ذات يوم إلى شاطئ النيل مع خذمه وحشمه وبطانته من الإنس والجن، فإذا بعجوز ساحرة شمطاء ذات عقل ودهاء تتقدم إليه وتقول: "يا سليمان لقد ألقى بالصندوق الذي يحتوي على جثة سيدنا يوسف في هذا المكان. فمن الخير والحكمة أن تسارع إلى إخراجه"، فما كاد يسمع سليمان ذلك حتى أصدر أوامره إلى العفاريت والجان بإخراج الصندوق، وفي لمح البصر تم انتشال الصندوق ونقلوه إلى القدس حيث دفن بجوار والده "يعقوب" في جبل حبرون [كذا]. ولا يزال قبره معروفاً منوراً يزوره الناس.

الفصل الثامن

في بيان آل الريان وذكرهم

لما طغى "دارم" وتجبر هذا الملك الرياني بعد وفاة سيدنا يوسف؛ حيث جنح إلى عبادة الأوثان واتخاذ الأصنام آلهة حتى غرق في النيل، خلفه في الملك "كاشم ابن معدان" وتولى بعده الفرعون ابن حريم بن كنورب بن زيد موسى، فكان هذا هو الملك الذي جاء قبل موسى [عليه السلام] بعشرين عاماً والذي جعل منوف عاصمة لمملكه، وعمر أربعمئة عام وقد قضى أكثر أيامه في قتال موسى [عليه السلام] حتى غرق بجميع جنوده في المكان المسمى بمضيق "قلوندر" في بحر القلزم أي البحر الأحمر. وهذا ثابت بالأدلة القاطعة في جميع كتب التفسير. ثم تلته في الحكم السيدة المدعوة "دلوكة بنت زيباكه"؛ فاعتنت بعمارة مدينة "منوف" اعتناء كبيراً حتى أنها جعلت جميع العمدان المستعملة فيها من الحديد، وكست السطوح والسقوف بالرصاص وغطت الأبواب والشبابيك والدرابزينات بالشبة والنحاس فأصبحت لا نظير لها في أرض مصر. ومنوف في اللغة القبطية اسم للعروس بمعنى أنها مزدانة ومجلوة كعروس الدنيا. بعد ذلك سيطرت هذه الملكة المدعوة "دلوكة" على العالم بقوة السحر، وكان ذلك في سنة (...) (١٧٣)، فكانت سلطانة أصيلة حكمت عشرين سنة ومائت بعد أن عاشت مائة وستين عاماً.

وخلفها في الملك درجون (= دركون = درغون)، ولما هلك خلفه ابنه "تودس"، وبعده تولى الملك "لقاس" ثم "مرينا" وخلفه ابنه "اسمارس" فاغتيل وكان أول من قتل من الملوك؛ لأنه كان ملكاً جباراً ظالماً وحاكماً جائراً. وتولى بعده

(١٧٣) ترك المؤلف فراغاً ولم يذكر تاريخاً، وسوف يتكرر ذلك، ولما كانت الفترة موعنة في القدم فقد صعب تدارك هذه التواريخ.

الملك "بطولس بن مكاكل" فحكم أربعين سنة، ثم تلاه ابنه "بالوس" ثم أعقبه فى الملك "مياكل" أخو "بالوس" فحكم مائة وعشرين عامًا، وهو الذى خرب بيت المقدس وقد هلك بسقوطه من فوق صهوة جواده الذى رفسه حتى مات. وخلفه ابنه "مرتوس". وبعده تولى الملك "مرمورة" الذى أشاع العدل وأحب الرعية ونشر العمران فى ربوع مصر والقدس وعمر ستين عامًا. ثم خلفه الملك "لقاس" الذى هوى فى ساحة الوغى، فأعقبه فى الملك "قوبش" فطاف البرارى والبيداء وساح فى كل البحار مغيرًا على أكثر من خمسين ولاية وإقليمًا من الولايات والأقاليم المجاورة.

وكان فى عهد هذا الملك خروج بختنصر من كردستان إلى بلاد فلسطين؛ طالبًا دم النبی يحيى [عليه السلام] فأوغل فى البلاد حتى اجتاح حلب والشام وبليسر وطبرية ونابلس والرملة وصفط (أى صفد) وغزة ومصر والإسكندرية.

والخلاصة أنه استولى على أكثر من ألف وسبعمائة مدينة إسرائيلية، فخرّبها وجعلها أطلالاً وجعل أهلها أسارى معذبين، وذلك انتقامًا وثأرًا لدم يحيى المسفوك هدرًا وكان اليهود قد قتلوه. وظلت مصر نتيجة لهذه الغزوة خربة مدة بلغت أربعين سنة كاملة، وقد عثر بختنصر هذا على الأنبياء أرميا وإيليا ودانيال فى مدينة صفد، فألقى القبض عليهم وزج بهم فى السجن، وبينما هم فى الحبس بلغه أن الوحي ينزل عليهم، فبادر إلى إطلاق سراحهم وقد أعاد إلى مصر الفارين من أهلها بفضل رجاء ثلاثة من الأنبياء من أولاد نوح [عليه السلام].

وحدث فى هذا العصر أن تسلط الشعب الرومى على إسرائيل بفضل بختنصر، وإلزام الملوك جميعًا باعتراف المسيحية، حتى لقد أشاعوا الطقوس المسيحية فى البلاد الإيرانية، كدق النواقيس والعزف على الأرغون. فأية ﴿الْم﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿﴾ [الروم ١/٢-٣]، التى نزلت فى عهد الرسول ﷺ إنما نزلت فى شأن هؤلاء الروم. وهنا سردت حكاية العمالقة وآل الريان.

الفصل السادس

فى بيان من دخل مصر من الأنبياء العظام

أنزلت الصحف أول ما أنزلت على آدم وشيث وابنه قينان. وكان لقب سيدنا إدريس هو "هرمس"، ومعناه بالعبرية (الشيخ).

هذا، ولا يزال السودانيون حريصين على تسمية أبنائهم بإدريس وحمد وحمود وهنو وجرجس وكفيل.

فالنبي إدريس قد بعث فى مصر وظل بها إلى قوم الصابئة، فأقام بأرض مصر هذه مائة وأربعين مدينة؛ لأنه كان ماهراً فى علم الهندسة والنجوم مهارة كاملة. ولإكثارد من إلقاء الدروس على الناس سُمى باسم (إدريس)، وهناك نص قاطع على أنه عرج إلى السماء وهو ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم ٥٧/١٩]. ويقال إنه لا يزال فى جنة المأوى يُفَصِّلُ الحُلل والثياب إذ كان ماهراً فى فن الخياطة والكتابة، كما أن إبراهيم وإسماعيل [عليهما السلام] بعد أن أتما بناء مكة جاءا إلى مصر فى عهد الملك "توتيس"، وأما يوسف فقد كان بمصر فوصل أبوه يعقوب إليها ومعه أبنائه الأحد عشر، وأكبرهم "يهودا"، وابن يامن [بنيامين]، وسياح بن يهودا بن يعقوب، وميائيل، وروفائيل، وشمعون، ومسحرة، وزاخيل، ودارم، ولاوى، وأزريا، ورادم، وحسيان. فهؤلاء كلهم أولاد سيدنا يعقوب جاءوا لمصر بعد أن أجرموا بإلقاء يوسف فى غياهب الجب وادعوا أن الذئب قد أكله، واجتمعوا به مع أبيهم واستغفروه، وأقاموا بها ست عشرة سنة طيلة حياة أبيهم يعقوب. ثم عادوا إلى صغد جميعاً بعد وفاته، وهم مدفونون فى مغارة "بيت الحزن"، وبسبب أن بنيامين (ابن يامن) كان شقيق يوسف من أم واحدة فإنه أبقى عليه، وظل مع سيدنا يوسف فى الفيوم التى ولد بها أيضاً "أفرايم بن يوسف"؛ فأفرايم هذا وبنيامين

كلاهما مدفون في قبة واحدة بجوار عمر بن الفارض^(١٧٤) بمصر. وليس في أرض مصر من أولاد الأنبياء من هو مدفون بيا سواهما.

ومن الذين طالبت أقدامهم أرض مصر من الأنبياء لوط [عليه السلام]، وموسى وهارون [عليهما السلام] وهما أخوان ولدا في مدينة أرمن "أرمنت" قرب أسوان من أرض مصر؛ حيث خافت أم موسى على ولدها فعمدت إلى صندوق فوضعت فيه ولدها وألقته في اليم خوفاً عليه من طغيان فرعون مصر. وكان من لطف الله ومن حسن التقدير أن كان السراي الذي يقيم به فرعون مصر على شاطئ النيل، وكانت زوجته "آسية" جالسة صباح يوم تشاهد النيل؛ فرأت صندوقاً يطفو على سطح الماء فأمرت بإحضاره فوراً، وما إن فتحته حتى رأت هالة إلهية تتلألأ منيا الأضواء والأنوار قد شملتيا ليس مثل كل الأطفال؛ فحرصت عليه وحضنته وعنيت بتربيته حق العناية. ومن حكمة الله وحسن تقديره أن كان والد سيدنا موسى هذا هو بواب سراي الفرعون؛ كما أن والدته كانت من جملة نساء الحرم الخاص، فأعطت آسية الطفل لوالدته وأخذت تلاحظه عن بعد ومن وراء ستار. وقصة موسى وفرعون هذه مسطورة في جميع كتب قصص الأنبياء. وكذا الأنبياء داود، والملك رجيم بن سليمان، وهود، وشعيب، وصالح بن ثمود الذي كان يقطن قريباً من مدينة مصر، بقصد مصر القديمة، فكان يزورها دائماً. وهناك في مصر القديمة دير يحج إليه الأقباط ويزورونه ويطلق عليه دير آل ثمود. وكذا لقمان والخضر، وإن كان في نبوتيهما اختلاف. وأما لقمان فقد كان أستاذاً حاذقاً أسمر اللون يسكن مدينة السودان.

(١٧٤) عمر بن الفارض: هو الشيخ أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، المعروف بابن الفارض، ولد في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦هـ بالقاهرة، وتوفي بها يوم الثلاثاء الثاني من جمادى الأولى سنة ٦٣٢هـ ودفن بالقرافة في سفح جبل المقطم تحت المسجد المعروف، كان من كبار الصوفية، له ديوان شعر رائع العبارة، وقد نسخ شعره في جميع أقطار العالم الإسلامي. (ديوان ابن الفارض، مكتبة زهران، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢).

وأما الإسكندر ذو القرنين ففيه آراء كثيرة، فينالك من يقول إنه نبي مرسل حيث وردت الآيات القرآنية في حقه وهي ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف ٩٤/١٨]. وهناك أربعة يتسمون بالإسكندر على هذا المنوال، فالإسكندر ذو القرنين بن فيلكوس الرومي وهو يوناني. ومن بعض التواريخ أنه الإسكندر ابن "مرزية"، ومذكور أن اسمه "مرزيا" وكنيته الإسكندر. هذا، وكان في ذلك العهد يطلقون القرن على فترة أو مدة من الزمن مقدارها ٣٢ سنة، فمعنى القرنين يعني ٣٢ سنة مرتين أي أربعاً وستين سنة، وحيث إنه حكم أربعة وستين عاماً فوصفوه بأنه ذو القرنين. وفي رواية أخرى أنه كانت في جبهته قطعتان من اللحم تتدليان كالعقرون فأطلق الناس عليه هذا اللقب.

حكاية شرفنامه^(١٧٤)

يقول مؤلف كتاب شرفنامه وهو جد أمراء بدليس إن ذا القرنين لم يكن يتمتع بالراحة قط من وجع قرنيه وإيلامهما له دائماً. وقد جمع حوله من الحكماء الماهرين والأطباء الحاذقين عدداً كبيراً ليعالجوه ويزيلوا ما به من الألم، إلا أن جهدهم كان يضيع هدراً؛ فما كان منه إلا أن ضرب في الأرض باحثاً عن عين الخلود التي يقال إنها في الظلمات، ولما طال بحثه ولم يجدها عاد إلى إقليم العراق، وشرب من مياه شط العرب فسكن ألم قرنيه واستراحت نفسه قليلاً. ونام ورأى فيما يرى النائم أن هاتفاً يقول له: "يا إسكندر اشرب من ماء هذا الشط وسر فيه حتى

(١٧٤) شرفنامه: كتاب مؤلف باللغة الفارسية في مجلدين، في تاريخ الدويلات والإمارات الكردية ووصف بلاد الأكراد في العهد الإسلامي لمؤلفه الأمير شرفخان البتليسی الذي كان مقرباً من السلاطين العثمانيين، أتم تأليفه سنة ١٠٠٥ هـ وطبع مرتين: إحداهما في موسكو سنة ١٨٦٠م والأخرى بالقاهرة سنة ١٩٣٠م. وهذه الطبعة بين يدي، وقد ترجمه إلى العربية محمد علي عوني، وراجعته يحيى الخشاب في جزأين (طبعة دار إحياء الكتب العربية) وإن كانت هذه الترجمة غير متوافرة.

الموصل، على أن تشرب في الطريق من كل ماء يقابلك ويصب في الشط، وإذا عثرت على الماء الذي يزيل ألمك فاتبع مجرى هذا الماء الصغير واصعد معه إلى أن تصل إلى منبعه فحط رحالك به، وأقم حوله أربعين يوماً تشرب من مائه كل يوم حتى يزول ما بك من ألم القرنين وتحصل على الشفاء التام".

ولما استيقظ من النوم استدعى الأطباء والحكماء والخدم والحشم ورحل بهم جميعاً إلى ناحية الموصل، مجتازاً عشرات من الأنهار والجداول حتى وصل ولاية جزيرة العمر [جزيرة ابن عمر] فشرب من نهير "الخابور" الذي يسقيها؛ وعندئذ شعر براحة تامة وأحس بحياة جديدة فتبع شاطئ هذا النهر وسار فيه نحو منبعه حتى وصل إلى مكان يتفرع فيه النهر إلى فرعين، فشرب من ماء الفرع الذي يأتي من "حصن كيفا"؛ فشعر بانتعاش ونشوة فبادر إلى مواصلة السير حتى جاء إلى مكان ينشطر فيه هذا النهر النافع تحت قلعة "كغندور" قرب بدليس، فشرب من الشطر الذي يأتي من جبال مودكي، وعند ذلك صاح الإسكندر وهتف هتافاً تردد صدهاء في أجواء السماء من السعادة التي شعر بها. وعندما شرب من الفرع الذي يأتي من داخل المدينة استعذبه وانتعش به فأحبه كثيراً؛ ولذا تابع سيره نحو ذلك الماء ونزل مكان مدينة بدليس ورأى النهر يتفرع مرة أخرى إلى فرعين من تحت القلعة، فشرب من القسم الذي يجري في السوق فلم يستعذبه فبادر إلى الشرب من القسم الذي ينبثق من تحت القلعة فاستعذبه ووجد لذة كبيرة وشعر بحياة جديدة كأنها خالدة، فسقط أحد القرنين فوراً وبقي الآخر فشكر الله على ذلك، وتابع سيره على شاطئ ذلك النهر حتى رأى أنه يتدفق من صخرة عظيمة مهيبية، فأمر رجاله بحط الرحال وإقامة الخيام وعسكر بجيشه وأقام هنالك أربعين يوماً يشرب من ذلك الماء الزلال، حتى وقع قرنه الآخر أيضاً وزال ما به من الألم والوجع.

وهكذا نجا الإسكندر من قرنيه ومن آلامهما التي أسهنته حقبة من الدهر؛ فشكر الله الواحد القهار واهب العطايا، وتقديراً لطهارة هذا المكان وقُدسية هذا المكان الشافي وعذوبته أمر بأن يبنى هنالك قصراً منيفاً وتكية أنيقة، عمرها

ال دراويش وأهل العلم والمعرفة عبيدا طويلا متمتعين بالسعادة والبناء والراحة.
ولا يزال هذا المحل محط أنظار أهل الصفاء في تلك الجهات.

وكان للإسكندر هذا خازن يدعى "بدليس" في غاية الذكاء والنباهة وحسن
التدبير والشهامة، فأعطاه أموالاً وخزائن عدة وأمره ببناء قلعة عظيمة على هذه
الغدير الدافقة قائلاً إنها يجب "أن تكون من الحصانة والمتانة وعلى مكانة يعجز
عن فتحها والاستيلاء عليها أى فاتح، وحتى إذا قصدتها أنا الإسكندر بعظمتى
وجلالى".

وفى سنة ١٠٦٥ هـ حينما زرت "بدليس" بصحبة مولاي "ملك أحمد باشا"
تكلمت عن أحوال هذه المدينة وقلعتها بالإسهاب. بيد أنى رأيت فى بعض التواريخ
فى شأن إسكندر ذى القرنين ما يلى:

إن الإسكندر ذا القرنين هذا هو الذى بنى السد العظيم لينقى به هجمات
يأجوج ومأجوج، كما أنشأ قلعة الإسكندرية بأرض مصر، وهو ابن تارخ بن يافث
بن نوح عليه السلام. وفى قول آخر أنه الإسكندر بن "داراب" بن "بهمن" بن
إسفنديار.

وحقيقة القول أن الإسكندر هذا قد ذهب إلى مصر وبنى بها قلعة الإسكندرية
[سنة ٦٠١ ق.م]، ومدة حكمه ٦٤ سنة، ولقد مات فى بابل ودفن فى الإسكندرية.
هذا، وكان سيدنا الخضر النبى رجلاً مسناً ذا تجارب وتدبيرات عظيمة فى جيش
الإسكندرية وكان يصحبه فى رحلاته فى أنحاء العالم. ويقال إنه لا يزال حياً يُرزق
وفى نبوته أيضاً اختلاف، ولكن قدومه لمصر ثابت بالقرآن الكريم (الآية...) [!؟]

وبمصر موضع يدعى "مرج البحرين" الذى هو اختلاط النيل المبارك بالبحر
بيوغاز دمياط، وقدم الخضر مع سيدنا موسى فى رحلاته إلى هذا الموضع المسمى
"مرج البحرين"، حيث بادر إلى خرق سفينة صيد فغرقت، وجانله موسى [عليه السلام]
فى ذلك حتى دب الخلاف بينهما فأنزل الله تعالى على محمد المصطفى هذه الآية

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْتِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف ٧٨/١٨]. وهذا دليل كاف على أن سيدنا موسى كان ساكنا بمصر. وحيث إن موسى والخضر قد ترافقا في مرج البحرين فيكون الخضر أيضا ممن دخل مصر.

ومن الأنبياء الذين دخلوا مصر سيدنا "يوشع" الذي ولد في مدينة الفسطاط (= مصر القديمة)؛ فهو يوشع بن نون وليس زينون. وقد ولد زينون في مصر القديمة أيضا، وكان حكيما حاذقا من القبط، وقد كان زينون هذا ضمن الوفد الذي أرسل من قبل حاكم مصر "المقوقس" إلى صاحب الرسالة المحمدية حاملا من الهدايا الجوارى الثلاث القبطيات وسيفا وبغلة، وحينما سلم زينون الهدايا لصاحب الرسالة قُتِمَ نفسه أيضا للرسول عبدا مملوكا له، معربا عن رغبته في التشرف بالإسلام. فأعطى الرسول إحدى الجوارى إلى أبي بكر [رضي الله عنه] قائلا: "خذ شمسة" Giz Şemse فأولدها ابنه محمدا، وأعطى الثانية للشاعر حسان وسمّاها (درة) فأولدها ابنه عبد الرحمن. وقد خص الرسول نفسه بالثالثة وسمّاها (مارية) التي ولدت حضرة إبراهيم ابنه. وبعد ذلك عاد "زينون" هذا مع عمرو بن العاص في فتوح مصر، وقد استشهد في وقت واحد مع "عقبة الجهنى العامري" وهو من الصحابة الكرام، ولذا دفنوهما متجاورين.

وأما "يوشع بن نون" هذا فهو نبي توجه من مصر إلى طرابلس الشام ودفن بها. هذا، وقد أسر بختنصر النبي "دانيال" والنبي "أرميا" [عليهما السلام]، وقدم بهما إلى مصر حينما توجه إليهما مُجْتَاحًا ومُشِيعًا الخراب والدمار في أرجائهما، وفي عودته من مصر اصطحبهما معه إلى "كردستان".

وممن هاجر إلى مصر سيدنا عيسى [عليه السلام] الذي ارتحل هو وأمه من مدينة نابلس، فنزلا في قرية المطرية، وظلا بها ثلاثة أعوام غرسا خلالها أشجار الـ (بليسان) التي لم تكن معروفة على وجه الأرض حتى ذلك العهد. وكانت تلك الأشجار موجودة حتى عهد الدولة الكردية ولا تزال جذوعها باقية. ثم حفر سيدنا عيسى هناك بئرا يشرب منها السعداء من الوزراء والكبراء أيام الفيضان

حيث يأتي النيل عكراً كثير الطمي، ولا تزال الطوائف المسيحية تزور تلك البئر إلى اليوم، ثم سافر السيد عيسى مع أمه إلى مدينة بهنسا فأقاما بها ثلاث سنوات أخرى. هذا وقد أخبر الله - سبحانه وتعالى - حبيبته المجتبي بدخول عيسى أرض مصر بهذه الآية الشريفة ﴿وَأَوْيَيْنُهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون ٥٠/٢٣]؛ حيث فسرهما العلماء بدخول عيسى مصر.

وهكذا يكون هؤلاء الأنبياء هم الذين دخلوا مصر، وهذا وفق ما أجمع عليه ثقات المؤرخين والمفسرين، ولم يدفن أحد منهم بأرضها اللهم إلا بنيامين وابن أفرايم بن يوسف عليه السلام.

فى بيان من دخل مصر من أهل بيوت الأنبياء

وأول هؤلاء أم سيدنا شيث ثم أمنا حواء، ثم سارة زوج إبراهيم الخليل، والسيدة آسية التى كانت زوج فرعون واستشهدت على يده وهى بكر، وكذا "يوحنه" أم موسى، وأم يوسف، وأم يهوذا بن يعقوب، ومريم أم عيسى. وعلى هذا اتفاق المؤرخين أجمعين.

فى بيان من دخل مصر من الحكماء القدماء

ففى مقدمة هؤلاء إدريس الذى كان كاتباً وخطاطاً وحكيماً. و"لقمان" و"فيثاغورس التوحيدى"، و"تيمون" و"فليسلة" و"أسلاوس" و"كاوس" و"يزنجرى" و"إقراط" و"سقراط" و"أفلاطون" و"أفليطس" و"أرسطاليس" و"بطلمو" أو "بطليموس" و"أفلاطمو" و"أرسطاليس" و"كلقوس" و"نور النون المصرى" و"أبو على بن سينا" و"أبو الحارث"، ومن هؤلاء الحكيم والعالم والطبيب والفلكى والعارف بمواقع النجوم ممن لا تزال مؤلفاتهم تدرس ويعمل بها اليوم.

وخلاصة القول إنه فى مصر أم الدنيا هذه، من بعد هبوط آدم ومن بعد طوفان آدم الثانى نوح عليه السلام، قد تناسل بنو آدم وتكاثروا على أديم الأرض، فبعث فيهم منات من الأنبياء والرسل والملوك والسلاطين، واشتهروا بالعتو والطغيان، وهم أربع طبقات.

الطبقة الأولى نسل داريون (الداريون). الطبقة الثانية (الكرانيون). الطبقة الثالثة (الأسكانيون). الطبقة الرابعة (الساسانيون) وهذه الجماعة المكروهة المذكورة ملكت أكثرها إيران وما وراء النهر وبلاد العراق ومصر.

الفصل السابع

فى ذكر فتح عمرو بن العاص مصر القاهرة فى خلافة سيدنا عمر بركة معجزات محمد المصطفى ﷺ (١٧٦)

الدافع إلى فتح مصر هو أن اليونانيين كانوا قد ازدادوا شوكة وطغياناً بعد الإسكندر الأكبر، حتى وضعوا أيديهم على أقاليم الدنيا السبعة، وفيها مصر التى أذلوا ملكها القبطى "المقوقس" وجعلوه عاملاً لهم بوى بكى" أمير عشيرة، ثم أخذوا يتأهبون لغزو مكة والمدينة عن طريق "بنى سويف" أثناء فيضان النيل، فبدأوا بمنع تسير السفن فى النيل إلى السويس، الأمر الذى أدى إلى حدوث القحط والغلاء فى المدينة المنورة ومكة المكرمة. وهنا بادر صاحب الرسالة إلى العمل على إزعاج الكفار؛ فبعث بسيدنا عمر [رضى الله عنه] على رأس جيش يتألف من ثمانين ألفاً إلى القدس، حيث فتحها عمر بنفسه، ثم أرسل النبى ﷺ عقبه خالد بن الوليد [رضى الله عنه] فانتزع الشام الشريف من يدى "هرقل" المجوسى العنيد، وقد حصل على أموال وغنائم كثيرة ذهب بها إلى المدينة وقدمها للرسول ﷺ فأطلق عليه رسول الله لقب سيف الله المسلول. فعلى هذا يكون خالد أول من غزا بلاد الروم.

هذا، ولما رفع كفار القدس والشام راية العصيان ضد المسلمين فتحت البلاد كلها دفعة واحدة فى عيد سيدنا عمر، مما أوقع الكفار من الروم والقبط فى مرج ومرج وراحوا يتساعلون عما سيكون حالهم مع محمد العربى.

(١٧٦) فى هذا الفصل معلومات لا يمكن الركون إليها، وهى فى حاجة إلى تحقيق وتصويب من أهل الاختصاص.

وبينما هم كذلك إذا بالملك "هرقل" يتحرك من أنطاكية بجيش جرار قوامه أربعون ألف فارس، ومثله من المشاة وقد نزلوا الإسكندرية، فيرسلهم منياً إلى مصر. وهكذا عادت الحياة والأمال الواسعة للكفار، وكان عمرو بن العاص لا يزال في الجاهلية، وقبل أن يتشرف بالإسلام كان من ذوى المكانة والشأن فى قومه قريش، وكان يتردد على الشام وبُصْرَى والقدس الشريف كل سنة، ففي ذات يوم بينما كان راقداً تحت ظل شجرة على قارعة الطريق إذ بحيوان كبير كالثعبان العظيم قد ظهر وأخذ فى مهاجمة شخص نائم تحت شجرة أخرى قريبة. فما كان من عمرو بن العاص إلا أن تناول قوسه ورمى الثعبان الهائل بسهم أصابه فى مقتل فترنح ساقطاً على الأرض يتلوى وينفث سموه يميناً وشمالاً. وفى اللحظة نفسها استيقظ النائم ونظر إلى ما حوله وقد تولد الذعر وانتابته الدهشة فسأل عمرو بن العاص عن حقيقة الأمر، فأجابه بأن هذا الثعبان الهائل كان يقصده لينفث فيه سمه الزعاف ويأثمه عاجله بسهم فقتله.

فما كان من هذا الشخص الناجى من الموت المحقق إلا أن ارتضى على يدى عمرو وقدميه بشكره على صنيعه. فأخبره عمرو أن مكة مسقط رأسه ووطنه وأنه من آل هاشم، فأجاب الرجل وقال: "أرجو أن تكون لى أخاً فى الدنيا والآخرة؛ حتى أستطيع القيام بما يجب علىّ نحوك من الخنمة ورد الجميل، لما قمته إلى من هذا المعروف". فقال عمرو بن العاص: "إنى ما قممت بذلك إلا لوجه الله وأنا رجل أشتغل بالتجارة". فرد عليه الرجل قائلاً: "يا أخى وأنا كذلك تاجر ولى تجارة واسعة فى الإسكندرية وأكياس كثيرة مملوءة بالذهب وعقارات واسعة فى مصر. وأنا الخواجة شماس وقد قدمت لزيارة بيت المقدس. فأنا غريب مثلك عن الديار والوطن، وأملى كبير فى أن ترافقنى إلى الإسكندرية لأعطيك هنالك مبلغ عشرة آلاف سكة قبطية من الذهب الخالص، وعدداً من الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة ومجموعة من الأقمشة الفاخرة ثم أعيدك بالعز والإجلال إلى مكة، ومعك بغلتان محملتان أموالاً طائلة من السلع والأمتعة". وقد بالغ من الرجاء والتضرع إليه حتى إن المستمعين من الحضور تأثروا بذلك ووافقوا على قوله.

وإزاء هذا الرجاء لم يسع عمرو بن العاص إلا أن يوافق على مرافقته؛ فسارا من القدس راجلين وجعلا يقطعان الفيافي والبيداء حتى وصلا الإسكندرية بعد عشرة أيام. ونزل عمرو ضيفاً معززاً على الخواجة شماس في منزله، وأراد هذا بدوره أن يقى بوعده فأعطى ضيفه مبلغ عشرة آلاف دينار من الذهب. ثم اصطحبه إلى متزهات المدينة ومناظرها ليتفرج عليها ويتمتع بها، وبينما هما يتجولان في المدينة وقد مرا بميدان السباق وإذا بكرة الصولجان تطير وتقع بحكمة من الله على رأس عمرو بن العاص، الأمر الذى أثار إعجاب الناس ودهشتهم، ذلك لأن أهالى الإسكندرية كانوا يعتقدون أن من تنزل كرة الصولجان على رأسه من بين النظارة والحاضرين فإن الحظ والسلطنة يقبلان عليه طائعين. وهذا ما جعل هؤلاء الناس يتعجبون ويندهشون لنزول الكرة على رأس هذا العربى، فأخذوا يستخفون به، متسائلين كيف يكون العربى ملكاً؟!؛ فالملك يجب أن يكون من ذوى الثراء والجاه ومن أصحاب الحول والطول فى البلاد، وما شأن هذا الغريب عن البلد ؟

هذا، ولما غادر الخواجة شماس مع ضيفه عمرو ميدان السباق وذهبا إلى منزله نظر الخواجة شماس، وكان ماهراً فى علم الإصطرلاب، ليرى طالع ضيفه عمرو فوجد أنه سيمتلك عرش مصر ويحكمها، فبادر إلى إعطائه حمل سبعين جملأ من المال والأمتعة وأرسله فى اليوم التالى إلى مصر ليطوف خلالها، وقد لبث عمرو فيها ثلاثة شهور عرف أثناءها أحوال مصر وأسرارها وتعرف على أحوال أهلها. ثم سافر إلى مكة بقافلة كبيرة محملة بالأموال والهدايا. وما إن وصلها حتى بادر إلى توزيع الهدايا على أهاليها الكرام. ثم أخذ يصف الإسكندرية ومصر أم الدنيا ويبالغ فى مدحها، حتى لقد تمنى جنود الإسلام أن يمن الله عليهم بفتحها، وقد تشرف عمرو بن العاص بمقابلة النبى ﷺ، وقدم له هدية طيبة فقبلها منه بمرور. فما كان من عمرو بن العاص عندئذ إلا أن أعلن إسلامه وإيمانه بالنبى ناطقاً بالشهادتين.

وهكذا التحق بزمرة الصحابة الكرام. وقد أخذ يصف للنبي أحوال مصر والإسكندرية على حقيقتيها، فسر النبي سرورا عظيما حتى صاح داعيا "اللهم يسر بالعمرين". وقد استمر عمرو كل يوم يسهب في مناقب مصر وأحوالها وما هي عليه من الخصوبة والبركة، حاثا الصحابة والمسلمين على فتحها ثم فتح القسطنطينية. وفي خلال ذلك وردت مرارا من المقوقس ملك مصر هدايا ورسائل إلى الرسول يقول فيها: "يا محمد نحن - معشر المصريين - مغلوبون على أمرنا في أيدي كفرة الروم وإنا لعاجزون كل العجز حيالهم فإنهم أخذوا منا مصرنا"، ومن جهة أخرى فإن السيد الرسول ﷺ بعد عودته منصورا ومظفرا من غزوة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، قد حضر إليه أبو الدرداء وحاطب بن أبي بلتعة [رضى الله عنهما] فأرسلهما النبي بكتابه الدرى الشريف إلى المقوقس بمصر، فوصلها سالمين وأخذا يدعوان الملك المقوقس إلى الإسلام. والروايات مختلفة هنا فإحداها تقول إن المقوقس قابل الكتاب النبوي بالتبجيل والاحترام بل بالليفة والشوق إذ احتضنه وقبله وأعلن تشرفه بالإسلام، ثم بعث حضرة زينون إلى النبي بثلاث جاريات وسيف وبغلة كما سبق ذكره فيما مضى.

والذى لا نشك فيه أن المقوقس كان يكنى الاحترام والتقدير للنبي ﷺ؛ ويقال - والعهد على الراوى - إن أبا الدرداء وحاطب بن أبي بلتعة قد جاءا إلى الرسول ومعهما وفد من المقوقس وأخذا يصفان مصر وأحوالها وجودة هوائها ووفرة خيراتها من المأكول والمشرب والحبوب والغلال، وقد بالغوا في ذلك حتى إن الرسول ﷺ أحب مصر؛ فحدث عدة أحاديث شريفة عنها ثم أخذ يشجع أتباعه وأصحابه وأمتة ويرغبهم في فتحها، ويتلو عليهم الآيات التى نزلت في حق مصر.

الفصل الثامن

ذكر وبيان الآيات القرآنية الشريفة التي نزلت في حق مصر تصريحًا وكناية وتوضيحًا

ذكرُ المواضع التي وقع فيها ذكر مصر باعتبارها مدينة تصريحًا وكناية ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة ٦١/٢]، وعلى طريق الحكاية ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس ٨٧/١٠]، وعن حكاية يوسف (عليه السلام) ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف ١٢/٩٩]، والآية ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف ١٢/٢١]، وحكاية فرعون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف ٥١/٤٣]، وقصة يوسف ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف ١٢/٢٠]، والآية ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [القصص ٢٨/١٥]، والآية ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص ٢٨/١٨]، والآية ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص ٢٨/٢٠]، وعن حكاية عيسى ومريم الآية ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَأَوَيْنَهُمَا إِلَىٰ رُبُوعٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون ٥٠/٢٣]، والآية ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف ٥٥/١٢]، والآية ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف ٥٦/١٢]، والآية ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف ٨٠/١٢]، والآية ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص ٤/٢٨]، والآية ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص ١٩/٢٨]،

والآية ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف ١٢٨/٧].
والآية ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف ١١٠/٧]، والآية ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء ٥٧/٢٦] والآية ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [يونس ٩٣/١٠]، والآية ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة ٢٦٥/٢] أعنى أن المفسرين قالوا إن المراد ببربوة مصر، وقال البعض إنها الشام. وعلى كل فإن القائلين بأنها مصر كثيرون، والآية ﴿يَنْقُومُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة ٢١/٥]، والآية ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة ٢٧/٣٢]، والآية ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا﴾ [فصلت ١٠/٤١]، والآية ﴿إِرمَ ذَاتَ الْعِمَادِ﴾ [الأنعام ٦٠/٦] التي لم تخلق مثلها في البلاد. [الفجر ٨٩/٧-٨] وقال بعض المؤرخين إن جنة إرم هي الإسكندرية.

ولكن المقرئى - المؤرخ العالم صاحب الخطط - يقول إنها كانت جنوبى مصر فى محل يقال له "سبيل علام" وقد أخفاها الله عن عيون الناس. ولقد رأى العبد الفقير بعينى رأسه بعض أحجار قيمة استخرجت من المحل الذى يطلق عليه "سبيل علام"، بيعت الواحدة منها بألف قرش، وعلى قول بعض المؤرخين إن "جنة إرم" هذه تقع بجوار الشام. ويقال إنه فى عهد الأمويين قد فقد أعرايى جملة فخرج للبحث عنه فى البادية، وقد وقع على محل غريب ومكان عجيب كأنه جنة من الجنات الخالدة؛ فملاً جعبته من أحجارها الكريمة وأشجارها القيّمة ونباتاتها العجيبة وذهب بها إلى الخليفة بالشام ووضعها أمام جلالته، فعلم الحاضرون من الوصف أنها جنة إرم وأنها واقعة بالقرب من الشام. ولكن الذين يقولون بأنها فى مصر كثيرون؛ وذلك لأن منشئ جنة إرم وما بها هو "شداد بن عدن" وطنه الأصلى مدينة "أسوان" الواقعة بمصر، فهذا أقرب إلى العقل والصواب، ولذلك نزلت فى حق مصر الآية الشريفة ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف ١٠٠/١٢].

والواقع أن بمصر كثيراً من الفساق والجبارين ولا سيما بين الطوائف العسكرية كما قالت الآية ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف ١٤٥/٧] ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم ١٤/١٤] إذ إن جميع أهلها من قوم الفراعنة، فيم جبارون عتاة بحكم هوانها ومانيها من أيام قابيل وهابيل، فينقسمون إلى معسكرين، أحدهما بنو حرام والآخر بنو جذام يتقاتلان كل يوم صباحاً ومساءً. فالويل لمن يهزم لأن الغالب يسق بطون نساء المغلوب ويقتل الأجنة. فكما أن أهلها جبارون عتاة فإن خيولها التي تشرب من ماء نيلها أيضاً شرسة جداً؛ حيث يقول الله سبحانه وتعالى في حق تلك الخيول ﴿وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف ١٣٧/٧]. ولما كان نظر جناب البارئ تعالى مراده المدينة القديمة فإن الجبارين والفساق والمغتصبين والظالمين والنمامين والمستبشرين لا يعمرهم فيها كثيراً؛ فرعان ما يلحقهم البلاء والعقوبة. كما أن الحكمة الإلهية قد اقتضت ألا يطول فيها عمر الجراد، حيث لا يلحق أي ضرر منه بفضل الله وكرمه بحاصلات مصر، حتى إنه في تاريخ (...) م حينما كان عبد الرحمن باشا والي مصر (١٠٩٢ هـ = ١٦٨١م) قد نزل جراد كثير بأرض مصر كثرة حجبت عنها الشمس، وانعقدت في سمانها سحب سود ثم نزلت على الأرض جملة واحدة؛ فاستبشر الناس بها وأخذوا يجمعونها ويأكلونها بشيية حتى أتوا على آخرها في يوم واحد؛ وما تبقى من ذلك طار وسقط في النيل وغرق. وفي رواية أخرى أن الجراد المذكور هلك إثر ريح صرصر عاتية.

ويقال إنه في عهد السعادة النبوية أغار الجراد على مدينة "مكة المكرمة" ولاسيما على وادي فاطمة؛ ففرغ أهلها إلى رسول الله ﷺ قائلين: "يا رسول الله إن الجراد قد استولى على مدينتنا فماذا يكون معه؟" فما كان من الرسول إلا أن رفع يديه إلى السماء وقال: "أرسل يا إلهي هذه الحشرات إلى مصر"، ولكن الصحابة الكرام جميعاً نضروا إلى الرسول قائلين: "إن معيشة أهل المدينة وكرة جمعهم

تأتى من خيرات مصر ومنسوجاتها، فإذا ذهب هذا الجراد إلييا فلا شك فى أن القحط والغلاء يستوليان علييا"، ورد الرسول عليهم قائلًا: "لا تخافوا ولا تحزنوا إن مصر فى أمان الله وحفظه، وهى كنانة الله فى أرضه، وإن الموكلين بحفظها وحراستها هم النجباء البالغ عددهم سبعون رجلاً من رجال الله، فلا يعمر بها ظالم ولا فاسق ولا مستهتر أو مستهزئ". حقاً إن الجراد الذى وصل إلى مصر حينذاك قد هلك جميعه، وعلى هذا المنوال فإن من ينظر إلى مصر نظرة سوء أو تحقير يذله الله ويحقره، ومن يعدل بيا وينظر إلييا نظرة اعتبار وتقدير يمتعه بالسعادة والسلامة.

هذا، وهناك منات من الآيات الشريفة فى حق مصر، ونكتفى منها بما ذكرناه معتمدين على ذاكرتنا وباليام من الله. وأما الرسول المجتبى محمد المصطفى ﷺ فقد قال ما معناه: "إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن ليم ذمة ورحماً"، وذلك لأن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام مولود من "هاجر" وهى بنت من بنات أقباط مصر، كما إن الرسول ﷺ من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فعلى هذا تكون أم سيدنا النبى من مصر. وهذا الحديث وارد فى حق أمتنا هاجر ومصر. وقال عليه الصلاة والسلام: "ستفتحون مصر وهى أرض تسمى القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن ليم دفترًا". وقال عليه الصلاة والسلام: "استوصوا بالأدم الجعد - يعنى قوم الجعد - سمر اللون وهم القبط" وقال عليه الصلاة والسلام: "إن إبليس دخل العراق فقضى حاجته ثم دخل الشام فطردوه حتى بلغ ميسان، ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط مكابده". وقال عليه الصلاة والسلام: "الجزء (العليا الجزيرة) روضة من رياض الجنة ومصر خزائن الله فى أرضه"، وكما قال عليه الصلاة والسلام: "إن أهل مصر معافون من الفتن ما يريدهم أحد بسوء إلا صرعه الله، وما يريد أحد هلاكهم إلا أهلكه الله، وما يقصدهم أحد بسوء إلا كذب الله وجنيه. ونهرها نهر العسل وماؤه من الجنة وكفى بالعسل طعاماً وشراباً". فهناك أحاديث كثيرة فى حق مصر، غير أن كاتب هذه السطور قد

اكتفى بهذا القدر. وقد مدحها كثير من العلماء والمشايخ والأدباء والشعراء وضمّتموا مؤلفاتهم أوصافيا ومحاسنيتها وخواصيتها، حتى إن الشيخ الكندي^(١٧٧) قال في حقها: "لا يعلم في أقطار الأرض قاطبة قطر كمصر؛ أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالكرم والخير". كما أن كلا من الأئمة: الشافعي والليث^(١٧٨) وعمر بن الفارض قد بالغوا في مدح مصر وإنشاده بفضلها حتى جعلوها كأنها إرم ذات العماد. هذا، وكان النبي ﷺ يمدح مصر وينوه بفضلها حينما كان يرغب الصحابة الكرام في فتحها، وما كان يقدم على غزوها لاشتغاله بميام أخرى عاجلة مثل الغزوات النبوية وإرسال البعوث والسرايا إلى الأطراف قائلًا إن الأمور مرهونة بأوقاتها. ودام الحال على ذلك حتى التحق النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى، وذلك لحكمة من الله سبحانه وتعالى. وقد انتقلت خلافته عليه الصلاة والسلام إلى أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الذي زادت في عهده الحوادث تفاقماً وظهّرت مشاغل كثيرة صرفته عن الاهتمام بأمر مصر حتى لبى نداء ربه فتوفى إلى رحمة الله، وانتقلت الخلافة إلى سيدنا الفاروق الذي تم على يديه فتح مصر^(١٧٩).

(١٧٧) الكندي: يرجع الكندي القاضي، والكندي المصلي، والكندي الفيلسوف، والكندي المؤرخ.
(١٧٨) الإمام الليث: هو الليث بن سعد، إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً، أصله من خراسان ومولده في قلقيشندة بمصر ووفاته بالقاهرة سنة ١٧٥ هـ (الأعلام ٢٤٨/٥).
(١٧٩) كل هذه الأحاديث في حاجة إلى تحقيق وتمحيص من أهل الاختصاص.

الفصل التاسع

ذكر فتح مصر في عهد خلافة

عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص رضي الله عنهما^(١٨٠)

يجمع المؤرخون على القول بأن فتح مصر على أيدي المسلمين لأول مرة كان في خلافة سيدنا عمر [رضي الله عنه]، بعد ثمانية عشر عاماً من انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى. كان "خرقيل" قد استولى على القدس الشريف وأعمل فيها الفساد، الأمر الذي دفع بسيدنا عمر إلى تجريد حملة عسكرية قوامها أربعون ألف جندي إلى القدس واستعادتها منه. ثم أرسل من هنالك عمرو بن العاص المقداد بن الأسود بأربعين ألف جندي إلى مصر لفتحها وعاد هو إلى مكة. هذا، وقد اختار عمرو بن العاص في بادئ الأمر جيشاً قوامه أربعة آلاف وخمسمائة فارس من أبطال العربان وأربعة آلاف من المشاة المنتخبين من العرب الشجعان، وسار بهم ليل نهار يقطع المراحل ويطوى المنازل قاصداً أرض مصر، إلى أن وصل مكاناً بين الرملة والعريش قرب مصر، فاستراح به برهة جاءه خلالها رسول من قبل سيدنا عمر يحمل خطاباً منه يتلخص فيما يأتي:

يا عمرو، إن كنت حين يأتيك كتابي قد وطنت قدمك أرض مصر فادخلها وازحف عليها وليسهل الله أمورك، وإلا - إن كنت لم تدخلها بعد - فعد من حيث أتيت بعسكر المسلمين؛ لأن حربنا وقعت في العراق تقتضي عودتك. ولما قرئ هذا الخطاب بادر عمرو إلى جمع أهل الرأي وأعيان تلك الجهة لديه وسأليهم الرأي بقوله هل العريش هذه من أرض مصر أم هي من فلسطين؟ فأجاب الجميع بأنّها

(١٨٠) الأحداث التي وردت في هذا الفصل أيضاً في حاجة إلى تحقيق ودراسة من أجل الاختصاص، مع الوضع في الاعتبار أن الكاتب رحلة وليس مؤرخاً.

من أرض مصر وأنيم الآن متوغلون فيها بمقدار مرحلتين^(١٨١). وعند ذلك كتب عمرو رده إلى سيدنا عمر، ثم أخذ يرحل بالجيش ومعه الهجانة نحو مصر، مؤفداً من قبل سيدنا عمر ومتوكلاً على الله الملك القدير. وكان ذلك فى الوقت الذى يتحصن فيه الملك المقوقس بمصر القديمة منتظراً مصيره على ما ستجرى به الأقدار، وما تأتى به كتبه ورسله إلى عمرو بن العاص.

ومن جهة أخرى كان ملك الروم هرقل اللعين قد أعد جيشاً كثيفاً أرسله من أنطاكية وطرابلس وعكا فى ألف سفينة إلى قضاء بلبس الفسيح، حيث وقعت المعركة الدامية التى استمرت شيراً كاملاً، كان القتال فيها سجالات بين الطرفين؛ إذ استملا جميع أنواع الأسلحة وأدوات القتال ومعدات الدمار وكأنهما بحران يتلاطمان تلاطماً صاخباً. ففريق منهما من جيوش الدين المبين والآخر جماعة أهل الشرك منكروى الدين، وقد باع كلا الفريقين أرواحهم رخيصة فى ساحة الوغى حيث تمزقت الحراب والسيوف والجواشن والخوذات، فتبارح الأرواح الأجساد مودعة وتركيا جثة هامدة، إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين؛ فخرجوا من المعركة ظافرين منتصرين على أعدائهم الكفار الذين جزؤوا ذيل الفشل والخزى والعار. وهنا حضر رسول من حاكم مصر من طرف المقوقس الذى يسمى بـ "أسقف القبط" يحمل كتاباً منه إلى عمرو، فرأى هزيمة الروم وانكسارهم ورأى ذلك بعينه، ولما عاد إلى مصر أخبر المقوقس بما رأى فأخذ القبط يهاجمون الروم ويحترشون بهم.

ثم غادر عسكر الإسلام مكان المعركة وحطوا رحالهم فى مكان يقال له "قزاصر" وضربوا به خيامهم. وقد رأى الشعب القبطى "القبابطة" ما عليه المسلمون من قوة وشوكة وعزّة؛ فتعجبوا من بسالة الجندى العربى قائلين: أليس هؤلاء

(١٨١) المرحلة أو المنزل أو الاستراحة أو الموقف أو القوناق: كلها مصطلحات تبدل على المسافة التى كانت تقطعها قوافل الحج أو التجارة، والمرحلة مسيرة يوم واحد بالجمال؛ أى مسافة سبعة وعشرين ميلاً تقريباً.

الجنود هم جند محمد العربي الذي يحبه ملكنا المقوقس، أليسوا هم الذين أينما توجهوا حازوا النصر والظفر ولا محالة؟

ثم اتجه الجيش الإسلامي من بليبيس متوجها نحو مكان يدعى "أم دنين" على مقربة من "الخانكة" وأقام به. ثم خرج جيش للعدو من مصر القديمة والتقى بالجيش الإسلامي في صحراء "الخانكة" مرة أخرى. وبعد قتال دام سبع ساعات إلى أن غربت الشمس انعقد الصلح بين الطرفين، وقد استشهد في ذلك اليوم من الصحابة الكرام سبعون نفرا (رحمة الله عليهم). وفي صباح اليوم التالي جاءت نجدة للإسلام من طرف عمر فواميا أربعة آلاف جندي من الأبطال المختارين فأعاد الحياة والنشاط إلى قلوب المسلمين؛ إذ بادروا في ذلك اليوم إلى ضرب نطاق الحصار على "قلعة بابلليون" حيث وقعت أمامها معركة حامية أقدم في عقبها كل من الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود [رضى الله عنهما] على اقتحام المهالك، بالولوج من الثغرات التي فتحتها المنجنيقات في سور القلعة. وتم فتح القلعة على هذا المنوال بأسرع مما كان متوقعا. وقد وقعت غنائم كثيرة وأموال وفيرة في أيدي الغزاة والمجاهدين المسلمين.

ومن نعم الله تعالى الخفية وأفضاله أن وردت يوم الفتح نجدة مكوئة من أربعة آلاف من الأبطال راكبين ألفي هجين يتقدمون مثنى مثنى. وبذلك صار عدد جند المسلمين ثمانين ألفا، كما أن رسائل التشجيع والحث جاءت من سيدنا عمر فأشاعت السرور والغبطة والبهجة بين المسلمين.

وقد استقر رأي عمرو بن العاص، بعد المشورة والتداول مع أهل الرأي، على مهاجمة الجوانب الأربعة لمصر وتدمير أطرافها وضرب نطاق الحصار عليها، ثم التوجه نحو قلعة الإسكندرية فحاصروها حصارا شديدا؛ غير أن طريق البحر كان مفتوحا أمام المحاصرين، فكانت النجدة تأتي لهم عن هذا الطريق دوما. ومع ذلك شدد الجند الإسلامي الحصار عليهم حتى اضطر القبط بعد تسعة شهور أن يخرجوا من القلعة طائفتين الأمان، فأجيبوا وذهبوا سالمين إلى مدينة

”حوش عيسى القريبية من دمنهور. فى حين إن الجنود التابعين للملك ”هرقل“ اللعين امتثالاً لرأى ملكهم هذا وتدبيره قد أصروا على مواصلة الحرب رافضين الصلح والتسليم.

وأخيراً حينما هلك هرقل ودب الخلاف بين المحاصرين من كفار الروم بالإسكندرية، علم المسلمون بحقيقة الأمر فانتبذوا الفرصة وهاجموا القلعة من الجيات المتقدمة من أسوارها، ففتحت قلعة الإسكندرية الحصينة الجميلة التى كأنها قطعة من الفردوس فى يوم الجمعة من شهر المحرم من السنة العشرين الهجرية. وقد لاذ بالفرار والهرب من بقى حيًا من الكفار ولجأوا إلى المراكب والسفن التى توجهت بهم إلى عكا وصيدا. ومنهم من جرب حظه بضرب الرمل فذهب إلى الرملة. وقد دخلت الجيوش الإسلامية المدينة وحوّلوا أديرتها وكنائسها جوامع ونكّايا حيث تقام فيها الشعائر الإسلامية المحمدية. وقد أرسل عمرو بن العاص بشائر الفتح المبين لسيدنا عمر مع عشرة آلاف صندوق من الذهب ومئات الألوف من الأسلحة والعتاد واليديات، ولما وصلت هذه الأنباء السارة والهدايا العظيمة إلى سيدنا عمر أرسل بأوامر ومراسيم يقول فيها: ”عليك بالاستيلاء على مصر ولا تحاول الزحف إلى القلاع الساحلية فإن المحافظة عليها لمن أصعب الأمور لتعرضيا لاستيلاء الكفار كلما أرادوا ذلك، بخلاف الجيات المتوغلة فى البر فإنهم ينيزمون بها بأمر الله فوراً“. وكان مع رسول الخليفة خلع فاخرة لعمرو بن العاص وقواد جيشه وضباطه.

هذا، وقد غنم الجيش الإسلامى فى الإسكندرية أموالاً كثيرة من الأسلاب والغنائم؛ حتى ليقال إن أدنى واحد منهم قد خصه مائة ألف دينار ذهباً من دنائير ”دقيانوس“، ومثلها من الأمتعة والسلع.

هنا تذكر عمرو بن العاص القائد العظيم ما كان قد سبق له عند قدومه فى العصر الجاهلى من القدس إلى الإسكندرية ونزوله ضيفاً على الخواجة ”شماس“ فى بيته، وكيف أنه ذهب إلى ميدان الصولجان (حلبة السباق) ثم سقطت كرة

الصولجان على رأسه. فبحث عن صديقه الخواجة شماس حتى وجده طريق الفرائش، فبادر إلى معالجته بضعة أيام حيث شفى مما ألم به فأهداه من الأموال ما يقدر بأحمال سبعين جملاً. ثم دعاه إلى الدخول في الإسلام، وما وسع الخواجة شماس إلا أن لبي طلبه وتشرف بالدخول في دين الإسلام.

هذا، وقد أرسل الملك المقوقس إلى الغزاة المسلمين بالإسكندرية من المؤن والأغذية المجموعة من قرى النواحي والضواحي شيئاً كثيراً. ومع ذلك فهو نفسه كان متحصناً مع الجند الرومي في مصر القديمة وكان مضطراً إلى هذا؛ لأنه في ديارهم، وسنذكر إن شاء الله تفاصيل وصف الإسكندرية فيما يأتي من السطور.

هذا، ولما وصلت أنباء هذه الفتوحات العظيمة إلى مسامع الخليفة عمر سر بها أيما سرور واعتبط بها أيما اعتباط، وقد سعد بها أيضاً جميع الصحابة الكرام، وأقاموا مع أهل مكة والمدينة الاحتفالات وعلانم الانشراح والسرور، وصدرت الأوامر العالية من عمر إلى عمرو بن العاص رضى الله عنهما بإسناد حكومة مصر إليه والاستقلال والتفويض التام، فتفرغ لتصريف شئون الدولة بالعدل والمساواة مع الاهتمام بعمران البلاد وتقديمها، وقد شرع في إنشاء جامع كبير وحمام في المكان الذي كان قد أقام فيه خيمته حين محاصرته لمصر، وقد سماوا الحمام باسم "حمام الفارة"؛ لأنه ظيرت في أساس الحمام مغارة مئنة بالفنران التي انتشرت منها إلى جميع أنحاء الدنيا، وكأنما كانت هذه المغارة كنزاً مطلسماً مملوءاً بالفنران.

وفي هذه السنة أيضاً كان بناء عمرو بن العاص قلعة بجهة مدينة الجيزة، كما أنه بنى في جزيرة أم المقياس قلعة أخرى سماها قلعة الروضة، ولا تزال تُسمى كذلك فهي روضة من رياض الجنة؛ إذ فيها آثار الأبنية القديمة ظاهرة وقائمة.

هذا، ومن القبائل العربية التي أعانت عمرو بن العاص بنواحي مصر قبيلة بنى مالك بن هابر [حابر، خابر] ثم قبيلة بنى يشكر القاطنتان بجبل الكبش، وهم الذين بُنيت مدينة القسطاط في مكان خيمتهم المسماة قسطاط. وهذا المكان كان يسمى جبل الكبش، إذ كان هناك في عيد الكينة القدماء كبش مصنع مطلسم كلما رفس وحفر الأرض برجليه كثر الغنم بمصر. ومنيا قبيلة "بنى حجر" وقبيلة "بنى سيف" وقبيلة "نافع" وقبيلة "همدان". فجاءت هذه القبائل كلها وقدمت الطاعة لعمرو بن العاص العربي وتوطنوا في البلاد الممتدة من الجزيرة إلى الغرب حتى "أوجله". وكذا أطاعت قبائل "بنى همام" وقبيلة "بنى جواره" وقبيلة "بنى عابد" وأقامت في الصعيد الأعلى.

ثم إن الملك المقوقس قد قَدَّمَ إلى عمرو بن العاص خزينة من الذهب المدموغ، ورجاه أن يسمح له بأن يتخذ قمة جبل المقطم الذي يقع في اتجاه القبلة والمطل على القلعة مقامًا له يقيم به. ولكن عمرو بن العاص لم يقبل الذهب المعروض ولم يلمسه، بل كتب في شأنه إلى عمر في المدينة يستشير به في ذلك. فجاء جواب عمر يقول: "يا عمرو إن ذلك المكان المطلوب ليو أرض مباركة، فاجعلها قرافة (مقبرة) لموتى المؤمنين لأن فيها قبر سيدنا عامر بن المغافرين فهو مدفون في التربة الأولى، وبها أيضا قبور خمسة من المشفعين. وكذا قبور عبدالله السحيمي بن حذافة. وعبدالله والحارث من مدينة (زبيد عيش) موجودة بها، كما أن بها قبري أبي ناصر الغفاري وعامر بن عقبة الجيني، هذا إلى مئات الألوف من الأنبياء والمرسلين قبل الطوفان وبعده من أولاد الأنبياء والرسل عليهم السلام. فيجب ألا تكون تلك الأرض إلا مقبرة وقرافة للمسلمين". وهكذا امتنع عمرو بن العاص عن تسلم الأرض للمقوقس وصارت حتى الآن قرافة كبرى للمسلمين دفن بها كبار العلماء، وعليه القوم من المصريين وسيأتي ذكرهم في محله فيما بعد.

هذا، وعلى قول ابن الحكم - رحمه الله - فإن الأراضي الممتدة من القدس الشريف ومن جبل خليل الرحمن بجوارها إلى جبل عرفات المشرف على مصر

ومنيا إلى الرها الواقعة بساحل نهر الفرات مارة بحلب وأريحا واللاذقية وعلى طول شاطئ البحر حتى بلاد مصر كلها أرض مقدسة. كما يروى كعب الأحبار مثل هذا القول. ولكن بعض المفسرين والمحدثين وغيرهم من المؤرخين متفقون على أن أرض حاسان هي مدينة بلييس، وأن الأراضي التي بعدها حتى مصر ليست بأرض مقدسة، فأى هذه الأقوال صحيحة؟...

غير أن التواريخ القبطية تذكر أن الذين يدفنون تحت جبل المقطم يدخلون الجنة بلا عذاب ولا حساب يوم البعث والنشور. وتدل على ذلك أحاديث الأنبياء إدريس ودانيال وعزير [عليهم السلام]. إلى اليوم إذا مرض أحد بمصر مرضاً شديداً ونام سبعة أيام في ظل جبل المقطم شفى بإذن الله. وفي طلوع الشمس من وراء هذا الجبل يمتد ظل الجبل حتى مصر العتيقة الواقعة على شاطئ النيل. ولعل قول وهب بن سفيان إن الأراضي التي يقع عليها ظل جبل المقطم تسمى كلها أرضاً مقدسة قول صحيح؛ لأن مئات الألوف من الأنبياء وأولاد الرسل قبل الطوفان مدفونون بها، فضلاً عن أن ثلاثمائة وأربعين من الصحابة الكرام مدفونون بها وفي جامع مصر وداخلها، فلماذا كانت أرضاً مقدسة، لا شك في ذلك. وفي قول آخر إن مصر عمرت في عهد حكومة عمرو بن العاص وازدهرت حتى صارت عروناً كأنها زفت من أمها حديثاً.

وكان الملك طوطيس قد أسال نهر النيل إلى بحر السويس في عهد سيدنا إبراهيم [عليه السلام]، وبعد ذلك حينما سمع والد الملك المقوقس بطلوع شمس صاحب الرسالة المحمدية بادر إلى سد ذلك الخليج نكاية بالرسول؛ ولبت النيل لا يصل إلى السويس كما كان عهده، إلى أن جاء عمرو بن العاص ففتح الخليج وأخذت مراكب النيل تسير حتى السويس حاملة الحبوب والغلال حيث تنقلها المراكب الكبيرة إلى جدة وينبع، فيأخذها أهالي مكة والمدينة ويتمتعون بها مسرورين. لأن الله - سبحانه وتعالى - قد فتح أربعة أبواب من أبواب الجنة على

وجه الأرض: أحدها على بندر جدة، والثاني على ولاية عسقلان، والثالث على ولاية غاونية Gaviniye، والرابع ولاية الإسكندرية التي هي بلاد مصر، والسلام.

ولما انتقل الخليفة عمر إلى رحمة الله في المدينة تولى الخلافة بعده عثمان [رضى الله عنه]، وقد انتقل إلى رحمة الله عمرو بن العاص في مصر في عهد هذا الخليفة الذي بادر إلى إسناد حكومة مصر إلى محمد الأكبر ابن أبي بكر الصديق، وكان كاتبه مروان بن الحكم يرى غير ذلك؛ فبادر إلى حيلة مأكرة حيث كتب على لسان الخليفة عثمان مرسوماً إلى أهل مصر يقول فيه: "إذا جاء الأمير فاقبلوه"، ولم ينقط كلمة "فاقبلوه" وختمه من سيدنا عثمان ثم قلب الباء تاء فصارت "فاقتلوه"، وأعطى مروان هذا المرسوم لنجاب خاص وأمره بإحضاره إلى مصر. ولكن الحكم الإلهية أوقعت هذا النجاب والمرسوم في أيدي رجال محمد الأكبر؛ فبادر هذا إلى رد هذا الكتاب المزور إلى المدينة فيعرضه أهل المدينة على الخليفة عثمان ويسألونه عن سر ذلك، فقال عثمان: "ليس لي علم بذلك"، وعندئذ ثار أهل المدينة وطالبوا بتسليم الكاتب مروان إليهم للفتك به، ولكن الخليفة أبى أن يسلم كاتبه وتحصن بسريره وبقي فيها أربعين يوماً؛ حيث اقتحم الغاضبون القصر في اليوم الواحد والأربعين وأذاقوا الخليفة عثمان كأس الشهادة وهو يتلو القرآن متعبداً. كما سبق ذكر ذلك في وصف المدينة المنورة فيما تقدم من السطور.

بعد هذه الحوادث انتقلت الخلافة إلى سيدنا علي رضي الله تعالى عنه، إلا أن الأمور اضطربت واختل نظام الدولة اختلالاً كبيراً؛ فسُبِتَ الفتن والقلاقل وعمت مصر بحيث إن الجند كان يعزل حاكماً وينصب آخر في اليوم نفسه.

وسوف نذكر أسماء من تملكوا الحكم من الأمة المحمدية بمصر من ذلك العيد حتى عصر السلطان محمد الرابع، ومن حاولوا الخروج على السلطان والاستقلال بها، وشرح أحوالهم وأوصافهم وألقابهم ومدد حكمهم وعدد من ملكوا منهم.

الفصل العاشر

ذكر السلاطين وغيرهم من ذول الملوك مع ذكر دولة آل عثمان حتى عهد السلطان محمد خان الرابع بن إبراهيم خان

يقول أوليا البريء من الرياء: إن الباعث على تأليف هذا الكتاب المستطاب وتدوين هذه الأوراق هو بيان أول من سكن الأرض واستوطنها كما سبق ذكره، فيحسب أقوال مؤرخي الروم^(١٨٢) وغيرهم من أصحاب العقل والفهم أن أبا البشر آدم صفى الله أول من ظهر على سطح الأرض، وانتشر أولاده فيها من بعده حتى استولوا على جميع الأنحاء من كل الجينات، غير أن هناك خلأفاً كثيراً في عدد الأمم الغابرة والملوك السابقين. ومما لا شك فيه أن الله - الحى القيوم سبحانه وتعالى - اقتضت حكمته الباهرة أن يخلق مصر وبلاد الفيوم أولاً وقبل كل شيء؛ لتكون مقام الأمة المحمدية المصطفاه ومقصد الأنبياء والرسل ومقر السلاطين والملوك الكثيرة.

هذا، وما إن خلت سنة ٥٢١ = ٦٤١م إلا وقد دخلت مصر أيضاً لأول مرة تحت حكم عمر [رضى الله عنه] من خلفاء سيدنا الرسول ﷺ، وكان ذلك على يد عمرو بن العاص رضى الله عنه. ومصر جزيرة محسوبة من بلاد المغرب تشبه جزيرة الإنجليز من حيث الحجم والمسافة؛ حيث تبلغ ثمانية آلاف ميل، وكان فيها ثمانية عشر ملكاً ضرب كل منهم سكة مستقلة. وعلى الرغم من ذلك فقد قدموا الطاعة والولاء لعمرو بن العاص، على حين نرى كثيراً من المغيرين والقواد العسكريين قد هاجموا مصر في حقب مختلفة بجيوش جرارة وجموع عظيمة،

(١٨٢) الروم: المقصود بالروم هنا الترك الذين أقاموا دولتهم في آسيا الصغرى أى الأناضول؛ حيث كانت بلاد الإمبراطورية البيزنطية الشرقية. ويفتخر كثير من شعراء الترك بأنهم شعراء الروم.

إلا أنهم لم ينالوا منها شيئاً ورجعوا على أعقابهم خائبيين خاسرين، بل كانوا يدفعون لها الجزية وهم صاغرون. وما ذلك إلا لأن عمرو بن العاص كان يتمتع بالشجاعة وعلى جانب عظيم من البسالة والإقدام، فضلاً عما اشتهر به من فرط الذكاء والدهاء فى السياسة والملك، ويلقب أصحاب الرسول الذين تولوا الخلافة من بعده "الأربعة الأصحاب المصطفين" وتارة "أمراء المؤمنين" وتارة أخرى "الخلفاء الراشدين" وقد انتهت الخلافة إلى الإمام الحسين. وأما الإمام الحسن فقد تنازل عنها طواعية ورضى ليزيد بن معاوية^(١٨٣) الذى خرج أخيراً من الشام بألوف من جنوده اليزيدية إلى الكوفة وحارب بهم الإمام الحسن لامتناعه عن المبايعه، الأمر الذى أدى إلى نشوب القتال فى ظروف عصيبة واستشهد الإمام الحسين سنة ٥٦١ = ٦٨٠م، وهكذا انفرد يزيد بملك الشام واستقل بالبلاد.

هذا، وقد كان معاوية والد يزيد هو كاتب الوحي النبوى.

آل أمية^(١٨٤)

يُذكر أنهم أربعة عشر نفرًا. أولهم معاوية، وأمه هى هند بنت عتبة ابن عبد شمس وقبل أن يتزوجها أبو سفيان والد معاوية كانت زوج عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى. وقد أنجبت ولدها معاوية لأبى سفيان. وكان عمر معاوية حينما تولى الخلافة ثمانية وخمسين عامًا، وقد حكم تسعة عشر عامًا وثلاثة أشهر. وعاش ثمانية وسبعين عامًا. تولى بعده الخلافة يزيد بن معاوية فحكم ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر. وعاش ستة وثلاثين عامًا ثم توفى فى الشام. ويقال إن أبا مسلم - وفى رواية تيمور لك - قد فتح قبره ونبش تربته حيث وجد جثته غضة سليمة فأحرقها بالنار. وألت الخلافة من بعده إلى معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم،

(١٨٣) يزيد بن معاوية: هنا لبس بين يزيد بن معاوية ومعاوية بن أبى سفيان ذاته، حيث كان التنازل للأخير.

(١٨٤) دام حكم آل أمية من سنة ٤١ إلى ١٣٢ هـ = ٦٦١ - ٧٥٠ م.

ثم عبد الملك بن مروان، ثم الوليد بن عبد الملك، ثم عبد الملك بن الوليد وبعده سليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن هشام، ثم الوليد. وبعده إبراهيم، ثم مروان الحمار؛ وهو الخليفة الأموي الذي اقتتل هو وجيوش العباسيين على شاطئ الفرات وانهزم ولاذ بالفرار إلى مصر لاجئاً إلى قرية تدعى "بوصير" في الجانب الغربي من النيل تجاه مصر القديمة؛ حيث أدركه كل من عامر بن جزجاني وعبد الله بن مازن وقطعا رأسه ورفعها على الرماح وأرسلها إلى أبي مسلم. وبذلك قضى على الأمويين وكانت مدة حكمهم ٩١ سنة في العراق العربي والعراق العجمي وبلاد المغرب وفي سبعمائة جزيرة. وهؤلاء الأمويون هم الذين عينوا أبا أيوب الأنصاري [رضي الله عنه] قائداً للحملة المرسلة لفتح القسطنطينية، حيث تمكن من الاستيلاء على نصف مدينة إسلامبول.

هذا، وتفاصيل أحوال الأمويين وأثارهم مذكورة في وصف بلاد الشام [في المجلد التاسع ص ٥٢٩ - ٥٦٥] فليرجع إليه. وقد انتقلت الخلافة بعدهم إلى آل عباس وقد تولوا الخلافة (سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م).

وصف دولة العباسيين^(١٨٥)

. عدد حكامهم جميعاً سبعة عشر حاكماً. أولهم المستنصر بالله الذي ملك مصر، ومنهم عشرون قد ملكوا بغداد. فيكون مجموعهم بمن ملكوا مصر ٣٧ حاكماً.

ولقد انقرض عباسيو بغداد في أيام المستعصم، فكان أولهم بها عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. وقد بلغ حكمهم جميعاً خمسمائة وأربعة وأربعين عاماً.

(١٨٥) في هذا القسم أيضاً خلط الرحالة بين بعض الأحداث، وأطلق في النص الأصلي على الحكام العباسيين لفظ "ملوك" ١، ٢، ٣، وفيها أخطاء تاريخية ومعلومات غير صحيحة، على أقل التاريخ تصحيحاً .

وسياتى ذكر انقراض العباسيين الذين كانوا بمصر فى شخص المتوكل على الله بن محمد بن المستنك بالله يعقوب. وتفصيل ذلك وسببه هو أن الناصر الطوسى (١٨٧)

(١٨٧) الناصر الطوسى: محمد نصر الدين الطوسى بن حسن؛ ولد فى همدان وفى بعض المصادر فى مدينة طوس فى السابع عشر من شير (فبراير) / شباط ١٢٠١ هـ = ٥٩٨ هـ، وتوفى فى بغداد فى السادس والعشرين من شير حزينان / (يونية) ١٢٧٣ هـ / ٦٧٣ هـ، عالم أذارى موسوعى ورجل دولة، تلقب بالطوسى نسبة إلى مدينة طوس التى تلقى فيها علومه، كان معلمه الأول هو جدّه، وبعد ذلك تلقى العلم على أيدى معلمين أكفاء فى مدرّس بهمنيار Bāhmanyar وابن سينا. ولقد نجح فى تحويل المرصد الفلكى الذى بناه فى مراغة Marāgha بأذربيجان - وخلال مدة قصيرة - إلى مرصد كبير مجهزة بكل آلات الرصد، وأقام إلى جواره مكتبة ثرية بالمصادر والمراجع والكتب، مما جعله مركزاً علمياً وفكرياً كبيراً. واجتذب إليه كبار علماء الفلك والرياضة من كل أنحاء العالم وأجزل العطاء للعلماء؛ فالتفوا أثرًا ذات قيمة علمية عالية، فى مختلف ساحات العلوم، تحت إرشاده وتوجيهاته. ووضع فى أثره المسمى "زيج الخان" مقاييس رياضية، ظلت دقيقة بالقياس إلى مشاهدات الفلكيين الآخرين حتى القرن السابع عشر الميلادى أى الحادى عشر الهجرى. ووضع فى هذا الأثر القيم جداول فلكية ورياضية وجغرافية زادت من قيمته. ووضع جداول بالحدود الجغرافية للمدن التى كانت معروفة ومشهورة حتى القرن الثالث عشر الميلادى = السابع الهجرى. وقد أفاد المعلم كلومبو الطوسقائلى من هذه الجداول. وقد تمت طباعة هذا الجدول فى لندن "أوكسفورد" عام ١٠٦٣ هـ ١٦٥٢ م، كما طبع فى نفس العام باللغتين العربية واللاتينية.

إن كتاب تحرير - أوكليس - للطوسى أعطى دفعة فى اكتشاف علم الهندسة، وقد تم نشره فى روما بالعربية عام (١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ م) ونشر باللغة اللاتينية فى القرن السابع عشر الميلادى الحادى عشر الهجرى. وقد أفاد منه علماء الرياضة الإنجليز والإيطاليون. وظهر تأثيره واضحاً فى أعمالهم.

كان مفهوم الطوسى للأعداد يتفق مع مفاهيم عصره، وقد سبق بهذا التصور علماء الرياضة الأوربيين بأربعمائة سنة على أقل تقدير. وكتابه "شكل القطاع" طبع باللغة العربية والفرنسية فى إستانبول عام ١٨٩١ م = ١٣٠٩ هـ. وله أيضاً (جليل الحساب) وهى طريقة للحساب باستخدام الخشب والرمل، وكتابه "تحرير الماجستى" و"التذكرة الناصرية" هى من أعمال الطوسى الأصلية والتى سبق بها غيره من علماء الرياضيات. وللطوسى أيضاً أعمال تتعلق بالفيزياء؛ طرح فيها أفكاراً جديدة حول طبيعة المادة وخصائصها واختلافها وتحويلها.

ولقد وصل نصر الدين الطوسى إلى كوهستان Kuhistan فى الثلاثينيات من القرن الثالث عشر الميلادى = السابع الهجرى، وبناءً على تكليف من الناصر رئيس الإسماعيلية المحليين ألف له كتاباً عن التربية والأخلاق، أطلق عليه اسم "أخلاق ناصرى".

تم إلقاء القبض على الطوسى وهو فى كوهستان. وألقى به فى سجن قلعة ألموط alamut ولم يُطلق سراحه إلا عندما استولت جيوش المغول بقيادة هولاكو خان على هذه القلعة، وعُيّن =

قد حرض "هولاكو" على الزحف على بغداد والاستيلاء عليها، فجاء المشار إليه وقتل الخليفة المستعصم بالله. وكان المستعصر عندئذ في صحارى بغداد وبوادي العراق هائماً على وجهه من خوف التتر الزاحفين لا يستطيع العودة إلى بغداد. فما كان من ملك مصر الظاهر بيبرس^(١٨٨) إلا أن أرسل إلى المستعصر يدعوه إلى

« بناءً على طلبه هو - مستشاراً للخان المولى حديثاً، واستطاع نصر الدين الطوسي من هذا الموقع أن ينقذ الآلاف من العلماء والنابيين من سيوف المغول. وبعد وفاة هولاكو خان عام ١٢٦٤م = ١٢٦٥م. أصبح الطوسي وزيراً لابنه أباقه خان Abaka han.

ولقد تشكلت الرؤية الفلسفية لنصر الدين الطوسي تحت تأثير بيمنيار، وفي صفحات شروح الفلسفة والمنطق لابن سينا قدم شروحاً لرؤية ابن سينا الفلسفية. وشرح شخصية الإنسان المثالي في "أخلاق ناصري" وله أيضاً "شرح الإشارات".

كما حاول الطوسي شرح ظواهر طبيعية؛ مثل كسوف الشمس والقمر وخسوفها وخفوت الضوء وانقسام قوس قزح.

هناك من المؤرخين من يجعل نصر الدين الطوسي أول من وضع نظرية الدولة في تاريخ الفكر السياسي الأتريبجاني. كما أنه عالم متعدد الاتجاهات والمعارف والعلوم، فله -كما سبق القول- أعمال في الرياضيات، والفلك والهندسة والفلسفة وله في الطب أيضاً.

توفي الطوسي ودُفن في بغداد. وعلى قبره كتابة تشيد بعلمه وبأنه صاحب دولة انعم التي لم تنجب البلاد مثله بعد...

تم طبع أعمال الطوسي في روسيا وإيران وتركيا والهند والبلاد العربية ومصر، وتزدان مكنتات هذه الدول وغيرها بالعديد من كتبه ومخطوطات خطية من مؤلفاته...

لقد تمت دراسة تراث الطوسي، ولعب المؤتمر الذي عقد في طيران عام ١٩٥٦م دوراً مهماً في عملية تحقيق هذا التراث. وكذلك شهد عام ١٤٠٢هـ = ١٩٨١م الاحتفال بمرور ٧٨٠ عاماً على ميلاد الطوسي في كل من باكستان وناخجيان وكججه أي غنجه وشماخي.

وتخليداً للطوسي فقد أطلق اسمه على المرصد الموجود في شماخي وعلى جامعة معلمى الدولة في أنزيبجان.

(١٨٨) الظاهر بيبرس: هو الملك الظاهر سيف الدين الصالحى البندقدارى ٦٢٠-٦٢٧هـ = ١٢٢٣-

١٢٧٧م وهو السلطان الرابع للمماليك البحرية. اختلفت الروايات حول مولده، وهو قبجاقى فى الأصل، اختطفه تجار الرقيق هو وأخاه فى الرضاعة وأحضر إلى سيولس ومنها إلى حلب ثم أخيراً إلى الشام. نال أخيراً حريته على يد ملك مصر الأيوبي الملك الصالح نجم الدين. أحبه شعب مصر لسوكة الطيب تجاه الشعب. كوّن إمبراطورية مصرية أصبح لها كلمة مسموعة فى العالم الإسلامى. ما زالت آثاره على مستوى العالم العربى والإسلامى ماثلة للعيان... وخاصة فى القاهرة وحلب والشام والحجاز... ويعدّ من أهم الحكام الذين أعطوا أهمية تصوى نتمشأت المعمارية؛ من جوامع، ومدارس، ومستشفيات، وأسبلة»

مصر. وقد وفد المستنصر إلى مصر وجلس على عرش الخلافة سنة ٥٦٥٩هـ = ١٢٦٠م مستقلاً، حيث بايعه الظاهر بيبرس ومعه جميع أعيان مصر وقد صار صاحب سكة وخطبة، ثم غادر مصر على رأس جيش جرار إلى الشام ومنها إلى بغداد تاركاً حكم مصر مرة أخرى إلى الظاهر بيبرس. فوصل بغداد وأعاد حكم العباسيين إليها مرة أخرى.

هذا، وقد كان في ذلك العصر أيضاً الحاكم بأمر الله من الخلفاء العباسيين، يقيم في قلعة الكيش بمصر خوفاً وفراراً من هولاء كوخان. فعاش باسم الخلافة بها إحدى وأربعين سنة، ولم يكن أحد من الخلفاء يشبه الحاكم في انغماسه في الشبوات وخوضه في السفاهات. وكان قد تعطل عن الحكم في عهد الملك المنصور محمد بن قلاوون الذي كان موجوداً في السنة العاشرة بعد السبعمئة من الهجرة النبوية، وقد كان الحاكم يتوارى حياءً من الناس. وفي آخر الأمر أمرت به أخته فقتل. وجلس ابنه المستنصر بالله بن سليمان الحاكم بأمر الله المولود بمصر على سرير الخلافة عوضاً عن والده في قلعة الكيش؛ بيد أن الحكم الحقيقي كان في يد الظاهر بيبرس سنة ٥٧١٠هـ = ١٣١٠م، فلذا كان بين المستنصر بالله هذا وبين الظاهر بيبرس خلاف عظيم من جراء وشاية المنافقين وسعاية المفسدين؛ فأفضى هذا إلى ارتحال المستنصر بخدمه وحشمه إلى قوص في الصعيد الأعلى حيث توفي إلى رحمة الله سنة ٥٧٣٧هـ = ١٣٣٦م.

ثم ظهر أن الحاكم بأمر الله كان في حياته قد لقب ابنه محمداً بالخليفة المستنصر بالله. وقد توفي إلى رحمة الله صغيراً قبله، فلذا عين ابنه الصغير خليفة ولقبه المستنصر بالله، بيد أن الملك الصالح لم ينفذ الوصية وفضل ابن أخيه إبراهيم عليه وجعله خليفة وسماه الوائى بالله. ولما كان هذا ميالاً للعب واللهو، فقد نفى إلى قوص فخلفه محمد بن إبراهيم في الخلافة، وهذا أيضاً كان سفيهاً رذلاً فأبعد إلى

= كان رجل دولة من الطراز الأول؛ له بصماته في ميادين الحرب، وتشكيلات الجيش، وإدارة أمور الدولة. جمع السلطات في يده لكي يضمن الأمن من البلاد، ويحول دون فساد المماليك.

قوص وقد دفنوا جميعاً بها. وبعد ذلك صار أحمد بن المستكفي بالله سليمان خليفة بمصر، ودامت أيامه ثلاث عشرة سنة حيث مات بطاعون سنة ٨٧٥٣ = ١٣٥٢م بمصر في عهد الملك الصالح بن الملك الناصر، وقد دفن بجوار السيدة نفيسة [رضي الله عنها]. وبعدها تولى المعتضد بالله حكم مصر ولما مات هذا دفن أيضاً بجوار السيدة نفيسة، ثم تولى الخلافة المتوكل بالله محمد بن المعتضد بالله أبي بكر في مصر.

وفي سنة ٨٧٨٥ = ١٣٨٣م تولى الخلافة برقوق من الجراكسة، فبادر إلى خلع المتوكل من الخلافة بحجة أنه طامع في السلطنة، وقد حبسه في قلعة الجبل ستة أشهر أخرجه بعدها من الحبس وعينه خليفة. وفي سنة ٨٧٩٧ = ١٣٩٤م بعث يلدirim خان^(١٨٩) من سلاطين آل عثمان رسولاً إلى الخليفة المتوكل هذا يجده ببعته من باب التبرك به، فدعا له الخليفة بالخير والتوفيق وردّ رسول السلطان ومعه منشور شريف وسجادة ثمينة نفيسة.

هذا، وقد دام حكم الخليفة المتوكل ما يتراوح بين عزل وتنصيب وحبس ثم تنصيب خمساً وأربعين سنة، حتى توفي إلى رحمة الله بعد ذلك في عهد فرج بن برقوق ودفن بجوار السيدة نفيسة. ولقد كانت الأحوال العامة سيئة جداً في مصر والشام في عهد المتوكل هذا؛ إذ هاجم تيمور لك أخيراً بلاد الشام سنة ٨١٦ = ١٤١٣م ودمرها تدميرًا، وكان ذلك في وقت انقطع فيه فيضان النيل وعم القحط والغلاء البلاد وظهرت الفتن والفساد بها من جراء ذلك. ثم تولى الخلافة الواثق بالله عمر ابن إبراهيم بن المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله، وقد توفي إلى رحمة

(١٨٩) يلدirim خان: بايزيد الأول: ١٤٠٢/١٣٨٩م ولد سنة ١٣٦٠م. تولى السلطنة وعمره ٢٩ عامًا أطلق عليه لقب 'يلدirim الصاعقة'، لأنه كان ينفذ في حروبه تقضااض الصاعقة. له دور كبير في توسيع رقعة الدولة العثمانية، وإرساء دعائم قيامها بوصفها دولة إسلامية. استمرت مدة حكمه ثلاثة عشر عامًا اتسمت بالعمل الجاد والشقاق، وإلى جانب شدته كان عادلاً. ومن أوائل الذين حاصروا أسوار مدينة إستانبول وإن وقع في أسر تيمورلنك. ويُقال إنه انتحر في الأسر...

الله في مصر سنة ٥٧٨٨ = ١٣٨٦م وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة. ثم جاء بعده المعتضد بالله داود بن المتوكل على الله محمد، فبقي في الخلافة ٢٣ سنة، حيث توفي إلى رحمة الله سنة ٥٨٤٥ = ١٤٤١م وقد سار في جنازته السلطان جقمق، وقد دفن بجوار السيدة نفيسة. وخلفه أخوه المستكفي بالله سليمان بن المتوكل على الله محمد على عرش الخلافة، ولبث تسعة أشهر فقط إذ توفي إلى رحمة الله وحضر جنازته أيضا الملك الظاهر السلطان جقمق، وقد دفنوه عند أخيه المعتضد في قبة بجوار السيدة نفيسة، وحكم بعده القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل على الله محمد، والذي غضب عليه بعد خمس سنوات من خلافته "إنال" (١٩٠) سلطان مصر ونفاه إلى الإسكندرية فمات بها سنة ٥٨٦٣ = ١٤٥٩م، ودفن بجوار أخيه المستعين بالله، ثم تولى الخلافة المستجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد، مدة سنة حيث مات سنة ٥٨٨٤ = ١٤٧٩م وحضر جنازته السلطان قايتباي. ودفن أيضا مع سائر آل عباس في المدفن الخاص بهم بجوار السيدة نفيسة. ثم صارت الخلافة إلى المتوكل على الله وجاء بعده عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله فتولى الخلافة سنة ومات سنة ٥٩٠٣ = ١٤٩٧م ودفن بجوار السيدة نفيسة في عصر الملك الناصر محمد السلطان قايتباي.

ثم تولى المتوكل على الله بن المستمسك بالله يعقوب، وقد كان في عهد فاتح مصر السلطان سليم الأول منزويًا ومنقطعًا عن الناس، وقد اصطحبه السلطان عند عودته إلى إسلامبول وأكرم وفادته وبالف في إكرامه حتى توفي السلطان سليم إلى رحمة الله، وتولى السلطان سليمان القانوني فأكرمه أيضًا إكرامًا زائدًا حتى أغرقه في بحار إحسانه وإنعاماته. فهذا الخليفة هو الذي قلد السلطان سليمان في جامع أبي أيوب الأنصاري لأول مرة سيف الخلافة، وبايعه على ذلك. لأن هؤلاء

(١٩٠) السلطان إنال: هو الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إنال (٨٦٥/٧٨٤ هـ) = (١٤٦١/١٣٨٢م) من ملوك دولة الجراكسة بمصر، بويح بالسلطنة بعد وفاة الظاهر جقمق سنة ٨٥٧ هـ، وظل سلطانًا حتى توفي بالقاهرة بعد أن تنزل عن السلطنة لابنه أحمد جـ ٢ ص ٣٥. (٢٢٥) الدولة الكردية (ص ٥٨)

العباسيين هم الخلفاء القدماء. ومن الغريب أنه لما جاء المتوكل على الله نعى أبيه المستمسك بالله في مصر، أن له السلطان سليمان في السفر إلى مصر محفوفاً بالثجلة والإكرام ليحل محله في الخلافة. وهكذا دامت أيامه ٢٣ سنة؛ حيث توفي إلى رحمة الله سنة ٥٩٠ هـ = ١١٩٩ م في عهد ولاية درويش باشا لمصر. وقد دفن بجوار السيدة زينب [رضي الله عنها]، فانقرض به آل عباس بمصر أيضاً إذ كان المتوكل على الله هذا آخر خليفة منهم بها. وكان عددهم ١٧ خليفة، بلغ مجموع حكمهم ٣٣٢ سنة.

هذا، وقد كانت خلافة هؤلاء العباسيين بمصر إسمية وتعظيمية فقط؛ لكونهم من آل عباس العظام، أما أمور الربط والحل والعقد والقبض والبسط من مظاهر السلطان والقوة فكانت في أيدي المماليك انجراكية قوة واقتداراً، وما كان عليهم إلا أن يأخذوا منهم البيعة لأنفسهم.

هذا، ويطلق على هؤلاء الخلفاء خلفاء رسول الله. وقد جاءت بعدهم:

دولة آل طاهر^(١٩١)

هم ملوك البلاد الخراسانية، عددهم خمسة؛ وأولهم الخليفة طلحة، ثم الخليفة عبدالله، ثم الخليفة علي، ثم الخليفة محمد (...). ومدد حكمهم جميعاً تبلغ (...) ولم يملكوا مصر قط. وبعدهم:

الدولة الصفارية^(١٩٢)

كانوا ملوكاً لخراسان أيضاً وبلخ والعراق وأصفهان. عددهم تسعة؛ أولهم يعقوب بن الليث، ثم عمر بن الليث وطاهر بن الليث، ويطلق على هؤلاء اللبثيون

(١٩١) دولة آل طاهر [٢٠٥ - ٢٥٩ هـ = ٨٢١ - ٨٧٣ م].

(١٩٢) الدولة الصفارية [٢٥٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٦٨ - ٩١٨ م].

(الليطيون) وهم أبطال مشاهير بلغت مدة سلطنتهم... ولم يملكوا مصر أيضا، وجاءت بعدهم:

الدولة السامانية^(١٩٣)

كانوا تسعة ملوك؛ أولهم إسماعيل الساماني، وأحمد الساماني، وناصر الساماني، ونوح الساماني، وعبد الملك الساماني، ومنصور الساماني، ونوح الساماني، ومنصور الساماني، وعبد الملك الساماني. هذا، وعوضا عن أن يقال لهم سلطان أو خليفة يطلق عليهم لقب "سامان" فإذا أرادوا الجمع قالوا "السامانيون". وقد حكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان والصين، وبلغت مدد سلطنتهم (...) سنة، وبعدهم:

دولة آل زيار (الدولة الزيارية)^(١٩٤)

حكموا بلاد خراسان وجرجان وطبرستان والعراق. ويُقال إن أنوشيروان كان قد اعتزم الزحف من بغداد إلى بلاد اليمن لكي تباعه اليمن، وقدموا له الطاعة فعدل عن ذلك. وبعدهم ستة. يطلق المؤرخون عليهم هذه الأسماء: "مرداويج العادل" و"مكير العادل" و"بيسترين العادل" و"قابوس العادل" و"منوچهر العادل" و"أنوشيروان العادل". مدة سلطنتهم...؟ وقد روى أن النبي ﷺ قال: "إني ولدت في عهد ملك الكفار أنوشيروان العادل". ولكني لم أر ذلك في التواريخ. ومما لا شك فيه أن أنوشيروان هذا قد عاش كثيرا. وبعدهم:

دولة آل بويه (الدولة البويهية)^(١٩٥)

هم سبعة عشر ملكا مدة سلطنتهم (...) سنة، وبعدهم:

(١٩٣) الدولة السامانية [٢٦١ - ٣٨٩ هـ = ٨٧٠ - ٩٩٩ م].

(١٩٤) الدولة الزيارية [٣١٦ - ٤٧٠ هـ = ٩٢٨ - ١٠٧٧ م].

(١٩٥) دولة آل بويه [٣٢٠ - ٤٤٧ هـ = ٩٣٢ - ١٠٥٥ م].

دولة آل سبكتكين (الدولة السبكتكينية)^(١٩٦)

هم أربعة عشر ملكاً، مدة سلطنتهم (...) سنة، وبعدهم:

دولة آل غورة (الدولة الغورية)^(١٩٧)

هم خمسة ملوك، مدة سلطنتهم (...) سنة، وبعدهم:

الدولة الخوارزمية

هم تسعة ملوك، مدة سلطنتهم (...) سنة، حيث كانوا ملوكاً فسي خوارزم،

بعدهم:

دولة آل سلجوق (الدولة السلجوقية)^(١٩٨)

السلجقة ثلاث طبقات، الطبقة الأولى حكام إيران وما وراء النهر وعددهم

أربعة عشر ملكاً، يقال لهم سلجقة إيران، مدة سلطنتهم (...) سنة.

الدولة السلجوقية الثانية^(١٩٩)

قامت ببلاد كرمان وعدد ملوكها ١١، ومدة سلطنتهم ... سنة.

دولة سلجقة الروم^(٢٠٠)

هم أربعة عشر ملكاً. قدموا في الأصل من بلاد ما وراء النهر إلى ديار

اليونانية؛ أعنى بلاد قرمان وقونية وسواس والروم فملكوها وتحكموا فيها. فيطلق

على هؤلاء الملوك لقب كيانية الروم؛ لأن أوائل أسمائهم مصدرة بلفظ (كى) مثل

كيقباد وكيوخسرو وكى أرسلان؛ لأجل هذا سمي هؤلاء الملوك بـ "كيانية الروم".

(١٩٦) دولة آل سبكتكين [٥٢٩ - ٦٣٠ هـ = ١١٤٤ - ١٢٢٣ م].

(١٩٧) الدولة الغورية [٥٤٣ - ٦١٢ هـ = ١١٤٨ - ١٢١٥ م].

(١٩٨) الدولة السلجوقية [٥ - ٥٨٨ ق / ١١ - ١١٤ م].

(١٩٩) سلجقة آل كرمان [٤٣٣ - ٥٨٣ هـ = ١٠٤١ - ١١٨٧ م].

(٢٠٠) سلجقة الروم [٤٧٠ - ٧٠٨ هـ = ١٠٧٧ - ١٢٠٨ م].

هذا، هو السبب فى علو شأن آل عثمان ورفعة قدرهم، هم هؤلاء الملوك
الكيانيون، وسيأتى ذكرهم فى محله إن شاء الله. بعدهم:

دولة تاج الدولة^(٢٠١)

هم ستة ملوك، يطلق عليهم فى الألقاب السلطانية لقب آل التاجية، حكموا الشام
والعراق، ومدة سلطنتهم (... سنة. بعدهم:

دولة آل أتابك (الدولة الأتابكية)^(٢٠٢)

قامت فى دمشق الشام، وملوكها ستة ومدتهم (... سنة، بعدهم:

الدولة العمرية (دولة آل عمر)^(٢٠٣)

هذه الدولة ظهرت للوجود بعد مضى مائتى سنة من الهجرة النبوية؛ حيث
فتح أحد ملوكها الأمير عمر الموصل وجزيرة ابن عمر وآمد وملطية واتخذها داراً
للملك، عدد ملوكها ثلاثة: أولهم الأمير زياد وابنه الأمير سقمان وابن هذا الأمير
عمر الذى فتح ملطية حيث انتقلت الدولة والحكم بعده لذريته من البنات، وقد بلغت
مدة سلطنتهم (... سنة. بعدهم:

دولة أتابك الكبير (الدولة الأتابكية)

حكامها ستة. أولهم نور الدين الشهيد الذى كان ملك الشام وسلطانيا حينما كساد
الكفار يعمدون إلى إخراج النبى ﷺ من قبره الشريف، حيث جاءه الرسول فى المنام
وقال له: "أدركنى يا نور الدين فأنقننى" فبادر السلطان إلى المدينة المنورة وفكك بالكفار
الذين قصدوا قبره الشريف بالسوء، ثم أخذ يحيط التربة الشريفة بسيج من حديد
وصنفر ورصاص ملمع. وبذلك يكون نور الدين الشهيد ابن سنقر اليوسفى أول من

(٢٠١) الدولة التاجية [٥٤١ - ٥٧٧ هـ = ١١٤٦ - ١١٨١ م].

(٢٠٢) الدولة الأتابكية [٦ - ١٠ ق = ١٢ - ١٦ م].

(٢٠٣) الدولة العمرية [٦٣١ - ٦٦٠ هـ = ١٢٣٣ - ١٢٦٢ م].

بنى القلعة فى مدينة الرسول. وقد تملك هذا السلطان الشام والعراق وأذربيجان والبصرة والحسا وسيس وطرطوس وأدنة. بيد أن الأتابكية هؤلاء قد انقسموا إلى سنت طبقات، كل واحدة تتألف من ستة ملوك، أولاهما:

دولة آل صلاح (الدولة الصلاحية)^(٢٠٤)

كان هؤلاء فى خدمة دولة نور الدين الشهيد. ولما هاجم فرنجة إسبانيا الأشرار بلدتى رشيد ودمياط واستولوا عليهما وأطلقوا بهما يد النهب والسلب، قد استنجد أهالى مصر بالسلطان نور الدين الشهيد. فما كان منه إلا أن عين من أمرائه وقواد جيشه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب قائدین لحملة عسكرية قوامها مائة ألف جندي وأمرهما بالزحف إلى مصر. ولقد جاء واستوليا على عسقلان ويافا ورشيد ودمياط حيث أعاداهما من أيدي الكفار؛ الأمر الذى جعل أهل مصر يعجبون بشجاعة صلاح الدين وببسالته الفائقة. وقد صار حاكمها المطلق ولكنه لم يجعل الخطبة والسكة باسم موله نور الدين، بل باسم الخليفة العباسى المتقى بالله. ولما سمع نور الدين نبأ هذا الأمر بالشام تأثر من ذلك وبادر إلى طلب صلاح الدين يوسف ليحضر إليه بالشام؛ ولكن صلاح الدين ساوره القلق والخوف على نفسه فتباطأ فى الطريق ملتصقا بالأعداء والعلل. حتى أنه أخذ فى سنة ٥٧٢هـ = ١١٧٦م فى إنشاء قلعة مصر الداخلية بأموال الغنائم الكثيرة التى كان قد حصل عليها من الكفار. ثم بنى حول مصر من جوانبها الأربعة سوراً عظيماً بلغ طوله سبعة وعشرين ألفاً وثلاثمائة ذراع مكى ولا يزال قائماً حتى الآن، وفى أثناء ذلك جاءت الأخبار بأن السلطان نور الدين قد توفى إلى رحمة الله فأصبح صلاح الدين يوسف ملكاً مستقلاً بمصر. ثم استولى على الشام وحلب، وهكذا خضع له فى جزيرة مصر السبعة عشر ملكاً الذين بها.

(٢٠٤) الدولة الصلاحية : (٥٦٩ - ٦٥٠ هـ = ١١٧٤ - ١٢٥٢ م).

فكما أن هناك خلطاً فى المعلومات التاريخية، فإن هذه الدول لم تحكم أى منها مصر... ولم يكن هناك أى داع لسردها فى رحلة تخص مصر، وقد ترك الرحالة مدة سنوات حكمهم فراغاً على أن يسجله بعد ذلك، ولكن لم يتم ذلك، وقد قام المترجم بذكر هذه السنوات فى الهامش تكملة للفائدة.

وجملة هؤلاء الملوك الصالحين تسعة أنفار، ومدة سلطنتهم (٠٠٠)

وفى عيد صلاح الدين هذا قلمت حرب ضروس سنة ٥٦٢هـ = ١١٦٦م بينه وبين الكفار الإفرنج فى برج العظام، لا يزال صداها فى أذان الناس، وتحكى أخبارها ووقائعها فى كتب التواريخ والأموال الكثيرة، التى اغتتمها فى هذه المعركة الدامية؛ ابتنى - رحمه الله - مدرسة عالية بجوار الإمام الشافعى بمصر لا تزال آثارها ورسومها باقية على الدهر. ثم جاءت بعدهم طبقة أخرى من الأتابكية.

دولة أيوب بن شاذى الكردي

يذكر بعض المؤرخين أن يوسف صلاح الدين أيضا من هؤلاء الأيوبيين. وعند ملوكهم سبعة؛ فمنهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى ضرب حصارا حول عكا لمدة أربعة وأربعين يوما، خاض خلالها غمار حرب ضروس ثم فتحها فتحا مبينا. بادر على الفور إلى هدمها هدمًا كاملاً حتى لا يستولى عليها الكفار مرة أخرى، وسفجل ذلك فى موضعه. وأعقبه الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين وهو مدفون فى جامع. ثم جاء الملك الكامل وصار خليفة وأعقبه الملك الأشرف الذى فى عهده تم تسليم القدس صلحا للإفرنج فى سنة ٥٩٣٥هـ = ١٥٢٨م، وقد كان هذا الخليفة من الأيوبيين، وقد سامت أعماله وصبت عليه الولايات والممالك فمات غمًا وحزنًا فى الشام وعمره ستون سنة ودفن بها. وتولى الملك بعد ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب وقد مات بمصر ودفن بها. وهؤلاء هم آخر المماليك البحرية، وكانت أولهم الملكة شجرة الدر خاتون. وعددهم جميعا ٢٨ نفرا، مدد سلطنتهم ١٣٦ سنة، واشتهروا فى التاريخ باسم المماليك البحرية، وبعدهم:

دولة الجراكسة (أو المماليك البرجية) (٢٠٥)

لما كان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلانى الصالحى من السلاطين الأتراك وكان ولى نعم الجركس والأباضية، فأطلق على هؤلاء الجركس

(٢٠٥) دولة الجراكسة أو المماليك البرجية (٧٨٤ - ٥٩٢٣ = ١٣٨٢ - ١٥١٧م).

لقب (المماليك البرجية). وقد تولى بعده الملك الكامل محمد الذي توفي بالمنصورة وقد بلغ من العمر ستين عاماً، ونقل نعشه إلى مصر القاهرة ودفن في جامع، وقد شيد هذا الملك في منطقة بين القصرين أربع مدارس خاصة بالمذاهب الأربعة، وأنشأ قلعة في جزيرة الروضة لا تزال آثارها باقية، واستدعى بعده المعظم طورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب حينما توفي والده في المنصورة، إذ كان حينئذ في بلدة "حصن كيفا" بکردستان. وقد أخفت والدته شجر الدر خبر وفاة زوجها بالمنصورة حتى يعود ابنها المعظم طورانشاه من حصن كيفا سريعاً بصحبة المبعوث إليه. وصل المعظم في ثلاثة أشهر إلى مصر التي كان الكفار قد احتلوها فانتزعها منهم، وأعمل فيهم سيفه تقتيلاً.

وقد ثار ممالك هذا الملك العظيم عليه وأردوه قتيلاً، والتحق بالشهداء من الملوك والخلفاء في سبيل الله. فتولت الحكم والدته شجر الدر، وهي الملكة التي كست الكعبة المعظمة بالأسفار السوداء لأول مرة، ولا تزال آثاراً إسلامية خالدة يطلق عليها اسم الكسوة الشريفة. ولم يتيسر هذا لملك من الملوك قبلها قط.

وتولى الملك بعدها زوجها المسمى أيبك التركماني، وتلقب بالملك المعز.

آل التركمان (الدولة التركمانية)

هم ستة ملوك من جنس الأتابكية. ولقد امتعضت شجر الدر أخيراً من زوجها أيبك التركماني سابق الذكر فغضبت عليه غضباً بالغاً؛ إذ كان سبباً في مقتل ابنها المعظم طورانشاه، وزاد الطين بلة أنه تزوج عليها ابنة أتابك الموصل، فأثار كل ذلك غضبها عليه ومنحها الفرصة لتأليب جواربها على زوجها حيث هاجمته وهو في الحمام. إلا أنه لم يكن غافلاً عما يدبر له في الخفاء فأشهر سلاحه الذي كان يخفيه في وجوهين، وماذا عسى أن يعمل شخص واحد أمام مائة امرأة! بينما كان الشجار دائراً كانت شجر الدر تتابع من الشبابيك القائمة فوق سطح الحمام. فانهارت القبة بحكمة الله وسقطت شجرة الدر بجوار أيبك التركماني محطمة فبادر خصمها إلى قتلها فوراً، تاركاً الجوارى لحالين. ولكنهن انتهرن هذه

الفرصة وهاجمته جميعا هجمة واحدة فقتلته هو الآخر شر قتلة. ولا يزالان مدفونين في قبة واحدة جوار السيدة نفيسة [رضى الله عنها] في حى المخلاتية بمصر، كما أن ابنيا الشهيد معظم طورانشاء مدفون هناك أيضا. وبذلك انقرضت دول آل أيوب وانتقلت السلطة إلى مماليكهم الذين نصبوا خلال ذلك على البلاد ابن أبيك التركمانى، المدعو "على" البالغ من العمر الخامسة، وهو من بنت ملك الموصل سابق الذكر ولقبوه بالملك المنصور. وقد حكم ثمانية أشهر وعاصر علو شأن هولاكو التترى. وهاك صنف آخر من الأتابكية:

دولة أكراديان (دولة الأكراد)

تفرع ملوك هذه الدولة من "شادى الكردي" وبلغ عددهم سبعة أيضا، وقد اضطربت أمورهم في مصر حتى اضمحلت دولتهم وذهبت ريحهم. ومدة سلطنتهم (... سنة، وكان أعظمهم شأنًا هو السلطان محمد الكردي، وهو الذى ساعد الإمام الشافعى واستقدمه مصر مرة أخرى. وقد تم له فتح بلاد النوبة سنة ٥٦٦٧ هـ = ١٢٦٨م، وانتزع طرابلس الشام من أيدي الإفرنج سنة ٥٦٨٧ هـ = ١٢٨٨م. وتوفى إلى رحمة الله فى ذى القعدة سنة ٥٦٨٩ هـ = ١٢٩٠م، وقد دام حكمه إحدى عشرة سنة وعشرين يوما. وقد تلاه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين الذى توجه إلى عكا وفتح قلعتها وانتزعها من أيدي الإفرنج.

ولقد وصل بعد هذا الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى كرسى الحكم للمرة الثالثة فى سنة ٧٣٣ هـ = ١٣٣٢م، وقد عثر فى عهده على الحاكم بأمر الله مقتولا فى جبل الجبوشى، فأقام عليه قبة عالية حصنها بالرصاص الأزرق السماوى اللون. وهو نفسه مدفون بجوار والدته فى أرض مدفن الإمام الشافعى. بعدهم:

الدولة القراخانية

عدد ملوكهم ثمانية وهم من الأتابكية. شيدوا دولتهم فى ولاية كرمان، ومدة سلطنتهم ٨٤ سنة.

دولة آل أيوب

رجال هذه الدولة هم الذين صاروا حكام اليمن وعمروها، وقد بلغ عددهم سبعة، وجدهم أتابك، وهم مدفونون بمدينة "مزيب" باليمن. مدة سلطنتهم ٥٧ سنة.

دولة آل الملحة

عدد ملوكها ثمانية، حكموا ولاية "قوهستان". مدة سلطنتهم ١٨٢ سنة.

دولة بنى أرتق (أو الدولة الأرتوقية)

ظهرت في بلاد حلب وملطية وديار بكر، وعدد ملوكها بلغ خمسة وعشرين. وكانت دولة عظيمة. يطلق لقب "مرازبان" عليهم من بين ألقاب التشريف. ومدة سلطنتهم ١٣٤ سنة.

دولة آل مروان (أو الدولة المروانية)

حكموا ديار بكر والموصل والجزيرة. عدد ملوكهم سبعة، ومدة حكمهم ١٠٩ سنة.

دولة بنى مرداس الكلابى

جلس ملوكها على عرش حلب ومرعش، عددهم سبعة، وألقابهم الملكية كلمة "كوردون" وهى تحريف كوردان أو الأكراد. ولا يزال أكراد جوم من سلالة هؤلاء الملوك والحكام. ومدتهم ٥٨ سنة.

دولة بنى الأسد

حكموا الحلة وتكريت وشهرزور. بلغ عددهم سبعة. ويطلق على هؤلاء لقب "آل شيران" بمعنى "بنو أسد" فى كردستان. وعنوانهم فى الألقاب السلطانية هكذا: يزدن شير، وإيدال شير، وضياء الدين شير. مدة سلطنتهم ١٤٢ سنة.

دولة بنى حمدان (بنى همدان)

ظهرت دولتهم في ولايات الموصل وحريز وأردلان ورومية ومُدمى ودمبولي، عدد ملوكهم ستة.

دولة بنى عقيل بن أبي طالب

عقيل هو أخو سيدنا علي رضي الله عنه، أقام أولاده الحكم والملك في الموصل والحلة وتكريت. عدد ملوكهم عشرة ومدة حكمهم ١٠٣ سنة، هذا ولما أرادوا التوجه إلى مصر حال الأمويون بينهم وبين ما يريدون، ونشبت حرب ضروس بين الطرفين فانهزموا.

دولة آل التركمانيين

ملوكها خمسة بلقب أمير. وكان أولهم الأمير كربوغا الذي حارب الإفرنج وجاهداهم في أنطاكية وانهزم أمامهم سنة ٥٤٩٥ هـ = ١١٠١م؛ فُلجأ إلى أصفهان، وهو مدفون في ضاحية مدينة هويدا. مدة سلطنتهم...

الدولة الدانشمندية

اعتلوا عرش سيواس وبافرة وأماسية وقيصرية. عددهم سبعة ملوك. أولهم مدفون بقلعة نيكسار ويدعى ملك غازي. وهم أول من أعملوا السيف مع آل سلجوق في رقاب الروم. ومدة سلطنتهم ٢٠٦ سنة.

دولة آل قرا يوسف

ملوكها من جماعة القراقوينية. وهم من عظماء الحكام والملوك وعددهم عشرة، استطاعوا الاستيلاء على ولايات كل من بكر وأذربيجان والعراق وفارس وتلقبوا بلقب "بك"، منهم "أوزون حسن" الذي تبع تيمور فاقد البصيرة والنور ومشى في ركابه، ولما قضى تيمور أجله أسرع أوزون حسن بمحاربة أولاد تيمور

وهزمهم شر هزيمة، واستولى على بلادهم وصار سلطاناً صاحب شأن، وبنى فى ولاية أرزن الروم قلعة سميت باسمه "قلعة حسن".

ولما دارت رحى الحرب بين أوزون حسن وأبى الفتح السلطان محمد الفاتح تم القضاء على جيش أوزون حسن فى وادى ترجان، وتمكن هو من الفرار إلى تبريز حيث مات بها كمداً وغيظاً ودفن بـصحن جامعته الذى بناه هناك، ولقد صارت عبارة "بطلان كيد الخائنين" تاريخاً لتلك المعركة التاريخية الدامية. مدة سلطنتهم ٩٢ سنة من ٧٨٢ إلى ٨٧٤ هـ (= ١٣٨٠ - ١٤٦٩ م).

دولة الآق قويونلية (أو) الشاة البيضاء

صار ملوك هذه الدولة أيضاً حكاماً فى ولايات ديار بكر وأذربيجان والعراق، وهم تسعة وألقابهم "باي"، وقد كانوا كراماً محسنين وعلى جانب كبير من الصلاح والزهد والتقوى، فلقبوا لذلك (باي) ومدة سلطنتهم حوالى ١٠٨ سنة، وإليم ينتهى فرع من فروع الشجرة العثمانية السلطانية، فكلاهما جاء من بلاد ماهان.

وقد سجل محمد جلبى الأكرنة لى فى تاريخه أن أوزون حسن من أسرة وعشيرة الآق قويونلى الشاة البيضاء. ولكن غيره يذهب إلى أنه من أسرة القراقويونلى الشاة السوداء. وأما كاتب السطور الضعيف فيقول إنه من أسرة وعشيرة القويونلية؛ سواء أكانت هى آق بيضاء، أم قارة سوداء.

دولة آل شاهشاهان إيران وتوران

ظهر ملوك هذه الدولة فى أردبيل من سلالة الشيخ صفى الدين من شيوخ الطريقة فى بلاد العجم بحكميا بالقطبية، خلفه ابنه الشيخ جنيد الذى صار قطب الأقطاب وذاع صيته فى الأفاق. ثم ابنه الشيخ إبراهيم خان ابن الشيخ الخواجه على بن الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صفى الدين أبى إسحق الأردبيلي الذى نعد أول هؤلاء الملوك الذين بلغ عددهم حتى الشاه عباس الأول خمسة ملوك.

يطلق عليهم "الشاه" في الألقاب السلطانية. وهم الآن يملكون بلاد أذربيجان وإيران وتوران وكنجه وشيروان، وينعتون في اللسان العجمي بألقاب "خداوند كار" و"شاهشاهان" و"شه" و"شاه" و"شاهنشاه" و"خسرو" و"شهریار" و"سرور" و"تاجدار" و"صاحبقران" و"شاه إيران وتوران".

دولة آل الدربنديين

(أو الدولة الشيروانشاهية أو الدربندية)

تسعة ملوك يلقب كل منهم "ملك الملوك"؛ امتد حكمهم حتى بلاد كنجه وسواس وشماقي وباركو وباب الأبواب. وكانوا في غاية التمسك بالسنة. وهم من نسل أنوشيروان. وقد زالت دولتهم بتسلط الشاهات ملوك إيران؛ فبلادهم تارة يحكمها سلاطين آل عثمان وتارة يخضعها لأمرهم ملوك إيران، والحال على هذا المنوال حتى الآن.

دولة آل شمخاليان (أو الدولة الشامخالية)

حكام هذه الدولة أيضا من نسل أنوشيروان وهم في غاية التمسك بالسنة، ولا يزالون يلقبون حتى الآن بلقب شام كال (أو شام خال). وشمخال اسم طائفة من الغز (أو غوز) ولا يزال^(٢٠٦) لهم من الجند نحو ثمانين ألفا، يخطبون في جوامعهم لسلاطين آل عثمان ويذكرون أسماء ملوكهم بعد هؤلاء السلاطين. وموطنهم في شمالي جبال ألبرز، ولهم من الأراضي هنالك ما تتسع لسبعة خانات وحكام.

وقرابوراق خان من هؤلاء الملوك، له من المدن طرخو، وقووز، وأندري، وطابسران. وفي شماليهم يقع باب الأبواب الباب الحديدي "دميرقبو" على شاطئ بحر الخزر. وفي شرقيهم كنجه وشيروان وشماخي، وفي جنوبهم بلاد تيمور خان من مملكة "گرجستان" ولا يزالون^(٢٠٧) يحكمون بلادهم فلم شأن ودولة (أيده الله دولتهم)؛ إذ هم في جدال ونضال مستمر مع العجم، وبلادهم جبلية صعبة المرتقى وعرة المسالك فضلا عن مهارتهم الفائقة وحبيهم للغزو والكر والفر.

(٢٠٦) المقصود حتى عصر الرخالة.

(٢٠٧) المقصود حتى عصر الرخالة.

دولة آل الأوزبك أو الدولة الأوزبكية

ظهرت دولتهم في بلاد بلخ وبخارى وخراسان. وقد دخلوا في الإسلام بخطاب نبوى وصلهم على يد رسول من قبل سيد المرسلين ﷺ. فكبار أولياء الله في الإسلام قد نشأوا في إقليم خراسان. فلا يزالون مؤمنين صادقين وموحدين متقين. دولتهم باقية موبدة. لم يملك من هؤلاء بلاد مصر لبعدها عنهم؛ فإنهم مقيمون في الإقليم السادس والسابع. فجميع جيادهم وغزواتهم مع العجم والهند.

دولة آل جنكيز

ذكر في تاريخ ميرخوند أن جلوس جنكيزخان كان في سنة (...) هذا، وملوك هذه الدولة ينتظمون في اثنتى عشرة فرقة. كل منها ينقسم إلى عشرة خانات أو خمسة عشر خاناً أو ميرزا، وكخانات القرم والداغستان والمغول أو البغول والقوموق والقالموق أيضاً اثنا عشر ملكاً طائساً. ولكل طائفة ملك منهم يسيطر على مليون من الجند (عشر مرات مائة ألف).

كل هذه الأقوام والشعوب منحدره ومتفرعة من جنس التتر؛ وهم: القزاق، والأزبك، والنوغاتى، والهشذك، والمسكوف، والصين، والختاي، والختن، والفغفور، واللبقة، والبادران، والهند، والسند، والعجم، وأتراك التركمان، وآل عثمان.

وحسب تاريخ تحفة الدول الذى هو تحفة بمعنى الكلمة، كان سيدنا آدم [عليه السلام] أيضاً على الحالة التى عليها التتر الآن من حيث الظعن والرحيل والإقامة. لأن الله - سبحانه وتعالى - قد زين وجه الأرض في بادئ الأمر بأقوام التتر الرحل، ثم ظهر العرب بعد سيدنا إسماعيل [عليه السلام] الذى إليه ينسب نشوء اللغة العربية. ويذهب هذا القول أيضاً إلى أن امرأة شيث [عليه السلام] من حيث إنها كانت حورية من الجنة تتكلم العربية التى هى لسان أهل الجنة، بخلاف أولاد آدم الذين كانوا يتكلمون لغة أخرى دامت لعهود سيدنا إسماعيل حيث شاعت العربية بعدها.

وفى الواقع لا توجد حتى الآن أقوام على وجه البسيطة أكثر من العرب والتتر. فلقد قام الضعيف كاتب هذه السطور بسياحاته الكثيرة ورحلاته العدة فى بلاد القرم والداغستان والقالمق والنوغاى والبشرك وفى سهول القفجاق، فلم ير أقواماً أخرى سوى التتر إلا قليلاً، وكليم - ما عدا القالموق - مؤمنون موحدون بالله وملوكهم مسلمون.

دولة آل جنكيز (بشبه جزيرة القرم)

تقوم هذه الحكومة فى جزيرة القرم البالغ مساحتها سبعمائة وسبعين ميلاً. لها جيش يبلغ مائة ألف، ولهم من الخيول مائة مرة مائة ألف (يقصد عشرة ملايين). إذ ليس لهم من مظاهر الدولة والثروة سوى الخيل والجمال والغنم وقطعان البقر. ولقب ملكهم "خان" وينعتونه هكذا "كرائ خان"، وقد استولى من هؤلاء الملوك (خانات) "طوختامش خان" على بلاد القرم، وانتزعها من أيدي الكفار الجنوزيين أى البنادقة.

ويستولى أحد أقرباء الخان أو أحد أولاد إخوته منصب وزير اليمين، ويلقب بـ "قالفا سلطان" ويقوم فى المدينة المسماة "آق مسجد" أى المسجد الأبيض، كما أن لقب وزير اليسار "تور الدين سلطان" ولقب وزير الوسط "أقا". وأما رؤساء القبيلة فآلقابهم: شيرين، ومنصور، وسجود، وأولان هو الذى ولد الخان من نباته. ويطلق على طائفة الجند والعسكر لفظ "قراچى"، ولقب قوم القرم واسمهم "بارداق".

ولما فتح السلطان بايزيد الثانى من آل عثمان قلعتى أفكرمان وكيلى، جاءه من خانات القرم أولاً "منكلى كراى" ودخل فى طاعة العثمانيين، وكان وفياً بعهده دائماً حيث أمدَّ العثمانيين وسك نقوده بأسمائهم. ولأن يذكرون أسماء سلاطين آل عثمان فى الخطبة على المنابر قبل أسماء ملوكهم، يقولون بعد ذكر السلطان العثمانى "كرائ خان الغازى". وقد بلغ عدد الخانات حتى عهد السلطان محمد الرابع عشرين خاناً. أيد الله دولتكم، فإن هذا الضعيف قد نال شيئاً كثيراً من نعمهم وإحسانهم.

الدولة الجنكيزية فيما وراء النهر

ينحدر ملوك هذه الدولة من نسل الأربك أيضا. يبلغ عددهم اثني عشر ملكا، أيد الله ملكهم إلى آخر الزمان. وقد دخلوا في الإسلام سنة ٥١١٩ = ٧٣٧م في عهد هشام بن عبد الملك حيث كان خليفة الشام، إذ أرسل إليهم كتابا يدعوهم فيه إلى الإسلام فأسلموا. ولا تزال سلطنتهم باقية.

الطبقة الثالثة من آل جنكيز

ظهرت هذه الدولة في بلاد إيران وتوران وصحراء القنجا والصين والخطا والختن، وكان عدد ملوكهم ثمانية عشر. ولقد أقدم من هؤلاء التتر "هولاكو" على الزحف إلى بغداد بجيش جرار يقرب قوامه مليون جندي بتحريض من الناصر الطوسي وخيانة من الوزير ابن علقمة، فجعل عاليها سافلها وقتل المستعصم بالله العباسي حيث انقضت دولة آل عباس بموته. فما كان من أولاد وأنسال العباسيين الصغار الذين كانوا يقيمون على وجوههم في البراري والصحاري إلا أن هربوا إلى مصر لاجئين، فتولوا هنالك الخلافة وصاروا كالمشايخ.

هذا، وكان هولاكو هذا يملك جيشا كثيفا عظيما. وجملة ملوك هذه الطبقة تبلغ ١٨ ملكا حكموا ٤١٥ سنة، ولقبهم أيضا "خان".

الطبقة الرابعة من آل جنكيز وهي دولة آل تيمور كوركمان

صاحب الخروج والطغيان

ظہرت دولة هذه الطبقة في الممالك الإيرانية والتورانية وفي صحراء القيقاق والهند والسند وملتان والماجين والخطا والختن والمسكوف والبلغار وبولندة والقرم والداغستان وبلاد الكرج "كرجستان" والعراقين العربي والعجمي، وبلاد الروم والشام وفي سائر الممالك المحروسة، فكان يمشي في ركابه واحد وأربعون ملكاً مترجلين مدعنين له. حتى أنه بعث بكتاب إلى السلطان بيلايرم بايزيد العثماني يدعو إلى تقديم طاعته ومبايعته له، إلا أن السلطان بايزيد طرد رسوله، مما حدا بالأمير تيمور المحروم من النور أن يزحف بجيش لجب يموج كالبحر، نحو بيلايرم والاشتباك معه في سيل "أنقرة"؛ حيث دارت رحى معركة حامية أسفرت عن اندحار جيش آل عثمان من جراء سوء تدبير وزراء "بيلايرم بايزيد" الذي واصل مع ذلك الحرب والقتال، وهو مهموم ومغموم، وإن كان رابط الجأش ثابت الجنان، يصول ويجول في ساحة الوغى وحيداً ممتطياً جواداً غير مدرّب يطارد التتر أينما كانوا، وإذا بجواده يكبو به فيسقط تحت سنايك الخيل، ولكنه يقوم ويتلقى هجمات التتر الذين يحدقون به من كل الجهات، بكل ثبات وقوة جنان. ولكنه اضطر للتسليم ليم بعد مقابلة ساعة من الزمن، فأخذوه إلى تيمور فأكرمه غاية الإكرام وأحسن وفادته بتخصيص خيمة خاصة له بجانبه للإقامة بها، ثم تقديمه إياه في المجالس السلطانية على جميع العظماء والملوك الذين لديه. وذلك بالرغم من أن بيلايرم بايزيد كان يكلم تيمور بكل جرأة وشجاعة من غير أن يتولاه الجزع والخوف فكان يناقشه بكل صراحة وقوة جنان.

هذا، وقد اقتضت حكمة الله جلّت قدرته أن يتوفاه الله إليه وهو أسير في أيدي تيمور من مرض الحمى المحرقة التي انتابته، فنقل جثمانه إلى "بروسه" ودفن في صحن جامعها بيا.

ولما شرع تيمور في الرحيل من هنالك بادر السلطان "محمد جلبسى" بن بيلديرم بايزيد إلى مطاردة تيمور، وتعقب جيشه انتقاماً لوأده حتى أدركه في سيل يقال له وادى طاشاق "طاشاق أو واسى"، فجرت بينهما معركة دامية، أظهر خلالها السلطان محمد من الشجاعة والبسالة ما تذكره الألسنة والمجالس بإعجاب وتقدير، فقد سلخوا جلود عسكر التتر والميزومين وأقاموا منها خياماً أقاموا بها بضعة أيام في ذلك السيل الفسيح، فسمى السيل المذكور "طاشاق أو واسى" أى سيل الخصى، وهذا اسم نابٍ ليس من الأدب شرحه وتفسيره. وبعد أن هرب تيمور من ميدان المعركة بمن بقي من جيشه توجه نحو "قراباغ" وأمضى الشتاء به، وما أقبل أول الربيع إلا وأقدم على فتح بلاد الشام فجاء إليها وغنم منها ألف خزنة مصرية من الأموال، ثم عطف نحو مصر. ولما وصل المحل المسمى "عزت الهاشم" [لا شك أنها محرقة من غرة الهاشم] تلقاه ملك مصر السلطان برقوق من جبة والأمير فرج من جبة أخرى، كما هب لِمنازلته جنود "كُرتباي" وهكذا أحيط بالتتر من كل جانب فافتحموا جموعهم واكتسحوا صفوفهم كما تنقض الذئاب الجائعة على قطعان الغنم حتى قضوا عليهم جميعاً. ولا تزال عظام قتلاهم في المعركة الدامية المذكورة موجودة في تلك الصحراء واسعة الأرجاء تتألف منها أكام وتلال هنا وهناك.

وهكذا فشل تيمور وجيوشه في الاستيلاء على مصر، وعاد منها مهزوماً مدحوراً، وهو مدفون في بلد سمرقند ومدة سلطنته [٣٦] سنة.

الطبقة الخامسة من آل جنكيز من أولاد تيمور كوركان

قامت دولة هؤلاء في ممالك إيران وتوران وهمدان وأصفهان الموصوفة بأنها نصف العالم ووان وجيلان وأذربيجان. بيد أن بلاد أولاد تيمور هؤلاء تفرعت إلى إحدى وأربعين مملكة، يحكم كل واحدة منها واحد منهم، ثم صاروا ستة معسكرات متطاحنة ومتصادمة. ولما كان أوزون حسن زعيم الأق قوينلية من الملوك الذين اضطروا إلى المشى في ركاب تيمور كوركان، فقد انتهز الفرصة واعتزم الثأر لنفسه من أولاده، فأقدم على الفتك بعدة من هؤلاء وبسط سلطانه على

ولآيات ديار بكر والموصل والحلة وبغداد والبصرة والحسا وأذربيجان، وصار ملكيا المستقل صاحب الحول والطول. هذا وأولاد تيمور وأحفاده لم يعيشوا كثيرا ما عدا ابنه الكبير الذي بقى حتى صار سلطان الهند.

الطبقة السادسة من آل جنكيز من أولاد تيمور كوركمان

سلاطين الهند والسند

دولتهم قديمة. وقد اعتنقوا الإسلام عندما تلقوا الكتاب النبوى الدرى بالقبول والإذعان. ولهم ملوك ذوو شأن عظيم على مذهب الإمام أبى حنيفة يسيطرون على بلاد واسعة الأرجاء. إذ إن أول من ملك بوجه البسيطة بلادا عظيمة مترامية الأطراف هم ملوك الهند ثم ملوك آل عثمان. هذا وإن كان لملك المسكوف أيضا بلادا واسعة تمتد حدودها إلى بحر الظلمات إلا أن أكثر ولاياتها غير مسكونة من هول الشتاء وشدة البرد، كما أن الهند بلاد حارة جدًا بيد أن هواءها معتدل ومناخها لطيف. ولهذا كانت قراها وبلدانها عامرة وغنية. ولقب ملوكها وحكامها راجا "رايا" فمثلاً يقال الراجا أورنكزيب، بحيث إذا مثل أحد الرعايا بحضرة الملك فيدل أن يخاطبه "يا مليكى" يقول "يا راجاى". هذه هى القابيم السلطانية. وبلاد الهند من السعة بمكان تحتوى على ١٧ مملكة كل منها تعتق مذهباً بعينه ونحلة مستقلة.

دولة سلاطين السند

لقب ملوكها "موغان" فيقال موغان سيد، موغان تاد، موغان راي، موغان سرشاد، وهكذا. بيد أنهم تابعون لملوك الهند وهم يعبدون النيران. ولا تزال دولتهم باقية إلى اليوم.

دولة سلاطين مونتان

أسماء ملوكها هكذا: داريا مونتان، رادود مونتان، هلاس مونتان، وتسمى رعاياهم "بنيان" وهذه الطائفة توجد بكثرة فى الحبشة وسواكنها وفى خارقوا ومصوع. وهم يتعممون بعمامات بيضاء وكلهم من عابدى النار. وملك مونتان

تابعون أيضا لملوك الهند. فلا يزال سلطانهم ممدودا ودولتهم باقية، وجميع شعوب هذه البلاد تعبد النيران والأبقار والفيلة والشمس والقمر والأشجار. ومع ذلك فإنهم مقرّون بوجود الله البارى.

هذا، ولو أردنا أن نكتب شيئا عن هؤلاء مثلما هو مدون فى كتب التاريخ لطال الشرح وضاق المقام. وليس من عادتي - أنا هذا الضعيف - التصدى لنقل ما لا أعلمه علم اليقين أو لم أره رأى العين. وقد ذكرت هذا بقدر ما اقتضاه المقام.

ذكر أحوال دولة خاقان الصين

إن بلاد هذه الدولة، وإن كانت غير واسعة الأرجاء مثل الهند، إلا أنها بلاد سهلة فسيحة الأرجاء تحتوى على اثنتى عشرة ألف مدينة فى ساحل البحر المحيط ويطلق على ملوكها اسم خاقان. لا يخافون أحدا من الملوك والسلاطين، ولهم رعابا كثيرون وجمهور كبير. فإذا ذهب تاجر من بلد ما إلى بلد فى الصين فأول شيء يعمل به هو أن يقدم متاع تجارته إلى ملك الصين بوصفها هدية، قائلا: "إن ملك الهند وملك العجم مملوكا سدنكم السنية يسلمان على صاحب الجلالة" فبهذه الطريقة الأدبية يحظى التاجر بمقابلة ملك الصين وينال عطفه عليه؛ حيث ينعم عليه لدى عودته إلى بلاده من الأموال القيمة والأمتعة النفيسة ما يساوى عشرين ضعفا فأكثر من أمتعته التجارية. وهكذا يعود التجار من الصين إلى بلادهم مسرورين سالمين غانمين، ولا تزال دولتهم قائمة.

أحوال دولة السلطان فغفور

تمتد حدود هذه الدولة إلى عالم الظلمات. وكل من ملك هذه البلاد يقال له "فغفور". فى سنة ١٠٣٠ هـ هاجمها القالمق واستولوا عليها ومزقوا شمل مئات الألاف من الشعب الفغفورى وأكلوهم أكلا، حتى إنهم قبضوا على الفغفور "رحبنا شاة" وطبخوه ثم أكلوه أكلا. لأن القالمق من الشعوب التى تأكل لحوم الإنسان أيضا. فمن ذلك اليوم انقرضت دولة الفغفور ولا يزال القالمق يحكمون بلادهم حتى الآن^(٢٠٨).

(٢٠٨) ولا يزال القالمق يحكمون بلادهم حتى الآن.

ذكر أحوال دولة ملوك الديالمة

يطلق على ملوكيا في الألقاب السلطانية اسم "كاشانيان" أي الكاشانيون، وهم سبعة عشر ملكاً سنياً، تبلغ مدة سلطنتهم مائتي سنة، بلادهم هي الديلم وكاشان وكرمان.

ذكر أحوال ملوك بلخ

وهم ملوك سنيون يطلق عليهم في الألقاب السلطانية اسم "دارا". ولقد هزم اليونان (فيما مضى) الملك دارا هذا في محل يقال له "قرادره" بجوار الموصل. وبذلك صار الشعب الرومي مسيطراً على البلاد الإيرانية "إيرانشهر"، وبات العجم خاضعين لليونان يدفعون لهم الخراج. ولا تزال هذه الدولة قائمة وملوكها سنيون.

دولة آل إينجو (دولة آل إنجوليان)

ملوكها هم ملوك الشعب المغولي. فبلسان المغول يطلق لفظ "أنجور" على ملوكهم. حكمهم كان جارياً في البلاد الإيرانية، وهم ثلاثة ملوك. وفي سنة ٧٠٠ هـ ثار الشعب المغولي ثورة عامة على أنجور هذا وقتلوه، وبنعت ملوكهم هكذا: حيدر أنجور، وأسعد أنجور.

دولة آل مظفر

قامت هذه الدولة في فارس والعراق وكرمان. عدد ملوكها ثمانية. يطلق عليهم لقب جعفر مظفر. دامت حكومتهم مائة وخمسة من السنين. وهذه أيضاً من طوائف الملوك.

دولة آل چوبان

قامت في البلاد الإيرانية وأذربيجان. عدد ملوكها اثنا عشر ملكاً. لقبهم "أمير"، مدة سلطنتهم (...)

دولة آل إيلكان (الدولة الجلالية)

قامت في بلاد أذربيجان. وعدد ملوكها ستة ويطلق عليهم لقب "قامي"، وهم من طوائف الملوك، وكانوا في غاية من العدل والإنصاف. مدتهم ٧٥ سنة.

دولة آل كرتبای

قامت فى خراسان وبلاد الغور. وكان ملوكها يذكرون فى الخطب على المنابر باسم الملك كرتبای. وكانوا ملوكاً سنين، وعددهم ثمانية، ومدة سلطنتهم ثمان وثمانون سنة.

الدولة السربدارية (دولة آل سربدران)

قامت هذه الدولة فى ولايات سبزوار وخراسان. ويطلق على ملوكها "سربداران"، عددهم سبعة، ليسوا على شىء من الحسب والنسب. ولقد صاروا ملوكاً تغلباً وغصباً. وهم أيضاً من طوائف الملوك.

بيان أوصاف دولة آل عباس

ظهرت هذه الدولة فى مدن بغداد ذات العمران كالجنة وفى مدن البصرة والإحساء واليمن ومكة والمدينة؛ حتى امتد سلطانها إلى أم الدنيا مصر والشام وحلب ومرعش وديار بكر وأرضروم حتى بلاد الكرخ.

هذا، وفى الزمن الغابر كان يُطلق لقب كسرى على الذين يملكون بغداد القديمة وجمعه "أكاسرة". وقد خضعت بغداد هذه للعباسيين بعد بعثة صاحب الرسالة المحمدية. وعدد ملوكها جميعاً ثلاثون. مدة حكمهم خمسمائة وثلاثة وعشرون عاماً وشهراً واحداً ويوم فقط. والعباس هو عم الرسول ﷺ وابن عبد المطلب وهو أكبر من الرسول بسنتين، عاش ٨٥ عاماً، ومات بعد الهجرة النبوية باثنتين وثلاثين عاماً، وقبره فى البقيع بالمدينة المنورة. وقد خلفه فى الحكم ابنه السفاح الذى حكم تسع سنوات وثمانية أشهر وعاش خمسين سنة، وقبره فى الكوفة. وجاء بعده ابنه أبو جعفر، ثم ابنه أبو عبدالله محمد المهدي، وابن هذا محمد الهادي، ثم جعفر بن عبدالله، ثم ابنه الآخر أبو منصور هارون الرشيد، وأربعة من أولاد هارون الرشيد تولوا الخلافة؛ وهم أبو عبيد الله، وأبو العباس، وأبو إسحق محمد المعتصم بالله، والخليفة المأمون. فالمأمون قد وصل إلى مصر وزار جبل اليرمين

واستخرج منها الكنوز والدفائن ثم ترك مصر إلى اليونان، ونزع منهم بلاد أذنة
وسيس ومسيس وقرأ كورك وطرسوس، وهو مدفون في زاوية مظلمة من زوايا
جامع النور بداخل القلعة إلى اليسار. هذا ولما كانت عقيدة الخليفة المأمون مختلفة
وكان ممقوتاً ومكروهاً من الناس فلا يزار قبره. وكانت خطب الجمع قبل عيد
العباسيين تتلى على المنبر والخطيب جالس، ولما جاء أبو العباس عبدالله السفاح
بن محمد بن علي ابن عبدالله بن عباس وتولى الخلافة تلاها وهو واقف. وهكذا
بقيت العادة حتى الآن.

ويوصف العباسيون في اللغة العربية بهذه الألقاب: الخليفة وأمير المؤمنين
والسلطان والملك والحاقد والمؤيد من عند الله... وخلاصة القول إن ثلاثين خليفة
من العباسيين كانوا يرسلون ولاية من قبلهم إلى مصر من بغداد فيحكمونها
بواسطة، ودام الحال على هذا المنوال حتى استولى هولاكو الملعون على بغداد
وانقرض به ملك الخليفة المستعصم بالله وهرب أولاده إلى مصر.

وقد أنشأ المنصور الدوانيقي ملطية سنة ٥٣٠٥هـ، ثم عمد إلى مكة ووسع
حرمها الشريف فأحدث بها منارة (منذنة)، ومات سنة ٥٣٥١هـ (كذا) بالغا من العمر
ثلاثاً وستين سنة، فدفن بالمعلا بمكة المكرمة رحمه الله.

وكانت في عيد هؤلاء الخلفاء العباسيين اثنتا عشرة طبقة من الملوك في
سائر البلاد، كلهم مسلمون يذعنون لهم ويسكون النقود ويخطبون بأسمائهم.

دولة آل ساسان (الدولة الساسانية)

عدد ملوكها تسعة، ومدة سلطنتهم ٩١ سنة.

دولة الديالمة

عدد ملوكها خمسة عشر ومدة سلطنتهم ١٠٣ سنوات. ثم قام فرع من دولة
آل عباس في بلاد الكرد "كرديستان" وانقسم أيضا إلى اثنتي عشرة طبقة.

الدولة العباسية الكردية (دولة آل عباس الأكراد)

تولت الطبقة الأولى منها على جزيرة ابن عمر القريبة من الموصل، حيث إن لحكامها الآن عشرين ألف جندي من حملة البنادق.

والطبقة الثانية هي حكومة سيد خان الذي تحت إمرته الآن أربعون ألف جندي.

والطبقة الثالثة هي حكومة حاكم صوران التي تملك عشرين ألف رجل من الجند.

والطبقة الرابعة هي حكومة أردلان التي لها عشرة آلاف رجل من الجند. والطبقة الخامسة هي حكومة حاكم حرير التي تملك خمسة عشر ألفاً من حملة البنادق.

والطبقة السادسة هي حكومة بنيانشي التي لها من المقاتلين خمسة آلاف. والطبقة السابعة هي حكومة حاكم المحمودي الذي يملك ثمانية آلاف عسكري وهم في غاية الشجاعة وحسن التنظيم والتدريب؛ حيث يتفوقون في ذلك على جميع عساكر كردستان الأشداء.

والطبقة الثامنة هي حكومة حاكم حكارى الذي يملك زهاء أربعين ألفاً من المشاة والعتاة حملة البنادق وعشرة آلاف من الفرسان المدربين.

هذا، وإن كاتب هذه السطور حينما انتدب بعد تخطى أفندينا إيشير باشا سنة ١٠٦٥ هـ عن إيالة وإن لملك أحمد باشا لحمل المقرر والخلع والكساوى التشريعية لحاكم حكارى (يزيد بن شير) عز الدين شير، شاهد عن كثب مدى ما عليه ذلك الجيش الحكارى العظيم من التدريب والتنظيم وإتقان فن إطلاق النار.

والطبقة التاسعة هي حكومة حاكم حيزان الذى يملك عشرة آلاف من العساكر.

والطبقة العاشرة هي حكومة حاكم بثلثيس الذي يملك عشرين ألفاً من الجنود، ويهيمن على عشرين عشيرة قوية.

والطبقة الحادية عشرة هي حكومة حاكم حظو (أو حزو) الذي يملك ثمانمائة ألف من أقزام خالتى وجكوانى ويزيد من الأكراد.

والطبقة الثانية عشرة هي حكومة حاكم بالو الذي يملك عشرة آلاف جندي. هذه الحكومات اثنتا عشرة مستقلة في شئونها، وحسب قانون نظام السلطان سليم الأول لا يسرى على حكامها العزل والتنصيب، وينتقل الحكم والولاية من الحاكم إلى أولاده بعرض الوزير وتصديق السلطان على ذلك وإقراره؛ حيث تكتسب في البراءات والأحكام الصادرة عبارة "جناب عزت مآب"، كما أن أهالي تلك الولايات يطلقون على حكامهم هؤلاء لفظ "خان"، ويعد حكام هذه الولايات الاثنى عشرة أنفسهم من سلالة العباسيين وأحفادهم.

علاوة على ما تقدم فإن للأكراد إمارات وراثية يبلغ عددها مائتى "أوجاق" أسرة قديمة، وفي ولايات أرضروم وديار بكر ووان والموصل وشهرزور وبغداد، حيث إن أمر تنصيبهم وعزلهم في يد والى الولاية. وذلك كلواء "أكل" و"ميفارقين" و"كارنى" و"هروان" و"إسبير" و"وزريقى" و"باركيرى" و"ملازگرد" وغيرها من السناجق.

وقد قمنا بالسياحة والمنا في هذه البلاد الجبلية الصخرية الكردستانية زهاء سبع سنوات، حصلنا خلالها على معلومات قيمة ومشاهدات عجيبة وكبيرة لو أردنا تدوينها كما رأينا وشاهدنا لتوجب علينا أن نسطر مجلداً ضخماً. إن "كردستان" هذا لو لم يكن سداً منيعاً وحاجزاً قوياً بين آل عثمان والعجم لكان العثمانيون في حرج وقلق وخوف مستمر من العجم الذين هم أعداء ألداء وخصوم أشداء.

هذا، وإن الذين ملكوا مصر من الأكراد هم من هؤلاء الأكراد العباسيين.

الدولة الكيانية (دولة آل كيانيان العجم)

قامت هذه الدولة في بلاد إيران وما وراء النهر، وعدد حكامها أحد عشر حاكماً.

الدولة الأشكانية (دولة آل أشكانيان)

عدد ملوكها سبعة، بلادها همذان ودرجزين وأردبيل. مدة سلطنتهم ٧٨ عاماً، كان أبائهم وأجدادهم ملوكاً أيضاً في زمن الجاهلية قبل الرسالة المحمدية، فهؤلاء السبعة صاروا ملوكاً في العهد الإسلامي بعد المأمون، وأطلق عليهم لقب الإشكانيين.

دولة آل قروانيان

عدد ملوكها ستة، ومدة سلطنتهم (...) (٢٠٩) سنة.

دولة مامانيان

عدد ملوكها (...)، ومدة سلطنتهم (...) سنة.

الدولة الساسانية (دولة آل ساسانيان)

عدد ملوكها (...) نفرًا، ومدة سلطنتهم (...) سنة.

دولة آل ماهان

ظهرت هذه الدولة في أول الأمر في ديار ماهان من بلاد ما وراء النهر، بيد أن ملوكها اضطروا إلى الرحيل والهجرة منها إلى بلاد أخلاط بسبب مطاردة آل جنكيز لهم، ملتجئين إلى السلطان أوحده الذي هو جد حكام "بغليس"؛ ولما كان هؤلاء الملوك على جانب عظيم من البسالة والشجاعة افتتن الأهالي بهم ونصبوهم

(٢٠٩) ترك المؤلف فراغات ربما لكي يكتبها بعد ذلك، ولكنه لم يفعل ذلك وإذا تركنا مكانها فراغاً كما هو .

أمراء وحكاما عليهم مدى الأيام حيث دام حكمهم في "أخلاط" مدة مائة وسبعين سنة. فاضطروا بعد ذلك أيضا إلى الجلاء والنزوح عن الوطن تاركين أموالهم وأموالهم فرارا من مطاردة آل جنكيز لهم أينما حطوا وحيثما وجدوا. وقد التجأوا إلى السلاجقة بقونية. وبينما هم يواصلون السير في الطريق إلى الروم مروا بنهر "مراد"، فأخذ رئيسهم سليمان شاه في النزول إلى النهر بجوار قلعة حشد الواقعة عليه ليغتسل فيه فغرق في الماء. واختير أرطغرل رئيسا على القوم فتوجه بهم إلى صحراء قونية، وإذا بحرب عظيمة تدور رحاها بين السلاجقة وبين جموع التتر، وكان أرطغرل وأتباعه يشاهدونها من فوق جبل عال. ولما تبينوا الغلبة في جانب التتر والهزيمة لاحقة بالسلاجقة لا محالة بادر أرطغرل الشهم الهمام إلى الهجوم بمن معه من الجنود البالغ عددهم سبعمائة فتى على هؤلاء الغالبين من التتر، وأمطروهم ببوابل من السهام وأخذوهم بالسيوف البواتر من كل جهة حتى مزقوهم شرا ممزقا، لأن حب الانتقام وأخذ الثأر من هؤلاء التتر مازال كامنا في نفوسهم من يوم خروجهم من ماهان.

ولا شك في أن هذه الفتوحات العظيمة المفجائية قد أحييت السلاجقة من جديد وجعلتهم يلهجون بالسنّة الشكر والدعاء لأرطغرل وقومه، فأغدق سلطان السلاجقة عليه بالإتعامات والخلع والرتب، وجعله أميرا من أمراء السدة السلطانية ثم أعطاه مالا كمال قارون، وأباح له امتلاك جميع الأراضي التي يفتتحها من تكفور بروسه ونصبه قائدا على تلك الجهات.

ومن حكمة الله البالغة ودلائل توفيقه أن النجاح كان حليف أرطغرل أينما اتجه، فكان ينتصر في جميع حروبه ويوفق في جميع غزواته وجهاده ويعود إلى البلاد محملا بالأسلاب العديدة والغنائم الكثيرة فيوزعها على القاصي والداني. وأرطغرل الماهاني هذا هو جد آل عثمان. فلا تزال جثث هؤلاء الملوك والحكام موجودة غضة بكامل أسلحتهم على عروشهم الاثنى عشر تحت القباب العالية بمدينة أخلاط المذكورة. ولقد رآها كاتب هذه السطور حين زيارته لها. ومن

الأمثال الشهيرة المتداولة بين الأصدقاء والأحبة القول (أن فلاناً أصبح كقدير أخلاط)، ففي هذا إشارة إلى الجثث التاريخية فى أخلاط.

ولا شك فى أن آل ماهان هم أجداد العثمانيين المؤيدين من الله إلى قيام الساعة، والمسيطرين الآن على جميع بلاد العراق وعاصمتها بغداد الشيبية بجنات الفردوس والخلد، وعلى أم الدنيا مصر القاهرة نادرة العصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد المجر والروم والعرب والعجم. وهم الموصوفون بسلاطين البرين والبحرين وحماة الخلافة.

ذكر دولة آل رسول

عدد ملوكها خمسة عشر. ملكو اليمن وعدن وصنعاء وصنعان. ويُطلق على بلاد اليمن اسم جزيرة العرب، وهى من الأقاليم العربية، يحيط بها بحر القلزم من الشرق إلى الجنوب ومنه إلى الغرب. والجهات الأخرى محاطة بالبر، بحيث يقطعه خط من الشرق إلى الغرب من بحر الإحساء إلى بحر اليمن.

هذا، وهناك عدة وجهات نظر فى تسمية هذا الإقليم باليمن:

١- إذا توجه المرء نحو الشرق فى بلاد اليمن بقى هذا الإقليم عن يمين الشخص؛ فقالوا اليمن من اليمين.

٢- وقالوا إن الإقليم يقع عن يمين الكعبة الشريفة. وفى الجاهلية كان يُطلق لقب "تُبَع" على ملوك اليمن ويجمع على "تبايع". ولكن حكامها الآن يسمون ملوكاً من يوم ما ملك هؤلاء السادة الكرام. وأما الآن فيسمى واليها "الإمام". وقد خضعت اليمن للسلطان مراد الرابع العثمانى^(٢١٠)، ولكن أهاليها

(٢١٠) السلطان مراد الرابع العثمانى: (١٠٥٢ - ١١٠٥ هـ = ١٦٤٢ - ١٦٩٣م) بعد تنحية السلطان إبراهيم عن العرش بالقوة فتح الطريق على مصراعيه أمام ولي العيد محمد لى يكون سلطاناً. فتولى العرش فى الثامن من أغسطس سنة ١٦٤٨م وهو مازال صغيراً، مما أدى إلى زيادة الفلاقل. ولكن عندما اشتد عوده عين فى الصدارة من هم على علم وخبرة ودراية، وعقد العديد من المعاهدات مع النمسا والصرب، ولكنه قام بحروب على روسيا وكريت وفتح الأخيرة. وتوجه إلى لهستان للمرة الثانية سنة ١٦٨١م، وعقد معاهدة صلح مع الروس، وفى سنة ١٦٨٢م قرر الدخول فى حرب =

ينتحلون مذهب الزيدية الذى يبيح نكاح المتعة جهاراً؛ أعنى أن الواحد منهم يستأجر امرأة لنفسه ليضعة أيام يتصرف فيها ثم يتركها لآخر. وينقسم الإقليم إلى أربع حكومات لا تخضع الواحدة للأخرى. وسكان الجبال منهم أعراب صغار الأجسام مجردون من الثياب، ولكنهم رماة بارعون ومحاربون ماهرون. والشعب عامة فى غاية الصلاح والتقوى؛ لأن أكثره من الشرفاء وأحفاد الصحابة الكرام. ففى عهد النبى - عليه الصلاة والسلام - قد نزع أكثر الصحابة إلى إقليم اليمن. وقد ورد فى حقه حديث (عليكم...) وكم به من الأولياء ذوى الكرامات الظاهرة.

دولة شرفاء مكة أعنى آل هاشم

قامت دولتهم فى الحجاز والطائف والمدينة ووادى القرى حتى مدينة ثمود. وقد اتحد شرفاء مكة هؤلاء مراراً مع شرفاء اليمن فبذلوا الهمة والجهود للاستيلاء على بلاد مصر، غير أن عملهم لم يكلل بالنجاح قط. وعدد ملوك هذه الدولة ثمانية وثلاثون حسبيئاً من النسب الطاهر. لا تزال دولتهم قائمة حتى الآن، ويطلق عليهم آل الحيدرى أيضاً.

دولة شرفاء مكة أعنى آل قتادة

عدد ملوكها سبعة؛ ينتهى نسبهم إلى على بن أبى طالب [كسرم الله وجهه] ويزعمون أنهم من أولاد الأنبياء من عهد إسماعيل عليه السلام، وأن أجدادهم قبيلة "جرهم" التى هاجرت من اليمن إلى مكة وتوطنت بها، حيث تقدم إسماعيل إليها وتزوج منها بنتاً فأنجب منها سيدنا... الذى بلغ من العمر أربعين سنة فنزلت عليه صحف باللسان العربى، ويقال إن اللسان العربى تمت المحافظة عليه من ذلك اليوم.

ضد النمسا، ولكن نتيجة للزيمة التى منى بها الجيش تم إعدام الصدر الأعظم فره مصطفى باشا المرزفونى. وخلال سنتى ١٦٨٤ و ١٦٨٥م فقدت الإمبراطورية بعض قلاعها المهمة، وسقط بعضها الآخر فى أيدي الأعداء دون حروب تذكر، وفقدت المجر تماماً بعد سقوط بودين فى يد العدو سنة ١٦٨٦م، ثم موهاج ١٦٨٧م، وأثينا سنة ١٦٨٧م، وعلى الرغم من كل ذلك، افتتح فى عهده العديد من الجوامع والمؤسسات المعمارية الكبيرة. أنزل عن العرش فى الثامن من شير ديسمبر سنة ١٦٨٧م. (النظر (Osmanlı padişahları Ansık).

ومن جهة أخرى نصح بأن هناك في الممالك المحروسة التي زرناها مئات الألوف من العشائر السائرة في البراري والصحاري والسهول ليا رؤساؤها وأمرائها، كما أن في جبالها الصخرية وصحاريها المقفرة قبائل وطوائف وجماعات لها زعمائها وحكامها، ولكن ليس لهم خطب تتلى ولا سكة تضرب. فلذا صرفنا النظر عن ذكر هؤلاء مع أنهم أيضا من أصحاب السيف والقلم وحكوماتهم مؤيدة من الله الحكيم الذي أعطاهم الحكم وأسباب السيطرة؛ بحيث يتمكن خليفة وجه البسيطة بواسطة هؤلاء الرؤساء والزعماء من تأديب العبيد العنيدين، فيقي الناس شرورهم وفسادهم في الأرض، كما ورد في الشعر الفارسي.

[وهنا أورد المؤلف بيتاً من الشعر معناه]:

إذا لم يكن السلطان قائماً في بلد فإن بيوت المظلومين تكون طغمة للظلمة

وما ذلك إلا لأن الله تعالى جعل نفع الخلفاء لعباده أكثر من نفع الغوث الأعظم ورجال الغيب الطاهرين. فمأذا لله تعالى إذا لم تكن الخلافة العظمى وأسباب السلطنة العليا قائمة على وجه الأرض، فإن لما لم يكن هناك إيمان ولا إسلام ولا تقوم قائمة للاعتقاد والطاعات ولا العبادات ولا سائر الأوامر والنواهي الإلهية، تختل الأمور الدينية ويسودها الفساد، كما في الآية الكريمة في سورة الحج ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٢٢/٤٠]. فهي دليل قاطع على ما نقول نسأل الله تعالى أن يديم عيد الخلفاء على ظهر الأرض. وكذا الحديث الشريف الذي معناه "لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً" ففيه تأكيد على موضوع الخلافة^(٢١١).

(٢١١) هذه الدول والملوك لم تكن لهم أي علاقة بمصر، ولذا فإننا أرى أننا تخرج من نطاق رحلة مصر والسودان وبلاد الحبش، ولكن أمانة الترجمة اقتضت أن نترجمها في سياقها، ولعلها تنفيذ في رسم صورة عامة للدول التي كانت معاصرة لمصر خلال رحلة أوليا جلبي.

ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية

أول من أقام الخلافة على وجه الأرض في الإسلام هم الخلفاء الراشدون المرشدون وكلاء صاحب الرسالة المحمدية. وإليك أسماؤهم الشريفة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى [رضى الله عنهم]. ولقبهم في اللسان العربي "أمير المؤمنين" ويطلق هذا اللقب أيضا على الإمامين الحسن والحسين والخلفاء الأمويين والعباسيين. وأول من ملك مصر من هؤلاء الخلفاء الأربعة الراشدين هو سيدنا عمر بقيادة عمرو بن العاص. ثم من بعده ملكها الأمويون، ثم العباسيون الذين هم طبقان: إحداهما كانت ترسل من قبلها نوابا من بغداد، والأخرى هم هؤلاء الخلفاء الذين أتى بهم الظاهر ببيرس، وهم آل عباس الذين تشرّدوا في الصحارى والبرارى فراراً من التتر، بعد استيلاء هولاكو على بغداد وانقراض العباسيين بها، وقد أقامهم خلفاء بمصر.

بلاد مصر والإخشيديين

جميعهم خمسة حكام، ومدة سلطنتهم ٣٥ سنة. في عهد هذه الدولة جلس ملك عظيم الشأن من الفاطميين على بلاد المغرب يدعى معز الدين "قاهرة" إلى عبد من عبيده السود الأحباش يدعى أزر، وسلّمه مبلغ عشرين ألف كيسّة، وأرسله إلى مصر يستأذن الإخشيديين في مصر في السماح له لبناء أثر له عظيم بها. ولما جاء العبد المملوك أزر إليها وأجيب طلبه شرع في بناء "جامع الأزهر" الذى صار سبباً في تدفق حشد من البنائين والحفّارين والعمّال من بلاد المغرب إلى مصر فملئوها عن آخرها. وبفضل إحسان "أزر الحبشى" إلى علماء مصر وإغداقه الإنعامات وإجرائه الصدقات على الناس من كل الطبقات، تمكن من ملء الجامع قبل أن يتم بناؤه بألاف من الطلاب والعلماء ومن ذوى الحاجات. وبينما الأمر يجرى على هذا المنوال إذا بأهل مصر يسمعون ذات يوم حينما أوشك الأزهر على الانتهاء من البناء أن معز الدين "قاهرة" قادم إلى مصر. وقيل أن يستعدوا للدفاع

عن مصر دخل معز الدين مصر وانتزعها من أيدي الإخشيديين ولم جامع الأزهر وصلى به. وقد سميت مصر القاهرة لأن فاتحها من المغرب هو معز الدين "القاهرة". عدد الملوك أربعة عشر، ومدة سلطنتهم مائتان واثنان وستون سنة.

المماليك البحرية (آل بنى البحرية)

عدهم ثمانية وعشرون. ودامت حكومتهم مائة وستًا وثلاثين سنة. هذا، ولما اغتال ممالك مصر الظاهر بالله بن الحافظ لدين الله من الفاطميين وأقامت عوضًا عنه أبا القاسم عيسى بن الحافظ لدين الله، وشاع خبر هذا الحادث في بغداد وبلغ ذلك مسامع المتقي بالله من الخلفاء العباسيين، ابتهج لذلك أيما ابتهاج، فبادر إلى تعيين أحد وزرائه - وهو الملك نور الدين محمود بن زنكى - حاكمًا للشام ومصر. ولقد قدم هذا الوالى بعساكر جرارة وفتحها ثم ذهب إلى الشام وحاصر قلعتها، ولكن حاكم الشام المدعو ناصر الدين طغتكين قد بالغ في الدفاع وأبلى بلاء حسنًا في القتال، ثم اضطر إلى التسليم بمن في القلعة صلحًا لنور الدين محمود وكان ذلك في سنة ٥٦٤ هـ = ١١٦٨ م.

الدولة الجركسية (دولة آل جراكسة)

أول ملوكها برقوق وآخرهم طومانباى. ومدة سلطنتهم ١٣٩ سنة. وجملة ملوكها ٢٥ نفرًا. وهؤلاء الجراكسة قد تخلفوا أولاً عن نجم الدين الصالح الذى كان له اثنا عشر ألف مملوك من الخيالة والفرسان. وفي رواية أخرى أن أصل هؤلاء المماليك هم أولئك المماليك والأرقاء الذين اغتتهم السلطان فرج من تيمور المحروم من البصيرة والنور، حيث عاد بهم إلى مصر محملين بالمال الكثير والرفيق الوفير، الجركسى والأباضى والكرخ والروس، وقد بقوا في مصر منذ عهد السلطان فرج.

فالسلاطين الذين حكموا مصر كما أوضحنا سابقًا مذكورون على الترتيب. وبعد هؤلاء الجراكسة جاء العثمانيون.

أول من ملك مصر من آل عثمان

هو السلطان سليم الأول، وسنذكر - إن شاء الله - في محله جميع وقائع غزوه مصر. هذا، ولقب ملوك مصر القدماء لفظ فرعون وجمعه فراعنة. ومنهم من كان يُلقب بـ "عزيز" ومنهم من يُدعى قباطة، وجمعه أقباط.

وبعد أن فتح السلطان سليم مصر أطلقوا عليه خادم الحرمين الشريفين وذلك بموجب الخطبتين اللتين أنشأهما كل من أحمد أفندي ابن كمال باشا وأبى السعود أفندي^(٢١١). كما أن السلطان سليمان "القانوني" حين افتتح المجر "انكروس" لقب بـ "صاحب قران زمان". وفي سنة ٩٢٩هـ = ١٥٢٢م حينما سيطر السلطان سليمان على جزيرة رودس من أيدي كفار مالطة أفضى ذلك إلى فتح سبعمئة وستين جزيرة أخرى في البحر الأبيض المتوسط، بادر أيضا كل من ابن كمال باشا وأبى السعود أفندي إلى نعت السلطان وتلقيبه بسلطان البرين وخاقان البحرين. وكذا أطلق علماء الروم لقب سيد العرب والعجم على السلطان سليمان القانوني حينما فتح بغداد الشيبية بالجنة. وكذا وصف هذا السلطان بعبارة فاتح المغرب حينما تم له فتح طنجة والجزائر وتونس وطرابلس من بلاد المغرب، وكذا وصف السلطان بفاتح المغرب والمشارك حينما أتم الطواشي سليمان باشا والي مصر - بإذن من السلطان سليمان القانوني - فتح سبعة أقاليم وسبعة بنادر في بلاد الهند. حقاً إن السلطان سليمان الذي

(٢١٢) أبو السعود أفندي: شيخ الإسلام أبو السعود أفندي (٨٩٦ - ٩٨٣هـ = ١٤٩٠ - ١٥٧٥م) محمد أبو السعود أفندي، هو شيخ الإسلام الرابع عشر في الدولة العثمانية. والده من علماء الدولة، والدته هي سلطان خاتون ابنة العالم على قوشجي. عرف أيضاً باسم خوجة جلبي. تلقى علوم عصره على أشهر علماء الدين والعلوم المثبتة. السلطان بايزيد هو الذي أطلق عليه لقب جلبي وهو مازال طائفاً وقد أحسن إليه براتب يومي مقداره ٣٠ آقجة، بدأ في سلك التدريس منذ سنة ١٥١٦م، واستمر بها حتى عين قاضياً لبورصة سنة ٩٣٩هـ = ١٥٢٣م. ثم نقل إلى قضاء إستانبول ثم عين قاضياً للمسكر، وبعدما قضى ما يزيد عن ثماني سنوات في هذه الوظيفة عين شهراً. له عدة مؤلفات، وله تفسير للقرآن الكريم يسمى "مزايا القرآن العظيم" ويطلق عليه سلطان المفسرين. كما أن له إلى جانب الفتاوى أشعاراً باللغات الإسلامية الثلاث العربية والتركية والفارسية. انظر للمترجم: "إستانبول عبق التاريخ روعة الحضارة"، دار الأفاق العربية، ١٩٩٩، ص ٦٦.

حكم البلاد ثمانية وأربعين عاماً قد أكثر من فتح البلاد والقلاع بالأقاليم السبعة من المعمورة وأضافها إلى ممالك آل عثمان رحمة الله عليه.

هذا، وكان آل عثمان في بادئ الأمر يلقبون هكذا: غازی عثمان بك، وأورخان بك، وييلدرم بك، ومراد بك...، إلى أن تولى الحكم أبو الفتح محمد الثاني "الفتح" فأطلق عليه علماء الروم لقب "ألو الأمر"؛ لأن أبا الفتح كان محباً للعلماء ومقدراً للفضلاء، فاستقدم جميع العلماء المتبحرين والمشايخ الفطاحل من الأقاليم السبعة وقربهم إليه وأخذ يقربهم منه ويجالسهم ويباحثهم إذ كان هو أيضاً من السلاطين العلماء العاملين، وأصحاب الكمال المجاهدين في سبيل الله. ولما كان جالساً على سرير ملكه كان يتحلى بزي العلماء فيضع على رأسه عمامة مثلهم، ويجلس مجلسه بالديوان السامي على نسق مجلس العلماء. ولم يكن قبله أحد من السلاطين يلبس زياً عرفياً هكذا سواء. وإن وصف تيجان الملوك السابقين وعمائمهم ليس في الإمكان الآن، ولكنه غير خاف على أهل الدراية وأصحاب الحب والهيام الواردين على مدينة بروسه.

عندما فتح السلطان أبو الفتح إسلامبول كان في معيته أثناء ذلك سبعون شخصاً من كبار أولياء بلاد العجم والعرب وخراسان والعراق؛ أمثال الولي آق شمس الدين وأنصار ده ده الولي الكوراني. ومن المجاذيب الولي، ومن العلماء الملا الكوراني وأمير بخاري و... وغيرهم من كبار العلماء. ومن هؤلاء العلماء من لقبوا السلطان بأبي الفتح محمد الثاني، ولكن علماء الروم اقتصروا على تلقيبه بالسلطان، وأما مشايخ العجم فإنهم لما شاهدوا مدى إحسان السلطان يوم الفتح وكيف يغدق النعم على الناس وكأنه ملك الإحسان، فقد بادروا إلى وصفه بلفظ "خنكار" خنكار. وقد جمع أبو الفتح محمد الثاني عساكر الإسلام في إسلامبول بعد الفتح في ميدان السهام "أوق ميداني"، وأقام لهم مأدبة فخمة وملأ طرف ثوبه خبزاً "خواناً" ووزعه على الغزاة المسلمين. و"خوان" يطلق في اللغة الفارسية على الخبز. وحيث إن السلطان قد وزع في ذلك اليوم المشهود خواناً فقد سماه علماء

العجم بلفظ "خوانكار". وفي رواية أخرى أنه في أثناء محاصرة السلطان لمدينة إسلامبول أنشأ جلالته مائتي سفينة من نوع الفرقاطة في المكان المسمى الآن لوند چفتلكي، وقد جرّها مفتوحة الأشرعة فوق الجلود المفروشة في ميدان السهام حتى حديقة ترسانة وأُنزلت إلى البحر، وذلك بواسطة عساكر "عزبان" ورأى القبطان "شاه قولي" فظلت هنالك هذه السفن على أتم الاستعداد مجهزة بكل التجهيزات من عدد ومعدات. ولا تزال آثار السحب والجر في ميدان السهام ظاهرة بادية، ولما رأى الملك الملقب بـ "تكفور" - وهو واقف في المكان المسمى الآن سراي تكفور - بداخل قلعة إسلامبول - أن سفناً تمشي على الأرض وهي مفتوحة الأشرعة ساورة القلق وتسرب إلى نفسه اليأس من نجاة القسطنطينية من العدو. لأنه كان قد قرأ في كتبهم، بقوة علم النجوم، أن [محمداً معمم بعمامة القضاة من قوم محمد وملته سوف يأتي إلى القسطنطينية على رأسه عمامة قاض، وهو راكب بغلة وبساطه من السيور والقايش، وثيابه من الصوف وحذاؤه باللون السماوي الأزرق، وأنه سيجري السفن على الأرض وسيتمكن من الاستيلاء على القسطنطينية] وهذه العبارات مسطورة في العمود المربع المنصوب في ميدان السباق "أت ميداني" وهي ظاهرة لمن يمعن النظر فيها.

هذا، ولما شاهد الكفار ورأوا أن السفن تجرى من البر إلى البحر اتجهوا إلى البحث عن تدبير يجنبهم الورطة التي وقعوا فيها. وإذا هم يرون في الأفق أن نجدة قادمة إليهم بإذن الله وهي ظهور اثنتي عشرة قطعة من سفن "الغليون" أمام القرن الذهبي أمام "سراي بورني" مرسلّة من قبل كفار فرنسا. وهكذا كان الكفار جميعاً مطمئنين لناحية البحر منهمكين كلهم في القتال في الجهات البرية، وكان الملك تكفور حينذاك في سراي تكفور في "اكرى قيو"، فلم يكن يتصور أحد قدوم أو ظيهور شيء في جانب البحر أو أن يطير طائر في السماء في تلك الجهة. لأن ألف مدفع من "مدافع باليمز" كانت موضوعة في "سراي بورني" ومائة مدفع في "قيز كله سي" وخمسمائة مدفع في الطوبخانة القديمة التي يقال لها الآن "كراج قپوسي" في حي غلطة.

ولقد رأيت وأنا صغير تلك المدافع موجودة في كراج قهوسى تطلق في أيام العيدين ابتهاجا وفرحا. ولما عين السلطان مراد الرابع حافظ أحمد باشا على بغداد ونصبه قائدا عاما لحمايتها، صيرت تلك المدافع وصبت منها مدافع صغيرة من نوع "بالميز" وأرسلت بالسفن إلى الإسكندرية ومنها إلى قلعة "بيره جك" "البيرة" في مدة ثلاثة أيام، حيث أرسلت منيا إلى بغداد بمراكب تسمى "كلك طوف" في نهر مراد.

ونقول إن مضايق الذهبى المثلثة (ساج آباغى) (سراى بورنى) هذه كلها كانت محصنة ومجهزة بمدافع "بالميز" بالجياره؛ فلذا لم يكن يعترهم أى خوف ولا قلق على أنفسهم، وقد تقدمت السفن القادمة بنجدة لهم بلا وجل إلى ميناء البطريكخانه المسمى "فنار قهوسى"، وأطلقوا وإبلا من نيران البنادق وبضع طلقات من المدافع ابتهاجا بسلامة الوصول ثم ألقوا المراسى، وأخذ بعضهم ينزل إلى البر.

وبينما هم كذلك وإذا بسفن السلطان محمد من الفرقاطات البالغ عددها مائتين تتجه إلى الميدان بقيادة الرئيس "شاه قولى" كالصاعقة وتتقض على سفن الكفار وتستولى عليها جميعا دون أن تترك لها الفرصة لأن تطلق طلقة واحدة. وحينما تمت السيطرة على تلك السفن البالغ عددها اثنتى عشرة سفينة، وأخذ يجرها ويسحبها إلى حديقة الترسانة، كان من فيها من كفار فرنسا يصيحون بلغتهم الخاصة بقولهم : Ki Perlar Sinyor Ki Perlar "كى پرلار سينوركى پرلار"^(٢١٣) فيجيب عسكرينا: "نحن لا نقسمها بل نأخذها كلها ونقوم بتشغيلكم فى أعمال التجديف وفى التشهير بكم فى البلاد سائحين فيها معكم لنأخذ الكفار كلهم من نواصبيهم ونوقعهم فى ذلك الأسر". ومما لا شك فيه أن هذا الحادث المفاجئ قد فت فى عضد الكفار وأوقعهم فى حيرة.

وما إن علم السلطان نبأ الفتح المبين والانتصار الباهر - وقد كان يجاهد فى باب أدرنة - حتى بادر إلى الركوب من مرفأ يادود زورقا وجاء إلى حديقة

(٢١٣) المعنى المقصود هو أن جنود الفرنجة يطلبون اقتسامها فيرد عليهم الجنود العثمانيون بأنهم لن يقسموها.

الترسانة، حيث شاهد فيها اثنتى عشرة قطعة من السفن الضخمة تبدو كالكتل السوداء من الجنوع والأورمة الجهنمية، مليئة بالغنائم والأسلاب، فأخذ منها العشر الشرعى حسب الأصول، ووزع الباقي منها على المجاهدين الذين قاموا بالغزو والهجوم.

وقد كانت إحدى تلك السفن تحمل بنت ملك فرنسا وهى بارعة الجمال كأنها الشمس يبهر سناها العيون، وكانت مخطوبة لملك إستانبول الملقب بتكفور، وقد كان هؤلاء الكفار قد هاجموا بلاد الإسلام ليأخذوا منها جوارى خاصة لهذه العروسة العظيمة والدرة اليتيمة، وقد أغاروا على بلاد عكا وغزة والرملة وأسروا منها زهاء ألف بنت من بنات الأمة المحمدية وهن كالأقمار والشموس. وكانت هذه الجوارى الأسيرات أيضا موجودات بين تلك الغنائم حيث سلمهن السلطان لأمانة الشيخ آق شمس الدين، وذهب هو بنفسه لمتابعة حصار القلعة وإتمام فتحها. وقد تم ذلك بإذن الله وأمره الكريم فى اليوم الذى عيَّنه وحدده بالضبط الشيخ آق شمس الدين من شهر تموز "يوليو" فى سنة ٨٨٥٧ = ١٤٥٣ م. وقد وقع لفظ "آخرون" تاريخاً لذلك حيث إنه يساويه بحساب الجمل.

ولما فرغ السلطان محمد من فتح القسطنطينية عقد قرانه على بنت ملك فرنسا، وأمر بالأقراخ العظيمة وتوزيع الصدقات وبذل الخلع، بعد أن دعا له الشيخ آق شمس الدين بالبركات، قائلاً له: "إنى لأرجو منك أن تقوم بواجبات السلطنة والحكم كما ينبغى، وأن تفرق الخبز وتوزع الخيرات والإحسانات على الغزاة المؤمنين الذين شاركوك فى شرف فتح إسلامبول حتى يكون إطلاق لفظ "خوانكار" عليك صحيحاً وجديراً". فما كان من السلطان محمد الفاتح إلا أن أنعم بالإقطاعات الكثيرة، والتي بها تبمارات وزعامات على جميع الغزاة المسلمين، وبذلك تلقب بخنكار "المنعم والمحسن". وجرياً على عادة تلقيب السلاطين بالألقاب فقد أصبح سلاطين آل عثمان يلقبون بلقب غازى، وخادم الحرمين، وسلطان البر والبحر،

وسيد العرب والعجم، وصاحب قران "المسعود" الشرق والغرب. هذا هو سبب تسميتهم بلفظ "خُنْكار"، والسلام.

هذا، وإن عربان مصر يصيحون بقولهم "الله ينصر السلطان سليم" حينما فتح مصر. وأما العجم فيطلقون على آل عثمان عبارة "شاه بلاد قيصر" كما يقولون لشاههم "شاه بلاد إيران" ويطلق على أمير الحج بمصر لقب سلطان البر، وإنه لجدير بأن يطلق عليه لقب السلطان؛ لأن إعانة جيش آل عثمان لقافلة الحجاج المسلمين خدمة كبيرة وعظيمة. كما أن هناك من بدو البيداء بعض أصحاب البيوتات الشريفة نزلنا عليهم ضيوفاً في أكثر سياحاتنا وعديد رحلاتنا. ويطلق العربان على هؤلاء الرؤساء أيضاً لفظ سلطان البر. بينما عربان بر الشام وسكان باديتهم يطلقون على من صحرهم هذه الألفاظ: آل بني رشيد وآل بني عمر وآل رباح وآل بني زهد، وكذا يقولون نظام الدولة وكافل مصر ووالى مصر، كما أن رجال شرطة مصر "صوباشية" يختارون من بين رجال فرقة "المتفرقة" فيلقب رئيس شرطة مصر أيضاً بعبارة والى مصر؛ لأن وظيفة الصوباشية "الشرطة" قديمة جاءت إلينا من عهد الفراعنة، إذ الفرعونية أيضاً ناشئة من الصوباشية^(٢١٤) وذلك أن أحداً من الصوباشية عثر ليلة من الليالى بملك عصره طائفاً متكرراً فقبض عليه فى سوق الصليبية فوراً، ونادى بنفسه سلطاناً وفرعوناً مستقلاً هاتفاً بقوله "أنا ربكم الأعلى"، ثم مرت الدهور والشهور فلم يبق بعدها أثر لوظيفة الصوباشية قط، حتى إن سيدنا الإمام الشافعى حينما قدم إلى مصر لم يكن بها "صوباشى".

(٢١٤) الصوباشية: أمين البلدية أى مدير الأمن؛ اصطلاح إدارى عثمانى كان يُطلق على كبار موظفى الإدارة فى المراكز والقصبات فى العهد العثمانى. وكانت أعمالهم تشبه أعمال الضبطية الإدارية فى عصرنا الحالى. وكان عثمان خان - مؤسس الدولة العثمانية - أول من أسند هذا المنصب إلى أخيه. كما أسند أعمال الحكومة إلى ابنه أورخان بك، وذلك بعد فتح قره حصار. (عاشق باشا زادة تاريخى ص ٢٠) كما قام السلطان محمد الفاتح بتعيين "سليمان بك" صوباشا بك على إستانبول بعد فتحها، وفوضه فى أمر تعميرها وإعمارها. [تاج التواريخ ج ١ ص ٤٤٧].

حكاية غريبة

عندما جاء الإمام الشافعي من بغداد إلى مصر ووطئت قدماء أرضها واستقر بها، أغار اللصوص على بيته وسلبوه جميع تأليفه وثمرات اجتياده التي كانت مدونة في أوراق كثيرة غير منظمة تقدر بالأحمال ومئات المجلدات. فتألم الإمام كل التألم لما أصابه من ضياع تلك الكتب والتصانيف التي أفنى عمره في تأليفها وجمعها، ولذا هرع إلى مقر السلطان "محمد أكراد" وطلب منه أن ينصب فوراً من رجاله رجلاً شديداً في وظيفة الصوباشية ليقوم بالمحافظة على الأمن. فأجاب السلطان طلبه وعين رجلاً شديداً البأس في وظيفة الشرطة، وإذا به رجل حازم عارف بخفايا مصر ملم بأمورها فقد عمد أول ما عمد إلى إقامة حفلة مولد^(٢١٥) في منزله في ليلة من الليالي، ودعا إليها جميع علماء مصر .

(٢١٥) حفلة مولد: المولد النبوي الشريف: عرف الأدب التركي نوعاً من الشعر الديني عرف بـ "المولد"، وهي مدائح نبوية. وأهم هذه الأعمال هو "وسيلة النجاة" لـ سليمان جلبلي (١٨٢٥ هـ = ١٤٢٢ م)، الذي نجح في التعبير عن عواطفه الدينية بطريقة صادقة، أقتنع بها الطبقات المتقفة جنباً إلى جنب مع الطبقات الشعبية.

وقد استخدم المولد للدلالة على تلك القصائد التي تتشدد بمناسبة المولد النبوي الشريف، وما يصاحب الذكرى من ابتهالات دينية. وقد اختلفت الآراء الدينية حول الاحتفال بالمولد، فمن يقول إنها بدعة، ومن قائل إن الإثراء وقراءة القصائد الدينية ليس بدعة، وإنما البدعة هو ما يصاحب ذلك من طبل وطرق للنفوف وما شابه ذلك، ومن قائل إنها بدعة حسنة وأن العرب هم أول من احتفلوا بمولد النبي صلى الله عليه وسلم عن زيارة المنزل الذي ولد فيه يوم ميلاده. وأقام الفاطميون الاحتفالات الباهرة في مصر، ثم انتشرت حتى شملت العالم الإسلامي. وبدأ الاحتفال بالمولد النبوي في الدولة العثمانية يأخذ شكلاً رسمياً، منذ عهد مراد الثالث (٩٨٢ - ١٠٠٣ هـ = ١٥٧٤ - ١٥٩٥ م). وأنه قد أخذ مكاناً في تشريفات السلطان منذ سنة ٩٩٦ هـ، وما زال ينشد إلى يومنا هذا في تركيا في مناسبات كثيرة خاصة مولد سليمان جلبلي. انظر: (د. نجلا بك لولجاي إسلامي تورك، أنيباتلي، إستانبول سنة ١٩٦٦ م ١٤٠١ - ١٥٣).

ومولد سليمان جلبلي هذا كتابه ألفه مؤلفه وهو في السنتين من عمره، حين كان يعمل إماماً في مسجد بورصة في عهد بايزيد الثاني (٨٥١ - ٩١٨ هـ = ١٤٤٦ - ١٥١٣ م) رغبة منه في إظهار فضائل الرسول محمد ﷺ، ومكانته بين الرسل. وعدد النسخ الموجودة في مكتبات إستانبول وحدها إحدى وخمسون نسخة لموالد مختلفة. وأرجح الآراء حول عدد أبيات هذه القصيدة هي أنها ٣١٧ بيتاً.

وفي أثناء السمر وتجاذب أطراف الحديث فى شتى الموضوعات قال الصوباشى: "يا مشايخ، هلا سمعتم أن الإمام الشافعى تكرم على وتسبب فى تعيينى صوباشيا لمصر. وهذا حسن، ولكنه الآن بطالبنى بأن أرشوه وأعطيه العطايا مقابل عمله ذلك، فهل هذا جائز فى المذهب الشافعى؟ فأنتم علماء مصر هل تقبلون أن يلحق بنا هذا الظلم؟" فما كان من هؤلاء العلماء الذين كانوا يكونون الحق والحسد للإمام الشافعى، لأنه صار صاحب مذهب مستقل، إلا قالوا جميعا: يا أيها السوالى إياك أن تعطيه فلسا واحدا فإننا غير معترفين بمذهبه، فالمذهب القديم لصاحب التفسير الجريرى "جريز"، وأما كتبه الحديثة غيرها كلها فقد سرقناها منه وسنحرقها بعد بضعة أيام كلها بالنار ثم نرجمه هو أو نبعده إلى السودان.

وقد تلقى الصوباشى هذا الخبر الخطير بكل هدوء ولباقة، وقال: "أيها النقباء والأساتذة الفضلاء أكمّلوا تلاوة المولد فستأخذون صرركم وعطاياكم كاملة مستوفية". قال هذا وانصرف هو بحجة القيام بطواف فى المدينة وذهب إلى قصر السلطان "محمد أكراد" رأسا ورفع إلى مسامعه ما سمعه من هؤلاء العلماء كلمة كلمة من غير زيادة ولا نقصان، فما كان من السلطان إلا أن ركب جواده وذهب بنفسه مع الصوباشى إلى مجتمع العلماء فى بيت الصوباشى، وكبس عليهم وضرب نطاق الحصار عليهم وحبسهم هناك حتى تم تقفّيش بيوتهم، فوجد بها جميع أموال وأوراق الإمام الشافعى المسروقة. وانعقد الديوان السلطانى فى صباح اليوم التالى وصدر عنه تفويض تام من السلطان وبإذن الإمام الشافعى وموافقته إلى الصوباشى باتخاذ ما يلزم نحو مجازاة هؤلاء العلماء السارقين، وعلى هذا قتل الصوباشى مائتى عالم من الذين خالفوا الشافعى ولم يبايعوه على إمامته وارتكبوا جريمة

وأهم المباحث التى تتناولتها القصيدة توحيد الباري والتمسك الدعاء، وبيان خلق العالم، وبيان فطرة العالم، وروح محمد، وبيان ظهور النبي محمد، وبيان معجزاته صلى الله عليه وسلم ومعراج النبي، وهجرة النبي من مكة إلى المدينة، وبيان ما يجب أن تكون عليه أمة محمد، ثم بيان بالنصح والإرشاد. انظر: (د. الصمصامى أحمد القظورى.. ود. إبريس نصر، دراسات فى الشعر التركى، القاهرة، ١٩٧٨م، موك سليمان شلبى، ص ٥٣/٣٥).

التشيع، وعامل مائتين آخرين بالصفح والمغفرة لقبولهم التوبة عما بدر منهم فى حقه، وتعهدهم بالعمل بمذهبه كما يريد. وهكذا ظهرت كتب الإمام الشافعى للعيسان وراج مذهبه بمصر منذ ذلك الزمان.

هذا، ولا يزال يقوم الصوباشى كل صباح فى مصر بالأمر، ومعه ثلاثمائة قواص حاملين النبايى فى أيديهم واثنى عشر جلاداً يفتحون له باب الشرطة فى حضور جميع أتباعه وجنوده، ويرفع الجميع أيديهم إلى السماء داعين الله تعالى بقولهم: "اللهم ارحم قدوتنا وباعث رفعتنا سيدنا الإمام الشافعى" ثم ينتشرون فى الأرض ويلجون الأزقة والشوارع متجسسين وباحثين عن اللصوص والسارقين والنشالين.

فيلقون القبض عليهم أينما كانوا، إذ إن جميع أولاد الزنا من لصوص مصر وأهل الفساد منهم مسجلون ومقيدون فى دفتر الصوباشى الجبار. وإذا كان الصوباشى حاملاً تقويضاً مطلقاً فإنه يسمى "والى الولاية"، ويباهه الأشقياء على اختلاف ألوانهم ومشاربهم لأنه يقدم على قتل من يشبهه فى أمرهم فوراً سواء أكان مذنباً أم غير مذنب، وذلك بمجرد المرور أو العثور عليهم إذا كانوا متلبسين بأوضاع غير مقبولة.

إلا أنه يقال لا يمكن ضبط فلاحى مصر "أهل مصر" إلا بهذه الطريقة، فالأمن لا يتوطد والنفوس لا تصلح إلا بها. ولا سيما أن بين هؤلاء الأشقياء والعاثين بالأمن من يتواطأ مع من هم على زى العلماء والمشايخ ذوى العيون المكحلة وحمة المسابح والمساويك من الوعاظ والناصحين فى الجوامع والزوايا.

وصفوة القول إن علماء مصر قد يرتكبون أنواع الأعمال غير المشروعة، فمنها أنهم يبيعون وقفاً من أوقاف الله باسم الإجارة الطويلة إلى الغير لمدة تسعين سنة، فيتبادلونه نسله بطناً بعد بطن بالوراثة كالملك تماماً، وعلى هذا المنوال قد وضعوا أيديهم على مئات من الأوقاف كدور القراءة والحديث، والمدارس،

فجعلوها بيوتًا ومنازل لهم؛ فلهذه الأسباب لا بد لمصر من حاكم حازم جبار شديد البطش. ومع ذلك فإنهم يثرون ضد نفوذ الحكومة دائمًا، والأمر الآن لصاحب الملك والأرض فقط.

الفصل الحادى عشر

بيان الثمانية والأربعين سلطانًا وملكًا من حكام جزيرة مصر^(٢١٦)

ليكن معلومًا لرحالة بلاد الروم "الترك" أن البارى تعالى قد خلق فى الربع المسكون من الأرض الأقيانوسات والمحيطات والبحر المتوسط وما فيها من منات الألوف من الجزر الأهلة بالسكان من بنى آدم، والعلم عند الله. غير أن الله سبحانه وتعالى قد خلق فى بحر الهند والصين والسند اثنتى عشرة جزيرة. وحيث إن كاتب هذه السطور الفقير لم يتيسر له السفر إلى جانب الهند فقد امتنع عن الكتابة عن تلك الجهات.

هذا، وإن سبعمائة وستين جزيرة - ما بين صغيرة وكبيرة فى البحر المتوسط - تخضع لحكم آل عثمان، فمثلًا جزيرة القرم فى البحر الأسود وجزيرة قبرص وكريت المفتوحة حديثًا، كل واحدة منها تبلغ مساحتها سبعمائة وستين أو سبعين ميلًا على قول الميندس بطليموس وقول بادار "أوكولون" فاتح الدنيا الجديدة، وكذا جزر مدلى، ولمنى، وسافز، واستانكوى، ورودس، كلها تحت حكم آل عثمان، وهى جزائر ذات خصب وحدائق غناء، يبلغ مسطح كل واحدة ثلاثمائة أو أربعمائة ميل. وفى البحر المتوسط أيضًا جزيرة تدعى "مسينا" مسطحها يبلغ سبعمائة ميل فى غاية العمار والخصوبة؛ لم يدخلها من يوم إعمارها أحد من الغزاة

(٢١٦) يطلق المؤلف على مصر "جزيرة مصر" ذلك لأن طوطيس أحد قباطة مصر، الذى كان محبًا لسيدنا إبراهيم، أجرى نهر النيل من عند بنى سيف إلى بحر السويس لتمكين السفن من نقل الغلال من صعيد مصر إلى مكة، فصارت مصر جزيرة، وكان الرحالة يطلقون عليها "جزيرة مصر". انظر ذلك فى الجزء الخاص [بعد الفراغ من الحج].

والمعتدين، وهى خاضعة الآن للإسبان ومملكتيم مثل جزيرتى ميورقة ومينورقة اللتين يبلغ مسطح كل واحدة منها سبعمائة ميل أيضاً، وهما من الخصوبة والعمران على جانب عظيم. وهناك فى البحر المتوسط جزيرة كورسيكا على مقربة من بلاد الجزائر يبلغ مسطحها سبعمائة ميل، على جانب عظيم من الخصوبة واتساع العمران، وتخضع تارة للإسبان وأخرى للبرتغال وهى الآن فى حكم الإسبان.

وإذا خرجت أيها القارئ من مضيق سبتة "جبل طارق" وتوغلت فى المحيط مسافة ألفى ميل إلى الغرب تصل إلى جزيرة الإنجليز، وهى جزيرة يبلغ مسطحها العام ثمانية آلاف ميل وتقع فى الإقليمين الرابع والخامس، وتقع عاصمة الملوك الإنجليز المسماة إنجلترا "لوندرا" الواقعة على نهر "لوندرا" فى تلك الجزيرة الكبيرة، وهى مدينة عظيمة جداً، وهناك غيرها من المدن فى غاية العمران يبلغ عددها سبعمائة مدينة كما يذكرها الرحالة الروم "الترك" حسبما هو مشهور فى أنحاء العالم، وهناك جزيرتان أخريان فى المحيط تدعى إحداهما برنده والأخرى؟! يبلغ مسطح كل واحدة منهما ألف ميل، وهما خاضعتان دائماً لحكم الإنجليز ولكنهما ليستا عامرتين أهلتين بالسكان كجزيرة إنجلترا.

وصف الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة مصر

هى أرض القاهرة المعزية وهى جزيرة أكبر من جزيرة الإنجليز. ولقد قام جميع المهندسين والحكماء الأقدمين من كل الملل بالطواف حولها ألف مرة فى البر والبحر، وسجلوا طول النهار وعرض البلد وحالة الجو والمناخ، فوجدوا أنها جزيرة يبلغ مسطحها العام ثمانية عشر ألف ميل، وأن شكلها مربع وجانبها الشمالى المتجه إلى النجم هو البحر الأبيض المتوسط الذى يبتدىئ من مضيق سبتة حتى بحر العريش، حيث يبلغ طول السواحل فى تلك المسافة ألفى ميل، وتحتوى على بلاد سبتة، وطنجة، والجزائر، وتونس، وطرابلس، وجربة، وكريت، وبنى هلال وقصى

في الصحراء ثلاثة أشهر حتى وصل إلى الإسكندرية ورشيد ودمياط (هكذا!)، والإسكندرية (بعد مرور الصحراء في الصحراء لثلاثة أشهر) ودمياط، وقلعة التينة، والعريش، وبعد مسيرة يومين في طريق برى لا بحرى يأتى بحر السويس.

هذا، ولقد ذكرنا أن السلف من الملوك كانوا قد قطعوا هذه الأرض وحفروها بحيث صارت مصر جزيرة. وإذا سرت في ساحل البحر السويسى تأتى أرض الصعيد الأعلى وبها من المدن والبنادر كثير. كما أن في الساحل الشمالى لبحر السويس المتجه إلى النجم مقابل الساحل السابق الذكر في أرض الكعبة "الحجاز"... قلاع المويح، وبنبع، وجدة وأراضيا. وفي الجانب المقابل لهذا أيضاً حيث جزيرة مصر توجد أرض الحبشة التى توجد بساحلها المطل على بحر السويس بنادر بُرغا، وقصيرة، وريدة، وأبريش، وآجون، ودنقلا، وبندرات، ومدينة سواكن التى هى مركز باشا الحبشة، وبندر مدينة قف، ثم جزيرة دهلك، ثم جزيرة قلعة مصوع، ثم قلعة خارق أوا، ثم بندر زولة Zule، ثم قلعة هندية، ثم بندر توزلة، ثم بندر بهلولة، ثم بندر مدينة زيلع؛ حيث المسافة من ميناء السويس إلى هذا المحل تبلغ ألفى ميل. فيده البنادر والمدن الواقعة في ساحل بحر القلزم^(٢١٧) - أعنى بحر السويس - مدن عامرة محسوبة أيضاً من جزيرة مصر.

هذا، والأراضى الواقعة وراء ذلك مبتدئة من البحر المحيط حيث مضيق زيلع المعداد من جزيرة مصر مارة بمنبع نهر النيل حتى مضيق سبتة، يبلغ طول مسافتها أربعة عشر ألف ميل، وهى تحتوى على بنادر ومدن عامرة كلها تخضع لملك البرتغال وليس لأحد غيره سلطة عليها. لأن هذا الملك قد تمكن من الإحاطة بالأربعين حاكماً الذين هم في جزيرة مصر من الجيات الثلاث. ولقد كانت مصر جزيرة عظيمة وكبيرة جداً بحيث كان خط الاستواء واقعاً في الشلال الكائن على مسافة عشرين منزلاً ومرحلة من بلاد مصر، فإن كاتب هذه السطور حينما كان بها كان الليل متماوياً مع النهار بربع الدائرة.

(٢١٧) المقصود هنا ببحر القلزم البحر الأحمر.

فالإقليم الأول والثانى واقعان فى جزيرة مصر، كما أن أول الأقاليم - بعدهما - الثالث يحوى مدن إسكندرية، ورشيد، ودمياط، وقلعة التينة؛ فهى لذلك جزيرة واسعة الأرجاء وعديدة الأقطار، يشقها النيل المبارك من الوسط حيث يأتى من الحية الجنوبية نابعا من جبل القمر الكائن فى صحارى وبرارى قاحلة مليئة بالحيوانات السامة والزواحف، لا يقطعها المرء بالسفر فى أقل من سبعة شهور، فيصب فى بحيرة متكونة من النيل نفسه الذى يأخذ بعده فى قطع مسافة الطريق التى تبلغ مدة سبعة أشهر حتى يصل فرع منه إلى رشيد ويصل الآخر، وهو الأصل، إلى دمياط، ويطلق عليه حين يلتقى - وكأنه البحر - بالبحر الأبيض "مرج البحرين" إذ النيل يحلى الماء الأجاج فى البحر لمسافة ثلاثمائة ميل، ويجعلها حمراء بحيث إن ركاب السفن القادمة من الروم إلى مصر حينما يريدون التحقق من اقترابهم لمياه مصر يعمدون إلى شرب ماء البحر؛ فإذا وجدوه سائغا لذيذا تيقنوا أنهم على مسافة مائتى أو ثلاثمائة ميل من رشيد أو دمياط، وإذا كانت السماء صحوا والنهار منيرا فيرون لون البحر أحمر من ماء النيل فيحمدون الله على ذلك ويضحون فى سبيله الأضاحى والقرايين.

هذا، وفرع آخر من النيل يجرى نحو السودان الواقع غربى جزيرة مصر. ويقال إن فرعا آخر منه كان يصب فى البحر الأبيض مارا ببلاد بنى هلال الواقعة فى المغرب، تجاه جزيرة كريت، وما زالت مجارى ووديان هذه الفروع ظاهرة للعيان، حتى جاء سيف ذو اليزن وقطع مضيق الشلالات، وجرى النيل كله إلى مصر وانقطع عن الجرى إلى بلاد بنى هلال التى أملت بعد ذلك وصارت قاحلة. كما أن فرعا من النيل - بعد أن ينبع من جبل القمر - يجرى إلى ولاية السودان الواقعة فى الغرب ويصب فى البحر المحيط.

وفى بلاد مصر مئات وألوف من الترع المنقرعة من النيل، إلا أنها ليست أصيلة بل اصطناعية؛ حيث تجرى فيها المياه عند طغيان النيل، وسنذكر إن شاء الله الترع بالتفاصيل فى محليا. وهناك أرض خالية تقدر بأراضى إقليم تقع بعد خط الاستواء جنوبى جزيرة مصر، لم يطلق عليها اسم إقليم ما لعدم توطن الإنسان

ففيها لشدة الحر وكثرة الزواحف السامة بها، ولقد نقل لي محمد إدريس في بلاد
الفونج أن تلك الأراضي يسكنها ويمكها الآن البرتغاليون الجدد.

وبلاد مصر هذه جزيرة يحكم أكثر من نصفها سلاطين آل عثمان، وعلاوة
على سياحتي في هذا القسم من هذه الجزيرة الكبيرة، فإني قد ارتدت البلاد الجنوبية
أيضا، وها أنا أذكر أوصاف مدنها وسلاطينها أصحاب الخطبة والسكة، وغيرهم
من الملوك مع ألقابهم، فأولاً:

سلاطين شرفاء آل الأدارسة

ظہرت دولتهم في بلاد المغرب وعدد حكامها خمسة. ولما كان أولهم يدعى
إدريس فقد تسموا جميعاً بالأدارسة. يصل نسبهم إلى سيدنا علي [كرم الله وجهه]،
وكلهم حسنيون، ومدة خلافتهم (...) سنة.

سلاطين آل حمود

ظہرت دولتهم في الأندلس وعدد حكامها ١٣ نفراً. أوليم الناصر لدين الله
وثانيهم المؤمن بالله وهكذا ليم مثل هذه الأسماء، ومدة دولتهم ٤٢ سنة.

سلاطين الموحدين

قامت دولتهم في بلاد المغرب وجزيرة الأندلس. عدد ملوكها ثلاثة عشر،
وابتداء ظهورهم ونشأتهم من الشام. مدة دولتهم ١٤٤ سنة.

سلاطين آل طاش

قامت مملكتهم في فاس ومكناس، عدد سلاطينها سبعة، ومدتهم (...) سنة،
ويطلق على هؤلاء أيضاً لقب الملك.

سلاطين آل المثلثين

قامت دولتهم في بلاد المغرب والأندلس، وعدد ملوكها ستة. وكانوا على العموم ملوك جزيرة مصر ما عدا إقليم الحبشة. وأصل هؤلاء الملوك من بلاد اليمن من قبيلة حمير الذين حضروا في غزوة الشام في عهد الخليفة عمر. ثم التحقوا جميعًا بعد فتح الشام بجيش عمرو بن العاص، ووفدوا معه إلى مصر حيث استمروا في معيته هنالك، وصاروا من أتباعه وأنصاره حتى عيّن رئيسهم حاكمًا على بلاد أوجلة.

وعندما جردت حملة عسكرية قوامها خمسون ألفًا من الجنود من مصر إلى طنجة بلاد المغرب حيث كان كفارها قد طغوا وبغوا، وكانت الحملة بقيادة موسى بن نصير، وكان المثلثون قد أرفقوا أيضًا بحاكم أوجلة هذا. ذهببت الحملة وحاصرت قلعة طنجة حتى انتزعتها بحد السيف. وقد استوطن المثلثون هذه القلعة ولبثوا بها وتناسلوا حتى صاروا خلفاءها، فخلافتهم الآن جاءت من هذه الناحية. ومدة سلطنتهم مائة وخمس عشرة سنة.

سلاطين شرفاء آل كامل

قامت مملكتهم في المغرب وفاس ومراكش "مراكش"، وعددهم سبعة، يطلق عليهم لقب "شرفاء الكاملية"؛ إذ كانت أسماؤهم هكذا: ناصر الدين الكامل وسليمان الكامل. ولقد زحف منهم سبوع الكامل إلى مصر بجيوش جرارة كالبحار المتلاطمة؛ فلما اقتربوا من مصر ودخلوا بلدة منها تدعى "حوش عيسى"، وهي لا تزال موجودة في أرض البحيرة، هلكوا جميعًا بريح صرصر عاتية أغرقتهم في بحر من الرمل الكثير. وهكذا انتهت أيام شرفاء الكاملية هؤلاء بانقضاء أيام هذا الملك المسمى بـ سبوع الكامل. فجاء الكمال مؤذنًا بالنهاية المحتومة.

سلاطين بنى مرين (سلاطين آل بنى مرين)

وهم من ملوك فاس ومراكش "مراكش". وعدد ملوكهم سبعة عشر، فبعدما حكموا مائتين وثمانين سنة انتقلت دولتهم بكل مذلة ومسكنة إلى الغير. بيد أنهم

كانوا شجعاناً وأبطالاً إذ أخضعوا الإسبان والبرتغال لأمرهم، بفضل إغارتهم الشعواء بألف قطعة من السفن عليهم وإطلاق يد النهب والسلب فيهم.

دولة بنى الأغلب

قامت دولتهم في إفريقيا. وعدد ملوكها عشرة يسمون "الأغلبيون"، كانوا دائماً في نضال وقتال مع الإسبان. مدة حكمهم ١١٢ سنة. ولا يزالون مضرب المثل. فإذا تكلم أحد باستعلاء قيل له: أمن بنى الأغلب أنت؟... إذ كان عشرة منهم - بإذن الله وحكمته - يغلبون أضعافهم من أعدائهم أينما كانوا وأينما توجهوا.

دولة بنى كلب في جزيرة صقلية

عدد ملوكها تسعة. وتحتصر مهارتهم في الانتقام من الأعداء بفضل سفنهم القوية، مدة سلطنتهم ١٢٨ سنة.

دولة آل باديس (من بنى حماد)

قامت دولتهم في ولاية إفريقيا، وعدد ملوكها ثمانية، ومدة سلطنتهم (...) سنة.

دولة بنى حفص (حفظ)

قامت في ولاية تونس وإفريقية. وعدد ملوكها اثنان وعشرون. في سنة ١٠٣ هـ فتح هذه الديار عبد المؤمن الأموي بتجريد ألف قطعة من السفن عليها. وقد ترك بنو حفص هذا حاكماً فزادت شوكتهم وعلا قدرهم يوماً فيوماً؛ حتى صاروا خلفاء. لقبت ذريتهم وسلالتهم بآل بنى حفص، نسبة إلى بنت سيدنا عمر المسماة حفصة [رضي الله عنها].

دولة سلاطين فاس

في بلاد المغرب بلدة عظيمة تدعى "فاس"، ولما كانت عاصمة سلاطينها فقد اشتهر ملوكها بسلاطين فاس. ودولتهم قائمة من يوم عهد العباسيين. وأسماء ملوكها هكذا: هارون فاس، منصور فاس... ويمتد سواد بلادهم حتى شواطئ

البحر المحيط، بيد أن البرتغال يغيرون عليهم ويستولون على قلاعهم أحيانا لأنهم مشاعون ومشتركون مع هؤلاء الإفرنج من البرتغال.

دولة سلاطين مراكش (مراكش) العظام^(٢١٨)

لا يوجد أقدم من هذه الدولة من الدول التي قامت في جزيرة مصر، تسيطر على ألف من العساكر كلهم مالكية، فلم تتعرض دولتهم إلى الغزو والتعدى من أية جهة. ولقد وهب الله بلاد مراكش وبلاد الهند المال الكثير الذي يربو على مال قارون. هذا، ويطلق على ملوكها اسم السلطان، ويقال إن وجوه سكانها بيض تلمع ونضوى كالنور. ولكنى لم أرهم ولم أجتمع بهم فلم يتيسر لى السفر إلى بلادهم. وهذه الدولة أيضا مجاورة للبرتغال وتقع فى جنوب بلادهم.

دولة سلاطين السودان

يطلق على ملوكها بدل السلطان لفظ "سودان"، هكذا: سودان محمد، سودان عبدالله، سودان على. هؤلاء وكثير غيرهم من الناس يعتقدون جميعا مذهب الإمام مالك، ولا يتم الاعتراف بخلافة أحد منهم حينما تنتقل من واحد إلى آخر إلا إذا اتفقوا على اختيار واحد منهم، فدولتهم الحالية قائمة بالحكم منذ سبعمائة سنة. ولها عسكر لا يحصى ولا يعد، وقلاع حصينة يبلغ عددها سبعمائة. رجالها فى غاية الشجاعة والبسالة يحاربون البرتغال دائما. وقد اختلط هذا الضعيف كاتب هذه السطور بأفراد هؤلاء القوم فى بلاد الفونج فرأهم بيض الوجوه والأجسام، كبار العيون والحواجب، ضخام الأجسام، وأكثرهم ملاحون.

أوصاف دولة سلاطين بلاد الفونج

الفونج قوم سمر اللون يسكنون شواطئ النيل فى أراض ذات حرارة شديدة، تقع على مسافة عشرين مرحلة فى داخل منطقة خط الاستواء، ويلقب حكامهم "الملك"، ولهم اعتقاد تام بآل البكرى فى مصر، وملوكهم شديدا الإيمان بالله

(٢١٨) دولة سلاطين مراكش (مراكش) العظام: هذه الدول أيضا لا تدخل ضمن رحلة مصر والسودان والحبشة، ولكن تركناها للفائدة...

والتمسك بعقيدة التوحيد مع تقوى وزهد كبيرين، وليس لهم عملة خاصة. بيد أنهم يوصفون في الخطب على المنابر بقولهم (الملك عطاء الله)، وقد يلقبون بلفظ "ماي" الذي معناه السلطان.

والى الجانب الشمالى من هذه البلاد تقع:

دولة ملوك البربرستان

يُطلق على مدينة هذه الدولة اسم "دُنْقَلَة" وهى تقع على شاطئ النيل، وجميع أهاليها وسكانها سمر اللون إلا أن فيهم حسناً من الرجال والنساء على جانب عظيم من الجمال. وليست لدولتهم عملة خاصة. ولكنهم فى خطب الجمع يذكرون ملوكهم؛ فيقولون الملك إدريس والملك حمد والملك حسن، وسيذكر هذا إن شاء الله فى محله. وسكان بلاد البربر هذه أناس متقون موحدون صالحاء وهم شافعيو المذهب... وينعت ملكهم بالقباب: قولو دنقول، وعبد الدنقول، وإدريس دنقول، وحامد دنقول، وهكذا. ولغتهم هى اللغة العبرية رأساً؛ لأن سيدنا إدريس [عليه السلام] بعث لأهالى هذه الديار.

دولة آل قرمانقة

يطلق على ملوكها "قاقان"، فمثلاً يُقال: عادى قاقان وزوال قاقان وإدريس قاقان، وهم ملوك مسلمون، سحنيم ووجهيم ضاربة إلى الحمرة. والشعب قوم من الكفار يأسرهم الجلابون فيأتون بهم ويبيعونهم فى مصر أرقاء، وحديثهم بالسريانية وهى لغة صعبة وغامضة جداً.

دولة آل بَغْه ونسكى (بجانسكى)

يُطلق على ملوكها "بَغْسَكى"، تقع بلادها فى الجانب الغربى من الصحراء، وسكانها قوم من البدو، زرق العيون، حمر الوجوه، سريعو العدو والجري، يبرزون الغزلان فى العدو، وليس لدولتهم سكة. ويوصف ملوكهم حينما يذكرون فى خطب

الجمع بلفظ "عمران" ومعناه السلطان؛ فيقولون مثلاً: على عمران، وكمال عمران. هكذا يضيفون لفظ عمران على آخر أسمائهم مهما كانت كصليب عمران أيضاً.

وخلاصة القول إنهم قوم عرايا كثيرو العدد جداً لا يحصون، يحتلون ما بين النيل المبارك وبلاد الحبشة من البلاد واسعة الأرجاء الممتدة حتى ساحل البحر المحيط، فلهم أراض مشتركة ومشاعة مع البرتغال. وسلاحهم يتألف من القرون؛ قرون الغزلان والوعول، وهى فى غاية الحدة والمضاء تنغرز فى جسم الإنسان مثل النصال والأسل. وأكثر اختلاطهم وحياتهم مع البرتغال فى البيع والشراء والأخذ والعطاء. فلديهم من عروض التجارة عاج الأفيال المعمرة ألف سنة وقرون الخريت "الكركدن" وجلود الضب والتمساح، وكذا التبر والزباد "المسك". ولا يعرف أحد لسانهم ولهجتهم سوى أولاد الحرام من البرتغال الذين وفقوا إلى التفاهم معهم بواسطة علامات وإشارات رتبوها فيتعاملون بها. على أن أئمتهم فى خطب الجمع يبينون لهم ما هو الحشر والنشر والبعث بعد الموت بمقتضى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. ولسانهم عمرانى كما يقال، ولكنى ما سمعت مثل هذا اللسان، وسأذكر إن شاء الله نبذة من ألفاظه بالإجمال.

دولة ملوك ذى اليزن

يطلق على ملوكها ألقاب كهذه: ناصر اليزن، قاسم اليزن، وذلك مخفف من قولهم "ذى اليزن". أعنى أن نسبهم ينتهى إلى سيف بن ذى اليزن فلذا يقال لهم "آل ذى اليزن". فإيم مسلمون موحدون شافعيو المذهب سودانيو السحن، ليست لدولتهم سكة نقدية خاصة، إلا أن خيرهم وتبرهم كثير جداً، لكنهم لا يعرفون قدره.

ولقد رأيت فى بلاد الفونج مدينة تدعى "سولمقاي" مشتركة ومشاعة بين ذى اليزن والفونج، فوجدت بها أناساً من ذى اليزن كلماتهم غامضة ولهجتهم صعبة؛ فاضطرت للاستعانة على فهمها بواحد من الفونج يعرف لغتهم فاتخذته ترجماناً لى وسألتهم؛ فقالوا: "إن لنا اثنى عشر ملكاً، كل واحد منهم يملك مئات الألوف من الجنود ونحن محيطون من الخلف ببلاد الحبشة، فلو لم نكن موجودين لكان

البرتغال قد استولوا عليها". بيد أن الذى نقل لنا هذا القول منيع كان يشبه تمام الشبه نسانا وقف برجليه، فيولاء الناس كلهم مخلوقات ضعيفة ونحيفة. كأنهم نمل أسود له أرجل الجراد، ومع ذلك يهابهم بنو آدم وذريته عامة. وهناك أقوام أخرى لا يعرفون ما هو الكفر والضلال ولا الجنة ولا النار، وكأنهم نوع من الحيوان الناطق. ولكن هذا الضعيف لم يرههم قط.

دولة بنى هلال^(٢١٩)

تقع بلاد هذه الدولة فى ديار المغرب بجانب "أوجلة"، وهى الآن مدينة بنى هلال تجاه جزيرة كريت "كرميون". وكانت مدينة عظيمة جدًا أغار عليها الإسبان وقتلوا ملكها. إذ كان آل هلال ملوكًا عظامًا انقضوا من هول تلك الإغارة الشعواء والصدمة القتالة. فقوم بنى هلال الموجودون الآن هم من ذرية هؤلاء الملوك والحكام، وهم الآن عربان وبدو رُحَّل يبلغ عددهم مئات الألوف، كما أن لهم كثرة هائلة من الأغنام والمواشى التى تنتج كميات كبيرة من السمن النفيس ذى الرائحة المسكية، حيث رأيته بعينى رأسى حينما كنت فى كريت مع عسكر الإسلام. وتصدَّر من هذا السمن أيضًا إلى مصر كميات لا بأس بها.

وقديمًا كان يُطلق على ملوك هذه الدولة أسماء مثل نور الله الهلالى وصنع الله الهلالى وفضل الله الهلالى، وهم يحتلون صحارى بلاد المغرب.

دولة آل أفارقة

يتألف رجال هذه الدولة من جنود عظام يسكن كثير من أغنيائهم المدن بوصفهم حكامًا وضباطًا، يُطلق عليهم "أفارقة" جمعه أفارقة.

(٢١٩) بنو هلال: قبيلة عربية يرجع نسبها إلى سيدنا إسماعيل؛ وتبدأ بيلال بن عامر بن شعشة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن قيس عيلان. كانوا يعبدون الأوثان فى الجاهلية، وكانوا يعيشون فى نجد واليمن. ولهم أبار ومزارع نخيل كثيرة بالقرب من البصرة، وهم الذين كانوا يقيمون سوق عكاظ الشهير. وهم الذين زحفوا إلى شمال إفريقيا... وتحدث عنهم سيرة بنى هلال، ولهم أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارة والثقافة واللغة العربية بالذات.

دولة ماى بورنو (بورنو) (٢٢٠)

ملوك هذه الدولة سُنِّيُونَ على المذهب الحنبلى متمسكون بدينهم أشد التمسك، والشعب أيضا موحد مؤمن شديد الإيمان. أيضا يطلق على ملوكهم "ماى"؛ فمثلاً يقولون ماى سنجال، ماى عباس، ماى صادق، يعنى بدلاً من أن يقولوا سلطان يقولون: ماى. وليست لدولتهم عملة خاصة ويستوردون بدل ذلك خرز البغال من مصر فيشترونه بالتبر؛ حيث يضعه ملوكهم ونساؤهم فى رؤوسهم بدل الدر واللآلى، وحاجتهم يأتون كل سنة إلى مصر قاطعين الصحارى والفيافي فى ثمانية شهور؛ حيث يُغرقون مصر فى قدومهم هذا بتبر الذهب، ويقال لملوكهم "ماى سنجال الدين"؛ وقد تيسر لى ملاقاته حينما قدم مصر حاجاً ومعه ألف جمل من المال، فوجدته يستر وجهه مثل النساء حينما يقع نظره على المحارم وينام على وجهه فى الأرض وينكفى ثم يكلم الناس ويحدثهم، وكان هذا الملك رجلاً أسمر اللون أدكنه. وقد توفى إلى رحمة الله؛ حيث وقع فى عقبة الموت الذى لا بد منه فى مدينة العقبة نفسها لدى عودته من الحج، وقد دفن بها.

دولة آل آفـو

رجال هذه الدولة سبع قبائل، إحداها مسلمة، وليست لهذه الدولة عملة خاصة ولكن الخطب باسم ملوكها، وهم سمر اللون. والقبائل الأخرى لا تعرف شيئاً عن الضلالة والإيمان. ولما كانوا لا يختنون قط فإنهم معرضون للأسر والرق بعد القتال وإثارة الحرب، حيث يساقون إلى أوجلة ومصر فيباعون.

هذا، وإن هناك كثيراً من الملوك والحكام فى هذه الجزيرة الكبرى، إلا أن كاتب هذه السطور لم يتمكن من الاتصال بهم والاطلاع على أحوالهم. وفى الجملة

(٢٢٠) فى نسخة يلدز: بورنو.

من المستطاع أن يُقال إن في مصر وأقطارها الواسعة من الأمم العرايا بقدر ما هو موجود على وجه البسيطة من الأناس اللابسين المكسوين.

دولة الجزائر

كانت أراضي هذه الدولة مملكة ذات سكة خاصة خاضعة لأمر الإسبان. ففي سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٤م فتحها السلطان سليمان خان على يد الباشا خير الدين بارباروس. ولا يزال يحكمها باشا له رتبة وزير. وللمملكة خطبتها وسكتها وجيشها الذي يقدر بانتى عشر ألفا من الضاربين بالنار.

دولة ولاية تونس

كانت هذه أيضا مملكة ذات سكة خاضعة للإسبان، وفتحها السلطان سليمان خان في سنة ٩٨٢هـ = ١٥٧٤م على يد قلج على باشا وسان باشا "فى الأصل طورغود"، فهي الآن إيالة يحكمها وزير. ولها سكة وخطبة وعشرون ألف جندي من الأتداء.

دولة ولاية طرابلس (الغرب)

وهذه أيضا كانت خاضعة للإسبان، فتحها سليمان خان سنة ٩٥٨هـ = ١٥٥١م على يد الباشا "طوغور"، ولا تزال عملتها رائجة وخطبتها قائمة، ولها جيش قوامه عشرون ألف جندي، يخافهم الكفار ويهابهم العدو ويرتعد منهم فرقا، وكانت خاضعة للكفار وكانت أيضا ذات سكة وبلاد واسعة الأرجاء يحكمها ملك. وكان يكتب على سكتها "صاحب النصر صالح النصر ضارب البر والبحرين السلطان بن السلطان مراد بن أحمد خان عز نصره"، ولها ذهب مُمسك "صاف ومركز" لأن تربتها تحتوى على كميات هائلة من التبر. وفيها نجوع عريان تدعى "محلات" يذهبون إلى قتالها فى بعض الجهات بأشد الجيوش فتكأ، مثل الجزائرلية والتونسية والطرابلية؛ لاستيفاء مال السلطان منها.

قلو أننا استرسلنا في وصف مشايخ هؤلاء العربان لاحتجنا إلى مدونات كبيرة.

هذا، وفي سكة غيرهم من السلاطين يكتب عادة بعد لفظ "لا إله إلا الله محمد رسول الله" اسم السلطان الذي أصدرها وضربها. ولا شك في أن هؤلاء المذكورين من الملوك والسلاطين يسيطرون على عدد من المساجين والمعتقلين، من أقوام وشعوب أفنو وبورنو وقرمانق وبفنسكى وفونجى؛ بحيث إن كل ملك أو سلطان لا يزال في قتال وحرب مع هؤلاء؛ مما يتيح الفرصة للنخاسين والجلابين للاستحواذ على عدد كبير من هؤلاء الأقوام فيعرضونهم في مصر للمزايدة بالأسواق. وهكذا خلق الله سبحانه وتعالى في تلك الجهات الثانية مخلوقات مضحكة يتخذها الناس هزواً.

وقد بينا لك أيها القارئ وصف السلاطين بالجانب الغربى من بلاد مصر. والآن نشرح لك الجانب الشرقى منها. فإذا سألنا سائل عن الشرق والغرب من الجوانب؛ فنقول إن النيل المبارك يشق جزيرة مصر من وسطها فتقطع الجزائر، وفاس، ومرانكش، والسودان في الغرب. وأما الشرق فالحبشة، ودهلك، وزليع، وبلاد الفونج.

دولة ملوك دومبية

هى دولة لقوم سود الوجوه لا يعنون ولا يحصون. مذهبهم "بنانى" أعنى أنهم يعبدون النار. وأنهم أصحاب مال وفير وثروة كبيرة تقرب من ثروة قارون.

دولة آل جابية

رجال هذه الدولة أيضاً أقوام كثيرون قد استولوا على الجبال والوهاد، ويطلق على ملوكها "زاد قانى" وهم من ذرية كنعان بن نوح. سمر الوجوه مقطبوها يعبدون الشمس، وخلاصة القول إن في بلاد الحبشة سبعين ملكاً يعتنق كل واحد منهم مذهباً خاصاً، وكلهم سود البشرة لأن شدة الحرارة واقعة على هذا الطرف،

ولكن الجانب الغربى ليس كذلك إذ فيه أناس من البيض وجهات عامرة أهلة
بالسكان، ولا سيما فى سواحل البحر .

أوصاف دولة ملوك الحبش

كان يُطلق اسم "النجاشى" فى زمن الجاهلية على ملوك هذه الدولة. فلما
سيطرت دولتهم الكبرى على الدنيا كلها أطلق عليهم لقب السلطان. وبعد ذلك فى
سنة ٥٩٤٥ = ١٥٣٨م وفى عهد سليمان القانونى فتح هذه البلاد أوزدمير من بقايا
جند السلطان الغورى الجركسى، وكان فى نجدته كل من سنان باشا والطواشى
سليمان باشا. ولا تزال آثار ذلك الفاتح - من جوامع وعمارات خيرية والقلعة -
باقية بها. فهى بلاد وإيالة يحكمها وزير. ولها سكة وخطبة. وفى مدينتها أناس من
جميع الأجناس والألسنة وعديد اللغات والأقوام، وليس منهم أحد على دين الإسلام؛
لأن اختلاطهم ومعاشرتهم دائما مع كفار البرتغال الذين أضلوهم فأوقعوهم فى
الكفر.

هذا، وقد تم بيان ما كان من الأحوال والوقائع فى مصر ها هنا. وقد جاءت
المناسبة لأن نذكر ملوك الملة المسيحية المسيطرين على الأرض من القديم.

الفصل الثمانى عشر

فى بيان الملوك الضالين ذوى الأفعال السيئة

من المشركين الطاعين^(٢٢١)

أول من تملك فى الأرض وسيطر وصار سلطاناً على البسيطة فى الجاهلية هو "كيومرث" من أولاد النبی نوح [عليه السلام] وهم العمالقة. وكان الملوك المعاصرون لسيدنا عيسى [عليه السلام] أربع طبقات سبق ذكرها. ولكن نذكرها هنا أيضاً لما اقتضاه المقام.

فنقول إن الطبقة الأولى تسمى "بيشداديين" البيش دادية، والطبقة الثانية الكياتيين "كيانيان"، والثالثة الإشكانيين "أشكانيان"، والرابعة الساسانيين "ساسانيان"، ولكن الطبقة الدارانية لا تزال أحفادها وسلالتها موجودة بفضل دعاء الرسول لهم إلى آخر الزمان.

دولة كسرى

ملوكها هم البيشداديون "الدارانيون"، وكسرى لقب مفرد جمعه "أكاسرة"، وكانت بلاد بغداد والكوفة والإحساء والعجم وخراسان وإيران وتوران فى تصرف هؤلاء الملوك والسلاطين وتحت نفوذهم، حتى عهد السيد الرسول صلى الله عليه وسلم الذى ولد فى عهد الملك العادل أنوشيروان وقد دعا لهم بالخير والبركة، فلما قضى آل جنكيز على دولتهم نزحوا إلى بلاد الكرج فتوطنوها ولا يزالون بها...

(٢٢١) الدول التى ستخرج فى هذا الفصل تخرج عن نطاق الرحلة إلى مصر والسودان وبلاد الحبش، ولكن الرحالة ذكرها، فلم أتركها وترجمتها كما هى حرصاً على النص وعلى الفائدة.

آل داويان

رجال هذه الدولة خاضعون لحكم آل عثمان، فيقدمون لبیت المؤمن السلطاني على طريق الهنديا مائة ألف باز وشاهين والجواري الحسان، والغلمان كاللؤلؤ والمرجان. والشعب الداوياني، نظراً لأن مساكنهم ذات جو لطيف ومناخ معتدل، تناسلوا تناسلاً عظيماً وانقسموا في بلاد الداغستان سبعة أقسام (طبقات).

الطبقة الأولى: الكرج

هذه الطبقة تخضع الآن لسلطان آل عثمان من عهد صفر باشا (عليها سفر باشا).

الطبقة الثانية: (آل أجيق باشا) آل ذى الرأس الحاسر

رجال هذه الطائفة يخضعون لولاية أرضروم تارة ويعصونهم تارة أخرى، فيشنّ عليهم هؤلاء الولاية حرباً عواناً ويطاردونهم شر مطاردة، حتى تنهب أموالهم من الذهب والفضة ومن الأواني وغيرها من الأمتعة، وتسبى نساؤهم وجواريهم الحسان وغلمانهم الممشوقو القوام، عند ذلك قد يرضخون ويقبلون الصلح، وهم - ولا شك - في غاية الشجاعة ومزيد البسالة فلقبوا لذلك بذوى السروعوس الحاسرة كناية عن الإقدام والجرأة والاستعداد لاقتحام المهالك.

الطبقة الثالثة: آل كوريل

يبلغ عدد رجال هذه الطبقة زهاء أربعين ألف نسمة، وهم في غاية الخضوع والطاعة، وهم مسالمون جداً.

الطبقة الرابعة: آل شوشاد

هم سلالة أحد أولاد "أنوشيروان" حيث كان يدعى "شوشا"، وهم جنود كثيرون لا يعدون ولا يحصون، إلا أنهم مسالمون هادئون.

الطبقة الخامسة: آل مكرل

رجال هذه الطبقة ليسوا من الشجاعة على مكانة غيرهم من الجماعات الأخرى، فيقيم رعايا مسالمون غير محاربين، يقيمون في ساحل نهر "جوروغ" فيما وراء قلعة "كونيه" على مقربة من طرابزون وفي شواطئ البحر الأسود.

هذا، وكل هؤلاء المذكورين من الملة المسيحية الإنجيلية. فلهم قلاعهم ومدنهم وأماكنهم الخاصة اللطيفة ومساكنهم العالية البهجة. ومن أراد الاستزادة فليرجع وصف المحلات والمواطن التي زرناها سنة ١٠٥٦ هـ، حيث يتضمن تفاصيل كثيرة عن هذه البلاد.

الطبقة السادسة: آل التاجدار، أعنى قوم المجر

ثم إن أحد أبناء أنوشيروان المدعو هرمز "تاجدار" ذا التاج اتخذ عراق داديان الواقع في سفح جبل البرز مسكناً له وهو يحمل تاج أنوشيروان.

هؤلاء الناس سكنوا في قلعة ترابية لا تزال تسمى "تورك أوري" في صحراء "خريستوس" الواقعة بجوار "أكرة" التي انتصر فيها السلطان محمد، ولما سئلوا عن أسمائهم قالوا من جارأي (نحن أربعة)، فأرسل الخبر إلى ملك البلاد بأنهم "منجار" ثم تحرفت الكلمة فصارت مجار. هذا، وانتقل تاج ملكهم بعدهم إلى ملك النمسا "جاسنار"، ولما فتح السلطان سليمان القانوني قلعة "شنجراد" "شغراد" وجد التاج المذكور بها فأخذه وحفظه في خزانته، وأخيراً وهب سلاطين آل عثمان هذا التاج للملك فرديناند حيث تراه الآن في ديوان ملك النمسا، وقد سبق ذكره في وصف رحلاتنا التي قمنا بها سنة ١٠٧٤ هـ إلى ألمانيا. وليكن معلوماً الآن أن أصل المجر هم الكرج؛ وهم قوم قداماء جداً جاءوا من بلاد العجم وصاروا مجراً كما هو الآن.

الطبقة السابعة: ملوك موسكو

وهؤلاء أيضا من سلالة أبناء أنوشيروان، إلا أنهم سادوا وعلا شأنهم حتى صاروا أصحاب بلاد عظيمة، وفضلاً عن سيطرتهم على إقليمين كبيرين من أقاليم الدنيا السبعة، فقد صاروا يحكمون أيضا الدنيا المظلمة، وهم من الملة الإنجيلية، فإذا مات ملك من ملوكهم حتى الآن يأتون بأمير من أمراء الداديان ببلاد الكرج فينصبونه ملكاً عليهم ويلقبونه ملكاً "قرالا". وأحوال هؤلاء مذكورة بالتفصيل في سنة ١٠٦٦هـ في سياحتنا وزحفنا مع خانات التتر إليهم، فليرجع إليها. هذا، وديار موسكو هذه تتألف من ثمانية وأربعين باناً "بانك" وثمانية عشر "أورباي"؛ أعنى الوزارة، والإيالة التي يحكمها الوزير.

ملوك دولة (له) بولونيا

ملوك هذه الدولة أيضا من نسل الداديان، وينقسمون إلى ستة أقسام، كلها إنجيلية. ولقب ملوكهم "بان" حتى (...)

دولة التشك (جة)

لقب ملوكها "جهدام"، وهو صاحب سكة وشعب ذى بأس شديد.

مجر أردل الذين لا دولة لهم

يزعمون أنهم من أحفاد وسلالة "منوچهر"، يلقب ملكهم بـ "يورامده" و"وبتلان غور" أعنى الملك العظيم. بيد أنهم مشهورون بين الناس بلقب ملك فقط، وهم الآن خاضعون لسلطان آل عثمان، وبلادهم مقسمة إلى أربعة أقسام: أحدها "حايد أو شاخ"، والآخر "أردل"، والثالث قوم "صاز"، وقوم آخر "سيكل"، وجميع رعاياهم وجمهورهم من الأفلاق، ولهم سكة نقدية، فالسكة التي تسمى القرش القاطع للورق من عملاتهم، وتسك "تك" في قلعة "بانيا". ولهم ولايات وبلدان عامرة، ولما كان هذا الضعيف قد اشتبك في غزوات إسلامية كثيرة في هذه البلاد فإني قد كتبت عنها كثيراً فليراجع سياحة سنة ١٠٧٣ هـ.

دولة المجر الوسطى

ملوك هذه الدولة أيضا يزعمون أنهم من نسل منوچهر. لأن لغتهم تحتوى على شىء كثير من الكلمات الفارسية. وقلاعهم هى فولك وسمندر وكرمات وقلعة الفيران.

ومقاطعاتهم ضيقة، ولكن سكانها كفار شجعان ذوو شهامة. وعملتهم تسمى "زولطه".

وشأنهم فى تدهور وسقوط منذ أن انتزعت منهم مدينة "أكره" أى أجره؛ حيث يخضعون الآن لملك النمسا. وهم يلقبون ملكهم بلفظ "بلطنوش" بلاتنوش.

دولة بنى إسفاج (من بلاد السويد)

مملكة عظيمة على ساحل البحر المحيط، وصاحبها من الكفار الغلاظ الأشرار، له رعايا من التتر الرُّحْل يبلغ عددهم عشرة ملايين. كما أن عدد الطوائف العسكرية بها لا يعلمه أحد ولا هم أنفسهم. ولقب ملوكها هكذا أنهر إسفان وأنهر رادال، ولها عملة خاصة. هذا، وإن ملك النمسا يعجز عن تأديب هؤلاء القوم فلا يزال القتال ناشبا بين الطرفين منذ مائة واثنين وعشرين سنة، على الرغم من انقضاء عهود ملوك عدة منهم.

دولة فلمنك العتيقة

يُطلق على هذه الدولة اسم "فيامنك" أيضا، وهى مملكة واسعة الأرجاء تحتوى على أحد عشر خليجا من خلجان البحر المحيط فى الناحية الشرقية منه. وفى الألقاب التعظيمية يُطلق على ملكها "مستردام"؛ ومعناه الأعظم جليل الشأن إذ يتملك ثلاثمائة من السفن فى البحار. والأشجار الكبيرة التى توجد بهذه البلاد لا يوجد فى غيرها أمثالها، كما أن السفن التى تُبنى هنا لا نظير لها سوى بلاد الإنجليز. فدولة فلمنك هذه أيضا ذات سكة نقدية. ولا سيما أن السكة الذهبية

والريالات المسكوكة ليس لها نظير. عاصمة الدولة "أمستردام"، وقد كتبت عنها
(١٠٧٣ هـ) في السنة التي زرتها.

دولة دانمرك (دانيماركة)

لقب ملكها "أنكور"، وهي أيضا تقع في ساحل البحر المحيط تجاه جزيرة
الإنجليز، فلندا ولايات واسعة، وهي إحدى الممالك السبع التابعة لملك النمسا، ذات سكة
ذهبية وريالات مسكوكة (مصبوبة)، عاصمتها أمستردام.

دولة دونقارقيز (دنكيرك)

يطلق على ملكها "دونقارقه". وهذا يُعادل لقب السلطان. ولهم غير هذا من
الأسماء والألقاب. ولما كان كاتب هذه السطور في رمضان سنة ١٠٧٤ هـ في
زيارة هذه البلاد، كانت تتولى أمرها شقيقتان بالاشتراك معا في الحكم. وعاصمتها
(لونهاط = لونهاط) التي يقيم بها وزراء الدول السبع. لأن بإزائها تقع جزيرة
الإنجليز الكبيرة. وهذه المدينة ميناء العالم الجديد حيث يبا أناس كثيرون ممن
يستوردون منها التبغ والبلسانته Pelesante وشجر العالة الجديد وعظام الأسماك
الشبيهة بقوس قزح. ويدفعون عنها الرسوم الجمركية للملوك السبعة خصيصا.
ومدينة لونهاط مثل إسلامبول في الحجم وعدد السكان، غير أنها تظهر أوسع منها
لتخللها بالحدائق الواسعة التحتانية ولتباعدها بيوتها ومنازلها، على حين أن بيوت
إسلامبول مؤلفة من عدة أدوار وطبقات. وهواء هذه البلاد لطيف وجوها بديع وقد
سبق ذكر ذلك فيما تقدم فليُنظر هناك. وعلى سكتهم النقدية نقوش صورة بنتين جنباً
إلى جنب. ولهؤلاء القوم نوع من السفن تحتوى كل واحدة منها على سبعة عنابر
وثلاثمائة مدفع برونز وتسع من الركاب ما يتراوح بين ألف شخص وثلاثة آلاف،
تمخر عباب البحار إلى الهند والصين والعالم الجديد "أمريكا"؛ فهي سفن دونقارقيّة
كبيرة وعظيمة جداً، إذ فيها الأسواق والطواحين والحمامات والحدائق وغيرها من
المرافق العامة الجديرة بالوصف والملاحظة والتهيه عنها.

دولة النمسا

وتدعى أيضا "تمجه" ويقال لملكها ملك الألمان. ومع ذلك فإن لملوكها ألقابا كسائر الملوك والسلاطين. فيقال جاسار النمسا والإمبراطور، ومعنى هذا الأخير الشاهنشاه "ملك الملوك"؛ إذ يحكم سبعة ملوك، وقد امتد نفوذه وسلطانه على ملك بولونيا السابق الذكر. وله رعايا كثيفة من الجمهور وحشود عظيمة من العساكر والجنود، وحكمهم مستمر منذ ألف وسبعمائة عام ولهم ألف وسبعمائة قلعة تعادل واحدة منها سد القفقية، وعاصمة الدولة بيج، و"براق" (= براغ). وسكنتها منقوش عليها صور ملوكها. ويزعمون أنهم من سلالة الشاه "هوشنك".

هذا، وكان تاج ملوكهم "جرونا" موجودا دائما ومحفوظا في قلعة "پوزن" Pojen "بودابست". استولى العثمانيون على أويوار، فقد نقلوا التاج المذكور إلى قلعة "براق". وأما جميع أحوالهم وشرح أوصافهم الأخرى فإنها مذكورة في رحلتى سنة ١٠٧٢ هـ، فليرجع هنالك.

دولة الإنجليز (إنكليز)

في ألقاب ملوكها يقال ليم "إيرلندا"، فيم ملوك عظام أصحاب سكة نقدية. غير أنى لم أذهب إلى بلادهم قط، وأعلم أنه لم يظهر منهم في وقت من الأوقات بادرة عصيان؛ فهم قوم تجار يعيشون من ربح التجارة والسياحات. وبلادهم تتألف من ثلاث جزائر عظيمة، وعاصمة الدولة هي مدينة لندن "لوندرة" العظيمة الواقعة على نهر لوندرة في جزيرة إنجلترا البالغ مسطحها ثمانية آلاف ميل. فليس للإنجليز حكم ولا سلطان في المناطق والبلاد الألمانية.

دولة المجر الصغير

ملوك هذه الدولة خاضعون لقيصر النمسا، وقد شقوا عصا الطاعة عليه مرارا. وخضعوا لسلطان آل عثمان حيث تقع معظم بلادهم تحت تصرف العثمانيين. ولقد كانت مدن بوزكا، وقنيزه، وأوسك، وفالبوفا، وپجوى، وشكلوس، وسكتوار مملوكة لهم وتحت تصرفهم. والآن هم منحصرون في ولاية "مصلوون"

فقط، وتسمى عاصمتهم "أغرادجك" و"جقه طورنه"، ويطلق على ملوكهم لقب "هرسك"، وهم كفار على سبع طبقات كل واحدة منها لها اسم خاص. فأولاً ابن زرين "زرين أوغلي" يقيم في "طورن". وابن بكان "بكان أوغلي" يملك ولاية "اسلون". وابن نراج "نداز أوغلي" يملك بلاد الخروات وهم كفار على جانب كبير من البسالة، و"كيان أوغلي" يملك ولاية صماي، و"شوار أوغلي" الذين لهم الولاية التي باسمهم في حدود نهر راية صعبة المسالك والطرق الوعرة؛ إذ انهزمنا هنا بقيادة أحمد باشا الكوبريلي سنة ١٠٧٤هـ. من جراء سوء التدبير وعدم الحيلة. و"دوشقه أوغلي" الذين لهم سكة تدعى الينس "Penez". فيلاد الدوشقة بلاد جبلية عظيمة واقعة على شاطئ خليج البندقية وراء بلدة "زادارا"، ففي سنة (....). كان الملك أحمد باشا قائداً في حملة عسكرية قوامها ثمانية آلاف عسكري، حيث قمنا بغارة شعواء على ولاية "ألين" كما هو مشروح في محله. هذا، وهناك بلدة هرسك أخرى لم نتدخل في منطقتها فلذا لم نكتب عنها شيئاً.

دولة البندقية (ونديك)

يطلق على ملوكها لقب "بج برم"، ولها أربعون أميراً ينتخب من بينهم سبعة يسمون "باي"، ثم يختار واحد من هؤلاء البايات السبعة فيدعى "بجيرم" ويتولى الحكم والإمرة، وعاصمة هذه الدولة "البندقية". كل مدنها وبلادها متاخمة ومشاركة مع مدننا وبلادنا، فإذا ارتكب واحد منهم أمراً مغايراً لقواعد الصلح والسلام فيعمد إلى الفرار والهرب مثل الجرب الإفرنجي. ويصل إلى بلادنا ويغيب فيها عشرين سنة أو أكثر هائماً على وجهه. فهؤلاء طامات كبرى ملاعين، وأصحاب تدبير لا يخضعون للصلح إلا بكل صعوبة.

دولة الدوبرة ونديك (جمهورية رغوزه) Raгуze

يطلق على ملوكها لقب "چارنا" وتستعمل بينهم اللغة اللاتينية. هذا، ولما علموا - بفضل مهارتهم في علم النجوم والزايرجه - أن آل عثمان سيظهرون على الأمم ويستولون على البلاد، فإنهم بادروا إلى ساحة الغازي أورخان في بروسه وعقدوا معه معاهدة صلح وصدافة تتألف من سبعين بنداً، تتضمن الشروط التي

قدمها الطرف الواحد مقابل الشروط التى فرضها الآخر بحيث صارت المعاهدة مؤلفة من مائة وأربعين بنداً؛ فعبارة "الطائر فى السموات والسباح فى البحار" موجودة فى دفاترهم ووثائقهم القديمة بحيث إذا جار عليهم أحد بشيء فإنهم يقدمون حالاً خطوطاً سلطانية وعيوداً متوارثة من ملوكهم السالفة تعد بالآلاف، بيد أنهم فى جميع الأوقات عرفوا بالاستقامة ولم ينقضوا العهود قط مع الملوك.

وعاصمتهم هى قلعة دوبره ونديك؛ على مقربة من قلعة "نوه" فى سنجق هرسك. وولايتهم صغيرة وهى واقعة تجاه خليج البندقية.

ولاية التفاحة الحمراء (قرل ألما) وهى دولة الباباوية

يطلق على ملوكها البابا. وهو على زعمهم وكيل سيدنا عيسى [عليه السلام] ومرشد جميع الكفار فى الأرض وفى البحار، حيث يخضعون له ويركعون مقدمين الاحترامات. والغريب أنه يقوم برياضة شاقة مستديمة بالصوم والإمساك حتى يضعف ويصير قديماً كالبهائم العظمى، ويصل إلى مدى تكاد روحه تقارق جسمه. وعلى هذا المنوال يمكنه أن يعيش زهاء مائتى سنة. ومن الثابت أن البابا الذى مات فى عهد السلطان مراد الرابع كان قد عاش ثلاثمائة سنة.

وقد قيل فى ذلك شعر؛ معناه: يا أسفا على هذا الذى بقى فى أسر شباك الجهل.

وهذا ليس غريباً عند كاتب هذه السطور فإنه رأى بعينى رأسه فى صحراء القفقاز أناساً من تتر القالمق يعيشون مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة سنة. مع الاحتفاظ بقدرة الركوب على الخيل، وذلك من غير أن يتبع نظاماً خاصاً من الرياضة النفسية والصوم.

دولة فرنسا

يطلق على ملوكها روا "Roi"، وهى مملكة عظيمة لها قرابة بسأل عثمان، وحكمها جار فى البحر الأبيض المتوسط وفى سواحل البحر المحيط، وعاصمتها مدينة "باريس". ولها ألوف من القلاع والسفن المسماة بالغليون.

دولة جنويز (جنوة)

لقب ملوكها جنوان، بلادها ضيقة قليلة المساحة، وسكانها كفار يعيشون على التجارة. وهم الآن في حالة السلم والصلح مع آل عثمان، وكان عدد سفراء الدول في إسلامبول سبعة فقط، وبقدوم "باليوز" (سفير)^(٢٢٢) هذه الدولة صار عددهم ثمانية.

دولة إغراندوقة

هي مملكة أمة إفرنجية أخرى من الملة المسيحية في ساحل البحر الأبيض. عاصمتها دولتها مدينة "الأغورنه"، وليست بلادها واسعة مثل فرنسا. وسكانها يعيشون في البر والبحر على التجارة. يلقب ملوكها بإغراندو. فله جند وسفن من الغليونات.

الدولة البرتغالية

يطلق على ملوكها لقب (...) وهم كفار متعاضمون أشداء لم يقبلوا الصلح مع أحد في وقت من الأوقات. وهم وإن كانوا من الإنجليين إلا أن مذهبهم لا "بابوي" ولا لوثري. عاصمة ملوكهم قرب مضيق سبتة، وسواحل جزيرة مصر المطلة على البحر المحيط كلها تحت حكم ملوك هذه الدولة، كما أن لهم في بلاد الهند سبعمائة جزيرة. فهؤلاء البرتغاليون يرحلون إلى الصين وبلاد الختا والختن طوافين حول جزائر هذا العالم مئات المرات؛ يحملون متاجرهم العظيمة وهم أكبر عدداً وأعز شأنًا من جميع الكفار الآخرين حيث تمكنوا من إخضاع بلاد الهند لأمرهم.

ملك أفلاق

كانت له دولة عظيمة. والآن يخضع لسلطان آل عثمان ويدفع لهم الجزية. وبلاده واقعة على نهر "الطونة" الدانوب. وفي شمالها ولاية أردل حيث الحدود مشتركة، وعاصمة البلاد "برقرش" و"ترقوش".

(٢٢٢) باليوز: أصلها باليوس. وهي كلمة إيطالية قديمة تطلق على سفراء فرنسا وسفراء البندقية بوجه عام، وكانت تطلق خاصة على قناصل هاتين الدولتين.

دولة بوغدان

وحده أيضا دولة كبيرة، أخضعها السلطان بايزيد الونى لحكم آل عثمان فى تاريخ يدل عليه لفظ "فتحنا"؛ وذلك بالاستيلاء على قلعتى "أفكرمان" و"كيلى" وأجبرها على دفع الجزية.

وهذا، وكانت بلاد الروملى هذه تتألف سابقاً من عدة ممالك مسيحية، يحكمها ملوك أقوياء انقضىوا كلهم بحيث ضغط آل عثمان الذين ضموا بلادهم إلى بلاد المسلمين، وذلك كممالك الصقالبة والكوريل والتوت والخروات (الكروات) والصرب والبلغار واللاتين والهرسك والوينك واللاز واليايلاز والقزاق الأبيض والروس المنحوس والأرناؤوط والروم وأرانطة المورة وچكونسة الروم وماينة الروم ولاز الروم وأمثالها، حيث خضعت كلها لسلطان آل عثمان، يدفع ملوكها الضائون الجزية كل سنة إليها محتفظين باستقلالهم، ماعدا الكروات والبلغار واللاز والصرب والوينك والأرناؤوط؛ حيث بحمد الله صاروا رعايا وتابعين للدولة مباشرة.

وأما فى جهة الأناضول، فالممالك كما يأتى:

الفصل الثالث عشر

فى بيان ظهور دولة آل عثمان وسطوع نجمها

على أقوال مؤرخى الترك وتدقيق ذوى العقل والفهم، حسب قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصفات ٣٧/ ١٦٤] كان السلاطين والملوك الذين سبق ذكرهم هم الذين يسيطرون على وجه الأرض ويحكمونها، غير أن هناك اختلافات كثيرة فى شأن أمة الروم (أى الترك)، ولكن الثابت أنها، بشعوبها العديدة القاطنة فى تلك الديار بتقدير الحى القيوم، قد انحدرت فى الأصل من ولد عيص بن إسحق وينتهى نسبهم إلى يوسف وإلى نوح عليهما السلام. فأول من جاء من هذا العرق الطاهر فرسخ قدمه فى بلاد الروم هم آل سلجوق؛ حيث اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلبا وقالبا فى سنة ٥٤٧٦ هـ = ١٠٨٣م؛ فاستولوا على ملطية وقيصرية وعلائية وقونية وسائر بلاد الروم فصاروا حكامها المستقلين.

وأما آل عثمان فموطنهم الأصلي وأول ظهورهم كان فى بلاد ماباشيتيما وراء النهر؛ حيث هاجر سليمان وأرطغرل من أجداد آل عثمان من مكان يدعى ماهان، فرارا من ظلم التتر والمغول ووطأتهم. وجاءا بحاشيتيما إلى مدينة "أخلاط" وأقاموا بها سنة ٥٦١٦ هـ = ١٢١٩م، ثم رحلوا منها إلى شواطئ نهر الفرات قاصدين بلاد الروم أى بلاد بيزنطة.

وبينما كان قائدهم سليمان شاه يغتسل ذات يوم فى مياه نهر الفرات أمام قلعة "جعبر" غرق فى مياه النهر فأخرجوه ودفنوه هناك، وحل محله فى رئاسة العشيرة وزعامة القوم "أرطغرل"؛ الذى بادر إلى جمع شمل جماعته وتوجه بهم نحو علاء الدين السلجوقى، وفى أثناء الطريق حينما صعدوا هضبة عالية مطلّة على سيول قونية نظروا فى الأطراف يستطلعون الأحوال فوجدوا أن هناك طائفتين تقتتلان

بشدة، ولكن علائم الفشل والهزيمة كانت بادية على الجيش الذى يلبس جنوده العمامة البيضاء وهم جنود قونية، بخلاف التتر الذين كانت أمارات القهر والظفر ظاهرة عليهم؛ فما إن رأى ذلك أرطغرل حتى صاح قائلاً: "ألسنا موتورين ومنكوبين بالتتر منذ القديم؟ ألم يهزمونا ففررنا منهم إلى هذه البلاد؟ فلننضم إذن إلى علاء الدين ونعينه على بلواه ونأخذ بناصيته"، ثم رفع علمًا محمديًا أبيض واقتحم الميدان بجميع رجاله يركض وراء جموع التتر الغفيرة ويصيح مكبراً الله! الله! وقد أطلق العنان لأسلحته الفتاكة تعمل فى رءوس أققية التتر الذين أخذتهم النار المحمدية من كل الجوانب فتبدل قرارهم فراراً، وثباتهم هزيمة وعاراً، وانتعش السلاجقة من جديد وجمعوا شتاتهم وأحاطوا بالتتر من كل جانب حتى قضاوا عليهم جميعاً ولم يبق أحد منهم. وبعد ذلك عاد السلطان علاء الدين إلى قونية غانماً مظفراً فخلع على أرطغرل بك خلعاً سنية وإنعامات سلطانية فاخرة، كما أسند إليه قيادة الجناح الأيمن من جيشه وكلفه أن يكون قائد الجيش الزاحف إلى تكفور بروسه. فوصل أرطغرل بك إلى هذه البلاد وحاصر جهات بروسه الأربعة، مطلقاً أيدي الجنود فى النهب والسلب والغارات على بلاد "بيله جك"، "أولو آباد"، و"إينه كول" و"يالاق آباد" وغيرها من المدن والبلاد. وبعد أن فازوا بالغنائم الكثيرة والأسلاب الهائلة بالإضافة إلى هذا النصر المبين فقد زاد شأن علاء الدين وقدره؛ وذلك بفضل معونة أرطغرل له وتعضيده إياه.

ويطلق على ملوك السلاجقة هؤلاء لقب "السلطان"، فكان نفوذهم وسلطانهم يمتد حتى أسكار على ضفاف البوسفور، ولم تكن للفرنج القدرة أو الجرأة على الظهور فى تلك البلاد قط. لأن السلطان علاء الدين كان يملك جيشاً جراراً يتكون من عساكر سبعين قائداً، لكل واحد منهم طبل وعلم وهو برتبة أمير اللواء، موزعين هكذا: فى مرعش "آل ذى القدرية". وفى أضنة "آل رمضان". وفى سيواس "الملك غازى الدانشمندى"، وفى قسطنطيني "آل جاندار"، وفى أماسية "آل فرهاد" وفى كوتاهية "آل كرميان" وفى أنقره "آل سبحان"، وفى ولاية صاروخان "آل صاروخان باى"، وفى إقليم عماد "آل عماد باى"، وفى إقليم سنقر

"آل سنقر باى"، وفى إقليم كسكين "آل كسكين باى" وفى إقليم تكة "آل تكة باى" وفى ولاية حميد "حميد باى"، وفى إقليم منتشه "منتشه باى" وفى إقليم آيدين "آيدين باى"، وفى لاندرد "آل قرمان باى"، وفى يالاق آباد "أرطغرل باى".

والحاصل أن السلطان علاء الدين كان له سبعون أمير لواء يُسمون بهذه الأسماء والألقاب، وفى عيد هذا السلطان السعيد توفى إلى رحمة الله تعالى سلطان العلماء مولانا بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى فى مدينة قونية، وكان ذلك سنة ٦٨١ هـ = ١٢٨٢م هكذا حيث خلفه نجله مولانا جلال الدين الرومى. وقد كان سلطان العلماء المذكور هو الذى وضع الألقاب التى أوردناها لهؤلاء الأمراء. وسينكر كل واحد منهم فى محله.

وبعد ذلك زحف السلطان علاء الدين إلى جهة "أرضروم" بجيش جرار، فأصيب بهزيمة فى مكان يُقال له "قناده" واشتد به المرض من جراء ذلك، وأقدم ابنه غياث الدين على تجريح والده السلطان علاء الدين السم الزعاف والقضاء عليه بهذه الوسيلة وحب الدنيا. وأثار ذلك العسكر عليه فمزقوه إربًا إربًا. وهكذا مات الوالد والولد فى يوم واحد ونقل جسداهما من هذا المحل إلى قونية ودفنا فى القلعة الداخلية وبه انتهت أسرة السلاجقة. وعدد سلاطينهم ٢٦، ومدة دولتهم كلها ٢٣٨ سنة.

وقد أجمع جميع علماء الروم على تولية أرطغرل بك عوضا عنه وبايعوه على ذلك. وهذا القائد أيضا مدفون فى قصبة "سكود" حيث مات متأثرا بجراحه التى أصابته وهو عائد من غزوة بروسة، وبعدما استشهد صاروجى بك بن أورخان فى غزوة طومانج دفنوه أيضا بجانب أرطغرل.

فاجتمع علماء الروم مرة أخرى وانتخبوا عثمان بن أرطغرل خليفة له فى بداية المائة السابعة (٦٩٩ هـ = ١٢٩٩م)، وقد بايعه جميع رجال الدولة السلجوقية البارزين مبايعة صادقة على ذلك. فتاريخ ميلاده سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م. وهكذا تولى عثمان الأول قيادة آل عثمان فى عام ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩م، وعاش ٦٩ عاما وبلغت مدة سلطنته ٢٦ عاما، وقد توفى إلى رحمة الله سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥م. وقد خلفه ابنه "أورخان بك" ومدة سلطنته ٣٥ عاما.

[وفي عهده السعيد] قام سليمان باشا نجل الغازي أورخان هذا ومعه قرا مُرسل بك وأجه يعقوب بك بتشكيل وتحريك قوة قوامها أربعون من الفدائيين، وعبروا البحر الأبيض من المكان المسمى "بابسكى" على مقربة من قبسو داغى بواسطة عوامات إلى الضفة الأخرى، وأنزلوا بها خيولاً وجنوداً أغاروا بهم على بلاد غليبولى واستولوا عليها. وأول ما فتحوا من البلدان فى ضفة الروملى هى مدينة "اييصالا"، التى صلوا بها صلاة الجمعة فى بادئ الأمر قائلين "ابتداء صلاة" فتحرقت هذه العبارة من كثرة الاستعمال وصارت "اييصالا".

ثم اقتحم سليمان باشا قلعة غليبولى بعد أن تم له نزول العسكر والقوات الكافية، وفتحها بالسيف وصار غازياً بمعنى الكلمة. وقد وقعت عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" تاريخاً لهذا الفتح الباهر حيث تسلمها فى سنة ٨٧٦١ = ١٣٥٩م، ونال الغزاة والمجاهدون أسلاباً وغنائم كثيرة أثروا منها ثراءً عظيماً بمراجعة حروف البسملة وفق حساب [أبجد]، اتضح أنها لا توافق هذا التاريخ بل تاريخها هو ٨٧٨٦ = ١٣٨٤م. وقد زوجوا بالنسوة اللاتى أسروهن وأنجبوا منهن أنساباً كثيرة. هذا، وقد كان يقطن البلاد التى يطلق عليها اسم الروملى اثنا عشر عرقاً وشعباً من الكفار، ومثل الروم البيزنطيين والبلغار والأفلاق والصرب والبوسنيك والكروات واللاتين والبشناق واللاظ وغيرهم، فأخضعهم سليمان باشا لأمره ولم يترك لهم فرصة لرفع رؤوسهم ضده؛ بل واصل الغارات وأتبع الغزو بالغزو حتى وصل إلى نهر "الطونة" الدانوب، وعاد منها وأيدى جنوده ورجاله ملأى بالغنائم والأسرى والسبايا اللاتى تخطفهن الشباب الأبطال بالزواج؛ فخلفوا منهن رجالاً أجسامهم فى بياض الفضة وقوة الحديد. هؤلاء أيضاً تربوا تربية عسكرية عثمانية وأعدوا لإنزال الضربات القاصمة بالكفار أينما كانوا. ولقد استمر الحال على هذا النسق فى عهد سليمان باشا حتى توفى إلى رحمة الله فى بولاير متأثراً بجراحه التى أصابته عند سقوطه عن صهوة جواده حين كان يطارد البط البرى بصقر كان معه. وهو مدفون الآن فى قبة منيرة هنالك وبجانبها جامع وعمارة خيرة وتكية، وتاريخ وفاته

رحمة الله عليه سنة ٥٧٦٠ = ١٣٥٨ م. وأول من دخل الروملى هو سليمان باشا ابن أورخان.

هذا، ومدة عمر أورخان ٨٣ عامًا، وكان جلوسه على العرش فى سنة ٥٧٢٦ = ١٣٢٥ م، وميلاده فى سنة ٥٦٧٨ = ١٢٧٩ م، ووفاته سنة ٥٧٦١ = ١٣٥٩ م حيث خلفه ابنه الغاوى خدواند كار [مراد الأول] فى الحكم فبلغ عمره من السنين ٦٥ سنة، حيث ولد سنة ٥٧٢٧ = ١٣٢٦ م وتوفى سنة ٥٧٩٢ = ١٣٨٩ م أو ٥٧٩٣ = ١٣٩٠ م وحكمه ٣١ سنة، وهو فاتح مدينة أدرنه وواصل الحرب والغزو حتى استشهد فى ساحة الحرب وميدان الجهاد فى مكان يسمى قصود، حيث ظهر كافر على قيد الحياة من بين جنث القتلى المنتشرة هناك وتقدم نحو السلطان متضرعاً ثم طعنه بسكين كبيرة كان يخفيها الجانى والذي كان يدعى "ميلوش قوبلاق" فاستشهد فوراً. ثم نقل جثة مراد الأول إلى مدينة بروسه، ودفنت فى المكان المسمى الآن لسكى قابليجه. وقد خلفه بعده نجله الغازى يلديرم بايزيد الذى ولد سنة ٥٧٤٨ = ١٣٤٧ م، وجلس على العرش سنة ٥٧٩٢ = ١٣٨٩ م، وبلغ حكمه ١٦ سنة.

قد كان يلديرم بايزيد سلطاناً شجاعاً حازماً، حيث قام بغزوات خاطفة من الأناضول على بلاد الروملى فاستولى - فى مدة سنة - على بلاد الأفلاق والبغدان، ولذلك لقب بالصاعقة يلديرم حقاً، كان يلديرم بايزيد مقداماً اتسم بالبسالة والجرأة وقد بلغ من العمر ستين عامًا ومدة حكمه ١٦ عامًا. وسبب وفاته أنه حارب تيمور وانهزم فى القتال ووقع فى الأسر، ولبث فى سجن تيمور مدة فتأثر من ذلك بالغ التأثير؛ وأصابته حمى محرقة قضت عليه بعد أيام وقد نقل جثمانه إلى بروسه ودفن بجانب جسامع يلديرم، وقد خلفه ابنه سلطان محمد محمد چلبى خان فى الحكم سنة ٥٨٠٤ = ١٤٠١ م، وكان ميلاده فى سنة ٥٧٧٦ = ١٣٧٤ م ومدة حكمه ٣٠ سنة وعمره ٣٤ سنة. ثم خلفه ابنه مراد بك سنة ٥٨٣٤ = ١٤٣٠ م أو (٥٨٢٤ = ١٤٢١ م) وحكم ٣١ سنة وبلغ من العمر ٤٩ سنة، حيث توفى سنة ٥٨٥٥ = ١٤٣١ م فبلغ من العمر ٥١ سنة حيث توفى إلى الله سنة ٥٨٨٦ = ١٤٨١ م. وخلفه ابنه بايزيد خان سنة

٥٨٨٦ = ١٤٨١ م وحكم ٣١ سنة حتى بلغ من العمر ٩١ سنة وتوفي سنة ٩١٧ هـ
 = ١٥١١ م، ثم تولى ابنه سليم الأول المولود سنة ٨٧٢ هـ = ١٤٦٧ م وجلس على
 العرش وهو يبلغ من العمر ٤٣ سنة. وقد توفي إلى رحمة الله سنة ٩٢٦ هـ = ١٥١٩ م
 بعد أن حكم ٨ سنوات وكان قد بلغ من العمر ٥١ سنة. ثم تولى ابنه سليمان خان
 المولود سنة ٩٠٠ هـ = ١٤٩٤ م وحكم ٤٨ عامًا وعمره ٧٤ سنة. وجاء ابنه سليمان
 الثاني المولود سنة ٩٢٩ هـ = ١٥٢٢ م والجالس على العرش سنة ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م
 والمتوفي سنة ٩٨٢ هـ = ١٥٧٤ م، ثم تولى ابنه مراد الثالث المولود سنة ٩٥٣ هـ =
 ١٥٤٦ م فحكم من ٩٨٢ هـ = ١٥٧٢ م حتى ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ م حيث توفي، وقد تولى
 بعده ابنه محمد الثالث المولود سنة ٩٨٠ هـ = ١٥٧٢ م في بلدة مغنيسا، وكان جلوسه
 على العرش يوم الجمعة السادس عشر من جمادى الأولى سنة ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٤ م
 وبلغت مدة حكمه تسع سنوات وعمره ٣٢ سنة. ولما توفي إلى رحمة الله سنة
 ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ م خلفه ابنه أحمد المولود بمغنيسا، وكان أثناء جلوسه على العرش
 بالغًا من العمر أربع سنوات؛ حيث كان ذلك في اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة
 ١٠١٣ هـ = ١٦٠٤ م وقد توفي سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦١٧ م وبلغت مدة حكمه ١٤ عامًا،
 وخلفه في الحكم بعده أخوه مصطفى خان في ١٣ ذي القعدة سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦١٧ م
 حيث حكم سنة وثلاثة أشهر، ثم خلع عن السلطنة وأجلس مكانه السلطان عثمان في
 ربيع الأول سنة ١٠٢٧ هـ = ١٦١٧ م، وحكم خمس سنوات واستشهد بعدها في ٨
 رجب سنة ١٠٣١ هـ = ١٦٢١ م، حيث أعيد مصطفى إلى الحكم مرة أخرى في الشهر
 نفسه من العام نفسه، ثم تم خلعه مرة أخرى فتولى الحكم بعده السلطان مراد الرابع بن
 أحمد خان في نفس سنة ١٠٣٢ هـ = ١٦٢٢ م، وقد دام حكمه ١٧ سنة وعمره ٢٨ سنة،
 ثم جاء إبراهيم بن أحمد خان إلى العرش سنة ١٠٤٩ هـ = ١٦٣٩ م واستشهد في
 ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ م ابنه محمد الرابع الذي هو الآن سلطان العصر والأولن أطال الله
 عمره وأيد سلطنته إلى الأبد، آمين آمين.

ولا شك في أن الله سبحانه وتعالى قد شمل - بظن منه - هذه الدولة العثمانية العلية؛ فحالفها التوفيق والنجاح في كل فتوحاتها حتى تم لها الاستيلاء على بلدان سبعين ملكاً، والسبب في وصف حكاية وسلاطين هذه الدولة بالقاب "خادم الحرمين الشريفين ومولى ملوك الروم والعرب والعجم"، والباعث أيضاً على أن يفوقوا جميع الملوك والسلاطين في جميع أنحاء العالم كان فاتح مصر العظيم السلطان سليم شاه ابن بايزيد خان رحمة الله عليه، ولندكر الآن كيف امتلك مصر ذلك الفاتح العظيم.

سبب ضم السلطان سليم مصر

غير خاف على المؤرخين والعلماء بالتاريخ أن السلطان أبا الفتح محمد خان الغازي قد قام - في بادئ أمره - بمحاربة "أوزن حسن" وفاتله في سيل ترجان، وهزمه هزيمة منكرة ثم تحول نحو بلدة طرابزون (طرب أفزون) الواقعة على شاطئ البحر الأسود، فحاصرها برأ وبحراً حتى استولى عليها في مدة وجيزة. وقد عين ابنه السلطان بايزيد الولي حاكماً عليها. فقام بأعباء الحكم والإدارة بيا بكل حزم وعدل حتى وهبه الله تعالى نجله سليم الأول؛ الذي أثار الكون بظهوره في برج الشرق وطلوعه كالشمس في سماء الدولة والإقبال وبروز شأنه يوماً بعد يوم في كل الأرجاء.

وبينما كان أبو الفتح محمد متوجهاً من دار السلطنة إلى قتال الأشقياء والعصاة الموسومين بآل قرمان، وافاه الأجل المحتوم في المكان المعروف بـ "مالتة" على مقربة من إسكدار؛ فانتقل الحكم إلى نجله السلطان بايزيد الذي بادر إلى أخذ عشرين ألف جندي من جيش نجله الأمير سليم، وكانوا أبطالاً مغاوير، لسان حال كل واحد منهم يقول "أنا ولا أحد غيري" فوضعهم تحت إمرة حاكم مستقبل البلاد، أمراً إياه أن يغزو بهم وينهب أطراف تلك البلاد الأربعة. وذهب هو بنفسه إلى إسلامبول وتسلم عرش آل عثمان وتفرغ لتصرف المسلمين. وفي خلال ذلك كان الأمير سليم يغزو بلاد الكرج والمكريل والداريان ويخضعها خضوعاً

كاملاً فيكسب بذلك خبرة بالبلاد ووقوفاً على أحوالها، حتى اشتبك يوماً مع "ميراخان" من أقرباء "أوزن حسن" في قتال وحروب دامية؛ أسفرت أخيراً عن استيلاء الأمير سليم على قلعة "جانخه" بقوة السيف، وقد اغتتم أموالاً كثيرة أرسل منها مقدار ثلاثمائة قنطار من الأواني الفضية هدية إلى والده السلطان بايزيد؛ فسر بها كل السرور وبعث إلى سليم خلعة سنية فاخرة ورسائل شكر وتقدير. وما لبثت سليم أن اتخذ "جانخه" مركزاً لحكومته وزاد عدد جيشه بعشرة آلاف من الجنود حملة البناتق ورماتها.

هذا، والسبب في تسمية بلدة "جانجه" باسم "گُمُشْخَانَه" - الذي معناه البيت الفضي - هو احتواؤها على سبعة مناجم للفضة تجري فيها كالعيون. ومن حسن حظ الأمير سليم ودلائل توفيقه أن ظهر فيها منجم ذهب أيضاً، فبادر إلى سك نقود منه بلغ مقدارها مائة ألف دينار ممسك منقوش عليه (السلطان بايزيد بن محمد خان عز نصره ضرب في جانخه سنة) وأرسلها إلى والده فسر به كل السرور وأعرب عن إعجابه وتقديره له، قائلاً: "يا سليم اهنأ بالبلاد التي فتحتها بجدك وإخلاصك، وإنني قد أنعمت بها عليك وأصدرت بها مراسيم كريمة وفرمانات عالية". وقد أسعد هذا الأمير سليم وأثار في نفسه الأبية النخوة والحماسة فانقلب أسداً هصوراً أو أفعواناً ذا سبع رعوس، فأخذ يصول ويجول يميناً وشمالاً حتى فتح في بضع سنوات خمسين وأربعين مدينة عامرة وقلعة حصينة؛ أمثال قويلي حصار ونيكسار وبابورت وأسپروتورتوم وأرزنجان، إذ كان كلما قصد جهة فتح الله عليه فينتصر ويظفر بالأعداء بفضل الله تعالى وقوته.

ولما كان السلطان بايزيد الورع متجهاً بكل قلبه وإخلاصه نحو فتح قلعتي "متون" و"كورون" الكانتنين في ولاية المورة الخاضعة لإفرنج البندقية، انتهز الفرصة كل من القيزيلباش^(٢٢٣) [الإيرانيون في عهد الصفويين] وحاكم ذي القدرية

(٢٢٣) القيزيلباش: هي صفة تركية مركبة من كلمة قيريل وتصف اللون الأحمر وثبات الرأس، وقد أطلقت هذه الصفة على طائفة تابعة لأحد غولات الشيعة الذي يدعى حيدر، =

المسيطرين على مرعش المدعو علاء الدولة، واتحدوا قلباً وقلبا وهاجموا البلاد العثمانية وأخذوا منيا بلاد توقات وسيواس وأماسية ووصلوا حتى بلدة عثمانجق؛ وهكذا صار سلطان العجم يشيع وينتشر في البلاد، على أن الأمير سليم كان يصدّهم ويفتك بهم تارة ويقطع عليهم خط الرجعة تارة أخرى؛ ولكن الغزاة والمهاجمين كانوا أقوياء وأكثر جندا وأعز نفرا. فلذا كان الأمير يبدى أسفه الشديد لهذه الحالة ويتمنى إنزال ضربة قاصمة بهؤلاء الأعداء. وحدث أن ساق السلطان بایزید الولى مرة جيشاً جراراً إلى سهل ترحالة لقتال العجم، ولما التقى الجمعان وحى وطيس القتال بين الطرفين إذا بعلاء الدولة صاحب إمارة ذى القدرية ينزل إلى الميدان ويقتحم ساحة الوغى ومعه اثنا عشر ألفاً من فرسان الجيش المرسل من قبل السلطان الغورى ويعمل السيف فى رقاب جنود بایزید الولى.

وبعد معركة طاحنة ينزيم العثمانيون قبيل غروب الشمس؛ فيعتصم الأمير سليم يومئذ بجبال جانخه فيخلو الجو حينئذ للخلفاء من العجم والتركمان والغوريين المصريين؛ فاستاء الأمير سليم من المصريين كل الاستياء وتحرق شوقاً إلى لقائهم فى أقرب فرصة. فكان ليل نهار يقول: "إن منحنى الله عرش آل عثمان يوماً ما فإنى أعاهد الله تعالى على أن تكون أول غزوة لى فى سبيل الله إلى بلاد العجم، وأن تكون الثانية إلى بلاد آل ذى القدرية، والثالثة إلى الديار المصرية. أليس من المفارقات العجيبة أن يكون البلدان الأخيران مسلمين ويقومان بعون العجم على المسلمين؟" (٢٢٤)، وعلى كل فالأمر بيد الله يصنع ما يشاء ويختار وهو الفعال لما

= وكان حيدر هذا قد استحدث تاجاً لأتباعه لتمييزهم عرف باسم "تاج حيدر"؛ وكان هذا التاج أحمر اللون وذا اثنتى عشرة ذؤابة كناية عن الاثنتى عشر إماماً لدى الشيعة، وقد أطلق العثمانيون على لابس هذه العمامة اسم "القيزيلباشا" أى الرعوس الحمراء، مشيرين بها إلى هذه الطائفة من الشيعة التى تعاضم خطرهما شرق الأناضول أواخر القرن ٩ الهجرى = ١٥ الميلادى وأوائل القرن ١٠ الهجرى = ١٦ الميلادى. (سيد محمد سيد: مرجع سابق، ص ٧٣. بالإضافة إلى O. T. D. Mehmet zeki pakalin. ve = 2. (terimleri sözlüğü cilt.

(٢٢٤) (ويقومان بعون العجم على المسلمين) فكان المؤلف هذا يعد الأعاجم الشيعة من غير المسلمين.

يريد. نعم، كان الأمير سليم يردد هذا القول ويصطبر وينتظر الفرصة. ولكن نفوذ العجم كان أخذًا في الانتشار يوماً بعد يوم، حتى وصل الحال بالعجم أن وصلوا إلى أبواب أسكار فيتخطفون الناس ويسبون النساء من البلاد ويسأون بهن إلى وكالات وخانات مدينة سيواس حيث يباعون بيع الشياه، مما أفضى إلى خضوع آل عثمان لهم وتقديم لهم العطايا والإتاوات من الأبسطة والطنافس والجوالق وغيرها من الأمتعة المتنوعة. كان يحدث هذا والسلطان بايزيد الولي منخرط في سلك الطريقة الخلواتية ومتجه بنفسه إلى الرياضة وتصفية القلب من أمور الدنيا وشئون الدولة غير عابئ بها ولا مشغول بمشاغلها؛ وهذا ما حدا بالأمير سليم إلى أن يتصل بأولياء الأمور في الأستانة سرًا ويتفاوض معهم فيما آل إليه الأمر وتفاقم الحال في أنحاء المملكة العثمانية، وقد أرسلوا إليه يطلبون منه أن يكون لهم ظهيرًا، ويقولون له: "فقد ساءت الحال ولا تسمح الأحوال بعد الآن بالانتظار والصبر، ونحن مستعدون وموطنون النفس على تسليم العرش إليك بمجرد قدومك...".

فما كان من سليم خان إزاء هذا إلا أن عيّد إلى ابنه سليمان خان، وكان قد ولد بطرابزون ونشأ بيا مثله وكان يحبها حبًا شديدًا، حتى إن الشاه إسماعيل كان كثيرًا ما يطعن في سليمان خان وكان يرسل إليه رسائل مليئة بالشتائم، كان يقول فيها "وأينا اللاظ وابن اللاظ" وقد صار فتى شجاعًا قوى البنية ورشحه ذلك لحكومة "كفه"، رجاء والده الموافقة على ذلك فأجابه السلطان.

بادر الأمير سليم إلى وضع خمسة آلاف من الجنود الشجعان الأبطال في مائتي سفينة وأرسلهم إلى "كفه" الواقعة على بعد ثلاثمائة ميل من طرابزون، فذهب سليمان وصار حاكمها المستقل بلا منازع وشرع في حشد الجيوش والعساكر، وأعطف ذلك سفر الأمير سليم وفي صحبته خمسمائة سفينة تحمل عشرة آلاف من الجند، وذات ليلة ظهر فجأة أمام ميناء كفه وقلعتها. فدخلها واجتمع بخان التتر "منكلى كراي" وأطلععه على حقيقة الأمر. فما كان من خان التتر إلا أن وافقه على

رأيه وباركه وأمدّه بأربعين ألف جندي من جيشه الخاص. علاوة على الجيش الذي حشده الأمير سليم الذي شرع في المسير نحو الأسنانة بقطع المنازل والمراحل ويواصل سيره ليلاً ونهاراً، حتى وصل مكاناً يدعى "تراوادي" وأقام بوادي "أوغرا" حيث التقى هنالك بجيش السلطان بايزيد، الذين كانوا قد فكروا في الأمر ملياً؛ قائلين: إننا إن لم نحارب هذا الأمير الشاب الجسور الطموح الآن، فإنه سيستولي على مقاليد الأمور ويتمكن من القضاء علينا جميعاً ولن يبقى حينئذ على أحد منا، فالأنسب أن نقاومه ونبدأ بالقتال دون أن نمحنه الفرصة السانحة^(٢٢٤).

وهكذا باغتوا جيش الأمير سليم، الذي لم يكن يتوقع ذلك قط، فلم يكن جيشه مستعداً لهذا القتال المفاجئ. وقد بدأ في قصف المدافع ورمى السهام المسمومة وإطلاق البنادق النارية، وأسفر القتال في وادي أوغراش عن هزيمة جيش الأمير سليم. الذي ولى الأدبار ولاذ بالفرار والهزيمة نحو ساحل نهر الدانوب، واضطر الأمير سليم إلى الاعتصام بالسفينة التي كانت راسية في ميناء وارنه بساحل البحر الأسود، وسافر بها عائداً إلى مركز حكومته القديم طرابزون وقد نال منه الخجل والتأثر كل منال، فانزوى بها مدة لا يقابل أحداً من فرط الخجل نفسه. وكان نائبه المدعو "صاري قيايك" قائماً بشئون الحكم بطرابزون، و"ماللي على بالك" كان قائماً بشئون الدفاع والحراسة في جانيخ أو (جنتخه). كما كان الأمير سليمان قائماً بالحكم في كفه [ميناء القرم].

(٢٢٤) إشارة إلى أنه قد نشأ وترعرع بين سكان طرابزون من اللاظ، وهم قوم قد استوطنوا مناطق البحر الأسود.

قصة الأمير سليم

هذه القصة ينقلها هذا الضعيف من محل الثقة، وهو والده المرحوم الدرويش محمد ظلى الذى كان يبلغ من العمر مائة وسبعة عشر عاماً، حين انتقاله من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة. وهو، وإن لم يكن قد طاف فى البلاد مثلى، إلا أنه قد أدرك عهود تسعة من السلاطين العثمانيين، وعلاوة على ذلك فقد شرف بصحبة السلطان سليمان خان أثناء غزوه لقلعة سكتوار [فى المجر]، كما أنه كان فى صحبة السردار مصطفى باشا الذى فتح جزيرة قبرص، وقد أوفده الباشا إلى البلاط العثمانى حاملاً مفاتيح قلعة باغوسه بعد فتح الجزيرة لرفعها إلى سدة السلطان سليم الثانى، وقد أُنعم عليه بخلع سنية مع إسناد منصب رئاسة صاغة القصر السلطانى إليه مدى الحياة مصدرًا مرسومه الكريم بذلك. وفى عهد السلطان أحمد قام والدى هذا بإنشاء الميزاب الذهبى لمكة المكرمة "يقصد الكعبة"؛ حيث سافر إليها بوظيفة أمانة الصرة الشريفة وقام بوضع ميزاب الرحمة على سطح الكعبة.

والغرض من ذكر هذا هو أن أبين أن والدى كان ذا تجارب وخبرة بالأمور، وشيخاً حنكته التجارب وصقلته الأحداث والمهام. قد كان عالماً بما يقول وبروى. وكان مثله كلاً من الأفاضل فوزى على أغا البالغ من العمر مائة وثمانية وأربعين عاماً، وكان متولياً ركايب السلطان سليمان، وعبدى أفندى صاحب خان ابن تاجر الأرز "برنجى زاده" الواقع فى حى "زيرك"، وفراقيز محمد أفندى الذى يقطن بقرب حمام العرب، كان هؤلاء الشيوخ الطاعنون فى السن يجتمعون غالباً فى مجلس يتجادبون فيه أطراف الحديث. وكان هذا الضعيف يستمع إلى حديثهم ويسر به أياً سرور، فرأى فى ليلة من الليالى شخصاً مهيباً، وإن كان ضعيفاً ونحيفاً، يدخل المجلس يسنده خدمه وأتباعه، فما كان من الحاضرين إلا أن هبوا جميعاً وحفوا لاستقباله ورحبوا به ترحيباً عظيماً، حتى أتوا به إلى صدر المكان بكل تجلة واحترام قائلين: شرفت على الرحب والسعة يا عزيزنا حلیم أفندى، ثم شرعوا جميعاً يتناولون المكيفات التى أخذت تلعب بعقولهم وترفع التكليف فيما

بينهم؛ فتعبد إليهم الذكريات وتحملهم على مواصلة السمر والتسدر وقد أمالوا طواقبهم.

وقد ابتدأ قوزى على آغا صاحب ركائب سليمان خان قائلاً: يا عزيزى حلمى أفندى! أنا أناشدك باسم السلطان سليم الأول سيدك، ومولانا سليمان خان أن تحل لنا هذه المشكلة؛ فتذكر لنا بالتفاصيل كيف كنتم متكرين بعد انهزام سليم الأول أمام جيش والده بايزيد خان فى وادى أوغراش على مقربة من حاجى أوغلى بازارى (أى سوق حاجى أوغلى)، وكيف عدتم إلى طرابزون واختفيتم بها؟ عند ذلك شرع المذكور يحكى ويقول: إن المرحوم سليم خان أرسل إلينا أنا وقره نديم، يدعونا إليه يوماً من أيام انزوائه فى طرابزون "طرب أفزون"، فلبينا طلبه ومثلنا بين يديه وخاطبنا قائلاً: "ما رأيكما يا أبطال فى أن نقوم بسياحة متكرين معاً". فما وسعنا إلا أن نقرأ البسملة والفاتحة إيدانا بالموافقة من غير أن نسأل عن الوجهة التى نقصدها. حينئذ أخرج سليم خان من جيبه مصحفاً شريفاً واستحلفنا عليه بالألا يُفشى هذا السر أحد ما، وقد أقسمنا بالله كما أراد اتباعاً للقول المأثور "لا بأس أن نضحى برعوسنا ولا نفشى أسرارنا"، ثم دخلنا غرفة الملابس والمخزونات فلبس كل واحد منا جبة بكتاشية وحمل فى يده بلطة مسلمية وتحزم بمقلع داودى ووضعنا على رءوسنا تيجانا وفى أقدامنا أحذية. ثم تقلدنا حزاماً من الجلد الممشك الأحمر، ومعنا حقيبة مليئة بتحف وكتب، ولكل واحد منا فروة وإحرام وضعناها على أكتافنا. وخرجنا من الخزانة، فإذا بحمار مهياً لنا لنحمله حقيبة الكتب والإحرامات. وسرنا على بركة الله مبكرين لا يعلم الناس ماذا يجرى حولهم ونحن نغادر طرابزون.

ولقد كان "سليم دده" حينذاك قوياً ميبيا وسيم الطلعة أبيض الجبين. وأما أنا هذا الضعيف و"قره نديم" فكنا أيضاً شابين قوين نناهز العشرين كأننا من ملاعبى القرود. وقد ألبنا على أنفسنا ألا نذكر شيئاً من شئون الدولة أو اسمياً أو ما يتعلق بها بألسنتنا قط طيلة أيام رحلتنا فى هذه البلاد التى طالما قمنا بها برحلات الصيد

وأسفار القنص والمطاردة، ثم نذهب إلى بلاد بعيدة كانت لنا بها فتوحات عظيمة. وهكذا سرنا سبعة أيام معا حتى دخلنا بلاد الشام "شامخال" سلطان داغستان. ونزلنا في جوامع بلاد الخان "قرابوداق" عدة أيام ضيوفاً نتعبد فيها ونستريح، وقمنا بعدها وسرنا حتى اجتمعنا بالخان "شمخال" الذي سألنا قائلاً "من أين أنتم أتون أيها الدراويش؟" فرد عليه "سليم دده" قائلاً: "إننا قادمون من بلاد الروم". وبعد أن لبثنا عنده ضيوفاً بضعة أيام توجهنا نحو مدينة "طرخو" ومنها إلى مدينة "قوين" ثم إلى مدينة "دميرقيو" على حدود العجم، ومن هناك أخذنا خطابات توصية من الخان العجمي إلى قلعة "ماكو" ثم إلى "جيلان" و"كنجه" و"شيروان"، ثم سرنا على شاطئ بحر الخزر حتى دخلنا "مازند ران" فأقمنا بها ثلاثة أيام بلياليها، ثم غادرناها إلى "قم كشان" ومنها إلى جبل الديلم. ثم اتجهنا نحو "خراسان" فأقمنا بها شهراً جددنا خلاله حياتنا الروحية بتجديدنا البيعة لآل البيت والثقة بهم. فأخذنا العهد على الشيخ الذي يقيم هناك، وقد حملنا منه الكتب إلى بلاد الروم لأتباع الولي العارف بالله الحاج بكتاش. ولقد مررنا بمائة وسبعين قسبة ومدينة حتى وصلنا مدينة أصفهان التي هي في السعة نصف الدنيا كما ورد في المثل "أصفهان نصف جهان" فأقمنا بها، ثم أخذ كل واحد منا يطوف في أطراف المدينة وشوارعها وضواحيها يشاهد ما بها من الفرائب ويتمتع بما فيها من الميزات والنعم الكثيرة، وكان "سليم دده" يتردد على القهاوي ويلعب الشطرنج حتى اشتهر بإجادته اللعب في سائر أنحاء المدينة. لم يكن يستطيع أحد من أساتذة هذه اللعبة أن يكسب دوراً أمامه.

ولقد تملك العجز والدهشة جميع أهل أصفهان من مهارة "سليم دده" في لعب الشطرنج، فأخذوا يتساعلون مندهشين إن لعب شاههم الجميل مع الدراويش الماهر في الشطرنج فأيهما يغلب الآخر؟ وأخيراً أنبأوا الشاه إسماعيل بمهارة درويش قدم حديثاً إلى أصفهان في لعب الشطرنج وكيف أنه يغلب سواه، فأمر الشاه فسوراً بإحضار ذلك الدراويش إليه. وذات يوم ونحن جلوس في التكية إذا بحمار أبلق وراءه أغا ذو وجهة تقدم إلينا يحيينا بقوله: "زادكم الله حباً يا درويش"، فرددنا

عليه بقولنا: "زادكم الله جمالاً وكمالاً أيها الزعيم". وعند ذلك قال الأغا: "إن الشاه يستدعيكم إليه وهو في انتظاركم فاستعدوا لأذهب بكم إليه".

ولما ذهبنا نحن الثلاثة بجيبنا الفاخرة إلى حضرة الشاه بأمر "سليم دده" إلى فتح حزامه، وإخراج نايه الإسرافيلي وضرب نغمة محمدية ثم ثناها بنغمة حيدرية، ثم ترنم اثنتي عشرة نغمة أخرى رمزاً إلى الأئمة الاثني عشر، ثم ذكر أسماء الله الحسنى "الواحد والفرد والأحد والقادر والأول والآخر والظاهر والباطن"، ثم ضرب اثنتي عشرة نغمة أخرى لهذه الأسماء الحسنى ثم صاح في عقبيه بقوله "الحق"، ثم تقدم إلى الشاه واضعاً يده على صدره ومُميلًا طاقينه ثم خاطبه بصوت إلهي عاشق، ثم حياه تحية فارسية، ثم انتحى مكاناً وأخذ يترنم بأبيات تركية معناها:

أيها الملك أفاق عدلك نيرة ساطعة فكن سراجاً وهاجاً لمحافل الدهر مثل الشمس.

وكن تارة كالنارنجة تعطر الربوع، وكالوردة المفتحة تزدان الحدائق بها تارة أخرى. ولا يحرم الله العالم من وجودك.

وقد أعجب الشاه إسماعيل بهذه الحركات والأقوال أيما إعجاب وسر بنا أبلغ السرور، فقام له وتقدم إليه وأخذه إلى جانبه يداً بيد وأجلسه معه وخاطبه متلطفاً قائلاً: "مرحباً أيها الرجل من أين أنت قادم؟" فقال سليم دده: "إني يا سلطاني قد تربيت في كنف الولي الحاج بكتاش في بلاد قيصر، ثم طفت البلاد وتنقلت بها؛ فذهبت إلى القرم ثم إلى بلاد "الخان شمخال" وبعدها إلى مشيد خراسان في بلاد بخارى لزيارة الأكابر، وأخذت كتباً ورسائل من بعض المشايخ، وجئت الآن إلى ديار الكمال والجمال للتشرف بلقاء شاهي وملكى ذى الوجه البشوش الضاحك والطلعة البهية"، وقدم الكتب والرسائل المشار إليها إلى جلالة الشاه الذى ابتيج بنا كثيراً وقال: "يا رجل على الرحب والسعة".

وفى أثناء ذلك فض الشاه كتاب الشيخ وتلاه وما إن فرغ منه حتى عين لنا مكاناً ننزل فيه فى قصره العالى، فلبثنا فى أصفهان مدة غير قليلة حيث نادم سليم دده" فيها الشاه إسماعيل فى غالب الأوقات وحادثه وجالسه حتى ارتفع التكليف بينهما، فقال له الشاه ذات يوم: "يا سليم دده يقال إنك ماهر فى لعب الشطرنج"، فأجاب: "نعم يا سلطانى هذا صحيح" فرد الشاه بقوله: "إذن هيا نلعب معك دوراً يفوز به البخت أو العرش". قال سليم دده: "أنا لا أستطيع ملاعبة الشاه لأن جلال الملك والسلطنة يمنعونى من ذلك" فقال الشاه: "لك أن تعمل ما بدا لك، فتصرف كيف تشاء ولا تفكر فى صفة الشاهية والملك، قم أيها الرجل فالمجال أمامك متسع". عند ذلك قال سليم دده: "إن فى هذه الأقوال طمأنة وأماناً من الشاه كبيرين وتواضعاً يشكر عليه، وعلى كل فانه سبحانه وتعالى لطيف وخبير بأحوالهم".

ولما شرع سليم دده فى لعب الشطرنج مر بخاطره الشريف أنه إن غلب الشاه فى هذه اللعبة الفريدة فعسى أن يكون ذلك عنواناً للظفر به وآية على خضوع بلاده له بقوة سيفه وحدة حسامه. وإذا بحكمة الله سبحانه وتعالى تتجلى وتظهر بوادى الغلبة والظفر حيث يموت ملك الشاه، ثم ينشد ويقول: "حينما يشنك الفيل بالفيل فالموت محقق، واسحب الفيل من بيته فالشاه ميت لا محالة"، ثم يقدم على إمارة الشاه بالفيل، فما كان من الشاه إسماعيل عندئذ إلا أن ثار غضبه ورفع يده وصفع سليم دده صفة سلطانية. فصاح سليم دده: "أيها الشاه إنك خالفت الوعد ونقضت العهد؛ إذ قلت أنفاً اعمل ما بدا لك. ولا تلتفت لرتبة الشاه وجلال السلطنة، فإننى ما عملت إلا بقدر معرفتى بأساليب اللعب ومقتضاه، ولكن يأتى يوم لا أفى بوعدي حينما ألعب وأميت شاهى".

قال هذا ورمز إلى ما يبطنه فى نفسه. ولكن الشاه إسماعيل لم يظن إلى ما يقصده من هذا القول، ثم لعبا فى ذلك اليوم ثلاث مرات غلب فيها جميعاً سليم دده الشاه إسماعيل الذى ثارت ثائرنه واشتد غضبه. ولكن سليم دده نال مرامه وغرضه من الشاه خلال ذلك فى الحصول منه على الإذن السامى بزيارة الأمكنة

المقدسة التي كانت زيارتها محظورة كل الحظر. فضلاً عن حصوله على الإحسانات الشاهانية من أنواع الجواهر والهدايا القيمة. فمن تلك الزيارات زيارة ضريح التركي التركمانى الخواجه أحمد بسوى أستاذ الحاج بكتاش ولى.

ثم غادر أصفهان وساح فى بلاد كثيرة حتى وصل إلى مقبرة الشيخ اليسوى وزاره ثم زار عدداً من كبار أولياء الله؛ فقال رضاهم ودعواتهم الطيبة ثم تشرف بزيارة مرافد جمع من أولياء الله أيضاً، وبعدها عاد إلى "تبريز" و"همدان" و"أردبيل" و"درگزین" وبغداد الشبيهة بالجنة و"نرّنه" و"نرّنتك" و"شیربان"، وأقام ببغداد أربعين يوماً تمكن خلالها من زيارة مرافد الإمام الأعظم، وعبدالقادر الجيلانى، والشيخ شهاب الدين السهروردى، وسلمان پاك، وجومرد القصاب، والإمام موسى، ومعروف الكرخى، والإمام الحسين، والإمام على، حيث تمكن من تعفير وجهه بتراب عتبات هؤلاء الأولياء الكرام مستمداً المعونة والبركة من روحانيتهم العظيمة العالية.

قدوم الأمير سليم فى سياحته من بغداد إلى الكعبة

وسار الأمير من بغداد مع حجاجها متجهاً إلى الكعبة الشريفة فوصلها فى سبعة عشر يوماً، فزارها حاجاً ثم فى زيارة الأحياء من أولياء الله الكبار بها وزار أيضاً أمكنة أخرى. ثم التحق بحجاج مصر وذهب معهم إلى زيارة المدينة المنورة، وتقدم لزيارة ذلك الحرم النبوى المقدس بعد أن اغتسل جيداً، فتمسك بالشباك النبوى وصاح صيحة قوية مزقت قلوبنا جميعاً قائلاً: "يا رسول الله إنك خلفت فى الدنيا ما سمى "الناموس المحمدى" فما هذا الناموس المحمدى الذى يجعلك تنام هكذا بين كفر الجراكسة المصريين وهل هذا يعد ناموساً؟ ها أنا أعطيك عهداً وميثاقاً إن يسر الله لى ببركتك فتح مصر أن أجعل بلاد مصر كلها وفقاً عليك، وأبنى بها قلاعاً، وأرسل كل سنة لأمتك الكساوى والصرة وسائر العطايا والهدايا".

قال هذا وتضرع وابتهل وبكى وأبكى كثيراً، ثم كرر هذا العمل من التضرع والابتهال سبع مرات، وإذ بشخص متشح بملابس رثة يقول من تحت شبك الرسول: "يا سليم أنا كفيل لك وضامن، فاذهب إليها وقم بعملك كما تريد وإياك وظلم العباد والتعدى عليهم، وعليك بمراعاة علماء مصر، ثم أشار بيده قائلاً ومكرراً لفظ "رَح" "رُح"، وفي الوقت نفسه ارتفع صوت من القبر الشريف يقول: "تستور يا سليم دستور يا سليم!" فحمد الله سليم دده عند ذلك ورافق حجاج مصر في القدوم إليها، وقد وصلها بعد أربعين يوماً ونزل في نكية "ميمندى" بالقرافة الكبرى.

ولما زرنا أبا السعود الجارحي ومرزوق الكفافي سلم عليهما سلاماً حاراً فرد أبو السعود الجارحي عليه بقوله: "عليك السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين وحاكم مصر، سلامتك يا سليم، سلامتك "رُح" بالعجل إلى بلاد الروم هكذا كشف عن الغيب". وكذا أظهر مرزوق الكفافي الكرامة وكشف عن الحال فقال بالتركي ما معناه: عجل بالعودة وتسلم عرش السلطنة ثم أسرع في غزو بلاد العجم، وبعد هذا تعال إلينا حينما ندعوك ولا تقم الآن بمصر. وهكذا أخرجنا كبار الأولياء من مصر بسرعة؛ بيد أننا لم نر مثيلاً في بلد ما للظلم والجور اللذين شاهدناهما في مصر في مدة الاثنى عشر يوماً التي قضيناها بها؛ لأن سلطانها الغوري كان حينئذ يبني قناطر المياه في مصر، فيظلم الأهالي ظلماً شديداً ويسخر الأهالي حتى العلماء في حمل الأحجار وسائر الأشغال الشاقة، وكان هو عاجزاً عن ضبط الطائفة العسكرية والجنود وردعهم عن إيقاع الظلم والجور والتعدى على الأهالي^(٢٢٦).

(٢٢٦) إن زيارة سليم وهو مازال أميراً لكل من بلاد العجم والعراق وأداءه الحج وزيارته لمصر هذه في حاجة ماسة إلى تحقيق من قبل نوى الاختصاص.

ولما تبين لنا هذا بادرنا إلى امتطاء صيوات خيولنا الأصيلة وزرنا المشايخ وتزودنا بالإجازات وكتب التوصية، منها إلى "خليل بن رمضان" من حكام آل رمضان في أذنه ليقوموا بخدمتنا حين العودة إلى بلادنا.

هذا، ولقد رجعنا إلى أذنه في عشرين يوماً، ومنها إلى أرضروم في مثل هذه المدة، ومنها إلى طرابزون في أيام، حيث اجتمع سليم دده والدته المشفقة الحنون وتشرف ببركات دعائها الطيب. وحينما سأل عن أحوال والده السلطان بايزيد الولي علم أن شئون الدولة أخذت في الاضطراب والاضمحلال؛ فإن أهالي الأقالق وأردل والبغدان الكفرة شقوا عصا الطاعة وثاروا ثورة لا يعلم إلا الله مصيرها؛ مما جعل أولياء الأمور في السلطنة يضربون أخماسنا في أسداس حائرين فيما يعملون، وعاجزين عن اتخاذ أى تدبير ناجح، ولذلك أخذوا يتلاومون قائلين إن الأمير سليم كان قد توجه إلينا لإنقاذ الدولة قبل سنتين، فحاربناه وقاتلناه حتى هزمناه فوا أسفا على ذلك الأمير البطل السعيد الذى حرمانا من خدماته مدة سنتين. وماذا نعمل الآن؟ ولا ندري هل استنجد الأمير فى تلك الحروب المشنومة أم فُقد فى جهة ما، وهل نعد إلى "سليمان خان" ابن الأمير سليم خان، وهو الآن مقيم فى "كفه" ونقيمه سلطاناً علينا؟ هكذا كانوا يتساعلون وهكذا كانوا يبدون الأسف والندم.

وبينما هم كذلك إذا بخطاب الأمير سليم "الدرويش" يصل من طرابزون إلى الأستانة فى سبعة أيام بفضل ريح التوفيق التى تهب فى البحر، فسر كل السرور لهذه البشرى كل من فى الأستانة من رجال الدولة وأعيان الأمة المحمدية وسوادها؛ إذ علموا أن الأمير سليم ما زال على قيد الحياة متمتعاً بالصحة الكاملة. فيبادرون إلى إرسال الرسائل وإيفاد الرسل إليه يدعونه إلى تسلم مقاليد أمور الدولة وتسلم العرش من غير أن يصطحب معه جيشاً ولا جنداً، وقد تضرع إليه هذه المرة رجال قيادة الجيش العليا والعلماء وسائر رجال الدولة والذين قالوا فى رسائلهم إنه قد بلغ السيل الزبى وطفح الكيل ووقع اختيارنا واتفاقنا جميعاً على إجلاسك على كرسي السلطنة وعرشها السامى؛ فأرسلوا كتبهم ودعوتهم على جناح السرعة إلى

الأمير فوصلت في سبعة أيام إلى طرابزون. وبادر الأمير سليم إلى السفر إلى كفه" بسبعمئة قطعة من السفن المسماة "شايقا" و"قرامورسل"، واجتمع بابنه سليمان واحتضنه بلهفة وشوق حيث وجدته شاباً أنيقاً باسلاً وسليمانياً رقيقاً فقبله بين عينيه النرجسيين.

هذا، وكان محمد كراي خان "حاكم القرم" قد تولى منصب الخانية حديثاً، وسافر بجيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف جندي إلى أدرنة، فلما وصل إلى مقربة منها جاءت الأنباء أنه لحكمة يعلمها الله قد قام الكفار بالزحف من جهة هنغاريا "أنكروس" أي بلاد المجر، واستدعى الأمر نذب الأمير سليم إلى جهة بلغراد.

فلما وصل الأمير إلى "صوفيا" عمد الجيش الإسلامي إلى الذهاب ببازيد خان إلى إسلامبول، وهذا ما حدا بالأمير سليم إلى أن يعود هو أيضاً من صوفيا ويتبع أثر الجيش الإسلامي، وكان بايزيد إذا ما رحل من منزل من منازل الطريق حل مكانه الأمير سليم حتى بلغوا جميعاً سهل "جورلو"، فقام الجيش بثورة عامة وأخذوا يتصايحون. إنهم لا يقبلون سلطنة سليم ولكن المنصفين منهم والعقلاء كانوا يقولون إن دولة آل عثمان في زوال وتدهور وأخذوا يعقدون مجالس للتشاور وتبادل الآراء، وبينما هم كذلك إذ بجيش الأمير سليم يصل إلى الميدان، ويمتشق الطرفان الحسام وتدور رحى معركة حامية تسفر عن اندحار الثائرين وانهزامهم فيعلن خلع السلطان بايزيد وسلطنة سليم الأول في سهل "جورلو" هذا، وخاطب بايزيد بعد ذلك ابنه داعياً عليه بهذا الدعاء:

"يا سليم! إنك انتزعت الملك مني في سهل "جورلو" بالقوة والعنف. وأسأل الله سبحانه أن تتقلب مقهوراً في هذا السهل نفسه! فاللهم اجعل سيفه قاطعاً وعمره قصيراً واجعل الإنكشارية في حرب دائماً، وبارك في رواتبهم حتى يتصدروا أولادهم واحفظ أجسادهم من الإهانة في ساحة الوغى، واجعل الفرسان كثيرى النعم قليلى البركة وعظيمى المظهر، واجعل أجسادهم طعمة للفتك والتقطيع في ميدان

القتال ولا تبارك في المدرعين، واجعل أرباب الإقطاعات والامتيازات مشغولين بالقضايا والمنازعات طامعين في ترك أموالهم ميراثاً لأبنائهم".

هكذا دعا بايزيد على جميع طوائف الجيش الإنكشارى من رعايا آل عثمان وجنودهم ثم أرسله إلى ديمتوقه، ففاضت روحه أثناء الطريق في موضع يدعى "هاواسه"، وأما كيف مات ولماذا فأمر لا يعرفه أحد.

بيان استقلال سليم الأول بالسلطنة سنة ٩١٨ هـ = ١٥١٢م

لما انفرد السلطان سليم الأول بالحكم والسلطنة قمنا معه نحن الثلاثة - هكذا يقول حليمي جلبى - فى يوم البيعة فى "بنى باعجه" فى إستانبول "إسلامبول" بسياسة كالأولى فى الفجر وقت الشافعية، وقد تكررنا فلبسنا زى الدراويش وطلعنا من الغرف السلیمانية من وراء الحجاب، فتوجهنا نحو أبى أيوب الأنصارى ثم إلى أبى الفتح وزرنا مرقديهما، وبعد ذلك دخلنا ثكنات قداماء الصولاق^(٢٢٧)؛ حيث استقبلنا رؤسائهم بحفاوة وترحيب وقدموا لنا الفطور والقهوة، وفى أثناء الكلام قال لهم: "أيها الرفاق الغزاة هل تريدون سلطاناً قادراً على الركوب والنزول دائب الحركة؟ أم تريدون سلطاناً معتكفاً فى زاويته يمضى الأوقات بالدعاء والتضرع؟" فقالوا جميعاً: يجب علينا أن نقوم دائماً بواجب الغزو والجهاد حتى نحل لنا الرواتب والمخصصات التى نتناولها من وقف الله، فقد أحاط بنا العجم والكفار من جهاتنا الأربع ولم يتركوا لنا بلداً.

عند ذلك بادر "سليم دده" إلى تحليفهم بالله قائلاً: "إن رجعت عن قراركم وتصريحكم هذا تكونوا قد نكثتم أيمانكم وصرت من الحائثين". وحلف الكل على ذلك وتقدم سليم دده نحو باب الهمايون فنفتح فى الصور على الأصول البكتاشية ثم دخل الباب الأوسط ونفتح فى الصور مرة أخرى، ونال الإحسان المعتاد من كتحدا

(٢٢٧) جنود من المحاربين كانوا يأخذون مواضعهم فى ميمنة الجيش خلال المعارك.

أى معتمد البوابين والحراس، وواصل السير حتى ولج باب الأغا الأبيض ونفخ في الصور وأخذ الإنعام والhibe المعتادة.

وبينما هو كذلك إذ سنحت له الفرصة بالدخول بين غلمان القصر وتسلسل بينهم دون تكلف وتوجه نحو الغرفة الخاصة التي نشأ فيها سليم خان نفسه، واقتحمها وجلس على عرش السلطنة مستمراً ثابتاً كأنه سد الإسكندر، وقد أمال تاجه وهو بتلك البزة الدرويشية، وإذ بغلمان القصر ومماليكه الخاصة يفاجأون بسطوع النور وتلألؤه في أنحاء القصر فيهرعون كلهم نحو العرش السامي، فيهجم أربعون منهم مسلحين بالبلط والسواطير على الدرويش؛ فيبادر إلى فتح ذراعه مشيراً إلى تميمة الإمارة وعلاماتها، فيعرفون عند ذلك أنه أمير من أمراء البيت العثماني، لأن كثيراً من الناس لم يكن قد رآه وعرفه حق المعرفة. وقد تقدم إليه أولاً العارفون به من قدماء الخدم وقبلوا أعتابه قائلين أيها الأمير سليم نحن في شرف خدمتك ماثلون أمامك، هكذا تمت بيعة الأربعين أغا من أغوات الفرقة الخاصة، ولسانهم يردد معنى قول الشاعر: أنت روح القلوب الميتة يا سليم! ودواء للأفئدة المريضة يا سليم!

ثم طُيّر الخبر السار إلى الذين كانوا منتظرين حسب العادة في "ليتني باغچه" للقيام بتقديم الطاعة وأداء البيعة الشرعية، من قبل شيخ الإسلام والوزراء السبعة وجماعة العلماء والصلحاء وأعيان الدولة ورجال الأمة؛ حيث قدموا زرافات ووحدات، وبايعوه على المنوال السابق.

ولما جاء دور جنود الإنكشارية وتقدموا أفواجا أفواجا؛ رأى أصحاب الغرف القدماء منهم أن الذي كان معهم منذ مدة وقد أكل معهم الطعام وحلّهم اليمين هو السلطان بعينه، فدهشوا وطار لبهم وتبلبلت أفكارهم، ولما قال لهم السلطان: "هل توفون بوعودكم؟" صاحوا جميعاً: "نعم يا مولانا نحن مستعدون للتضحية في الخدمة، هيا بنا نعبث إلى أسكدار ونخرج من باب أدنه". قالوا هذا وجددوا بذلك العهد وأكدوا الميثاق.

وفى اليوم التالى خرج السلطان فى حفل عظيم وموكب كبير مهيب إلى مقام أبى أيوب الأنصارى، حيث تقلد فيه سيف السلطنة^(٢٢٨) ثم واصل سيره بالموكب الفخم إلى القصر العالى، وقد أمر المنادين أن يعلنوا فى الناس بأن السلطان معتزم على السفر إلى الجهاد والدوام فيه سبع سنوات. وفى اليوم الذى يليه أقام الصدر الأعظم بيرى باشا سرادقا عظيما خارج باب أدرنه وآخر أعظم منه فى أسكدار، ثم أرسل إلى جميع الملوك والسلطين رسلا وكتبنا يعلن بها سلطنة السلطان سليم، فجاءت هداياهم ورسلمهم بكتبهم يخطبون فيها ود السلطان سليم الذى هابه الكفار الضالون؛ إذ طلبوا بكل خضوع تجديد معاهدات ومواثيق السلم، وقد بعثت الباشا المذكور أنفا إلى الشاه إسماعيل كتابا يقول فيه: "إن البابا بايزيد ذا البساط والكليم (كناية عن التقاعد والكسل) قد ولت أيامه وجاء إلى العرش البابا ذو الدبوس العظيم، والذى غلبك فى السنة الماضية بأصفهان ثلاث مرات فى لعب الشطرنج فاستعد للقاءه وهو قائم إليك ليأخذ منك ثار تلك الصفعة التى صفعتها له".

وقد أسقط فى يدى الشاه إسماعيل حينما وصله هذا الكتاب شديد اللهجة، وصاح قائلاً: "أواه واندماه! إن الدرويش سليم الذى غلبنى فى السنة الماضية فى لعب الشطرنج كان هو بعينه "سليم" سليل آل عثمان، فواويلاده ويا مصيبتاه!" وكاد يقطع نفسه. هكذا نقل حلیمی لكتاب هذه السطور الفقير إلى الله تعالى وكثير الذنوب والقصور قصة "سليم خان"، هذه أمام هؤلاء الرجال الطاعنين فى السن والمتقدمين فى العمر، ولا شك فى أن هذا النقل صحيح لأن خدام "سليمان خان"،

(٢٢٢) تقليد السيف: كان هذا يرمز إلى بيعة السلطان عند جلوسه على العرش فى الدولة العثمانية. وهو من أهم مراسم إعلان السلطان الجديد. أول من تقلد السيف هو السلطان مراد الثانى. والذى قلده السيف هو الشيخ المبارك أمير بخارى. قد استحدث هذا التقليد وأصبح من الأمور المتبعة عند اعتلاء السلطان الجديد للعرش وبعد فتح إستانبول وتشييد جامع أبى أيوب الأنصارى أصبحت هذه المراسم تجرى به. آخر من تقلد السيف فى الدولة العثمانية هو السلطان وحيد الدين، وكان آل البيعة يخرج من سراى الحكم حتى جامع أبى أيوب وسط حفاوة بالغة من الشعب. (انظر فى ذلك تتمرجم: إستانبول عقب التاريخ وروعة الحضارة مرجع سبق ذكره ص ٦٧).

وهم من أقرانه، ووالدى المرحوم كانوا معه وواقفين على هذه الأحوال، فلم يعارضوه فى النقل والسرد قط، بل استمعوا له وأصغوا إليه تمام الإصغاء^(٢٢٩).

هذا، ولقد كان الطرفان متعاهدين على عدم استعمال المدافع والبنادق فى هذه الجهة من البلاد الإسلامية؛ فخطر ببال "سليم خان" عندما رأى هذه الحال الأليمة ما سبق أن حدث له عند ملاعبته الشاه إسماعيل الشطرنج فى أصفهان وقول الشاه له: "إنه لا دخل لصفة الشاهية فى اللعب". ثم نقضه عهده هذا وصفه إياه حين غلب فى اللعب ثم رده عليه بقوله: "يا شاهى سيأتى يوم أنقض العهد أنا كذلك". تذكر سليم كل هذا وصاح قائلاً: ها قد جاء وقت نقض العهد، فأمر بإطلاق المدافع. وكان "إياس باشا" حينذاك رئيس الإنكشارية، فبادر إلى إطلاق النار حسب الأمر السامى على الأعجام الذين انهزموا شر هزيمة، وتشتتوا ولم يبق أثر ما لجيش إيران الذى كان يملأ القرى والبلاد فى مدى سبع ساعات. وقد لاذ الشاه إسماعيل بالفرار وولى الأدبار ومعه سبعة من رجال حرسه الخاص لا يلوون على شيء، وشاهدت امرأة الشاه إسماعيل وصاحت قائلة: "لله درك يا سليم يا بطل، لقد هزمت شاهنا وجعلته يبول على سرجه، وهو راكب على فرسه، ويفر من الميدان". ولكن الشاه قبلها بالإحسان والإنعام حتى أسكتها وأقذ نفسه. ولا شك أن معركة "جلدر" هذه مشهورة ومعروفة ولا داع للإسهاب فيها.

وقد وقعت زوج الشاه إسماعيل وهى "تاجلى خانم" فى الأسر ومعها أكثر من مائتين من الجوارى الحسان، وقدمت إلى إستانبول ومعها أموال قيمة وافرة، ثم ذهب سليم إلى بلدة أماسية وأمضى فيها الشتاء، وهو يستعد لإدارة حرب أخرى فى بلاد العجم. وبينما هو كذلك إذ جاءه النبأ بأن ابن ذى القدر علاء الدولة قد توجه من مرعش بسبعين أو ثمانين ألفاً من الجيوش الجرارة قاصداً الصعود إلى هضبة

(٢٢٩) هذه رواية شفاهية يحكيها أوليا چلبى على لسان الطاعنين. فى السن، وهى بطبيعة الحال فى حاجة إلى الدراسة والتوثيق.

جوكسون. فبادر السلطان سليم إلى تعيين "سنان" باشا قائداً لتجريدة عسكرية، وندبه لقتال علاء الدولة فهزمه هزيمة، وقتل هو وأولاده في المعركة، ووقع في الأسر زهاء سبعين رجلاً من أقربائه، وجيء بهم جميعاً مكبلين إلى سليم خان وأيديهم مشدودة إلى أعقيتهم. فأرسل سليم هؤلاء القتلى والأسرى وفيهم عمنا سالم بك إلى السلطان الغورى بمصر.

ولما رأى الغورى رأس علاء الدولة ورعوس أولاده وأقربائه صاح قائلاً: "وأسفاه كان لنا قائد طليعة من الأبطال يصمد للعدو اللدود ويوقفه عند حده. ومنذ اليوم تقع الأهبة والاستعداد لقتال آل عثمان علينا مباشرة، وسيكون هذا من أول واجباتنا". ثم بادر الغورى إلى إطلاق المساجين والمحبوسين ومنهم عمنا الذى جاء إلى القدس وجرد نفسه من شئون انجندية وآلات القتال وجاور هنالك حتى مات. ولقد عثر على قبره المنقوش عليه تاريخ وفاته، فى مكان يطلق عليه "طورزيتا" وأصلحته أنا العبد الفقير.

وأما الأحوال فى مصر حينذاك فقد كانت سيئة جداً، لا على الرعايا والبرايا من الجمهور المساكين فحسب؛ بل كذلك على جميع الذوات الكرام الذين يشار إليهم بالبنان، ويُقال فى وصفهم فلان بن فلان، إذ كانوا يُضطهدون فى كل مناسبة وأوان؛ فى الوكالات والفنادق والخانات على أيدي أشقياء العسكر ومجرمى الجراكسة المناجيس وظلمهم المتواصل واسترسالهم فى الثورة وانطغيان، مما اضطر جمعاً من كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة بمدينة مصر فى ذلك الوقت إلى الحضور إلى ساحة أبى السعود الجارحى ومرزوق الكفافي وبث شكواهم إليهما، فبادرا إلى عقد مجلس من العلماء والصلحاء للتشاور وتبادل الآراء وانعقد المجلس وتداولوا الآراء، قائلين: "إن أعطيت مصر للمغاربة فإن بلادهم بعيدة عنها لا يستطيعون القدوم إليها سريعاً للتصرف فيها، وإن وقعت تحت أمر العجم فإن فى عقيدتهم ومذهبهم لشبهة وريباً، وإذا عادت إلى حكم الأكراد فليس لولائهم دوام ولا ثبات. فهيا بنا إذن نستعين بآل عثمان الذين هم مسلمون موحدون، فضلاً عن تقديرهم

للعلماء وتفضيلهم الصلحاء وتقريبهم المشايخ وأهل الشريعة السمحة وأصحاب السيف والعلم، مما جعلهم ينتصرون وينالون الظفر بالعدو أينما توجهوا وكيفما شاءوا". وقد استقر رأيهم واجتمعت كلمتهم على هذا الرأي وانتهت مشورتهم بقراءة الفاتحة والاتفاق التام. وعند ذلك قام كل من أبي السعود الجارحي ومرزوق الكفاقي وصاحبا مشيرين بقولهما : "يا سليم تعال يا سليم تعال!" وكان هذا يحدث والسلطان سليم جالس مع وزرائه في مشنّى "أماسية"، يتجاذب معهم أطراف الحديث في صفاء وسرور، وبينما هم كذلك إذ بالطواشي سنان باشا ويونس باشا يدخلان المجلس فجأة ويقولان: "يا سلطاننا قد سمعنا ثلاث مرات لفظ "يا سليم تعال" فما معنى هذا؟" فيرد السلطان ويقول: "إننا قمنا بسباحة مع حلیمى [جلبى] وذهبنا إلى مصر وقد كشف الله تعالى الغطاء عن أبي السعود الجارحي ومرزوق الكفاقي فقالا لى "يا سليم اجلس على تخت أبيك" وأردفا ذلك الكشف الصمدانى بقولهما "احضر إلى مصر حينما ندعوك إليها". فما استمعتما الآن من الأصوات والنداءات ما هى إلا نداء هؤلاء المشايخ الكرام، عجلوا إنن بأسباب السفر والزحف إلى مصر".

قتل سليم الأول إخوته وأولادهم

وفى الوقت الذى كان الوزراء ورجال الدولة متفرغين للاستعداد وأخذ الأبهة للسفر إلى مصر والزحف إليها، إذ بالمستغيثين والقصاد يحضرون إلى الأبواب السلطانية ويقولون: ياسلطاننا إن أخاك الأمير قورقود" من جهة وأخاك الأمير "أحمد" من جهة أخرى قد رفعنا علم العصيان علينا؛ فتعرضت البلاد كلها لخطر الضياع والسقوط فكيف تقوى الآن على السفر إلى مصر؟.

فما كان من السلطان سليم إلا أن عطف عنان عزيمته إلى ناحية الأمير أحمد والتقى به فى جوار "بنى شهر" على مقربة من "بروسه"، ودارت بينها رضى

معركة عظيمة سقط فيها الأمير أحمد عن جواده؛ فقبض عليه وجيء به وقد غلبت يده إلى قفاه إلى حضرة السلطان سليم الذي لم يرحمه وخنقه فوراً في السراشق السلطاني، ودفنه بجوار السلطان مراد الثاني في مدينة "بروسه"، هذا وقد فر أحد أولاد الأمير أحمد هذا - ويدعى الأمير مراد - من هذه المعركة إلى الشاه إسماعيل بأردييل ومات هنالك بعد ثلاث سنوات ودفن بها. وأما ولداه: الكبير علاء الدين والصغير الأمير... فقد نجأ إلى ساحة السلطان سليم فعفا عنهما لصغر سنهما فماتا في إسلامبول مطعونين ودفنا بها، كما أن السلطان سليم قد قتل كلاً من محمد خان ومحمود والنجل الأكبر وموسى وأورخان أولاد أخيه الأمير شاهنشاه، وكذا عثمان ابن أخيه السلطان عاليشاه حيث قبض عليهما حينما توجه إلى قتل أخيه أحمد خان، وهؤلاء الشهداء كلهم راقدون في "بروسه" بجانب تربة الغازي أورخان، "كان هؤلاء الأمراء قد صدرت منهم أعمال وحركات غير ملائمة، نذل على الانشقاق والتفرق وانقسام المملكة إلى ملوك متنازعين كما حدث في عهد السلطان بايزيد الولي. وقد تنازعوا وتقاتلوا فعلاً حتى نفرت منهم الرعايا واضطر أكثر الناس لأن يتبعوا العجم ويخضعوا لهم كارهين".

ثم شد الشاه سليم عنان عزيمته إلى الأمير قورقود الذي كان قد جمع حوله ألفاً من أشقياء الترك وتصدى لقتال السلطان، ولكن الدائرة دارت عليهم أجمعين وتشتتوا وبفروا، حيث لجأ الأمير قورقود مع الكتخدا "بياله" إلى غار في سنجق نكه، ومع كل منهما حصانه، فلبثا به بضعة أيام ذليلين كئيبين لا يجدان شيئاً يقتاتان به. حتى اضطررا إلى إعطاء أحد الحصانين إلى أحد الأتراك ليأتي لهما بشيء من الخبز والشعير. ولم يكن التركي يأخذ الحصان ويخرج إلى الطريق حتى قابله حاكم المنطقة وأخذ يسأله من أين لك هذا الحصان؛ حتى اضطر التركي إلى إرشاده إلى الغار الذي به الأمير قورقود وكتخدا بياله، فأتى إليهما وألقى القبض عليهما ثم ذهب بهما إلى حضرة السلطان سليم يرسفان في القيد، حيث قتلهما

السلطان فوراً بلا رحمة ولا شفقة ونقل جثتيهما إلى بروسه، ودفنا في تربة المرحوم الغازى أوركخان.

وبذلك تم للسلطان سليم الأمر والسلطان بلا منازع، يحكم كما يريد، ثم بادر إلى استدعاء نجله الأمير سليمان من بلده "كفه" إلى "أدرنة"، وأسند إليه شئون الدولة وأمور الإدارة والحكم؛ ليتمرن على ذلك فيبرع في تصريف الأمور وفق سياسة البلاد.

وقد وكل إليه ذلك لأنه كان في غاية الفطنة والرشد؛ فضلاً عن أن جميع كبار أولياء الله كانوا قد بشروه بقولهم: "يا سليم! لا فائدة لك في إخوانك والشخص الذى يكون بحق خليفتك وحامل رسالتك هو نجلك الوحيد سليمان لا غير"، والحق أن السلطان سليم لم يخلف سوى سليمان الذى كان قد ولد مثل أبيه في طرابزون، ولا تزال والدته مدفونة بها في جامع خنكار في حي "بوزديه"؛ بيد أن سليمان ولد في سنة ٩٠٠هـ = ١٤٩٤م أى في رأس المائة فيكون صاحب رسالة وظهور حسب قول صاحب الرسالة الشريفة ما معناه "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة من يجدد لها دينها". وبناءً على هذا اقتنع السلطان سليم بأن الدولة والإقبال من خصائص سليمان، فأقدم على قتل جميع إخوانه ثم واصل سيره وذهب لزيارة "أمير سلطان" في بروسه، وحينما دخل التربة قال: "السلام عليكم يا أهل القبور" فارتفع صوت من قبره الشريف يقول "عليكم السلام يا صاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين" فتحير الحاضرون والسامعون كلهم من هذا. وتقدم ابن كمال باشا وقال: "يا سلطاني بشراك إنك تفتح مصر، وهذا إرهاب بذلك".

قتال سليم الأول السلطان الغورى في مرج دابق حين ذهابه لضم مصر

ما كاد السلطان سليم الأول يسمع نداء القائل "هيا تقلد سيف الغيرة والحماسة، وتوجه إلى تلك الجهة" حتى تناول السيف وتقلده في ضريح الولى أمير

سلطان. وقد تلا ابن كمال باشا الفاتحة على هذه النية الشريفة ومسح الجميع وجوههم بأيديهم متبركين. وعاد سليم إلى قصره العامر بعد أداء هذه الزيارة المباركة، وبادر إلى دعوة علماء الروم ومفتي المذاهب الأربعة لديه، وطلب منهم الفتوى الشرعية بجواز الزحف إلى مصر وفتحها.

وقد عمد الوزير الأعظم الطواشي سنان باشا إلى إظهار أربعين فتوى سبق أن وردت من مصر في هذا الشأن ووضعها أمام علماء الروم، فاطلعوا عليها وعلموا مضمونها وصاحوا قائلين: "إن كان علماء مصر وأولياء الله الكبار بها قد أصدروا مثل هذه الفتاوى الشريفة وأباحوا بها قتل حكام مصر، فأولى بنا أن نقر هذه الفتاوى". ونص فتاواهم هو ما يأتي: "ما قولكم في سلطان من سلاطين المسلمين يدعى أنه خادم الحرمين الشريفين، يقدم العون والمساعدة لقوم من الروافض الفاسدين الذين يعرفون بذوى الرعوس الحمراء أى القيزيلباشية، والذين يبيحون سب الخلفاء الراشدين الأربعة من أصحاب النبي [رضوان الله عليهم] وإهانتهم، حينما يقوم أحد سلاطين المسلمين بقتالهم لمنعهم من عملهم ذلك، ويشهر السيف على ذلك السلطان المسلم القائم بقتالهم للقضاء على سب الخلفاء؟ والجواب على ذلك هو أن ولاية مثل هذا السلطان غير جائزة، وخلعه فرض عين إذ هو داخل بعمله هذا في مذهب الرافضة، فيجب نهب إقليمه وولايته وهدر دماء تابعيه، يقتلون ولا يؤسرون، ونساؤهم حرام علينا لا يتخذن جوارى وإماء. ويجب الزحف إليهم ونزع البلاد منهم".

وقد تناول سليم الفتوى بيده وسلمها إلى الاثنى عشر نفرًا ثم أرسلهم إلى السلطان الغوري بمصر. حين وصول هؤلاء الرسل إلى مصر أحضرهم الغوري في ديوانه وأخذ كتاب السلطان سليم وفتوى العلماء وتلاههما، ثم قال: "إن سليم شاه سبق أن قتل علاء الدولة بن ذى القدرية مع سبعين رجلاً من أقربائه، وأرسل رعوسهم مع أسرى مقبدين بالحديد إلينا، والآن أرسلكم إلينا بحجة الرسالة والوفادة لنأخذ منكم ثار هؤلاء الضحايا". وقدم عشرة من هؤلاء الرسل إلى الجلاد فضرب

أعناقهم فوراً، وقد أبقى منهم اثنين على قيد الحياة ليرجعا إلى سليم حاملين رسالته التي مضمونها:

"إني ما دُمت حياً لا أمكنه من دخول مصر، ليستعد للقاءى فى سهل مرج دابق تحت حلب، فإن كان عنده شئ من الرجولة فليبرز فى ساحة الوغى".

ولما وصل هذا الكتاب إلى السلطان سليم ثارت ثائثرته فجمع العلماء وسألهم رأيهم؛ فأجابوا - بالإجماع - أنه لا يجوز بعد الآن التقاعد عن العمل لأن قتل الرسل لا يجوز فى عرف الملوك الكفار، فكيف يقع من ملوك الإسلام؟ ولا شك أن قتل الغورى بعد الآن مباح وحلال. فانيض أيها السلطان واعمل، لأن الذنب الآن ذنبهم والجرم صادر منهم، لا لوم عليك ولا تثريب.

وعند ذلك تهباً سليم للعمل وفوض أمور الدولة فى إستانبول إلى قرايىرى باشا، كما عهد بسردارية الروم إلى نجله سليمان خان، وتوجه هو بالجيش من بروسه يقطع المراحل ويطوى المنازل نحو قونية؛ حيث زار ضريح سلطان العلماء مولانا جلال الدين الرومى وتمسح بأعتابه الشريفة مستمداً من روحانيته القوة والتوفيق. ثم واصل السير حتى اجتاز سهل "رمضان أوغلى" ودخل بلدة "أذنة" مركز الدولة الرمضانية وأقام بها مدة. ولقد نزل بها سابقاً أثناء سياحته عائداً من مصر يحمل كتاب توصية من أبى السعود الجارحى إلى خليل بك آل رمضان، حيث نزل ضيفاً عنده ووعده حينئذ بأن يبقيه فى إبلاته محفظاً بأملأه وإطاعاته وسائر أوقافه ومخصصاته حينما يملك مصر ويفتحها، وقد نفذ وعده ذلك هذه المرة، وزاد عليه أن منحه لواء "بشعار طوغين" مع تعيينه قائداً لطليحة الجيش الزاحف إلى مصر. فتقدم خليل بك مرحلة أمام الجيش مصحوباً بعشرين ألفاً من نخبة الجنود.

وفى خلال ذلك وصلت الأنباء بأن أسطولا عثمانياً مؤلفاً من ثلاثمائة سفينة من نوع "القادرغة" ومائتين من "الشايكا" و"القرامرسل" و"الغليون" محملة جنوداً

كثيرة تموج كالبحر، وموسومة بمهمات حربية وذخائر لا تعد ولا تحصى، قد وصنت ميناء طرسوس قادمة من إسلامبول؛ فسر السلطان سليم من ذلك كل السرور ودعا لبيرى باشا نائبه وبعث مع أحد الحجاب إلى مصطفى باشا بالآك قبطان الأسطول أمرا بالآلا يفارق الأسطول السواحل وأن يظل دائما قريبا منه.

وقد أفلح بطان باشا من طرسوس وذهب إلى الإسكندرية وألقى المراسى بها فى الوقت الذى غادر فيه السلطان سليم أذنة بجيش مؤلف من ثمانين ألف جندى مدربين غاية التدريب، وسار حتى دخل حدود الممالك المصرية، وذلك لأن الحد المصرى فى ذلك العهد كان فى ولاية أذنة، وتوغل فى الدخول حتى وجد نفسه فى سيل "مرج دابق" على مقربة من "كلس"، وأقام معسكره به وتقدم إلى السلطان درويش يقول: "إذا أردت النصر والظفر بعدوك فعليك أن تذهب إلى مقام داوود الذى هزم جالوت بإذن الله تعالى وأمره، فتسند ظهرك إليه قبل مجئ الغورى. وترى حينئذ كيف يتجلى الإله عليك بالنصر المبين والتوفيق الباهر. لأن ذلك المكان مبارك ومظهر من المظاهر الإلهية ولا شك. إذ إن الله سبحانه وتعالى قد أنزل آية ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة ٢٥١/٢] على حبيبه المصطفى؛ فبادر يا سليم إلى ذلك المحل واتخذ كسد الإسكندر"، قال هذا ثم غاب بغتة كما ظهر بغتة. فعمل سليم بموجب ذلك وهرع إلى ذلك المكان وأقام معسكره به وأحاطه من كل الجوانب بخيام جعل الحرس فيها، وربط أطناب الخيام والمضارب بعضها ببعض، ونام الجيش كله مستريحا آمنا.

الهزيمة الأولى للسلطان الغورى على يد سليم الأول

وصل الغورى صباح اليوم التالى بجيشه الذى لا تسعه الأرض من الكثرة، ونزل تجاه عسكر آل عثمان وشرع فى ترتيب الطلائع والحرس الأمامى من سبع جهات.

والذليل على كثرة جنوده ووفرة عساكره أنه كان لجيشه عشرون ألفاً من السقائين ذوى النبابيت، وعشرون ألفاً من الخيامين، وعشرون ألفاً من السياس ومثلهم من القواصين الفلاحين، وفضلاً عن ذلك كان له اثنا عشر ألفاً من الفرسان المشاهير ذوى الخيول البلق، وأربعون ألفاً من الفرسان، وثمانون ألفاً من الأعوات الخاضعة لحاملى رتبة أمير الأمراء "ميرميران" وأمراء الجراكسة.

فبالخلاصة (كما تقول تواريخ الشهابي)، أن جنود الغورى كانوا يبلغون، ما عدا حشراته الأخرى، مائتى ألف من حملة السيوف ومتقلديها، وبهذه الجيوش الجرارة قابل الغورى سليم شاه فى "مرج دابق"، وسليم لا يملك سوى ثمانين ألفاً من العساكر العثمانية.

ولما استعدت الفرق للتقدم والتحفز واندفعت الطلائع إلى مواضع الوثب، التحمت الجيوش الجرارة من الطرفين فى حرب ضروس وقتال مريع دامت معاركها سبع ساعات نجومية، واستمرت حملاتيا السلطانية بكل قسوة وشدة حتى أسفرت - أخيراً - عن هبوب ريح النصر والظفر على جانب السلطان سليم، إذ صارت جنود الغورى طعمة لسيوف العثمانيين، وقد نادى فلولهم مع سيدهم الغورى: "أين أنت يا مصر وكيف الفرار إليك؟!"، قال بعض المؤرخين إن الغورى قُتل فى هذه المعركة إلا أن ذلك غير صحيح، فإن من المحقق أنه وصل مصر وحشد جيشاً آخر كبيراً بها.

هذا، وقد لبث سليم شاه فى مرج دابق عشرين يوماً، وحصل على غنائم لا تُعد وأسلاب لا تُحصى حتى صار كل جمال أو مكارٍ فى الجيش - بعد ما كان مأجوراً - يملك قطاراً كاملاً من الجمال أو البغال تحمل له أموالاً كأموال قارون من الغنائم والأسلاب، لأن عساكر الغورى كانوا قد دفنوا أرزاقهم وأموالهم فى الأرض عالمين أن غذا يوم المصارف والمعركة الكبرى... ولما تشتت شملهم وانفرط عقد اجتماعهم وانتهزوا شر انهزام بادر العثمانيون إلى تلك الكنوز والدفائن من الأموال والأرزاق، فاستحوذوا عليها وفرقوها على الناس هنالك حتى

لم يبق منها شيء، ثم نهض سليم شاه وجاء إلى قلعة أعزاز وأقام بها مدة، وكانت العساكر الإسلامية يطاردون الجراكسة ويسلبونهم أموالهم؛ على ظن أن كل واحد منهم يملك أموال قارون ثم يقتلونهم أينما وجدوهم، وهكذا فر كل رجال الغوري الكبار البارزين أمثال وزيره الأول "سينال" و"كريباي" و"قاداتاي"، وأما جان بردي وزيره بالشام فقد مل من روحه فهرب، وكذا "الغزالي" الذي التحق بغزلان الصحاري وهام على وجهه حقبة من الزمن، وأما خاير باي حاكم حلب من قبله فقد هرب من حلب والتحق بركاب السلطان سليم مقدما له طاعته وخضوعه وصار أخلص عبيده ورجاله؛ إذ كان السلطان سليم قد وعده بمكافأة حسنة إذا أخلص في العمل معه وقدم له المشورة والنصيحة السديدة في المهمات والمهمات، وأنه إذا تم له ما أراد منها فسيعينه حاكما مستقلا لها ويضع تحت أمره جيوشا جرارة يوجهها حيثما يشاء ويريد، وإن قد عيد إليه بالفعل بمناصب وخلع كثيرة وأعطاه سنجق "كوستنديل" ببلاد الرومللى.

ولما حضر إلى معسكر الجيش الزاحف إلى مصر واجتمع بالسلطان فى جنوب حلب الشهباء، شرع يبدى نشاطا عظيما فيما يكلفه من الأمور، من ذلك أنه أقع علماء حلب وصلحاءها من الأئمة والخطباء والمشايع، وكذا حاميتيها من الطوائف العسكرية، بتقديم الطاعة والخضوع للسلطان سليم وتسليمه المدينة صلحا وسلمنا، فجاءوا بمفاتيح القلعة إلى حضرة السلطان وسلموها إليه بكل إخلاص ونالوا منه الإنعام والإحسان.

هكذا تم فتح حلب بالسلام والأمان. فأسندت إليها إلى "قراجيه باشا"، وقضاؤها إلى "چملىكچى زاده كمال چلبى"، ثم أقام السلطان سليم بعساكره وجنوده الظافرة فى سراى السلطان فى حلب وأخذ فى زيارة مقام سيدنا زكريا [عليه السلام] فى الجامع الكبير، وسائر أعيان الأولياء، واستمد المعونة والممدد من أرواحهم الطاهرة. ثم أرسل إلى البلاد الواقعة حول حلب رسلا يستميلها إليه، ويطلب منها أن تقدم إليه خضوعيا واعترافيا بسلطانه. والقلاع والولايات التى قدمت طاعتها وسلمت مفاتيحها هى: مرعش وعينتاب وريحانية والمعرّة والزها

وبيرجك وحران وكلى وعزيز (تصحيف أعزاز أو عزاز) وحلب وحماة وحمص ومداك وشجر شجر وأنطاكية واللاذقية وجلبية ومرقب وحصن وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا والرملة والزيدانية وبعلبك وشقف وطبرية وفلسطين ونجون وعجلون ونابلس والقدس وعزة هاشم، إلى غير ذلك من البلاد حتى بلغ عددها مائة وأربعين قلعة حصينة منيعة، وسلمت كلها مفاتيحها بالأمان والسلام بكل سيولة وخضوع تام للسلطان الجديد.

وقدّم الطاعة والخضوع من عربان الصحراء آل سليمة وآل رشيد وآل رباح وآل عمرو وآل حد وآل بنى زهدى وآل بنى عرابى وآل بنى سالم. والخلاصة أن سبعين قبيلة من العربان وجميع الطوائف الدرزية واليمانية والزيدية والمروانية والهوبارية والماروكنية والعقلية والقزلية والشهابية والشيبازية والنصيرية والسانكية، وبالاختصار جميع الملل الضالة والطوائف المنحرفة التي تقيم بجبال بيروت وصيدا، حينما سمعوا بفتح القلاع كلها بادروا إلى ركاب السلطان سليم وتمسحوا بتراب قدميه، ثم قنموا أنفسهم رهائن وهم يتلون الآية الكريمة ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء ٨٩/٢٦). ثم نهض السلطان من حلب إلى خان تيمان [طومان] ومنها إلى:

قلعة المعرة

حيث أعطى إمارة هذه القلعة إلى عطا بك، ومنها إلى:

قلعة حماة

حماها الله تعالى، حيث خرج أهلها لاستقبال السلطان سليم خان، وتمسحوا بأعتاب جلالته مقدمين طاعتهم ومسلمين قلعتهم له، فعين طرخان بك أميراً عليها، ومنها إلى:

قلعة حمص

حيث خرج جميع سكانها مشاة لاستقبال الموكب السلطاني العالي مقدمين الطاعة، فعين احتمان زاده أميراً عليها.

طرابلس الشام

أعطيت هذه الإيالة لـ "كوزلجة قاسم باشا" الذي أمر بأن يحضر بالأسطول الهمايوني إلى ميناء طرابلس. ثم واصل السلطان سليم السفر بكل عظمة وأبيه إلى الشام، ولما وصل بموكبه السامي وأصبح على مقربة منها هرع أهلوها كلهم - وعلى رأسهم "جانبرد" وزير الغوري بالشام - وقدموا الطاعة والخضوع لجلالة السلطان معتمدين على شفاعته "خيرى باى" سابق الذكر. وقد تمسحوا بتراب أقدام جواد السلطان فبادر فحياهم عفوه ومغفرته عن جرائمهم السابقة. فأعيدت إلى "جانبرد" إيالة الشام كما كانت سابقا، وأنعم بقضائيا على "منلا أفندى". ثم دخل سليم شاه بموكب عظيم حافل دمشق الشام؛ حيث فرشت طرقيا بالسدياج والششب والنسيج المقصب بالذهب؛ وهكذا تم فتح قلعة الشام.

فتح قلعة الشام

وقد انطلق المنادون من قبل السلطان يعلنون في أطراف المدينة قرار تمضية أيام الشتاء في هذه المدينة، حيث أمر السلطان خلالها بإنشاء القلعة الداخلية أدمشق، وعهد بذلك إلى "صارى أرسلان" أمير اللواء الذى كان نائبه فى طرابزون، عندما كان السلطان أميرها وخرج منها سائحا فى أنحاء العالم. هذا، ولما عاد السلطان سليم من فتح مصر إلى الشام ووجد القلعة كاملة البناء وتامة الهندام كما يريد، أعجب بها أيضا إعجاب وعائق بانينيا "صارى أرسلان"، من فرط سروره وسمى القلعة باسم بانينيا المذكور. ولا يزال اسم القلعة الداخلية فى الشام التى تنسب إلى سليم الأول. معروفة وشائعة بين الأهالى لهذا السبب. وأما القلعة الخارجية فمنسوبة إلى معاوية بن أبى سفيان فى من آثار بنى أمية.

هذا، وفى خلال ذلك جاء الحمام أنزاجل من مصر إلى الشام بكتب إلى "جانبرد"، فبادر إلى تقديم هذا الحمام مع الرسائل الواردة إلى سليم، ففتح جلالته بيده الكريمة الكتب ووجدها تتضمن أن الغورى بعد اتيزامه فى معركة مرج

دابق" وفراره هو وجيشه من الميدان حينما وصلوا قطية وصحراء أم الحسن، كان قد نال التعب منهم كل منال وأهلكهم الجوع والعطش^(٢٣٠)؛ وهنا أحاط العربان سكان الصحارى الباقين منهم على قيد الحياة والناجين من هول ما لقوه فى طريق الصحراء من المشاق والهزيمة؛ الأمر الذى أفضى إلى عدم نجاة أحد من جموع الغورى سوى ستين شخصا كانوا فى خدمته المباشرة فوصلوا القاهرة سالمين، وأنه الآن أخذ فى الاستعداد والأهبة وحشد العساكر والجنود وتنظيمهم، وقد نصب "طومان باى" قائدا على هذا العسكر الجديد.^(٢٣١)

وكان الكتاب مسطورا ومؤرخا فى صباح اليوم الذى وصل فيه من مصر إلى الشام وقت العصر، مما أثار إعجاب السلطان سليم فقال: "إن مصر حقيقة مملوكة للمالِك".

بيان قبر محبى الدين بن عربى

حدث فى يوم من أيام الشتاء الذى كان السلطان سليم يقضيه فى الشام أن كان العالم الشهير ابن كمال باشا منكبا على الكتب والتقيب فيها؛ إذ وجد فى رسالة للشيخ محبى الدين بن عربى هذه العبارة الثريّة (إذا جاء السين ودخل الشين ظهر مرقد الميم) فاستخرج منها أن السين إشارة إلى سليم و(دخل الشين) يدل على أن سليم يدخل الشام، و(ظهر مرقد الميم) يدل على أن قبر محبى الدين هو الذى سيظهر، بيد أن سليم خان لم يؤمن بهذه الرموز الجعفرية، ولذا قال: "هيا بنا نركب نوا ونذهب لزيارة محبى الدين ونظهر قبره للعيان".

(٢٣٠) مسألة قتل الغورى فى حاجة إلى تدقيق ودراسة حتى يتم القطع بمكان قتله؛ أمو "مرج دابق" أم هذه الصحراء.

(٢٣١) ذكرت كتب التاريخ أن الغورى قد سقط من فوق صهوة جواده خلال المعركة الأولى. وما يذكره المؤلف هنا يختلف عما ورد فى كتب التاريخ، وإن كان الأمر يستحق إعادة الدراسة والتحقيق من قبل أهل الاختصاص.

وتتفيذاً لهذا دعوا إليهم عدداً من الطاعنين في السن من أهالي الشام وسألوهم عن مكان قبره فلم يستطع أحد الإجابة عن ذلك، فقال البعض تكل هذه الرموز على أنه في ضواحي الشام، ولكن مكان القبر نفسه غير معلوم بدليل (ظير مرقد الميم). فتألم سليم خان من ذلك ونام متأثراً ليلته، فرأى فيما يراه النائم أن الشيخ محيي الدين جاءه وخاطبه بقوله: يا سليم! كنت منتظراً قدومك إلى الشام فمرحباً بك ياسليم! أبشر قد يسر الله لك غزو مصر وفتحها، فعليك أن تركب غذا صهوة جواد أسود من إسطنبول العامر فهو الذي يأتي بك ويرشدك إلى قبري، ثم تبادر إلى نقلي وإنقاذي من أرض المذلة والمهانة، وتبنى لي ضريحاً وتربة عظيمة في الصالحية، وتبنى بجانبها جامعاً ومدرسة وعمارة خيرية وكُنُافاً للأطفال وحمماً ومحكمة وداراً للحكم وأسواقاً وعيوناً جارية. ثم تحفر ترعاً وتشق جداول وتجري المياه فيها حتى تجعل صالحيتي هذه عامرة أهلة سالحة. وبعد ذلك كله تنصرف لمهمتك التي جئت لأجلها، فإله مؤيدك وناصرك في فتح مصر". فلما استيقظ سليم خان من نومه بادر إلى طلب الحصان الأسود من الإسطبل العامرة مسرعاً. فقيل له ليس هنالك حصان بهذا الوصف، ولكنه ألح في طلبه هذا وأصر؛ حتى وجدوا له بغلة نحيفة جرباء هزيلة ينطبق عليها الوصف فعنوا بها غاية العناية بكل سرعة وعجلة حتى جعلوها جواداً أصيلاً مسرعاً بسرج يليق بركوب السلطان، فركبها سليم خان ولجامها على غاربها لتذهب كما تريد، فتوجيت الدابة نحو الصالحية وصعدت كومة من الزبل والأوساخ ووقفت عليها، وأخذت تيسن في الأرض بحوافرها بكل لهفة وشدة؛ حتى أن سليم خان اضطر من جراء ذلك للنزول من صيوتها، واستمرت في الحفر والبحث حتى ظهرت صخرة مربعة الشكل عظيمة وانقطع الحيوان عن الحفر والبحث ووقف عن الحركة، ورجع بكل هدوء ووقف بجانب سليم خان كأنه يقول له: ها هو قبر محيي الدين.

ولما أمعن سليم خان النظر في الصخرة رأى فيها هذه العبارة منقوشة عليها بخط كوفي جلي جميل (هذا قبر محيي الدين). والظاهر أن القبر دفن في الزبل

وطمر لأن الناس قديماً ما عرفوا قيمة كتبه الصوفية وما فيموا مزايها حينذاك فكفروه، واتخذوا قبره الشريف مزبلة وكوموا الأقدار والأترية عليه حتى ضاعت معالمه، فبادر السلطان سليم إلى جمع المهندسين والبنائين وسائر العمال والفعلة من الشام، وأمرهم بنقل الأترية وإزالة الأقدار وتطهير المكان من كل ذلك. حتى أنه - رحمه الله - أخذ ينقل الأنقاض والأترية بيديه الكريمتين، مما حمل العساكر الإسلامية كلها على الاشتراك في العمل الشريف بحيث أزالوا في طرفة عين جميع الأقدار والأوساخ وطهروا المكان تطهيراً كاملاً. ثم شرع السلطان سليم في إنشاء العمارات الخيرية ذات السطوح المرصصة الشامخة؛ وهي: خان وجامع وعمارة ومدرسة وكتاب وتربة ومحكمة ودار للضيافة ودار للشفاء ومستشفى، إلى غير ذلك مما سبق ذكره تفصيلاً في وصف الشام في [ج ٩ من رحلة أوليا جلبي].

ثم خلا سليم شاه في قشلاق الشام ليستغل بعلم الجفر، حيث جمع أناساً من الذين لهم إمام بهذا العلم وأخذ يباحثهم في مجالس خاصة. فسأل ذات يوم أثناء المناقشة في الجفر الجامع سيدنا الشيخ ناصر الطرسوسي، قال: "يا سيدنا هل أكون يوماً من الأيام من الذين يتيسر لهم فتح مصر أو أموت من جراء مناقشة المناقشين وغيرتهم الممقوتة؟" فأجاب الشيخ فوراً: "بشرى لك يا مولاي، إن سيدنا علياً قد شهد لك وصرح في حضرة الرسول بأن آل عثمان سيمتلكون مصر، حيث ورد في الأثر "قال سيدنا علي كرم الله وجهه لا بد أن سليم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب". والغرض من لفظ جزيرة العرب هي جزيرة مصر. لأن "طوطيس" من ملوك القبايطية، حينما أحرق نيل النيل إلى بحر السويس صارت مصر جزيرة وأطلق عليها اسم جزيرة مصر. فأمل يا سلطانى أن تفتح جزيرة مصر ببركة قول سيدنا علي السديد، وتحوز بذلك لقب "حاجم الحرمين" لأول مرة في التاريخ. إذ لم يتيسر لأحد من آل عثمان حيازة هذا الشرف". هكذا بشره الناصر الطرسوسي بفتح مصر. وقال عالم آخر: يا سليم! إن الله سبحانه وتعالى قد أظهر في القرآن الكريم أنك فاتح مصر، حيث استخرجه الإمام علي

رضى الله عنه فأخبر به الحسين، فنقله زين العابدين فنقله إلى السرى السقطى ومنه روى الجُنَيْد. لأن كل حرف من حروف القرآن الكريم والفرقان المجيد إشارة ورمز إلى المستقبل وما سيأتى من الأحداث حتى يوم القيامة، حسب قوله تعالى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف ٦٥/١٨] وهذا القدر فيه كفاية لمن يفهم ولا يجوز الإفشاء بأكثر من هذا. وإليك الآية التى تدل على ما قلنا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ١٠٥/٢١]؛ فلفظ (ولقد) ١٤٠ واسم سليم ١٤٠ فيكون المراد من "ولقد" سليم. ولفظ (ذكر) يساوى ٩٢٠، وحيث إن الجملة من بعد الذكر "معناها بعد ذكر أى بعد ٩٢٠ ستكون أنت فاتح مصر. وأن الأرض يرثها" أعنى أن لفظ (الأرض) إذا ذكر معرفاً بالآلف واللام يكون المراد "أرض مصر"، كما أنه إذا ذكر من غير الآلف واللام يكون مطلق الأرض، وهذا مقرر فى قواعد علم الجفر، و"عبادى الصالحون" يعنى أن الله سبحانه وتعالى قد اعتبرك وعدك من عباده الصالحين الوارثين لأرض مصر. فهذه البشرى وهذه النعمة كافية لك فاذهب إلى قصدك والله معينك وظهيرك".

ثم سأله سليم شاه: "يا شيخ كم تكون مدة سلطنتى يا ترى؟" فأجاب الشيخ: لا أدرى يا سليمى "ما عدا جدا" و"لا يعلم الغيب إلا الله"، قال هذا ورفع المجلس وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بيده. وتبين أخيراً أنه يشير إلى ثمانية لأن لفظ (جدا) يساوى ذلك، حيث إن سليم شاه فتح مصر وعاد إلى إستانبول وتسلطن ثمانى سنوات ومات. فعلم الجفر هكذا علم رمز وسر، تحقق منه سليم صحة الأخبار ووقوع الأحداث. وبعد ذلك أمضى سليم خان الشتاء فى دمشق حتى إذا ما ابتدأت أمطار الرحمة فى الطول وسقى الأرض، شرع سليم خان فى مغادرة الشام تاركاً المرضى من الجنود الضعفاء فى رعاية جانيردى وكوزلجه قاسم باشا، وواصل السير بالجيش الإسلامى نحو غزة قاطعاً المنازل والمراحل، ماراً بجنين ونابلس حتى دخل القدس، فزار بها أضرحة الأنبياء راسماً من روحانيتهم، ثم برحها إلى

خليل الرحمن مسرعاً وزار بها أيضاً الأنبياء كلهم، ثم هرع نحو غزة هاشم فدخلها
عسكر الإسلام في شهر أيار (مايو) سنة ٥٩٢٢هـ = ١٥١٦م.

فتح قلعة غزة هاشم

دخل سليم خان هذه القلعة صلحاً وسلمناً وأقام بها سبعة أيام للاستجمام
والراحة، فجاء خلالها مشايخ البدو العربان من الأطراف والضواحي خوفاً من
صولة السلطان وسطوته، وقدموا الطاعة إلى أعتابه السامية وسدته العالية؛ فجاء
أولاً بنو زهد وآل رشيد وآل رباح وآل معن وآل شهاب وآل ترابي وآل حرفوش وآل
حبش وآل سعيد. وثانياً بنو سوايم وبنو عطا وبنو عطية وبنو عمران وبنو حوالم،
وبنو حوران وبنو بصرى وبنو جعفر، ومشايخ نابلس وصفد وعكا والرملة،
ومشايخ فلسطين وغزة والقدس وخليل الرحمن والكرك والعقبة وصقر بأسرهم
وتوابعهم جميعاً. وقد بلغ عددهم سبعة وسبعين شيخاً، وقد تقدموا إلى أعتاب
السلطان فقبلوها خاضعين مخلصين؛ مما أثار عطف السلطان عليهم فشمئيم
بإحسانات شاهانية وإنعامات سلطانية سامية. وبذلك صاروا من رجاله المطيعين
المستعدين للبدل والتضحية في سبيل تنفيذ أوامره العالية. وتعدوا بتقديم أربعمائة
ألف جمل تحمل المياه لعساكر آل عثمان يحضرون بها على جناح السرعة في
صحراء القطية وأم الحسن.

وغادر سليم شاه بعد ذلك غزة نحو مصر متوغلاً في جوف الصحراء،
وبينما هو كذلك إذ بحكمة الله وفضله العظيم ترسل الأمطار الغزيرة مدراراً تغرق
أرجاء الصحراء، وتخيف الذين كانوا يخشون قلة الماء قبل أن يفرقوا من كثرة
السيول وتدفق الماء. وهكذا واصل الموكب السلطاني السير بسلام وأمان حتى
وصل المحل المسمى خان يونس؛ حيث بادر السلطان إلى قتل "يونس باشا" وأخذ
يبنى بما خلفه من المال قلعة خان يونس، ووضع بها الحامية اللازمة من العسكر
للمحافظة على الغادين والرائحين وسائر المواصلات. ثم غادرها إلى العريش
قاطعاً المراحل والمنازل وتقدم منها كل من الوزير الأعظم الخادم سنان باشا

وخليل بك من آل رمضان وخاير بك الجركسى وطلائع للجيش الكبير إلى الأمام، وأسرعوا بالسير حتى مروا بصحراء القطية وأم الحسن، ووصلوا المحل المسمى الصالحية، فلاحث لهم حشرات الجراكسة بين حداثق النخل المحيطة بالمحل المذكور، فما كان منهم إلا أن باغتهم وجعلوهم طعمة للسيوف البتارة أسرين أكثر من ألف جركسى من أطراف الصحراء، فقتلوهم جميعا ووزعت أسلحتهم وأدوات قتالهم على الذين أتوهم مطيعين من البدو العربان. وواصلوا السير حتى وصلوا المحل المسمى القرين، فأحضروا به بعض الجواسيس الذين قبض عليهم بين يدي السلطان سليم، وأجبروا على الكلام فاعترفوا بأن السلطان الغورى معسكر فى صحراء بلبيس مستعد للقاء العدو. فأطلق السلطان سراهم بعد اعترافهم بذلك.

بيان حرب الغورى للمرة الثانية مع سليم خان ومصير الغورى

لما وصل الموكب السلطانى السليمى من "القرين" إلى "بلبيس" اشتبك الجيشان فى قتال مرير فى تلك البيداء الشاسعة؛ أطلقت المدافع والبنادق بكل شدة حتى حجب دويها الهائل وما أثارته من الغبار العسكرين أحدهما عن الآخر، فلم يعلم أى الطرفين أصيب بالفشل والهزيمة، غير أن حكمة الله وعظمته تجلت فى هذه الأثناء إذ أزال الت النقع والغبار الأسود الذى كان مخيما على ساحة القتال.

فظهر للعيان اندحار جيش الغورى وتمزق عسكره شر ممزق من صدمة المدافع العثمانية الهائلة، وانطبق عليهم القول المأثور "موتوا بأمر الله". وهنا انتهز الجنود العثمانيون الفرصة وحملوا عليهم مرة أخرى حملة صادقة فكادوا يقضون عليهم قضاء مبرما، وإذا بطومان باى يظهر فجأة فى الميدان وينقض على الجموع العثمانية كالذئب الجائع الذى يصول على قطيع الغنم، فدارت لذلك رحي معارك دامية وقاتل مرير فى غاية الشدة من وقت الزوال إلى المغرب؛ بصورة لم يسبق لها مثل منذ طلوع الكوكب المعروف "المريخ"، ولما دقت الطبول والكوسات تؤذن بوقف القتال.

انصرف العثمانيون والغوريون إلى معسكراتهم وشرعوا فى تضييد جراحهم وخياطة دروعهم وإصلاح أمورهم. فدفن العثمانيون ليلتنا سبعة عشر ألفاً من شهدائهم الأبطال، وقد أبدى خاير بك يومها من آثار الشجاعة والإقدام وجليل الخدمات والفعال فى سبيل نصرته العثمانيين ما لا تزال تذكره نوازيخ مصر بالإسهاب والإعجاب، وعلم الغوريون بعد ذلك أن خاير بك مع العثمانيين.

وفى صباح اليوم التالى حينما شرعت الطبول تدق إذاناً بالحرب وشاع فى الجيش أن الغورى نفسه قد تجرع كأس الحمام فى هذه المعركة الدامية، تحمس جيشه وثار فانقض بكل قواه مستتبلاً على العثمانيين، ونزلوا عليهم كالقضاء المبرم أو الموت الأسود، يصلولون فى الميدان يميناً وشمالاً ويعملون سيوفهم البتارة فى صفوف عسكر الإسلام ويمزقونها؛ ورخصت الأرواح وتبدت التضحية. وهنا نزل عسكر الرومىلى بأسلحتهم وبزتهم العسكرية المهيبة إلى ساحة الوعى وشرع جنود الإنكشارية فى هجماتهم المتوالية السريعة الصادقة، يصلولون العدو النيران من بناديقهم الفتاكة، كما أن المدفعية أخذت تطلق النار من ثلاثمائة وستين مدفعاً من المدافع الشاهانية؛ فتحول الجو وأرض المعركة إلى نار نمرود يصلول فيها الجيشان كالمسندل، وقد عقد الدخان الأسود المنبعث من البارود سحباً كثيفاً على سماء الميدان وساحة القتال.

وفى خلال ذلك ظهرت للعثمانيين بوادر انسحاب عسكر الغورى من الميدان وتقيره إلى النوراء وتنحيه عن القتال شيئاً فشيئاً. ولكنهم تأنوا فى الأمر ملئاً خشية أن يكون ذلك منهم خدعة ومكراً. ولذلك لم يطاردوهم ومشوا وراءهم مشى النمل حتى تحقق لهم أخيراً أن الغوريين قد تبدل قرارهم فراراً، وأنهم تمسكوا بأذيال اليزيمة والعار، لأن صحراء بلبيس كانت قد اصطبغت حينذاك بالدماء القانية المراقبة وبالسراويل الحمراء الساقطة على الأرض مع لابسها، وأصبحت الساحة وكأنها حديقة غناء مكسوة بالشقائق والورود الحمراء، بينما يسرح الأبطال العثمانيون فى أرجاء تلك الساحة الحمراء، وأيديهم وسيفانهم مشمرة وملطخة بالدماء وصدورهم عارية ورعوسهم حاسرة، تتلو ألسنتهم القرآن. وهم يسعون إلى

خيمة السلطان حاملين الرعوس والسيقان ليأخذوا عليهما الإنعامات والعطايا، وبعد هذا عاد الغزاة المجاهدون إلى أماكنهم للاستجمام والراحة. وهم السلطان سليم بالنيوض حالا نحو مصر ليضرب نطاق الحصار عليها. ولكن "خاير باي" لم يقتنع بهذا الرأي وقال مخاطبًا السلطان: "يا سلطاني إن الخيول مُتعبة جدًا وقد تعب الجنود الذين أبلوا في القتال المرير بلاء حسنًا، وكسروا العدو مرتين، فالكسل في أمس الحاجة إلى الراحة والاستجمام، ولذا يحسن أن ننتظر قليلًا، ولا شك فسي أن عقارب الفتنة والفشل ستدب بين العدو فيخبيرون في تدابيرهم ويخفقون في أعمالهم الآتية أيضًا"، قال هذا ومنع السلطان من مواصلة سيره نحو القاهرة. وقد أقام الجيش في بلبس ثلاثة أيام يصلح من شأنه ويستريح، إذ ظهر أن الغوري سقط يوم المعركة في جانب الصحراء، ووجدت جثته الهامدة في سجافته وهو قاعد عليها مستقبلاً القبلة ورأسه طائر مفقود، وذلك لأن جركسيًا حينما رآه ميتًا مقتولاً حز رأسه وأخذه معه خشية أن يأخذه العثمانيون الغزاة.^(٢٣٢) وقد أخذ العثمانيون جثته بالسجادة إلى حضرة السلطان في خيمته، حيث وقع نظر جراكسة خاير بك عليها وصاحوا قائلين إنها حقيقة جثة الغوري، ومع هذا فلا يجزم قطعًا أنها جثة الغوري لكون الرأس مفصولة ومفقودة. بيد أن حادثة ظهرت بعد سبعة عشر عامًا من وقوع هذه المعركة دللت على خلاف ما ذكر؛ وهي أن معلمًا من معلمى المدارس ببلييس حينما دنا أجله وشعر بقرب رحيله من هذه الدنيا صرّح لأهله ومعارفه بأنه هو السلطان الغوري نفسه، ثم أسلم روحه إلى بارئها، وقد فتشوه بعد ذلك فوجدوا أن الخاتم الذى بإصبعه والندبة التى بأذنه من أثر ضربة السيف يدلان على أنه صادق في قوله إنه الغوري، ويثبتان دعواه تمامًا.

(٢٣٢) اختلفت الآراء والكتابات حول مكان مقتل أو موت النورى وتاريخه؛ فمن قائل بإنه فى مرج دابق، ومن قائل بأنّه فى صحراء بلبس. وهذا الأمر يحتاج إلى تحقيق من أجل الاختصاص.

ومما لا شك فيه أن الغورى فقد فى المعركة، معركة بلبيس هذه ولم يظفر له أثر فى الوجود، فلذا دب الخلاف وقامت الفتن بين أنصاره وجيشه الذى تركه من غير رئيس ولا قائد يركن إليه، كما تنبأ بذلك خاير بك. وأخيرا اختاروا ابنه (السلطان محمد) ملكاً على البلاد، ولكن جيش مصر انقسم إلى شطرين؛ يقول أحدهما كيف يمكن أن يقوم مثل هذا الغرّ بشئون الدولة وما يتطلبه الأمر العصيب الذى نحن فيه اليوم من الاستعداد وأخذ الأمور بالحزم والشدة لتتسنى لنا مقاومة الجيش الرومى شديد البأس المتعطش للدم؟ فالصواب إذن تنصيب "طومان باى" سلطاناً لنا. ويقول الآخر بخلاف رأى الأول، وهكذا اشتد الخلاف وتفاقم النزاع بين الطرفين فاقتتلا شهراً كاملاً داخل مصر حول هذا الموضوع، حتى سادت الفوضى والاضطراب وعم النهب والسلب فى البلد.

وأخيرا انتصر فريق معسكر "طومان باى" فبادر هذا إلى تعيين من يدعى "ندار" نائباً عنه، وتلقب هو نفسه بلقب الملك الأشرف، وفى اليوم نفسه نهض معهم جميع كبار الجيش وقواده إلى سلط (...) واقتتل مع السلطان سليم قتالاً شديداً على مقربة من الخانكة حيث منى بالفشل الذريع، ولكن عسكر الإسلام أيضاً أصيب بخسائر جسيمة زعزعت قواه؛ مما جراً "طومان باى" على أن يبعث إلى السلطان سليم فى اليوم التالى يدعوهُ إلى القتال ويشبّك معه فى الخانكة أيضاً فى حرب ضروس لا هوادة فيها، ثم يقول له: "لا يجوز أن نتقابل بالمدافع والبنادق لأن تبادل النيران هكذا من شيمة الكفار". وما قال طومان باى هذا إلا لأن المصريين كانوا عاجزين عن الحرب والقتال بالمدافع والبنادق، بخلاف السيوف التى يحسنون استعمالها مثل الأعاجم؛ فهم مهرة فى استعمال السيوف وركوب الخيل واللعب بالرماح والمزاريق. والخلاصة أنه قد جرت عشرة آلاف اشتباك بينهما فى الطريق من بلبيس حتى أبواب مصر، فكان آخرها فى صحراء "سبيل علام" الواقع فى وادى "الريدانية"؛ حيث دارت فيها رحى معركة حامية لم يسبق لها مثيل حتى فى عهد سيدنا على رضى الله تعالى عنه.

وقد تساعل المصريون أخيراً قائلين إلى متى يهزمنا العثمانيون ونندحر أمامهم، فلنجمع قوانا ولنهاجمهم مرة واحدة ونقصد السلطان سليم نفسه تحت رايته ونمزقه شر ممزق. ثم تعاهدوا وتحالفوا على هذا واقتحموا الميدان. وبينما الحرب تشتد أوزارها ويحمى وطيسها في "سبيل علام"، إذ انقضّ كل من "طومان باي" و"قورتباي" و"باي" آخر على راية الإسلام لتنفيذ ما تعاهدوا عليه من الفتك بالسلطان سليم. فبطش طومان باي بالوزير الأعظم الخادم سنان باشا على ظن أنه سليم شاه، بأن ضربه بالحربة وأسقطه عن جواده، لأن سنان باشا هذا كان حليق اللحية مثل سليم شاه ويتشبه في لبسه وركوبه به. وأما "قورتباي" فظن وزير السلطان هو السلطان فصرعه عن جواده... وخلاصة القول إن كلا من الثلاثة أسقط وزيراً من وزراء العثمانيين ويطش به فصاروا ضحية في سبيل السلطان سليم. ثم عُيّن "يونس" باشا وزيراً أعظم واستمر القتال حتى المغرب، ومكث العثمانيون في العادلية ودخل المماليك كلهم القاهرة واعتصموا بها.

وغداة اليوم التالي كان العثمانيون يطاردون عدوهم مطاردة الكلاب في شوارع مصر حتى اضطروهم إلى دخول القلعة وضربوا عليهم نطاق الحصار؛ الأمر الذي أفضى إلى خضوع جميع العربان لأوامر السلطان بأسرع من لمح البصر، فامتنعوا عن تموين المدينة بالغلل والأرزاق، فضلاً عن إحاطتهم بمصر من الجوانب الأربعة إحاطة السوار بالمعصم، وجاء في اليوم نفسه جميع عربان بني جابر وبني سوار (أوار) وبني عيد وبني حماد وسائر مشايخ العربان الذين في الضفة الأخرى من النيل إلى ساحة السلطان سليم وتمسحوا بتراب جواده الكريم، فنالوا منه الخلع والكساوى وسائر الإنعامات أكثر مما كانوا يحلمون به، فعادوا لابسين تلك الخلع السلطانية متسربلين بالكساوى والتشريفات المقتضية إلى قبائلهم مسرورين فخورين بما نالوا، وأخذوا يحشدون جموعهم ويجمعون أتباعهم وجاءوا إلى غربى النيل مرتقبين للقتال ومتحفزين للحرب والطعان، وهكذا حالوا دون اجتياز أحد من القاهرة إلى الضفة الغربية من المحصورين.

هذا، وقد سبق أن قلنا إن جنود الإسلام قاموا في بادئ الأمر بضرب نطاق الحصار على القلعة الداخلية، حيث قام كوزلجه قاسم باشا من قمة جبل الجيوشى بضرب هذه القلعة باثني عشر مدفعا، كما أن جيش الروملى دخل جامع السلطان حسن وأقاموا المتاريس فى ميدان الرميطة، بينما اتخذ الوزير الأعظم المتاريس والاستحكامات فى جهة باب الوزير، كما أن (...) باشا قد اتخذ متاريسه ومخافره فى جامع النظامية، وأما الجوانب السفلى من هذه المدينة الكبرى فقد حاصرها عامة جنود الولايات العثمانية؛ كالأتناضول ومرعش وسيواس وحلب وأذنة وديار بكر وأرزمروم وطرابزون، فكان هؤلاء أيضا ليل نهار فى قتال شديد ونضال مرير، يصيح فيه الطرفان الله! الله!...

هذا، وبينما تضرب طوائف الجند من القابوقولى^(٢٣٢) والسباهية وأتباع الزعماء والمدفعية والجيجية^(٢٣٣) أبراج القلعة الداخلية العليا، إذا ببوابى وحجاب القلعة الداخلية - وهم المعروفون ببني ألواح - يعمدون بتوفيق الله وحكمته إلى فتح باب المطبخ الخلفى، ويرسلون إلى سليم خان يعلمونه بذلك؛ فبأمر سليم خان ومعه أعوانه وطوائف الباب الخاصة ووزراء القبة السبعة إلى القلعة الداخلية تلك يقتحمونها جميعا.

(٢٣٢) قابوقولى: اصطلاح عسكري يطلق على عبيد الباب أو حرس الباب فى السرايات السلطانية وقصور الصدر الأعظم وكبار رجال الدولة، وكان يطلق على رئيسهم قابوقولى باشا؛ وهو الضابط الكبير وأسير ببوابى التصرف. وكان ببوابى انقصر ينقسمون إلى قسمين: الركاه العالي الأعتاب السلطانية، والباب اليمانيون أى السلطانى أيضا، وموكل إليهم حراسة السلطان ويذهب دورهم فى العصر الحديث الحرس الجمهورى أو الحرس الملكى، وكانوا يلتفون حول السلطان ويحيطون به أثناء الحروب ويحرسون السراى عند خروج السلطان إلى رحلات الصيد. (انظر ص ١٦٧ ج ٢ pakalim)

(٢٣٣) الجيجية: جنود من فرقة الجيه جيه، وهم فرقة من فرق قوات جيش الدولة المركزى، يقومون بإعداد توفير احتياجات الجيش من الذخيرة، وتسليمها لهم وقت الحملات من (أسلحة، دروع، بنادق). وإعدادها ثانياً إلى مقرهم فى "جيه خاتة" لإصلاحها، محمد السيد: دراسات فى التاريخ، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص ٩٣.

وفى أثناء ذلك يبرز لهم عربى أعمى، كان يبیت هنالك ويقيم منذ أربعين سنة تحت الباب المذكور، وهو يصيح دائما بقوله: "شوى شوى سلطان سليم"، ويتقدم نحو السلطان سليم وهو يجتاز الباب فيقبض على عنان جواده الكريم ويصيح قائلاً كالمتعناد "سلطان سليم شوى شوى"، ثم يسلم روحه إلى بارئها منتقلاً من هذه الدنيا الفانية. وقد حسبت الجملة التى كان يصيح بها بحساب الجمل فوجد ذلك تاريخاً "للفتح"، ولا يزال هذا الرجل مدفوناً فى باب المطبخ ويتقاضى أولاده وأحفاده رواتب وجرايات من الخزانة الأميرية.

هذا، وبينما كان "سليم خان" واقفاً تحت سلم الديوان السلطاني^(٢٣٥) المنسوب لقائىباى، إذا بقذيفة من مدفع يسمى "شاهى" تنزل من القلعة بجانب رأس السلطان سليم فيضطر إلى مغادرة المكان إلى غرف "الشطا" من العساكر والجنود والخدم والاعتصام بها؛ حيث إنها بناء حجرى متين، ثم أخذ الجيش الإسلامى يرفع الأعلام البيضاء على أبراج القلعة الداخلية من أدناها إلى أقصاها؛ فلفت هذا أنظار من بأسفل القلعة من المدينة فأيقن الناس أن القلعة قد تم فتحها من قبل العثمانيين الذين كانوا حينئذ يعلنون سرورهم وفرحهم بالفتح المبين بكل الوسائل، فلذا عاد القتال إلى أشده ودارت رحى معركة حامية.

وقامت حرب ضروس ليست حرب الإمام على بجانبها شيئاً مذكوراً، وتبين أن القائمين بهذا الهجوم الفجائى وموقدى ناره هم الاثنا عشر ألف زنجى الذين كان

(٢٣٥) الديوان السلطاني Divan: أصلاً فارسية، انتقلت إلى اللغة العربية مع بدايات الفتح الإسلامى، ويستخدم فى معانٍ مختلفة، فيجتمع فيه أهل الحل والعقد لتسيير أمور الأمة سواء من النواحي السياسية أو العسكرية أو المالية أو الإدارية أو العدلية أو المالية؛ فى النواحي المالية؛ يعنى دفتر قيد الدخل والمنصرف فى كل المصالح الإدارية، أما إدارياً فيطلق على البيعة أو الجماعة التى تدير الأمور بالدولة؛ فهناك ديوان الرئاسة وديوان الوزارة وديوان الولاية وديوان الإمارة وديوان الحرب... وقد عرفته كل الدولة الإسلامية. وكان لكل ولاية ديوان خاص بها، يرأسه الوالى، ويتكون من أركان الولاية للبيت والنظر فى شتى أمورها، وحتى كان للديوان ترجمانه لقيامه بمهام الترجمة فى الولايات التى يتطلب فيها الأمر ذلك. وكان ديوان الحرب يعقد تحت رئاسة السلطان، كما أن ديوان قافلة الحج كان يضم كل الشخصيات المعنية، ويرأسه أمير قافلة الحج.

السلطان الغورى يسكنهم فى الميدان المسمى قراميدان؛ وقد سمي هذا الميدان بالميدان الأسود أو ميدان السود لهذا السبب، ولقد اجتاح عسكر الروملى هذا الميدان الأسود وأخذ يصول ويجول يمينا وشمالا فيبزم السود هزيمة ساحقة، وقد تكسبت جثثهم تكديسا هائلا هنا وهناك حتى اسودت الساحات الفسيحة، وسمى الميدان بقراميدان (الميدان الأسود) لهذا السبب أيضا. فتحت مصر بحرب عظيمة سنة ٩٢٢ هـ الجملة التى قالها ابن كمال باشا تاريخا لذلك: فتح ممالك العرب سنة ٩٢٢ هـ = ١٥١٦م، تاريخ آخر قاله الشيخ نصر الله كسلطان سليم شوى شوى سنة ٩٢٢ هـ = ١٥١٦م، تاريخ آخر (فاتح ممالك العرب ٩٢٣ هـ = ١٥١٧م).

لما تم فتح القلعة الداخلية العليا، وأنعم على جميع الوزراء والوكلاء وأعيان الدولة ورجال الديوان حسب مراتبهم ودرجاتهم بخلع فاخرة وتشريفات سنوية ملأت قلوبهم سرورا ونفوسهم غبطة وحبورا، بادر خان بمقتضى القول المأثور "الكريم إذا وعد وفى" إلى إسناد إيالة مصر إلى "خير بك" مع الإنعام عليه برتبة الوزير، كما منح منصب قضاء مصر لقاضى عسكر الروملى أحمد أفندى الشهير بابن كمال باشا.

ولما كان اليوم التالى يوم جمعة فقد صلى السلطان مع جميع العسكر والجنود فى جامع السلطان قلاوون بالقلعة الداخلية العليا، حيث خطب ابن كمال باشا فوصف السلطان سليم بقوله "خادم الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان"، فما كان من السلطان إزاء هذا النعت الشريف إلا أن سجد لله سجدة الشكر والحمد.

هذا، ولما سمع الجراكسة المناحيس فى القلعة السفلى خبر وزارة "خير بك" وتوليه مصر، هاجوا وماجوا وثاروا ثائرتهم فأغلقوا الدروب والشوارع وقبعوا فى بيوتهم التى كانت مليئة بالزاد والماء والغدد، فاستعدوا للمقاومة إلى النهاية وحاربوا فعلا عسكر الإسلام وقتلواهم سبعين يوما بكل جلد وقسوة كما حدث سابقا، حيث كانوا يلقون الأوساخ والقاذورات عليهم من فوق الأسطح والمآذن ويقذفون فوقهم

كل ما يقع تحت أيديهم؛ حتى إن أهالي مصر قويت عزيمتهم وأخذوا ينادون من جديد: "الله ينصر السلطان طومانباي" وهم في المدينة السفلى التي خطبوا بها سبعين يوماً باسم السلطان طومانباي لا غير. وعلى هذا المنوال تقدم كل من طومانباي وكرتباي؛ لنجدة أهالي المدينة السفلى أكثر من سبعين مرة؛ مما شجع الناس في البيوت وفوق السطوح على إلقاء القاذورات من الشبائيك والنوافذ، وهذا ما حمل السلطان سليم أخيراً على أن يخصص رواتب لسيدات مصر، فسيل ذلك فتح مصر السفلى أيضاً، فأصل الرواتب والمخصصات التي تُصرف حتى الآن للجواري والسيدات في مصر هي تلك الرواتب التي خصصت لهن أيام الفتح.

وفي النهاية، عهد السلطان سليم إلى "خاير بك" القيام بعمل سريع يقضى به على طومانباي قضاء مبرماً، فطلب خاير بك إلى "ابن خبير" بالقيام بهذه المهمة، بإذلاً له الوعود الكثيرة بالإنعام والإحسان والهدايا. فحدث ذات يوم أن علم ابن خبير باعتصام طومانباي بمكان صعب المنال كالقلعة في إقليم الفيوم، فأطلع السلطان سليم على جلية الأمر. وبادر السلطان إلى إمداده بمصطفى باشا أمير أمراء الروملي ومعه جنوده المدربون، وتكليفهم بالزحف إلى الجهة المذكورة للقبض على "طومانباي"، وكان في خلال ذلك مطمئناً على نفسه غافلاً عما يخبئه له القدر، بينما كان نائماً في مخبئه جاءه سيدنا النبي ﷺ في نومه وخاطبه بقوله: "يا طومانباي إنك قد دافعت عن عرضك حق الدفاع، وقمت بواجبك في الذود عن شرفك بكل غيرة وحمية، ولم يبق أمامك إلا أن تذهب إلى سليم ليرسلك. والغاوى سليم أيضاً سيأتى إلى قريباً". وقد عني بلفظ "غاوى سليم" ١٤٢٣ "نسخة ١٤٦٣"، وفي الواقع إن سليم خان بعد أن عاد من مصر إلى إسلامبول لبي نداء ربه، وكان ذلك بعد مضي ١٤٦٣ يوماً على تلك الحوادث "رحمة الله عليه".

هذا، ولما استيقظ طومانباي من النوم أسرع فتوضأ وصلى ركعتين ثم ركب جواده وسار في الطريق، حتى التقى به مصطفى باشا وجنوده وقبض عليه وأخذه ويده مغلولتان إلى قفاه إلى سدة السلطان سليم، وكان حينئذ يرى فيما يرى النائم

أن النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول له: "يا سليم ابعث إلى طومانباي ثم امش في جنازته محتقلاً، ووف بعينك لي وهو أن تجعل مصر وقف خدمتي بعد فتحك إياها، حيث تبقىها على حالها من غير تغيير. وأما أنت فبادر حينما تعود إلى إسلامبول بالحضور إلي" فيسأله سليم بقوله: "يا رسول الله لمن أعطى مصر؟" فيقول رسول الله وحبيبه: "يا سليم إن مصر في حمي الله وهي باقية في أيدي المسلمين إلى انقراض الدنيا فلا تغتم قط" (غم يمه)^(٢٣٦). وفي تاريخ (...) سيملكيا الملك كعب الرابع بن إبراهيم من نسله. وعبارة لا تغتم (غم يمه) تساوي بحروف الجمل ١٠٠٣، ثم إن لفظ "كعب" يساوي ٩٢ بحروف الجمل، كما أن لفظ محمد يساوي ٩١؛ فيكون المقصود من "كعب" هو محمد الرابع بن إبراهيم الذي أعاد الأمن إلى مصر في التاريخ الذي تضمنته عبارة (لا تغتم أو غم يمه)، ثم استيقظ سليم مذهولاً دهشاً وشرع يصلي ثم إذا بالحاجب يخبره بأن طومانباي قد حضر.

بيان مباحثات الملك طومانباي مع

السلطان سليم ونقاشه له في حضرته ثم قتله على يده أخيراً

لما انتهى سليم شاه من الصلاة خرج لطومانباي قائلاً: "مرحباً بالأخ طومانباي!" فرد عليه طومانباي بقوله: "حسن أنك قد رضيت لي بالأخوة، وقد كنا قبل الجراكسة كفرة ملعونين تبحث أخذ أموالنا وممالكنا من أيدينا، والآن قد أصبحنا إخوة أليس كذلك؟ فإن كان أخوك كافراً فماذا تكون أنت؟ يا محير المتحدثين" فأجاب سليم شاه: "في سبيل الملك والسلطان هكذا يكون الأمر والشأن"، ورد عليه طومانباي قائلاً: "وهل كان الملك الذي طلبته ونشدته موروثاً لك عن

(٢٣٦) غم يمه: هنا اضطراب شديد كما تكون الحال في الأحلام، فإن لفظ "غم يمه" التركية تساوي بحساب الجمل أكثر من ١٠٠٣، كما أن السلطان الذي كان في ذلك التاريخ هو السلطان محمد الثالث وفي عهده حدثت الثورة بمصر. وأما السلطان محمد الرابع فكان عهده من ١٠٥٨ إلى ١٠٩٩ هـ.

والدك حتى تطمع فيه طمعاً خسيئاً فتريق في سبيله دماء الآلاف من عباد الله الطاهرين من جنود الفريقين؟ من يستطيع الإجابة يوم القيامة عن المسوِّغ لهلاك هؤلاء الناس؟" أجاب سليم شاه: "إنك قد أنجدت بهم جنود العجم وبذلك استحقوا القتل والهلاك حتماً ورجوياً" فردَّ عليه طومانباي: "حاشا وكلا، لم يذهب منا أحد نجدة ومدداً إلى العجم، بل إن علاء الدولة لكى يزج باسم مصر فى هذا الخصام ألبس فرقة من أشقياء التركمان أردية حمراء بعث بهم إليهم موهماً أنها نجدة مصر للعجم، فلذا قطعت يا سليم رأس علاء الدولة وبعثت بها إلى السلطان الغورى تشفيماً منه. فماذا كنت تطلب بعد ذلك؟" قال سليم شاه: "ألم تقتلوا رسلنا؟" قال طومانباي: "إن عشرة من رملك هؤلاء قد أطلالوا ألسنتهم فى حضرة السلطان الغورى فلذا أمر بقتلهم، وأما الاثنان اللذان سكنا ولم ينبسا ببنت شفة فقد أعثقا ولم يمسهما أذى..." ثم قال سليم خان: "ولماذا حاربتنى طوال هذه المدة؟" فأجاب طومانباي: "أنت هاجمتنى فى عقر دارى وعرضت أهلى وعيالى لليلاك، وبلادى ومأواى للدمار والخراب، وحاولت أخذها منى. وسأطالب يوم القيامة يوم البعث والنشور بتقديم حساب عما فعلت" قال سليم: "إذن كيف حضرت بين يدى؟" قال طومانباي: "إن النبى ﷺ قد بعثنى إليك فلذا حضرت".

ولقد رأى سليم أن كل ما قاله طومانباي صحيح وحق، فسأله أخيراً لماذا يقول الناس: "الله ينصر السلطان طومانباي". قال طومانباي: "بنى كنت أنصف الناس وأرحم الفقراء والمساكين وأظلم بجناح الرحمة والعدل، فلذا لم يتخلوا عنى قط، ولا يزالون يواصلون الحرب والقتال فى سبيلى فى الجيآت السفلى من المدينة معتصمين بالأزقة والبيوت، وأنت يا سليم تمسك بأهداب العدل والإنصاف حتى يحبوك فيتبعوك ويتخلوا عن مواصلة الحرب والقتال".

وبعد ذلك أشار السلطان سليم إلى "خاير بك" فيلاد هذا إلى أخذ طومانباي وذهب به إلى باب زويله (زويل) وصلبه هناك، وبقيت جثته معلقة سبع ساعات أنزلت بعدها، واحتفل بدفنها بمشيد عظيم سار فيه السلطان سليم حتى العادلية

خارج باب النصر، ماشيا على قدميه وقد حمل النعش مرة بنفسه على كتفه. لأن السلطان طومانباي كان حافظا للقرآن وعلى جانب عظيم من العلم والدين والعدل والإنصاف، وقد دفن في العادلية التي هي من آثاره الخيرية، ومنقوش على قاعدة تابوته المرمي في ضريحه تاريخ تسعمائة ثلاثة وعشرون، وعليه قبة عالية، وبجانب المدفن جامع لطيف، وحوله بيوت وغرف لسكنى الغادين والرائحين، كما أن هناك مكانا خاصا لوزراء مصر وولاياتها يؤمونه عند قدموهم لأول مرة مصر، فيقيمون به ثلاثة أيام يستريحون فيها من وعناء السفر وعناء الطريق ويستجمون، ثم يدخلون مصر باحتفال عظيم وموكب حافل.

هذا، ويؤم قبة طومانباي هذه كل المعزولين من قضاة مصر ووزرائها، وكذا جميع مرافقي الخزانة الصادرة إلى إسلامبول، يقيمون بها مدة ويقرأون الفاتحة على روح صاحبها، مستمدين منها القوة والبركة، ثم يرحلون إلى مقصدهم، وخلاصة القول أن هذه القبة مزار ومقصد للخاص والعام، وأن حي العادلية هذا فردوس عظيم يتنزه فيه الناس.

هذا، وقد صلب السلطان سليم طومانباي ودفنه ولكن الحرب والقتال كانا ناشبين في جهات عديدة داخل مصر. وما ذلك إلا لأن دولة طومانباي وسلفه الغوري كانت دولة عظيمة، وقد كان الناس مستائين وممتعضين أشد الاستياء من عمل "خاير بك" وممالاته للعثمانيين ثم توليه الحكم والوزارة لهم بها؛ ولذا ظل الجراكسة معتصمين بالبيوت والسطوح داخل الشوارع يواصلون القتال والنضال بكل الوسائل، وكانوا يعتقدون أن خاير بك بتحريضه أولاد العرب من المصريين على أن ينادوا: "الله ينصر السلطان طومانباي" لسمع سليم خان ذلك فيغضب، كان سببا في مقتل طومانباي على يد سليم، فكأنه قد حرض على قتله، فهو المسئول عن هذا العمل، لذلك كان المصريون مستائين من خير باي يواصلون القتال ليل نهار. وأخيرا أخذت الحمية "خاير بك" وعمد إلى العربان جميعا ومنأهم بالوعود والعهود حتى استمال قلوبهم، ثم حشد جيشا من الأروام الذين ضمهم حديثا جنودا إلى

جيوش آل عثمان. وقد أخذ هؤلاء كلهم في قتال عساكر مصر وجنودها سبعة أشهر حتى أخضعوهم تمامًا، وقد صار "خاير بك" وزير مصر، وحينئذ طاب سليم نفسا واستراح قلبه من هذه الناحية.

وفي هذه الأثناء جاء الأسطول العثماني المؤلف من سبعمئة قطعة من السفن، ودخل ميناء الإسكندرية وأنزل الجنود والرجال والعتاد في البر، حيث اقتحموا قلعتها وفتحوها عنوة، ووصل الخبر السار إلى مقام السلطان سليم، فأمر بإقامة احتفالات عظيمة سبعة أيام إيدانًا بتمام الفتح والاستيلاء على مصر والإسكندرية ودمياط ورشيد، الأمر الذي أفضى إلى أن يمتد سلطان آل عثمان إلى مكة والمدينة لأول مرة في التاريخ.

فلذا بعث السلطان سليم إلى شرفاء مكة وتبابعة اليمن ونجاشي الحبشة وقاغان الفونج وملوك فور ودنقلا وأفنو وبورنو وسلاطين السودان وفاس ومراكش وسلاطين بلاد المغرب، وإلى العباسيين في بغداد وإلى ديار الهند وإلى شاه العجم الشاه إسماعيل. وبالاختصار إلى جميع سلاطين الأمم والدول وملوكها كتبًا ورسائل قال فيها: "أنا فاتح مصر خادم الحرمين الشريفين"، فأعلن بذلك أنه صار سلطان مصر بلا منازع، ثم أخذ في تنظيم أمورها وضبط شئونها الضرورية بتفقد أحوالها والاطلاع على خباياها ومداخلها ومخارجها، يباحث في ذلك أولياء الأمور المختصين بها في قصر مصر في الجناح الخاص بالسلطان قايتباي.

قد سمع في ذات صباح ضجة وصخبًا دون أن يدري سببًا لذلك، فبينما هو يبحث عن ذلك وقع بصره على ركن من القصر ورأى فيه أوهامًا معقودة بحبال إفرنجية غليظة، يبلغ طول كل حبل أربعين باعًا أو خمسين، فأسمأزت نفس السلطان من ذلك المنظر، وكره القصر وانتقل إلى قصر العيني، ونزل في قبة منه، هي الآن مسكن البكتاشية^(٢٣٧)، وأمضى فيها سليم بضعة ليالٍ، لأنه من أتباع الطريقة، ولا تزال

(٢٣٧) البكتاشية: للطريقة البكتاشية، اشتق هذا الاسم من اسم مؤسسها (حاجي بكتاش ولي)، ويرجعها البعض إلى حضرة سيدنا علي رضي الله عنه هو ولولاده. وقد ولد حاجي بكتاش=

تزال المقصورة التي نزل فيها ظاهرة للعيان في القبة العالية في الجبة اليمنى. ثم انتقل منها إلى جزيرة الروضة التي هي بحق "روضة من رياض الجنة".

قصة سليم خان المروعة مع كرتباي الفدائي بقصر أم القياس

نزل السلطان سليم بعد ذلك ضيفاً في قصر الخليفة المأمون الواقع في أم القياس، وبات فيه بضع ليالٍ متمتعا بما لذ وطاب من النعم منمكاً في اللهو والشراب، فقد عجز حراسه من خدمة الفرقة الخاصة عن المحافظة عليه وحراسته، ولاقوا في سبيل ذلك صعاباً ومشاقاً. وكان السلطان نفسه منقطناً لهذا أيما تقطن، حتى قيل إنه لم يكن يغفل ليلاً ولا نهاراً؛ ولما كان يساوره من الخوف والقلق على نفسه. يقول مصاحبه حليمي جليي: كنا في ليلة من تلك الليالي العصبية ساهرين حتى منتصف الليل في قصر أم القياس متمتعين بأسباب السرور وأنواع الفرح في غرف النوم. وبينما كان الناس نائمين غافلين عن أحوال الدنيا قبيل الفجر إذا بسليم خان يصيح صيحة مدوية عظيمة من داخل القصر منادياً بأعلى صوته: "أيها الغلمان أين أنتم؟" وفي لمح البصر رأينا شخصاً عارياً عاتياً صنديداً في يده سكين، كأنه سيف الضحاك الجبار العاتى الشهير، ينطلق كالسهم من لدن السلطان ويجرى كالغزال في خفة وسرعة نحو هوة عميقة عمق ستين باضاً من أرض

= ولى في نيسابور سنة ١٦٤٥ هـ. وفي سنة ١٦٨٠ هـ أشار عليه الشيخ أحمد يسوى بالتوجه إلى الأناضول فسافر إليها واستقر في مكان بالقرب من قيرشكير، وارتحل إلى العالم الآخر سنة ٧٣٨ هـ. وقد انتشرت هذه الطريقة في القرى والمراكز أكثر من المدن، ولها دور كبير في توطين الترك في قرى الأناضول. معظم أفكارها باطنية ولا بد من المرشد، وكل تشكيلاتنا سرية وغير معلنة للجميع، كما كانت تستخدم مجموعة من الرموز والإشارات الخاصة بها. انتشرت بين جنود الإنكشارية في الجيش العثماني، ووصل الأمر أن انتسب إليها بعض السلاطين العثمانيين، وقد انقسمت إلى عدة أفرع تختلف عن بعضها البعض في الرموز والإشارات والرماس والذكر الخاص بكل منها. انظر في ذلك لسترجم إستانبول صق التاريخ وروعة الحضارة ص ٥٦.

القصر فيغيب فيها عن العيان. ثم رأينا سفينة ملتصقة بالقصر تعلو ساريتها قبة القصر وتتأطحها، وقد ثبت أن الفدائي المذكور نزل منها.

وقصر أم القياس في بحر النيل لا يزال علوه بالغاً مائة باع. عذَّب سليم خان جميع خدمه ولا سيما من كانوا في النوبة في تلك الليلة. ولكن پرويز أغا الذي من صلحاء الأمة بمصر حينذاك، وكان قائماً بوظيفة رئيس الركائب، تقدم إلى السلطان مسترحماً وقال له: يا سلطاني ائذن لنا في الكلام لشرح الحقيقة وبيانها ثم اقتلنا كما تريد. إننا نقوم بوظيفة الحراسة الخاصة هذه من يوم فتحنا مصر بكل صعوبة ومشقة، فبينما نحن قائمون بالعمل بتيقظ وانتباه أكثر من كل ليلة مضت، إذا بسيدنا الرسول قد ظهر لنا وتجلى علينا من الباب وأراح النقاب الأصفر عن وجهه الكريم مظهرًا جماله السامي، وكان لابسا حلة من ليف النخل ونعلا أصفر وعمامة صفراء من صوف الجمل ولها طيلسانان، فسلم علينا ورددنا عليه السلام وأراد رفقتي أن يطردوه قائلين أيها السيد من أين جئت إلى هنا، وقد دخلت بينهم وبينه لأحدث إليه لنعلم من هو. فقال الداخل علينا: أنا الرسول، وبينى وبين سليم عهد ووعد بأن يخدمني وأنا أخدمه، فهو في حمايتي إلى أن ينقضى الزمان، فاطمئنوا ولا تتزعجوا واستريحوا كما تريدون، وإن وقع شيء فأنا أوقظ سليماً وأنبيه للخطر. قال هذا ونزل من السلم وذهب، وبادرنا إلى تعقب أثره فلم نجد من الناس أحداً، وتحيرنا في الأمر وتساءلنا قائلين ما هذه العجيب؟ وبينما نحن كذلك غلب علينا نوم عميق وصرنا كأصحاب الكيف ولم نستيقظ من النوم إلا على صياح سيدنا السلطان وهو شاهر سيفه، خارجاً من الباب يتعقب أعرابياً يلقي بنفسه في اليم ويغيب عن الأنظار، هذه هي القضية والأمر لسيدى السلطان بعد ذلك.

فقال سليم خان: نعم! على هذه الصورة جانني أيضاً الرسول ﷺ في المنام وقال: يا سليم قد أمرت خدمك وحراسك أن يلتزموا السكون والراحة ويطمئنوا عليك كل الاطمئنان، فلا تغضب عليهم، وخذ حذرك فإن هناك من يقصدك بسوء ويريد الفتك بك، ولكن لا تخف منه فلن يلحقك منه أذى، والآن استيقظ وخذ

حذرك. فلما استيقظت من النوم وجدت ذلك المارد الملعون فوق رأسي فقفزت من مكانى شاهراً سيفى ومييباً بغلمانى هؤلاء الذين كانوا جميعاً نائمين. فما حكيت به بـرويز أغا مطابق وموافق لما رأيته أنا تماماً، فلذا عفوت عنكم جميعاً وعدلت عن قتلكم بعد أن عزمت عليه". ثم أنعم عليهم بأموال كثيرة وراقهم إلى رتبة الإمارة المصرية.

ثم عاد سليم خان إلى القصر وأطلق المنادين فى أنحاء المدينة يعطى عهد آل عثمان وميثاقهم بالعفو عن الذى جاء تلك الليلة واقتحم غرفة نومه للفتك به، وأنه يمنحه السلامة والأمان على نفسه فلا يخاف ولا يخشى. وإذا بشخص ضخم نورانى الوجه باهر الطلعة يدعى الغازى كرتباى الجركسى يتقدم إلى سليم شاه ويسلم عليه من غير وجل ولا خوف ويجلس فى صف النعال من غير أن يؤذن له بالجلوس.

ولما سأله سليم خان: "هل أنت الذى أردت قتلى تلك الليلة؟" أجاب: "نعم أنا ذلك الرجل". فقال سليم خان: "لماذا أقدمت على هذا العمل الخطير؟" فقال الرجل: "وكيف لا أقدم على ذلك وقد هجمت على ولايتنا وسطوت على بلادنا واستوليت على أهلنا وعيالتنا، بعد قتل آلاف من عباد الله وتشتيت ألوف ومئات آخرين، ولقد استشهد فى الحروب التى أشعلت نيرانها وأثرت نفعها سبعة من أولادى، وقد اغتصبت أملاكى وأموالى الكثيرة ومنحتها الأجانب، والأدهى من ذلك أننى حرمت من صحبة ولى النعم والسيد الهمام طومانباى الذى كان يحفظ القرآن ويتعبد بخلوته، وهو كذلك ملك شجاع وعادل عظيم البسالة والإقدام، لذلك استقر رأيسى أخيراً على أن أقتل سليماً، فاستأذنت الحضرة النبوية فجاءت الإشارة قائلة: إن دولة الدنيا هذه دينية سافلة، وإن رضا الله تعالى وحكمته البالغة قد اقتضت زوال دولة الجراكسة وقيام دولة آل عثمان، لذلك صار سليم فى حمايتى وحراستى فلا تتعرض له ولا تؤذنه أبداً. وأخيراً نفذ صبرى وسئمت نفسى الحياة، فقلت: يا رسول الله إنى قد آليت على نفسى أن أذهب إلى سليم لأبطش به وأنتقم لنفسى فى هذه

الليلة. فقال رسول الله: إن أقدمت على ذلك فإنى أوقظه من نومه. ثم آيسنت ووضعت رأسى فى كفى وأقدمت على تنفيذ ما انتويت، واضعاً نصب عينى جميع ما حل بى من الويلات والمصائب ولا سيما فراق أولادى وأهلى، وما وصلت إليك يا سليم حتى رأيته تستيقظ من النوم فجأة، ولا أدرى ما جرى بعد ذلك فإن لى قد طار وألقيت بنفسى فى النيم، وإلا فإن هجمتى تلك ما كان يثبت لها خمسون رجلاً من الأبطال، لأنى قد هزمت بمفردى خمسمائة فارس عدة مرات، وإنى لفى عجب مما حدث فى تلك الليلة، فقد سبحت فى الماء حتى وصلت جزيرة فى الضفة الأخرى وكلما ذهبت إلى قرية أخذت منها جواذاً وامتطيت صهوة، والآن إذ أعلنت العهد والأمان جنت إليك واثقاً بك ومعتمداً على عهدك، والله الأمر من قبل ومن بعد".

فسر السلطان من هذا الكلام السديد وخاطبه بقوله: "أيها العدو، الصادق القول والعمل، الصحيح الكلام، المستقيم الأطوار والحركة". ثم فهقه وأغرق فى الضحك وقال: "ليس لك أن تمكث فى مصر منذ اليوم، فاذهب من وجهى حيث تشاء". وأجاب كرتبای: "ما علاقتك بمصر وماذا لك فيها؟ ألا تعلم أن مثل هذه الدنيا كمثل القلعة المبنية من الخشب القديم، هى مصيدة بل دار للتزوير ونسج الأباطيل، فهى ليست مملوكة لأحد، فإن كان لك عقل يدرك فغادر مصر حالا، فإن كنت لا أستطيع قتلك والقضاء عليك فإن هناك آلافاً يستطيعون أن يأخذوا روحك، أو أى واحد منهم يُمكنه أن يقتلك وتصبح ذكرى". كان سليم الأول نفسه يسمع هذا الكلام سعيداً، وقد أكثر الإنعام والإحسان، حتى إنه قد اصطحب كورتبای إلى إستانبول. ثم ترك سليم خان جميع الأمور إلى خاير بك، وتابع هو جولاته إلى دمياط ورشيد والإسكندرية.

الفصل الرابع عشر

بيان سفر السلطان سليم إلى جهات دمياط ورشيد والإسكندرية

لما وصل الأسطول الهمايوني المؤلف من مائتي قطعة من السفن الحربية وألقى مراسيه في بولاق مصر، نشرت أعلام الزينة والفرح ومعالم السرور على ساريات سفنه، عمد السلطان إليها وأركبها عشرة آلاف من الجنود المختارين المجهزين بالأسلحة الكافية، وتوجه معهم إلى "دمياط" بعد أن أطلق المدافع والبنادق أثناء مغادرته بولاق وسار في النيل ماراً بمائتي بلدة ومدينة واقعة على فرع النيل الذي عليه دمياط، حتى وصل بندر دمياط وقلعتها على بعد مسافة خمسمائة ميل، وضرب خيمته العالية بجوار الشيخ أبي الفتح حيث قدمت له زهاء عشر خزائن مصرية هدايا وتحف من أعيان المنطقة، فقابل السلطان ذلك بتوزيع الخلع والكساوى والهدايا والإنعامات عليهم وعلى الناس.

ثم أطلقت المدافع والبنادق إيذاناً بالفرح والسرور وإعلاماً بالرحيل من القلعة المذكورة إلى "مرج البحرين" حيث اغتسل به، فقصده المكان الذي التقى به موسى والخضر عليهما السلام، وزاره وصلى به ثم عاد إلى المدينة مرة أخرى، وشرع في زيارة الشيخ شطا وسائر كبار الأولياء مستمداً من روحانياتهم القوة والمدد.

وبعد ذلك استأنف السير عن طريق البحر المالح أى البحر الأبيض إلى مدينة رشيد فوصلها بعد يوم كامل، فقولب بالتجلية والإكرام والتيليل وإطلاق المدافع من قلعة التينة الواقعة على شاطئ البحر. وما إن استقر به المقام حتى تقدم أعيان البلد بهداياهم وتحفيهم مسلمين مفتاح القلعة للسدة الملكية. وقد قام السلطان

بعد ذلك بزيارة "كوم الأفراح" وكبار أولياء الله، كما أنه دخل حمام عباد الله واغتسل به، ولا زالت المقصورة التي اختصها بالاغتسال بذلك الحمام موجودة، وهي مقفلة لا تفتح إلا للمرضى الذين يقصدونها للاستشفاء، فيجدون الشفاء بها بإذن الله، ومن هنا ركب السلطان الزوارق والمراكب الخاصة وقصد ملتقى فرع رشيد والبحر المالح وشرب من مائه الصافي، ثم واصل السير والسفر حتى دخل قلعة الإسكندرية الواقعة على مسيرة ستين ميلاً، ولم يكد يدخلها حتى شرعت سفن الأسطول العثماني المؤلف من سبعمائة قطعة مختلفة الحجم والحصون الخمسة التي بها تطلق نيران مدافعها وطلقاتها المدوية، إيداناً بقدم السلطان سليم؛ بحيث ظهرت الإسكندرية كأنها شعلة نار أو أنها "سمندل" في نار نمرود.

وقد أقام السلطان سرادقه العظيم فيما بين الميناءين من الأرض، وقابل بها أعيان الولاية وهم يقدمون له الطاعة بتسليم "غنائم القلاع الخمس مصحوبة بهداياهم العظيمة المتنوعة؛ فقابلهم بالإنعام بدع سنية عديدة.

ذكر خزانن السلطان الغورى فى قلعة الإسكندرية

حينما سمع السلطان الغورى بظهور نجم السلطان سليم وسطوعه فى الأرجاء أراد معرفة طالعه وطالع خصمه سليم خان، فجمع الكهان والرمالة وأهل الجفر وفاتحى القال والبخت والناظرين فى علوم الكف والحروف من ذوى الشأن وأصحاب الدعوة وسألهم عن ذلك، فأجابوا جميعاً بأن الشخص الذى يشغل بالك سلاحك منه ضرر عظيم؛ فاضطر الغورى عندئذ أن يحتاط لنفسه ويستعد لدفع الضرر المتوقع، ولذا بادر إلى نقل جميع أمواله ومقتنياته الخفيفة الحمل والثقيلة القيمة والتمن إلى قلعة الإسكندرية، ثم شرع فى تحصيل أموال سبع سنوات قادمة من جميع بلاد الأطراف وخزنها أيضاً فى الإسكندرية، وجعل خمسين سفينة من نوع القادرغة على أهبة الاستعداد للسفر دائماً فى الميناء، وأردف ذلك كله بتدبير

آخر هو عقده معاهدة صداقة ومودة مع سلطان المغرب المدعو يعقوب، للوفود إلى بلاده حينما يضطره سليم خان إلى مغادرة الديار المصرية، بحيث يأخذ حينئذ جميع هذه الأموال المخزونة معه ويذهب بها إلى تلك البلاد ليتسلطن بها متربصا الفرصة للعودة إلى مصر وفتحها ثانية.

نعم! هكذا كان الغورى قد وضع جميع أمواله وخزائنه الكثيرة فى قلعة الإسكندرية هذه ولكن العبد يدبر والله يقدر؛ إذ إن السلطان سليم عيّن وزيره قراييرى باشا نائباً عنه، فقام هذا الرجل بإعداد أسطول عظيم من سبعائة قطعة من السفن الشراعية الكبرى، ثم جاء هذا الأسطول وحاصر قلعة الإسكندرية، فى الوقت الذى كان السلطان سليم يقطع المراحل ويطوى المنازل فى الطريق البرى حتى التقى بخصمه الغورى بجوار مصر، فنشبت رحى معركة حامية بينهما أسفرت أخيراً عن اندحار جيش الغورى وفقدانه مما سبق ذكره، وحضر السلطان سليم إلى قلعة الإسكندرية، وفتح أبواب الخزان وأخذ منها فى الدفعة الأولى مبلغ سبعة وخمسين ألف كيس مصرى من النقود واثنى عشر ألفاً من الذهب الممسك.

هذا، ولما كان الغورى قد انبزم فى المرة الأولى أمام السلطان سليم فى "مرج دابق" جنوبى حلب وولى الأديار ميرولاً نحو مصر، كانت الراية النبوية المحمدية قد وقعت فى يد سليم خان فاستبشر بها وتبرك وحملها معه ليلاً ونهاراً، حتى أنه جعل حمل ذلك العلم النبوى قانوناً عثمانياً فى الجيش، فحملة لأول مرة فى الجيش سپاهى يدعى حاجى على، كما أنه غنم العلم الأحمر المنقوش عليه عبارة "نصر من الله" من الغوريين ضمن الأموال التى كانت فى الإسكندرية، وصندوقاً مرصعاً بالجواهر يحوى سباً من أسنان النبى ﷺ التى سقطت فى غزوة أحد، وكذا خصلة من شعر اللحية الشريفة، وإريقاً من الحصى المطفى من داخله بالقار، ومسبحة من شجر الصنوبر، وزوجاً من الققباب مصنوعاً من خشب البقس، وعصاً من الخيزران الأبلق وحذاء، وزوج قباء أحدهما من القطن الأبيض المائل إلى الخضرة، وقطعة صوف أسود، وحزاماً من الوبر، وكذا رداء وعمامة منه،

وطاقيّة مشغولة بالإبرة؛ كانت هذه المخلفات كلها محفوظة في أقمشة مزركشة مطوية داخل صرة مقصبة بالذهب الإبريز منقوش عليها عبارة "هذه مخلفات رسول الله- (٢٣٨)". فعندما زارها سليم خان تمسح بها بوجهه وتبرك قائلاً: "الشفاعة يا

(٢٣٨) هذه مخلفات رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأمانات المقدسة أو الأمانات المباركة، تعبير يُطلق على بعض مخلفات الرسول والخلفاء الراشدين وبعض من الصحابة الكرام، وهي:

١- خرقة السعادة، وهي تخص النبي صلى الله عليه وسلم. ٢- السنّة المباركة للنبي صلى الله عليه وسلم. ٣- عدد نعلان للنبي صلى الله عليه وسلم. ٤- حجر يحمل أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم. ٥- سجادة الصلاة الخاصة بحضرته صلى الله عليه وسلم. ٦- سجادة الصحابي الجليل وأمير المؤمنين أبي بكر الصديق. ٧- قبضة سيف النبي صلى الله عليه وسلم. ٨- سيم يخص النبي. ٩- لواء الرسول أو السنجق الشريف. ١٠ - قازان وقدر كبير يرجع إلى سيدنا إبراهيم يعود إلى النبي نوح عليه السلام. ١١- عصوان شريقتان للنبي شعيب عليه السلام. ١٢- قميص حضرة سيدنا يوسف [عليه السلام]. ١٣- سيف سيدنا داود [عليه السلام]. ١٤- مفتاح مكة المكرمة. ١٥- مزراب من الكعبة الشريفة. ١٦- ضلفة من باب التوبة في الكعبة المشرفة. ١٧- الغطاء أو الغلاف الفضى لمقام سيدنا إبراهيم [عليه السلام] في الكعبة المشرفة. ١٨- قليل من ماء وضوء النبي صلى الله عليه وسلم. ١٩- سناجق الخلفاء الراشدين. ٢٠ - عمائم الخلفاء الراشدين. ٢١- مسابح الخلفاء الراشدين. ٢٢- سيوف الخلفاء الراشدين. ٢٣- ستة من مقابض سيوف العشرة المبشرين بالجنة. ٢٤- سيف الصحابي الجليل حضرة جعفر الطيار. ٢٥- سيف الصحابي الجليل حضرة خالد بن زيد. ٢٦- سيف الصحابي الجليل معاذ بن جبل. ٢٧- سيف للصحابي الجليل حضرة شرحبيل بن حسنة. ٢٨- رايات حضرة الحسن والحسين رضي الله عنهما. ٢٩- تاج حضرة أويس القرني. ٣٠- نسخة من المصحف الشريف بخط يد الصحابي الجليل الخليفة عثمان بن عفان [رضي الله عنه]. ٣١- نسخة أخرى بخط حضرة علي كرم الله وجهه. ٣٢- نسخة شريفة من المصحف بخط الصحابي زين العابدين. وغير ذلك، والخرقة الشريفة محفوظة في صندوق من الفضة، والأمانات الأخرى محفوظة في غلب من الفضة أيضاً، وهي ما زالت في قسم خاص بها في متحف سراي طوب قابي، وكان السلاطين العثمانيون يذهبون للزيارة والتبرك بها في الخامس عشر من شهر رمضان كل عام. وكما هو معروف فإن الخرقة الشريفة هي البردة التي ألقى بها النبي صلى الله عليه وسلم على كعب بن زهير عندما مدح النبي، وقد قام الشريف أبو نسي بن الشريف بركات بتسليم بعضها إلى السلطان سليم الأول في القاهرة عقب ضمه مصر إلى الأراضي العثمانية، كما وجد السلطان سليم البعض الآخر في خزائن قنصوة الغوري، وقد قام السلطان سليم بعد عودته إلى إستانبول بإنشاء دائرة أي مبنى خاص بهذه الأمانات المقدسة بجوار جناحه

رسول الله ثم طوى الصرة وختمها بنفسه. ثم تعمم السلطان بعمامة سيدنا يوسف [عليه السلام] تبركاً وصار يحفظها دائماً في علبة مجوهره، كما أنه شاهد سكيناً لسيدنا يوسف [عليه السلام] وساعة له كان يعرف بها أوقات الصلوات أيام السجن وهي من صنع يده وكذا بساطاً، والكل كان داخل علبة خاصة فتحها السلطان بنفسه ثم أخذ العمامة اليوسفية وتعمم بها، حيث اشتهر بعدها لبس العمامة اليوسفية في عهد خلفته ولذا سميت أيضاً بالعمامة السليمية. لأن أبا الفتح محمداً وبايزيد الولى كانا يعتمان بالعمامة العرفية ولكن سليماً اعتم بالسليمية.

هذا، وظهرت في خزانة الإسكندرية عمائم قلاوونية نسبة إلى السلطان قلاوون. وجدت أيضاً سيوف الخلفاء الراشدين وكذا ملابس السلاطين السالفين وعندهم وأسلحتهم وآلاتهم الحربية، ومنها خمسون ألف بندقية مرصعة بالجواهر ومزدانة بأثار الصنعة الفاخرة، وعشرون ألف سيف مصرى فى غاية الإبداع، وعشرة آلاف من الزرود، وعشرون ألفاً من الأقواس، وعدد لا يحصى ولا يعد من الخيول والزمبرك والنشاب والكنائن والتجافيف، وأربعون ألفاً من التروس الحليبة والدمشقية، وعشرة آلاف من الرماح الدمشقية وعدد لا يحصى من الدبابيس الدمشقية، وعشرون ألفاً من الزرود ومثلها من "القتلاوى" وثلاثون ألفاً من المغافر، وعشرة آلاف من الأطباق المرتبانية التى كانت صناعة يد الغورى نفسه، فقد تعلم هذه الصنعة من أحد رجال الله الأولياء فصار يعمل المرتباني دائماً ويرسله هدايا للكبار والأعظم فيرسلون له ما يملؤه من الذهب الإبريز، ولذا احترف هذه الصنعة وجعلها مينة له وديننا لطمعه فى المال.

الخاص فى السراى السلطانى، وقد كان كل سلطان عند توليه العرش وتقليده سيف السلطنة يحرس كل الحرص على زيارة الأمانات المباركة فى احتفال رسمى يحضره الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وكل رجالات الدولة وأركانها. (انظر فى ذلك للمترجم "إستانبول عقب التاريخ وروعة الحضارة").

وهكذا ظهرت في خزان الإسكندرية - مثل هذه النوادر - أشياء كثيرة نقلت كلها إلى سفن الأسطول الذي سافر بها إلى إسلامبول. وقد بادر سليم خان بعد كل ذلك إلى زيارة أولياء الله الأحياء بالإسكندرية فاستجلب رضاهم ودعواتهم الصالحات، كما زار الأضرحة واستمد من روحانية أصحابها الموتى المعونة والتأييد. ثم عاد إلى مصر بالفرقاطات والعقبات باحتفال كبير ولبث بها مدة أسبوع، فقام في أم القياس بقطع الخليج باحتفال عظيم لم يسبق له نظير في مصر التي لا تزال تذكره بإعجاب وتقدير؛ حتى ليقال إن سليم خان أراد أن يتخذ مصر عاصمة لملكه الواسع ويقيم بها، غير أن أعيان الدولة وعلماءها لم يوافقوه على ذلك.

الفصل الخامس عشر

قوانين تنظيم مصر في

عهد السلطان سليم خان بن بايزيد خان

ما إن وصل السلطان سليم خان إلى القاهرة حتى بادر إلى أداء صلاة الجمعة مع أهل ديوانه بإذن من علماء مصر في جامع عمرو بن العاص، فحضرها جمع غفير من المصلين، لأن كلا من الوليين أبى السعود الجارحي ومرزوق الكفاي كانا حاضرين في ذلك اليوم المشهود، وبإذن منهما وإشارتهما المطاعة تلا سيدنا أبو العلاء خطبة الجمعة ووصف السلطان عقبها بقوله: "سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين، السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان، أيد الله سلطنته إلى انقراض الدوران". كما أن العملة المسماة "شريفى" قد سكّت بإذن من الوليين الصالحين المشار إليهما منقوشاً عليها عبارة "صاحب النصر عز النصر في البر والبحر، السلطان بن السلطان سليم شاه بن بايزيد خان عز نصره مصر سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧م".

هذا، وعقد سليم شاه ذات يوم ديوانه السامى الحافل بكل الأعيان والشيب والشبان، ثم نهض فيهم قائماً فقبض على يد "خاير بك" وأجلسه على سرير النيابة والخلافة، وقد وضع بيده الكريمة على رأسه العمامة المسماة بالمجوّزة السليمية، وكان قد رصّعها بأكاليل قلنسوته السلطانية التي كان يلبسها حينذاك، ثم خلع عليه فراء عظيمًا كما قلده خنجرًا ذا حزام ذهبي مرصّع، ثم رفع يده إلى السماء ودعا له بالتوفيق، ثم قال: يا خاير بك إني قد جعلتك وزيرى ونائبى فى هذه البلاد مؤملاً فىك الإخلاص فى العمل والصدق فى القول، ولا أنتظر من وراء فتح مصر سوى التمكن من خدمة سيدنا الرسول ﷺ والحرمين الشريفين فى كل وقت، فكل

ما تحصل لدى منها هو أنى حصلت على شرف لقب "خادم الحرمين الشريفين"، وإنى لذلك قد وقفت جميع حاصلات مصر على خدمة سيدنا النبي ﷺ، ألا فاشيدوا بذلك جميعاً. وأنت يا خابر باي! منذ اليوم ناظر على وقف الله هذا، نظارة مطلقة فعليك بحسن الإدارة والخدمة". قال السلطان هذا وأنعم عليه باثنى عشر شاطراً من ذى المغافر الذهبية المستغرقين فى المرصعات، وبثلاثمائة من الغلمان المخصوصين ذوى الأحزمة المرصعة، وبأثنى عشر جواذا من الخيول المطهمة ذات السروج المزركشة والمرصعة بالأحجار، وبفرقة موسيقية مؤلفة من اثنتى عشرة آلة، وسبعة من الكوسات الملكية، وبسراق عظيم مزخرف مقام على ثلاثة أعمدة كبيرة وأربعين عموداً صغيراً، ثم عمد السلطان إلى رجال غرفته الخاصة فعثن منهم أمراء فى رتبة ذى الطوغين [باشا من الدرجة الثانية]، كما أنه نصب مائة من كبار عسكره وعماله رؤساء على الجراكسة؛ يتصرفون فى أمورهم ويقومون على شئونهم.

كان الديوان السلطاني ينعقد أربعة أيام من أيام الأسبوع، فقد كانت أعماله تعطل فى أيام الجمعة والسبت والأربعاء، فكان قاضى العسكر يعقد الديوان أربعة أيام، ويقدم كل يوم من تلك الأيام لأهل الديوان وخدمه والقادمين إليه من مسافات بعيدة ثلاثمائة صحن من الطعام، تقدر قيمتها بمبلغ كيسين مصريين من النقود فأمر بأن يخرج إلى الديوان الملكى ثلاثة آلاف صحن من الطعام لأهل الديوان وخدمهم ولعباد الله القادمين من جهات بعيدة؛ كما أنه قرر لجاوشية الديوان خمسة خراف وإردباً من الأرز وكيلتين من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأقتنين من شمع العسل كل يوم، وخصص مرتبات لأئمة المساجد ومؤذنيها.

وبأقاليم مصر ثمانون كاشفاً، لكل منهم ديوان خاص يمد فيه السماط صباحاً ومساءً على نفقة السلطان، وكذا البكوات الجراكسة الذين يبلغ عددهم مائة بك، ومائة أغا من أغوات البلوكات، لكل منهم سماط يؤمه الخاص والعام ممن لهم حاجة إلى الطعام كلما نقرت الطبول والكوسات إيداناً بذلك.

فهكذا كانت نعم السلطان مبذولة للجميع على الدوام، وليس لسلطان آخر نعم مبذولة دائماً على هذه الوتيرة. ثم إن هناك مبلغاً قدره ستة ملايين قرش وسبعة وأربعون ألفاً من الخاصة السلطانية غير داخلية في القانون.

هذا، وكان ولاية بغداد والحبشة واليمن والعراق يلبسون في الغزوات أكاليل على عثمانهم السليمية. وإذا وجد معهم خان التتر فيقف والى مصر بعده، ويليه والى العراق ثم والى المجر. فهؤلاء الوزراء الخمسة يقومون مقام السلطان ويتصرفون سائر الوزراء لكونهم لاسبين سليمية ذات طرة.

كان القانون السليمي يقضى بأن يسارع وزير مصر بجيشه الخاص إذا عين قائداً لليمن أو الحبش أو العراق أو غيرها من الأقاليم والولايات لمكانته الملكية الخاصة، ولكن الحال تغيرت الآن، فقد سيطر ممالك مصر وجنودها على جميع الأمور ووضعوا أيديهم في هذا العصر على جميع المقاطعات التي في القانون السليمي، ولم يبق شيء لأتباع الباشا، ويعيش وزير مصر مع رجاله الألف في القلعة الداخلية، ويكتفى بضباطه وأغواته برواتبهم ومخصصاتهم الخاصة، ولهم أربعة وعشرون إقطاعاً (زعامت) يتكفون بإيراداتها التي لا تكاد تسد حاجاتهم.

وكان القانون السليمي يحتم صرف معاشات ورواتب سنوية إلى ثلاثمائة أغا من أغوات والى مصر الخاصة، وغلمايه وخدمه وحراسه الليليين ولجميع خدم أغوات الباشا الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف، وتلك الرواتب والمخصصات تتألف من أغطية الرأس والقمصان والسرراويل وأقمشة أخرى خاصة وأحذية وأخفاف. وكذا يصرف كل سنة من وقف شجرة الدر، كانت قد خصصت رواتب سنوية لأغوات السلاطين السابقين جميعاً، فلذا عمد السلطان سليم إلى فحص وقف شجرة الدر، فوجد أنها كانت تقوم بكسوة الكعبة بالحرير الأسود كل سنة، وقال السلطان: قامت سيدة يمثل هذا العمل، فمثلي أنا وقد نلت شرف السيطرة على المدينة المنورة ومكة المكرمة أولى بأن يكسو الحرمين بالديباج والشيب والمقصب والستائر المرصعة بالدر والجوهر. ولكن علماء مصر - ولا سيما أصحاب المذاهب الأربعة

بها وعظم خليفة أبى السعود الجارحى - خالفوا السلطان فى عزمه فقالوا: "إن العمل المبرور الذى قامت به شجرة الدرلم يسبقها إليه أحد من السلاطين والملوك السابقين فهو خاص بها دون غيرها حيث وفقها الله له بمقتضى كتاب وقفينها المحفوظ حتى الآن، ولا يخفى أن شرط الواقف كنص الشارع"، فأبدى السلطان سروره لهذا رأى واعتباطه بهذا العمل المبرور قائلاً: "هنيئاً لهذه السيدة الموفقة التى يسر الله لها عملاً مبروراً كهذا لا يتيسر لأحد من السلاطين السابقين واللاحقين"، ثم تساءل عما يمكنه أن يعمل لمكة والمدينة من الخيرات غير الكسوة، فوفقه الله للقيام بما يأتى:

صنع ستار من الأطلس الأخضر المحلى بالذهب لباب الكعبة الشريفة، وتجديد بناء باب مقام إبراهيم، وتليب صندوق قبره بالذهب، وتزيين ستار منبر الحرم بالذهب، وتجديد الحرم وترميمه، وتجديد رصاص قبة المنزل السعيد الذى ولد فيه النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك المنزل مشهور ببيت آمنة. وقد خلّد السلطان فى مكة أكثر من ألف أثر وبناء، كما أنه أول من أمر بالدعوة فى خطب المنبر لآل عثمان بمكة المكرمة، وكذا خلف من الآثار فى المدينة المنورة شيئاً كثيراً من الأحجار الكريمة النادرة تسر العين من النظر إليها، علاوة على أوقاف خيرية عظيمة وآثار كثيرة أنشأها بها؛ كما أنه بإشارة من ابن كمال باشا قاضى مصر - أصدر أمره بتحرير جميع قرى مصر وبلادها البالغ عددها ألف قرية، وإحصاء ما فيها من الطيور فى السماء والدواب فى الأرض والسباحات فى البحار والأنهار والمياه من الحيوانات والمنافع، ثم وزعها بعد ذلك بطريقة الإقطاع على الملتزمين والأمراء والجنود؛ فجعل غلاتها كلها وفقاً مرصوداً لخدمة الحرمين الشريفين.

هكذا حررت أراضي إيالة مصر وقسمت إلى الأقسام التالية:

القسم الأول: قرية وقفت على خيرات وعمارات السلاطين السابقين وإحساناتهم المتعددة. فأطيان هذا القسم باقية كما هى وقت التحرير فى أيدي

نظارها، على أن يقوموا بتحصيل غلاتها حسب شروط الواقف، فيصرفها فى وجوهها المعينة من رواتب الأئمة والخطباء والمشايع المعروفين والمساحين، وما بقى منها بعد ذلك كله يضبط لجانب الميرى.

والقسم الثانى: قرى الكشوفية؛ أعنى القرى المخصصة المفروزة خصيصاً للباشا من قبل السلطان؛ حيث يقيم فى كل واحدة من تلك القرى كاشف معه مائة جندى يسهرون على جباية أموال الكشوفية للباشا. ومقدار ذلك مائتا كيس فى السنة، بيد أنه إذا تعطلت فى زماننا هذا قرية ما أعنى أن صاحبها وملترمها عجز عن دفع المال الذى عليها وتنازل لأجل ذلك عنها، فإن الباشا الرالى يأخذها منه، وتكون البلدة من قرى الكشوفية فينقل الباشا إليها الرعايا ويزرعها، وهكذا يحصل على مالها المقطوع. ويستمر الحال على هذا المنوال؛ إلى أن يظهر طالب لها فينقل تكليفها والتصرف فيها إلى اسم هذا الطالب، لأنه هو الذى قام بإحيائها وتعميرها.

والقسم الثالث: يقال له الأطاين الأميرية، وهو القرى والأراضى التى ترصد غلاتها لأموال السلطان فى الإيالة المصرية، ويبلغ مقدار أراضيها سبع عشرة "كاشفية"، وتحت إمرة كل كاشف من قبل الميرى مائة جندى من البلوكات السبعة، كما أن الكاشف يتخذ بضع مئات من الجنود السكبان^(٢٣٩) يستعين بهم كلهم على جباية أموال السلطان فى ولايته، فيورد هذه الأموال أقساطاً، كل قسط يُسمى الثلث الأول والصيفى والشتوى، ويوردها إلى خزائن السلطان ومواجب (رواتب) المماليك.

ولأولئك الجنود من أفراد البلوكات السبعة الذين يسيرون فى ركاب الكشاف بلدة عوايد من الأموال، يتراوح مقدارها لكل واحد منهم بين خمسمائة وستمائة

(٢٣٩) الجنود السكبان: فرقة من فرق الإنكشارية، كانوا فى بداية نشأتهم فى عهد محمد الفاتح مكلفين برعاية كلاب الصيد وتربيتهم وتدريبهم، ثم انخرطوا فى صفوف الإنكشارية وأصبحوا من أعمدة المشاة فى الجيش العثمانى، وكانت أورطتهم موزعة إلى ٣٥ بلوكا. وعلى رأس كل بلوك ضباط، ورئيسهم يسمى "سكبان باشى". انظر محمد باقالين.

وَأَلَفَ قَرْشٌ، وَيَحْدُثُ أَنْ رُؤَسَاءَ الْجُنُودِ لَا يَكْتَفُونَ أحيانًا بما يُعْطَى لَهُمْ وَقَدْرَهُ خَمْسَةَ أَكْيَاسٍ مِصْرِيَّةٍ، بَلْ يَقْدُمُونَ عَلَى إِطْلَاقِ بَعْضِ الْمَجْرِمِينَ مِنْ قَبُودِ الْكَاشِفِ وَأَغْلَالِهِ نَظِيرَ رِشْوَةٍ بِأَخْذُونِهَا عَلَى تِلْكَ الْجَرِيمَةِ.

وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ: هُوَ الْقَرْىَ الَّتِي إِذَا مَاتَ مُلْتَزِمٌ أَمْوَالُهَا تُضْبَطُ لِلْمِيرَى، وَيُعْلَنُ الْبَاشَا بِبَيْعِهَا بِوَسْطَةِ الدَّلَالِ فِي الْمَزَادِ السُلْطَانِيِّ، فَتُبَاعُ الْقَرْيَةُ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ أَوْ مِائَةِ كَيْسٍ بِجَمِيعٍ مِنْ فِيْهَا مِنَ الرِّعَايَا وَالْمَخْلَفَاتِ، وَيَقْبُضُ الْبَاشَا ثَمَنَهَا حَسَبِ الْقَانُونِ السُّلْطَانِيِّ. هَذَا، وَالْمُلْتَزِمُ الَّذِي يَشْتَرِي الْبَلَدَةَ الْمَبِينَةَ فِي التَّحْرِيرِ عَلَيْهِ أَنْ يُوْرِدَ مَالُهَا لِحَسَابِ رَوَاتِبِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ السَّنَوِيَّةِ، وَمَا يَبْقَى مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ لَهُ مَهْمًا بَلَّغَ مَقْدَارِهِ سِوَاءِ أَكَّانَ مَقْدَارُهُ كَيْسًا أَمْ مِائَةَ كَيْسٍ، كَمَا أَنَّ لَهُ أَنْ يَعْمُرَ الْقَرْيَةَ وَيَتَصَرَّفَ فِيْهَا مَدَى الْحَيَاةِ، فَإِذَا مَاتَ عَنْهَا لَا تَنْتَقِلُ الْقَرْيَةُ إِلَى أَوْلَادِهِ؛ بَلْ تَرْجِعُ إِلَى الْمِيرَى مَرَّةً أُخْرَى.

وَالْقِسْمُ الْخَامِسُ: هُوَ مَا كَانَ فِيْ نَظَارَةِ أَمِينِ خَرَاكِ "الْجَوَالِي" الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الذَّمِّيْنَ بِمَقْتَضَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ الْغُرَاءِ مِنَ الْيَهُودِ وَالْقَبْطِ وَالْأَرْمَنِ وَالْإِفْرَنْجِ... فَأَمْوَالُ هَذَا الْقِسْمِ تَسْلَمُ إِلَى الدَّفْتَرْدَارِ فِي الدِّيَّوَانِ السُّلْطَانِيِّ لِتُرْسَلَ مِنْ تِلْكَ الْأَمْوَالِ الصَّرَّةُ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ مَعَ أَمِيرِ الْحَجِّ كُلِّ سَنَةٍ.

وَالْقِسْمُ السَّادِسُ: مُخَصَّصٌ لِلْأَغْوَاتِ الَّذِينَ اعْتَقُوا فِي إِسْلَامْبُولٍ وَفَكَتِ رِقَابِهِمْ فِي الْأَسْثَانَةِ الْعَلِيَّةِ. وَهَذَا الْقِسْمُ يَتَأَلَّفُ مِنَ الْقَرْىِ الْعَامِرَةِ بِمِصْرَ وَالْمَشْمُولَةِ بِنَظَارَةِ أَغَا دَارِ السَّعَادَةِ الشَّرِيفَةِ، عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ أَحَدٌ تَعُودُ تَرَكَّتُهُ وَاسْتَحْقَاقُهُ إِلَى الْبَاشَا، هَذَا، وَفِي عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ بَاشَا قَدْ وَرَدَ خُطُّ شَرِيفٍ بِخُصُوصِ ضَبْطِ أَمْوَالِ الْمُتَوَفِّينَ مِنَ الْأَغْوَاتِ السُّودِ، وَمَصَادَرَةِ مَخْلَفَاتِهِمْ لِجَانِبِ الْمِيرَى وَتَعْيِينَ أَحَدِهِمْ "مِنْ الْأَغْوَاتِ" أَمِينًا لِبَيْتِ الْمَالِ، وَجَمْعَ مَخْلَفَاتِهِمْ قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ وَحَفَظَهَا فِي مَكَانٍ، وَتَعْيِينَ الْبَاشَا الْوَالِي أَيْضًا مَلَاخِظًا مِنْ قَبْلِهِ لَخْتِمِهَا بِالشَّمْعِ الْأَحْمَرِ ثُمَّ عَرَضَ الْمَوْضُوعَ عَلَى الْأَعْتَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِإِسْتَانْبُولٍ، وَوَفُودَ أَحَدِ الْحُجَّابِ مِنْهَا حَامِلًا الْأَمْرَ

بالتصرف فى تلك المخلفات والقرى بالإحسان بها إلى عبيده أو بيعها، وقيام الأغوات السود بأداء أموال القرى كما ذكرنا سابقاً حسب ذلك الأمر والتصرف بالباقى كيفما يشاءون.

والقسم السابع: هو القائم بإدارة أموال واستحقاق جميع جنود الإنكشارية والطوائف العسكرية من العزبان والمتفرقة والمتطوعين وحملة البنادق وأقلام السباهية والأيتام والجوالى. ويضبط الباشا الوالى أموال هذه الجهات كلها بواسطة قلم الكشيدة^(٢٤٠) [قلم التوقيعات]. ولكن منذ سنة ١٠٧٠هـ = ١٦٥٩م قد تغلب الإنكشارية والعزبان على خزينة هذه الأموال وإداراتها؛ بحجة أن الفلاحين إخوانهم صاروا هم المسيطرين عليها فإذا كلفوا بالسفر إلى ساحة القتال والحرب يسطون على بيت المال لسد نفقات فرقته، وهكذا ينفقون على أنفسهم من تلك الأموال. وإذا أسلم مسيحى وذهب إليهم فيكسونه حالاً؛ كما أنهم إذا التجأ إليهم غريب يكسونه ويمنونه ويعطونه فرساً. وإذا أسر أحد من رفقاتهم هؤلاء من قبل الكفار بادروا إلى فك أسره وتخليصه من أيديهم، ولو كان ذلك بمبلغ عشرة آلاف قرش.

ومنذ السنة المذكورة آنفاً أصبح الباشا لا يستطيع التعرض لبيت مالهم العظيم، وإن كانت له سلطة كاملة على بيوت مال أخرى خاصة أو عامة، فجاءيشية البلوكات السبعة وقاضى العسكر يكلفون من قبلهم نواب القسامين بتحرير ذلك وضبطه ثم تسليمه إلى خزينة الباشا بإذن من أغا الباشا؛ وما ذلك إلا لأنه كله مما التزمه الباشا وتعهده بصرف ماله المحصل فى وجوهه، فإن كان للمتوفى وارث أثبت وراثته فإنه بموجب سجلات جاویشية البلوكات السبعة والقسامين يطلب جزءاً ضئيلاً من التركة؛ أى بنسبة أذن الجمل إلى جسمه فى القدر والحجم.

(٢٤٠) قلم الكشيدة: قلم التوقيعات؛ هو القلم أو الدائرة أو الإدارة التى كانت تهتم بتسجيل توقيعات الصدور العظام ومضاهاتها فى الإدارة العثمانية.

والقسم الثامن: هو إدارة الصرة^(٢٤١) التي تجبى أموالها من القرى المخصصة لمصالح مكة والمدينة، ويبلغ مقدارها الثابت ألفاً وخمسة وستين جنيهاً ذهبياً من مال مصر العام، واثنين وستين ألفاً من الجنيهاً الذهب مما حصل من أموال تلك القرى، فتسلم الصرة كل سنة بواسطة أغا الباشا ومعه سبعمائة من جنود بلوكات مصر السبعة إلى أمين الصرة في الشام الشريف، ومنها ترسل إلى المدينة المنورة. ولكن العادة جرت في العهد السليمي وعاداته إرسال ستة آلاف كيس من مصر وستمائة من الأوقاف، كما أن أمير حج مصر كان يصحب معه كل سنة صرة من الأموال لشرفاء مكة ومجاوريها ومشايخها جميعاً.

(٢٤١) الصرة: أمين الصرة = صرة أميني: اصطلاح إداري يُطلق على الموظف الذي تسند إليه عهدة ومهمة توصيل الصرة الهمايونية إلى الحرمين الشريفين كل سنة. وكان يُعين لهذه المهمة إحدى الشخصيات العلمية أو المدنية أو العسكرية التي تتصف بالتدين والاستقامة. وكان يبدأ رحلته وسط احتفالات آلاي الصرة. وبعد أن يقوم بتوزيع الصرة على أربابها وأداء فريضة الحج كان يعود إلى إستانبول. ومع أن هذه المهمة تعتبر مهمة شرفية إلا أن أمين الصرة كان مضطراً في كثير من الأحيان للصرف من ممتلكاته الخاصة بمبالغ كبيرة وذلك لقلة المخصصات. ومن هنا كانت تسند هذه المهمة إلى بعض الأغنياء في كثير من الأحيان، وكان كثير من العثمانيين في عصور الازدهار لا يتوانون أو يتحيبون من صرف المبالغ الضخمة في هذا الصدد. ولكن في أواخر القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي، وبسبب الأوضاع المالية المتردية للدولة العثمانية، بدأ الكثيرون يرفضون القيام بهذه المهمة متعللين بكثير من الأسباب الواهية لإغفائهم من هذه المهمة. ولكن في عهد السلطان سليم الثالث وبخاصة في سنة ١٢٠٧هـ = ١٧٩٢ - ١٧٩٣م تمت علاوة مبلغ ١٥٠ ألف قرش ذهبي على مخصصات هذه الوظيفة مما أعاد إليها رونقها وأصبحت مطلباً لكثير من رجالات الدولة. كانت الصرة التي يرسلها بايزيد الثاني كل سنة لتوزع على أهالي الحرمين الشريفين قد نالت استحسان شاعر البطحاء العربي للشيخ شهاب الدين ابن أحمد بن علي المتوفى (٨٩٢٢ = ١٥١٦م) فقرض قصيدة في مدح السلطان أسماها "الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيد ملك الروم" وقدمها إلى السلطان عندما قدم الشاعر إلى إستانبول، فاستحسنها السلطان، وأنعم على الشاعر بألف دينار، وكان يرسل إليه سنوياً مائة دينار. (انظر: مرأت مكة، مجلد ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١. ومعجم المصطلحات التاريخية، ج ٣ ص ٢٨٣).

والقسم التاسع: هو ما رسده السلطان سليم أيضا من إيراد وغلل بعض القرى والمدن في إيالة مصر، لصالح مكة والمدينة وذلك كبلاد "مطوبس" و"ديروت شريف" ومدينة "صنبو" وغيرها من القرى والبلاد التي يبلغ عددها سبعمائة؛ ما بين قرية وبلدة وقصبة. وكانت هذه الحاصلات والإيرادات ترسل بالسفن المحمدية إلى مكة والمدينة. وهكذا صارت المدينتان المقدستان عامرتين بالخيرات والنعيم. وسنذكر إن شاء الله غيرها من المقررات والميراث التي وضعها سليم خان في محليا.

الفصل السادس عشر

بيان النيابات وأمراء اللواء فى إيالة مصر والمنخصصات السوية لبكوات السناجق، وجميع الكشوفيات حسب القانون السليمى

السلطة الأولى:

تأتى سلطة أمير الحج المصرى فى مقدمة هؤلاء جميعاً، ويوصف هذا الأمير فى مصر بأنه سلطان البرين، لأنه من بكوات مصر الذين يحمل بعضهم طوغين من شعار الدولة. وتقضى الأصول أن يكون مركزه فى السويس، ويطلق العربان فى طريق مكة على أمير الحج المصرى لقب "سلطان البر"، لعظمته حكومته وسعة سلطته، فهو يشرف على أربعين ألف حاج كل عام.

السلطة الثانية:

ويليه فى الرتبة أمير السويس الذى يقوم كل عام بنقل آلاف من الحجاج على مائتى سفينة معدة لنقل الغلال فى بحر السويس إلى جدة، فى حراسة سفينتين حربيتين من نوع قادرغه، ولهذا الأمير راتب سنوى من ديوان مصر قدره اثنا عشر كيساً، ويأخذ من مخازن (عنابر) يوسف إردبا من الغلال كل عام فيوزعها على الجنود والبحارة والربانة وسائر طوائف الملاحين من المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الذين قيدت أرجلهم، ويقوم بالرحلات والأسفار ويوقد فى سفنه الفوانيس، ويرفع فوقها الأعلام الذهبية، ويطلق عليه "سلطان البحر".

السلطة الثالثة:

سلطة بندر جدة وهى باشوية مستقلة استقلالاً كبيراً، يحمل صاحبها أحياناً طوغين من شعار الدولة الخاصة بالباشوات، لكى يكون له السلطان على أمراء

مكة وشرفانها؛ فلذا يُطلق العرب - من بدو وحضر - على هذا الباشا عنوان "وكيل السلطان". فحكومته عظيمة كبيرة القدر، لأن ملوك الهند والسند واليمن والحبشة وسواكن جميعا يرجعون إليه، ويعتبرونه وكيل السلطان الأعظم، ولذلك يرسل إليه سلطان الهند هدايا قيمة وكتبًا كريمة كل عام.

السلطة الرابعة:

في إيالة مصر هي إدارة أشرف مكة، ويقال لشاغليها "سلطان الشرفاء" فيذكر اسمه في الخطب بعد أسماء آل عثمان، وحكمه نافذ في البلاد حتى في بغداد والبصرة والإحساء واليمن. وإذا أراد أن يحشد جيشاً فإن في إمكانه أن يجند عسكرياً يتراوح بين أربعين وخمسين ألفاً من الفرسان.

السلطة الخامسة:

إدارة اليمن التي كانت خاضعة لحكومة مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٣٣هـ = ١٦٢٣م، حينما استولى الأتمة الزيديون عليها، ولا يزال الحكم فيها لهم.

السلطة السادسة:

إدارة إقليم الحبشة حيث يحكمها الآن وزير من آل عثمان وهي سلطنة واسعة الأرجاء .

السلطة السابعة:

إدارة بلاد الفونج. ولأن ملكهم من البكريين لا يكادون يخرجون عن طاعة مصر وأوامر ولاتها الحاكمين.

السلطة الثامنة:

إدارة طرابلس.

والتاسعة إدارة تونس.

والعاشرة إيالة الجزائر .

وهذه الإيالات الثلاث تابعة لإدارة مصر، ولا يزال لكل منها نفدها وسكنتها الخاصة.

ويقوم من مصر كل عام أغا من أغوات والى مصر حاملاً كتب التقرب والاستمالة إلى كل من أولئك الرؤساء فى النيابات العشر المذكورة.

وكان بمصر نفسها أربعون من أمراء اللواء وحاملى رتبة "ميرميران" ذوى الطبل والعلم مع طوغ أو طوغين. وأما فى زماننا هذا ففيها اثنان وعشرون من البكوات الذين يرفعون العلم ويضربون الطبل فى اثنين وعشرين موضعاً يُقام فيه السماط المحمدي كل ليلة، وكل منهم مكلف بعمل خاص، فمنهم من يقوم بتوصيل الخزينة إلى الأستانة مع خمسمائة نفر من رجاله، وآخر يكلف ومعه رجاله الخمسمائة بنقل الأشياء الصادرة إلى خزائن "كيلار" آل عثمان العامرة، ويتناول ٣٣ كيساً من المال كل عام.

وأما تلك الأشياء فى (٥٠٠٠٠٠) أردب من الأرز يُحصّل من بنادر دمياط وفارسكور وبضاي برمبال ورشيد و (٢٠٠٠) قفص من السكر و (٣٠٠) كيس (فردة) من البن و (٢٠٠٠٠٠) أردب من العدس. وكل هذا يُنزلونه فى بندر رشيد، ومنه يُحمّلونه فى السفن المسماة "جریم" ويسيرون بها إلى الإسكندرية حيث يُخزّن إلى أن تهب ريح موافقة للسفر إلى إستانبول.

وكان "بك"، أى أمير دفتردارية البلد، يتصدرهم جميعاً لأنهم جميعاً فى حاجة إليه.

وكان هناك أربعون من البكوات أى القواد الجراكسة حسب القانون السليمى، ولم يبق منهم الآن سوى عشرين، يرأس كل واحد منهم مائة نفر، وإذا عُيّن بك من هذا الجانب سرداراً أى قائداً لختم آل عثمان فإن أحد بكوات مصر يؤمر بالسفر مع الخاتم.

وأمر يقوم بحماية مدينة بولاق مع خمسمائة من رجاله الأتداء، وبك يحرس مصر القديمة بفرسانه الخمسمائة، وبك يحرس الإمام الشافعي بفرسانه الخمسمائة، وبك يخفر "سبيل علام" ومعه خمسمائة فارس، وسبيل علام هذا يرحل منه الرانحون والغادون والحجاج وسائر الزوار، يراقب البك منه القوافل البرية والبحرية، وبك آخر مأمور بالسفر مع الحجاج إلى السويس وبخفارة قافلتهم ومعه خمسمائة رجل. أما الآن فإن هناك أغا يرافق قافلة الحجاج والتجار إلى السويس ذهاباً وإياباً مع خمسمائة من رجاله، وبك آخر يظل دائماً مستعداً للسفر إلى أية جهة يظهر فيها الثوار والأشقياء، ومعه خمسمائة رجل، بأمر وزير مصر وحاكمها يُبادر إلى جهة الثوار والاختلال بالتجريدة اللازمة.

وثمة بكوات مستعدون للعمل بمن معهم من الرجال دائماً حينما يطلب إليهم ذلك. وهؤلاء البكوات يتقاضون نظير أعمالهم مبلغاً معيناً من المال؛ يتراوح بين عشرة واثني عشر كيساً في العام، وإرباباً من الغلال باسم "العليق" للخيول من المخزن أي العنبر.

في بيان رتبة بكلكر بك^(٢٤٢) في إيالة مصر

إن بك أي أمير دمياط يُعيّن من قبل السلطان بطوغين ويتقاضى من ديوان مصر ستة أكياس في العام، وله إيراد مثل ذلك من دمياط، كما أن له إيراداً من المدينة نفسها ترد من غير وجوها الظاهرة يبلغ ستة أكياس أيضاً. ففي نظير هذه الأكياس الثمانية عشرة من الإيراد يخرج "بكلكر بك" للسفر في البحار الستة بسفينتيه

(٢٤٢) بكلكر بك: بالتركية مثل ميرميران المركبة من العربية والفارسية. ومعناها بك البكوات أو أمير الأمراء أي قائد عام للقوات الموجودة في الإيالة، وله مخصصاته الخاصة به.

الحريبتين من نوع "قادرغه"، تحت رئاسة القبودان باشا ومعينته حتى يقبل الشتاء فيأوى هو بسفينته إلى ميناء "دمياط".

ومدينة "رشيد" أيضا سنجق ورواتبها كرواتب دمياط، ويقوم حاكمها بالسفر في البحر الأبيض بسفينته من نوع "القادرغه". وكذا سنجق "الإسكندرية" الذي يتقاضى راتباً سنوياً كراتب دمياط ورشيد من ديوان مصر، ويخرج في معية القبودان باشا وسنجق الإسكندرية عظيم وذو شأن، فلذا يكون أميره سرداراً - أى رئيساً - في اجتماع سنجق دمياط ورشيد، وتكون له الرئاسة على القادرغات الست، ويرافق بها مع الأسطول السلطاني سفن التجار ذهاباً وإياباً.

والسنجق الرابع بمصر هو الشرقية، والخامس الغربية، والسادس المنوفية، والسابع البحيرة. وكانت "أوجله" وهي منجم التبر من الذهب بأرض المغرب كاشفية عظيمة منذ فتح سليم خان مصر. وفي أيام إبراهيم خان حين كان مقصود باشا والى مصر تغلبت طرابلس على "أوجله"، ولا تزال تحتلها حتى اليوم.

والسنجق الثامن المنصورة، والتاسع القليوبية، والعاشر جزيرة يوسف، والحادي عشر بنى سويف، والثاني عشر فيوم يوسف، والثالث عشر المنيا، والرابع عشر منفوط، والخامس عشر هو السنجق الكبير والولاية العظيمة جرجا، والسادس عشر اللوات العظيمة، والسابع عشر أبرام.

وفي كل عام يُرسل إلى هذه السناجق رجال من قبل كل بك ومن قبل البلوكات السبعة، للقيام بأمور الضبط والربط من شهر توت إلى شهر توت بالحساب القبطي وبجباية الأموال السلطانية وتوريدها إلى مدير المال (دفتردار)؛ حيث تصرف منها رواتب الجند ومخصصاتهم، وترسل منها الخزينة المعتاد إرساليها إلى السلطان.

ويتبع كلاً من هذه السناجق بضع مئات من القرى والقصبات العامرة، وأكبر أولئك البكوات والحكام شأنًا هو حاكم جرجا؛ الذي يمتد حكمه إلى بلاد الفنج

والبربر والسودان وأوجله وبلاد المغرب بواسطة خمسة آلاف من جنوده؛ ويحمل بك هذه الولاية أحياناً طوغين من شعار الباشوية في الدولة؛ فهي ولاية عظيمة واسعة ينتج منها مائتا ألف إردب من الغلال في العام، يخزن في مصر القديمة، وتصرف منها الجرايات لجميع جنود مصر ويُجَبى منها من المال السلطاني ما مقداره مائتا ألف كيس، كما أنها تورد لثمانين حاكماً ما يلزمهم من الغالية [قالية]، وتعطى أيضاً مائة كيس من المخصصات والرواتب لمن ينخرطون من سلك جنود جرجا ويكون ذلك محسوباً عليها.

ثم إن ولاية هذه الولاية جعلوا ولاية الصعيد تدر أربعمائة ألف إردب من الغلال في العام، يبقى له مبلغ من المال صافٍ قدره مائتا كيس مصرى بعد كل المصروفات، فهي ولاية عظيمة يُقال لها الصعيد الأعلى، وكأن مصر عبارة عن ذلك الصعيد الذى ليس له نظير من حيث الخصوبة ووفرة الخيرات والبركات. وسنذكر ذلك في محله إن شاء الله.

ولباشا جرجا ديوان كديوان والى مصر؛ يعقد فيه مجلسه العالى حيث يكثر العمل وتزداد الحركة حتى يعجز القلم عن وصفها. وتتقسم أراضي حاكم جرجا إلى أربع وعشرين كاشفية، يخلع حاكم جرجا على رئيس كل منها خلعة فاخرة بدون تدخل والى مصر فى ذلك.

وهذه أسماء تلك الكاشفيات خارج القانون: كاشف منفلوط وكاشف المنيا وكاشف شرق الفيه، وكاشف شرق أخميم، وكاشف أبو تيج وكاشف طحطا وكاشف الواحات وكاشف المنية وكاشف بلايش وكاشف فوه العليا وكاشف قنا وكاشف قوص وكاشف أقصرين فى غرب النيل. وكاشف عسيرات وجرجا وكاشف بندر وتمه فى الغرب وكذا كاشف سيوط فى الغرب. وأما كاشف "ريان بن عايد" وهو شيخ العرب وكاشف شرق سليم فهما فى الشرق. وكشافو شرق المريح وبهجور وفرشوط وقصاص وإسنا فى الغرب. وسنهوط فى غرب النيل. وكاشف قصير

بهنس فى الغرب. وبرديس متصل بأعالى جرجا. وكاشف شرق تمام والوانية قائمقاميتان فى غرب النيل. وكذا كاشف جزيرة فى الغرب. وكاشفية أبرم.

وكانت إيالة الصعيد تتألف من أربع وعشرين كاشفية حسب القانون تكون لكاشفيا الكوسات، ثم ألحقت بها ستة من الكاشفيات ذات الكوسات، وهناك بعض المشايخ من العرب ليس لهم كوسات، فصار عدد الكاشفين أربعة وأربعين كاشفاً، يقومون جميعاً بخدمة جند مصر وأهاليها بتقديم الغلال اللازم لهم.

الفصل السابع عشر

بيان قوانين ديوان مصر وعاداته

فى عهد السلطان سليم خان فاتح مصر نادرة العصر

ديوان مصر! وما أدراك ما ديوان مصر، إنه ديوان عظيم فسيح الأرجاء؛ إذ هو ديوان السلطان الغورى الذى كان ديواناً عظيماً يتسع لخمسة آلاف شخص، وعلى جانبيه قاعات يجلس فيها رؤساء سبعين قلماً ومحاسيها مع وكلائهم وهم يمسكون الدفاتر. وفى وسط الديوان المفروش بالبساط ينعقد المجلس خمس مرات فى الأسبوع لسماع شكاوى وطلبات أرباب الحاجات؛ فيطلع الباشا الوالى عليها وعن يمينه الباشا الدفتردار وغيره من البكوات بعمانهم المسترسلة، وعن يساره يجلس بالترتيب أغوات السباهية والمتطوعون وحملات البنادق والإنكشارية والعزبان. ثم يتناولون الطعام فى ثلاثة آلاف صحن وطبق حيث يخدمهم كتخدا الجاويشية ورئيس المدرعين ورئيس المعمارية ورئيس الشرطة وجاويشية الإنكشارية والعزبان بملابسهم التشريفية دون أن يجلسوا إلى المائدة؛ فيتناول جميع أرباب الديوان الطعام بكل أدب وهدوء حسب الأصول ثم ترفع الصحون والأطباق كلها، ويأتى الخدم بالطشوت والأباريق الغورية فتغسل الأيدي وتنشف ويدعو داعى الديوان الدعاء المعتاد، وحينما يذكر اسم الرسول الكريم ﷺ يقوم الكل إجلالاً له مرتين، وحين يذكر آل عثمان يقومون مرة واحدة. وعندما ينتهى الدعاء وينفض الناس ويبقى أرباب الحاجات يتقدم كتخدا الجاويشية إلى الأمام ينادى قائلاً: هل هناك من يشكو؟ فإذا كان هناك شاكون يفصل فى أمورهم ونقض خصوصياتهم بوسيلة من الوسائل. ويذهب الباشا بعد ذلك إلى غرفة العرش فيخلون الميدان لكل من كتخدا الباشا [مدير مكتبة] والباشا الدفتردار ورئيس المتفرقة

وكتخذا الجاويشية، فإذا كانت هناك قرى خالية من ملتزميا وقد انتقلت إلى جانب الميرى، يعلن الدلال المختص بالبيع لمن يزيد، حيث تباع القرية لمن رسا عليه المزداد. ثم يشرع كل من الدفتردار والروزنامجى^(٢٤٣) فى تحصيل بقايا الميرى، فيرسلان إلى الملتزمين الذين لم يوردوا ما عليهم من الأموال للخزينة، فيحضرون إلى هذا الديوان الذى فى وسطه حبال غليظة مشدودة بحلقات وبكرات بالسقف. وإذا حضر الملتزم والمتأخر عن الدفع يلتف به عشرات الجلادين "اللهم عافنا"، ويوثقونه من ذراعيه بتلك الحبال الغليظة ثم يشدونها شداً حتى يرتفع الرجل ويعلق فى الهواء وهو عريان، لا يستره شئ أمام هؤلاء الحاضرين من رجال الدولة وأعيانها ثم يضربونه ضرباً مبرحاً بكرباج "قونجى" متخذ من قضيب الفيل، فيصل صباح المضروب وصرخاته إلى عنان السماء ولا حياة لمن ينادى ولا مغيث لمن يستغيث؛ حيث لا يجرأ أحد من الحاضرين أن يشفع له، لأن الشفعاء والوسطاء يتعرضون لمثل هذه المعاملة فيما إذا لم يأتوا هم بالمال المطلوب من الملتزم، بعد ثلاثة أشهر حيث يقال لهم إن كنتم تكفلونه فعليكم أن تؤدوا المال إلينا فى المهلة المقررة؛ الأمر الذى يجعل الابن يتبرأ من أبيه والأب من ابنه. وأعيان مصر يعرفون هذا كل معرفة؛ فلذا لا يتقدم أحد منهم بالشفاعة والرجاء لأحد من المتأخرين فى الأداء، ثم إن الرجل المضروب على هذا المنوال إذا كان له مال مهما كان ضئيلاً يبادر فيخرجه ويدفعه، ولو لم يبق له بعد ذلك إلا الحصير وإلا يُسجن فى مكان يقال له "أرقخانه"، وهو سجن فظيع جداً، حتى تعد جهنم وبئس المصير بجانبه "أعراف" فمن بات فيه ليلة يهون عليه الموت ويستعجله. وأخيراً تباع أملاك المدين وقراء حتى يتخلص من سوء السجن. والحكم هنا والكلمة للباشا الدفتردارية مصر حاملاً طوعين من شعار الباشوية.

(٢٤٣) الروزنامجى: هو التعبير الخاص بالموظفين الذين كانوا يسكنون الدفاتر الخاصة بقيد الواردات اليومية والمصروفات، وقد حمل هذا الموظف ذلك الاسم نسبة إلى دفتر الروزنامه الخاص بقيد تلك الأمور، وبعد التنظيمات تحول الاسم إلى كتب اليومية أو كتب الوقعات. (ج ٣ ص ٦٠ pakalin).

هذا، وإيراد إباله مصر العام كل سنة يبلغ ٤٥٠٠ كيس مصرى. يساوى خمستا وعشرين أوقية وأربع بارات تساوى درهما، فعلى هذا الحساب والتقدير يساوى الكيس المصرى الواحد ٨٣٣ قرشاً أو فى باب الخزينة ذكر بأنه ٨٤٦ قرشاً] ويحصل الدفتردار كل سنة من الوارد والمصروف ما يساوى ستة وعشرين ألف كيس، وتحت أمره ثلاثة آلاف من الخدمة والعمال. وتختتم اثنتا عشرة خزينة مصرية ناتجة عن الطريق السلطانى بخاتم ديوان هذا الباشا واثنتا عشرة خزينة مصرية تُحصل من جهات أخرى؛ فيكون جميع ما يتحصل من أرض مصر من الخزائن أربعاً وعشرين خزينة، ولكل واحدة منها معتمد "قبو كتحذا" وصراف بالقاهرة، وإذا ورد المال إلى الديوان قام رئيس الصرافين بعده وضبطه، وإن وجد فيه نقصاً أكمله المعتمد. ورئيس الصرافين الذى يعمل بالديوان تحت أمر الدفتردار يهودى، يعاونه ثلاثمائة من الصرافين اليهود، ويتوجه كل واحد منهم إلى ملتزم فى الأقاليم ليمسك حساباته. ومن المعلوم أن اليهود شياطين ومحتالون فى كل البلاد. ولكن يهود مصر فى غاية النزاهة والاستقامة، حتى أن أحد الجنود إذا قبض راتبه ووجد فيه عملة مقصوصة أو مغشوشة وطلب إلى صراف يقابله فى الطريق استبدلها بعملة رائجة سليمة، استبدلها له بلا توقف.

وصف دار سك النقود المصرية

لا شك فى أن دار سك النقود تمثل عرض الدولة وشرفها، فهذه الإدارة أيضاً خاضعة لأمر الدفتردار، ويبلغ عدد عمالها وخدامها خمسمائة رجل من أتباع الدفتردار، غير أن أمين الضربخانة هو أغا الباشا الكبير نفسه [وكيله العسكرى]، والكلمة فى الضربخانة على كل حال لصاحب العيار الذى يخضع له أيضاً الدفتردار فى المسائل الفنية، إذ إن صاحب العيار هو المسئول عن عيار العملة وصحتها وسلامتها من الغش؛ فإذا وجدت سكة نقدية مغشوشة بادر أولياء الأمور إلى قطع يد صاحب العيار الذى ضربها، فلذا يخضع له جميع عمال الدار وخدمه.

وبدار سك العملة خمسون سمساراً يهودياً وخمسون فراناً وخمسون صائغاً وعشرة من السحابين وعشرة من الوزانين وخمسون قطعاً (كيله دار) الذين يقطعون أسلاك الفضة ويجعلونها قطعاً، ثم عشرون صفاخاً وعشرون طباعاً وعشرة دولابى وعشرة من الجلائين والوزانين وضاربى سكة، وعشرون من الملاحظين متفرغين لذلك ولا يعملون شيئاً آخر. وكل واحد من هؤلاء الموظفين والعمال إذا حضر من بيته يجرد من ثيابه ويلبس ثوباً من ثياب الميرى؛ وذلك لتفادى ضرب السكة المغشوشة حيث يقوم الملاحظون بملاحظة ذلك دائماً. وكل الأشياء والمواد تتبادل بينهم بالوزن أخذاً وعطاءً، وبعد أن تضرب السكة لأول مرة يعيدونها إلى النار ثانية للاختبار، فإذا خرجت من النار سوداء تُعد مغشوشة ويبادر البك الذى فى الضربخانة - وهو صاحب العيار - إلى قطع يدى ضارب السكة من غير أن يستأذن الباشا الوالى أو يراجعه فى ذلك. ورئيس ضاربى السكة اليومية، التى قدرها شريفى واحد، هو محبوب ومعتكف فى غرفة دائماً يقوم بتسليم النقود المضروبة إلى صاحب العيار؛ حيث تختتم وتوضع فى الخزانة التى لها خمسون حارساً، وهذا أمر عظيم جداً، ومن لم يشاهد ضربخانة مصر فكأنه لم ير شيئاً من ضربخانات البلاد الأخرى. فإن ضربخانة مصر يرد لها الذهب والتبر الخالص من جميع جيات جزيرة مصر واسعة الأرجاء، ويوضع ذلك فى طواحين فيذاب ويُصفى من ترابه وشوائبه، ثم يُجعل أسلاكها ثم تقرض هذه الأسلاك ثم تصفح القطع وتبسط حتى تسلك وتضرب عملة، وبعد ذلك تصقل وتجلى جلاء تاماً حيث تنتقل من يد إلى أخرى ومن حال إلى أخرى سبعين مرة. وصنعة تلك النقود هذه صنعة صعبة وعظيمة جداً، ولكنها حبيبة إلى النفس ومسلية جذابة، وذلك عند أهلها ومن يفهم مزيتها، وأما الذين لا يفهمون مثل هذه الأشياء الدقيقة اللطيفة فإن ذلك عندهم كالمزاعاف الذى ينفثه الثعبان الياثل بل أشد.

هذا، وإن الذهب الكثير الذى يتجمع فى ديوان مصر كالجبال، يصرف بعد حين ويكون خيالاً لا أثر له، مثله كمثل الزاهد فى الدنيا يعتبرها خيالاً فى خيال.

وغيرضنا من هذا التفصيل والإسباب هو ذكر ما رأيناه وشاهدناه فعلاً. وإلاً فليس لنا - والحمد لله - مطمع في خطام الدنيا. ونحن في مصر من هؤلاء المجاذيب العشاق الذين يغبطيم الأكابر والأصاغر على ما يتمتعون به من الأدواق في وادي العشوق.

أوصاف حكام مصر وعملها

الحكم في ديوان مصر بعد الدفتردار يرجع ذلك إلى كتحدا الجاويشية. فالكتحدا هو "بك" حسب الأصول والقانون، وله مائتان من الأتباع ما عدا أصناف الجاويشية الآخرين. وجميع الجاويشية يلبسون مجوزاتهم (عمائم)، وهم يرافقون الكتحدا في الذهاب إلى ديوان مصر والإياب منه، وهو الذي يشرف على جباية بواقي المال السلطاني بأمر الدفتردار. ويأتي بعده في النفوذ رئيس المتفرقة لأنه مسئول عن تحصيل مال الكشوفية والمال الصيفي والشتوي، وله مائتا رجل من الأتباع. ويليه في الحكم رئيس الترجمة حيث يقوم باستلام وجمع عرائض الشاكين وطلبات المتقاضين ويرفعها إلى الباشا، فيترجم كلام المدعى والمدعى عليه أثناء التحقيق والمحاكمة. وبحسب القانون والأصول المتبعة يرتقى هذا الموظف إلى منصب رئيس المتفرقة، وله خمسون تابعاً.

هذا، وإن باشجاويش الإنكشارية وباشجاويش العزبان يحضران في جلسات الدواوين الخمسة؛ وينظران في دعاوى زملائهم من الفرقتين المذكورتين، ويكون رقيهما إلى المناصب العالية بطريق ترقيتها، إما إلى قيادة قافلة الحج وإما إلى رئاسة القوة المحافظة على الخزينة، ثم تعيينهما في منصب وكيل أغا الإنكشارية ثم أمير السنجق.

وفي ديوان مصر حاكم آخر يدعى "روزنامجي"؛ وهو الركن الأعظم لمصر في ضبط شئونها المالية والاقتصادية؛ فكل طائر في السماء ودابة في الأرض وسابح في البحر مقيد في دفتر هذا الموظف المالي، وهو إن أراد أن يظهر الباشا

مفلسا عند عزله عن الولاية أمكنه، وإن أراد أن يستر عليه عمل ذلك بكل سهولة، ومقامه يوازى مقام الدفتر دار. ثم يأتى الروزنامجى الصغير الذى تخضع له بعض الأقسام وإدارة المخازن اليوسفية.

ثم إن ولاية مصر يعينون من قبلهم روزنامجيا صغيرا قادرا على الكتابة والتحرير ليكون مراقبا للروزنامجى الكبير. ولكن يرجى أن يكون هذا الموظف رجلا مستقيما وذا كفاءة إلى أقصى حد؛ لأنه مرآة الباشا وعنوان شرفه حين عزله عن الولاية. وهناك خمسون نفرا يسكون دفاتر الروزنامجى، وهم بذلك محيطون به من الجوانب الأربعة بحيث إن كل واحد منهم مختص بدفتر ولاية.

والموظف الذى يلى الروزنامجى الصغير فى المكانة هو مراجع الديوان، وهو الذى يقوم بقيد واردات وصادات أنفار البلوكات السبعة وروايتهم وترقياتهم، ويختار ممن يتق بهم الباشا الوالى ولا يكون من المصريين، ويحصل أربعين كيسا مصرى من المال، وله خمسون نفرا من الخلفاء، وأما إيراده فهو ما يتقاضاه من الرسوم حين القيد والنقل من سجل إلى آخر فى كل مناسبة من المناسبات، فإذا استقال واحد من عمله وأعطى عمله لآخر فإن المراجع يأخذ منه مرتب شهر، ويحتفظ لنفسه بنصفه ويعطى لخلفائه يقتسمونه فيما بينهم هبة، ولهم هدايا صغيرة أخرى كثيرة. كان المراجعون وخلفاؤهم يسكنون فى مكان بعيد عن الديوان، وأمر حسين باشا بن جانبلاط حينما كان والى مصر بأن يجلس مراجع ديوانه مع خلفائه مع سائر الأفندية بديوانه بالقاهرة.

ويجلس أفندى ديوان الباشا الوالى فى ركن من أركان الديوان العام وله اثنان وعشرون كيسا من الكشوفية خلاف الهدايا والهيئات. ويجلس فى ركن آخر كاتب المراسيم تيورديجى^(٢٤٤)؛ وهو موظف مطلع على كثير من الأمور الخاصة بمصر ويقوم بوكالة أفندى ديوان القاهرة، ويكتب جميع المكاتبات والمراسيم حسب

(٢٤٤) تيورديجى: هو الأمر الذى يتفضل بإصداره السلطان أو الصدر الأعظم فى شأن ما من شئون الدولة العثمانية، وسوف نتناوله بالتفصيل فى الأجزاء التالية.

النظام المصرى، ويرسلها إلى الأقاليم بعد أن يختمها أفندى ديوان الباشا بختم
الوالى "بنجه بيوردى"، وأما إيرادات هذا الكاتب المصرى فيأخذها أفندى الديوان
ولا يعطيه منيا سوى كيسين مصريين فى العام.

وهناك ركن آخر يجلس فيه أمين الدفتر من قبل الباشا؛ كما أن هناك من
الكتبه والموظفين أمثال كاتب خزينة الخروج وكاتب (المحولات) الخارجية وأمين
الأوراق الخارجية والمراجع والمحاسب وكاتب الأيتام وكاتب الحوالة وكاتب
الأرزاق وكاتب البقايا وكاتب الإنكشارية وكاتب العزبان، فهؤلاء كلهم يذهبون -
بعد فضاء جلسات الديوان - إلى دوائرهم ومصالحهم فى الديوان وهم فى حللهم
الرسمية ومعهم خلفاؤهم الذين لا يلبسون حللا رسمية.

وهذا بيان بالوظائف والأقلام:

قلم المشاة، وقلم المقابلة والمراجعة، وقلم الكشيدة، وقلم المتقاعدين، وقلم
الجراسية، وقلم السباهية، وقلم الأيتام، وقلم الطواشية، وقلم الجوالى، وقلم الأمراء،
وقلم الملترمين، وقلم الدشيشة، وقلم الخزينة العامرة، وقلم صرة مكة والمدينة، وقلم
السادة الكرام، وقلم أنبار سيدنا يوسف [عليه السلام] أعنى أكله الجراية، وقلم
المتفرقة، وقلم الجاويشية، وقلم المنطوعين، وقلم حملة البنادق، وقلم البحرية، وقلم
جماعة المشاة، وأنفار السويس الذين يبلغ عددهم مائة وخمسة وعشرين رجلاً،
وأقلام المدفعية والمدرعين وحملة الحراب وصناع الخراطيش، كل أولئك قد نقل
إلى مستحفظى المشاة، وقلم الروزنامجى الكبير، وقلم الشرقية وقلم الغربية من
أقلام المقاطعات، وقلم المقاطعة الخاص بالمدينة، وقلم المقاطعة الخاص بإيراد
الغلال، وقلم الدشيشة الصغرى، والقلم المحمدى، وقلم المرادية، وقلم النخاسة، وقلم
كاتب محولات الدائرة السنية.

بيان أقلام أمين البحرين المضحكة وعدد خزائن مصر

يتضح مما ذكرناه أن هناك سبعين قلمًا، مكتظة بالموظفين حسب القانون السليمي، ولكن لا يوجد في هذا الديوان المصري منصب دفتر دار الإقطاعات الخاصة بالجنود كما في سائر الإيالات وأمين الدفتر والتحرير على جانب الميرى؛ وذلك لأن مصر كلها قيدت حين الفتح، فلذا لا تسمع فيها أسماء مناصب كأصحاب التيمار والزعامة (كلاهما إقطاع للجنود) وقائد الجيش "جرى باشى" وأمير آلاى، ولكن بيا قلمنا غريبًا من أقلام الأفندية التى سبق ذكرها وهو قلم "أمين الخردة" فهو إدارة عجيبة، فلذا ذكرناها بعد كل الأقلام، وهذه الإدارة تجمع كل من بالقاهرة من اللاعبين بالأقداح والدوارق والكنوس والقائمين بالألعاب البهلوانية الدالة على القوة والرياضة، وكذا اللاعبين بالطيور والحبسال والنيران والخيول والحمير والحيات والثعابين ورفع الأثقال، وترقيص القردة والنسانيس وخيال الظل و"الراكوز" ومصارعة الديكة وأمور السيمياء واللاعبين بالفئران والذبيبة، وكذا قراء الأساطير والأقاصيص والمهرجين والمضحكين ووسطائهم من اللاهين واللاعبين، وجميع من فى الجمارك من الباحثين والفاحصين والخردجية.

فكل ما يتحصل من هؤلاء من المال ولو كان خردة من الفضة خاضع لحكم كاتب أمين الخردة وأمره؛ إذ إن هذه الأشياء الصغيرة تحصل منها أموال كثيرة تورد إلى خزينة الميرى؛ حيث تحصل إيالة مصر جميعا فى السنة من الأموال ما يبلغ إحدى وثمانين خزينة مصرية، منها تسع خزائن سنويًا لعسكر مصر ومماليكها رواتب ومواجب. وأما الخزينة العاشرة فى مخصصة لمكة والمدينة ترسل لشرفائهما، والحادية عشرة لباشا مصر، والثانية عشرة لأغواتيا وضباطها، والثالثة عشرة لأمير حاج مصر، والرابعة عشرة هى التى تصرف لشئون الترميم والعمارة فى مكة والمدينة ولمصاريف الإنارة من الزيت وشمع الكافور والعود والعنبر وغيرها من النفقات، والخزينة الخامسة عشرة هى الصرة التى ترسل من مصر

إلى الشام ومنها إلى المدينة ثم مكة. والسادسة عشرة ثمن ونفقات ما يرسل كل سنة إلى المطبخ العامر السلطاني بالأسطانة من الأرز أو السكر الممسك والبن وأنواع المعاجين، والخزينة السابعة عشرة لقضاة مصر والقسامين العسكريين.

هذا، ولما تحررت أموال مصر وضبطت لأول مرة كان في إيالة مصر سبعة وسبعون ألف وقف، في حين ليس بها الآن سوى اثني عشر ألفاً من الأوقاف العامرة. وكل قاض من قضاة مصر حينما يتولى القضاء يقبض عن كل وقف جنوبها ذهباً، وهناك أوقاف تقبض عنها عشرات من الجنيهات ومائة جنيه أحياناً. ويجبى من فدادين ورزق هذه الأوقاف وأعيانها مال يقدر بمبلغ خزينتين مصريتين؛ يصرف منه رواتب ووظائف للمرتزقة والمستحقين، والخزينة الثامنة عشرة هي التي يحصلها كشافو مصر، والتاسعة عشرة هي التي يحصلها أمناء مصر وملتزمو أراضيها وينفقونها على أنفسهم. والعشرون، هي التي يحصلها الرعايا الفلاحون لأنفسهم. الحادية والعشرون والثانية والعشرون هما الخزنتان اللتان يحصلهما التجار الواردون على مصر من الأقاليم السبعة. والخامسة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون هي الخزائن الثلاث، وهي الغلات التي ترد كل سنة إلى المخازن اليوسفية فيمتلئ بها كل الامتلاء، حيث يوزع منها على الجنود جرايات ومخصصات.

وخلاصة القول، إنه بحسب أقوال وتصريحات جميع أرباب العمل بمصر يحصل للميرى كل سنة من الأموال من ديار مصر زهاء ثلاثين خزينة حسبما هو محرر، وكل خزينة مصرية تساوى ألفاً ومائتي كيس مصرى. وسنذكر كل خزينة في محلها إن شاء الله تعالى، وقد أشرنا إليها الآن إجمالاً لا على سبيل الحصر.

هكذا يا سيدى تُجبى هذه الخزائن عما يطير في السماء ويدب في الأرض ويسبح في البحر من الكائنات والبشر. وما ذلك إلا من عرق جبين الفقراء وعصارات أهاتهم وتحسراتهم.

مدح مقياس النيل المبارك، وكثرة بنى آدم،

وأنواع الحيوان ووفرة الحمير بمصر

بما أن الله سبحانه وتعالى قد منح مصر بركة النيل خيرات عظيمة فإن حاصلاتها وأموالها السلطانية وافرة ومتنوعة جداً. فإذا فاض النيل وعلا ثمانية عشر ذراعاً فإن المال السلطاني يستحق ويجبى. وإذا صار عشرين ذراعاً أثرى على كل من الباشا والأمناء والملتزمين والكشافين والرعايا حسب مراتبهم ويقدرّون على تسديد ما عليهم من الأموال المطلوبة. وإذا لم يفيض النيل ولم يبلغ ثمانية عشر ذراعاً (معاذ الله) فإن أراضي الإيالة لا تُروى ولا تُسقى، ويعم القحط ويحصل العجز في ذمم الأمناء والملتزمين جميعاً ويتعذر تحصيل مال السلطان، ولا تكمل الخزائن، فيضطر الباشا إلى إكمالها من قبله وصرف مواجب الجند كلها من جيبه، كما أن ثلاثمائة ألف من حملة البراءات السلطانية من الأئمة والخطباء والعلماء والصلحاء والمشايخ السادات^(٢٩٢) وجميع المتولين ذوى الهيئات والنظار، يطلبون جراياتهم ومرتباتهم البالغة خزينتين مصريتين، فإذا تأخرت هذه الرواتب ولم تصرف لأصحابها فسرعان ما يتذمرون ويثيرون. ولكن النيل إذا فاض فيضاً عظيماً عم الخير وتبدل الأحوال، فتصرف الرواتب والجرايا بكل سهولة، ويحمد للسلطان والباشا وسائر أهل الخير والهيئات ويدعى لهم جميعاً بطول البقاء.

(٢٩٢) المشايخ السادات ونقباء الأشراف: مصطلح إدارى كان يطلق على أبناء سيدنا الحسن حفيد النبي صلى الله عليه وسلم وأحفاده، أما هؤلاء الذين ينتسبون إلى حضرة الحسين فكان يطلق عليهم السادات. وكان لهم نقيب وكذلك كان هناك نقيب للأشراف ينظم حياتهم، ويحفظ سجلاتهم. وكانت لهم مخصصات من الدولة، ولنقيب الأشراف نواب في كل الولايات يحلون محله في حل أمور الأشراف. وكان منهم أمراء مكة المكرمة في بعض المراحل التاريخية، وكان العثمانيون يطلقون على أمير مكة "مكة شريفى" أى شريف مكة، وكان الشريف بركات يتبع إدارة مصر عند الافتح العثمانى. وما إن علم بدخول سليم الأول مصر (١٥١٧م) حتى أرسل إليه ابنه ومعه مفاتيح مكة والمدينة وبعض من الأمانات المقدسة. وبهذا انتقلت إلى الإدارة العثمانية.

والحاصل أنه لا يوجد بلد فيه أناس كثيرون يمشون كأمواج البحر المتلاطم وأراضيه في الخصوبة والبركة والخيرات مثل هذه البلاد القديمة، فليس ليا نظير لا في البلاد الخاضعة لآل عثمان، ولا في غيرها من البلاد الخاضعة لساائر الملوك.

هذا، ووجه تسمية مصر القاهرة بأمر الدنيا هو أن القحط والغلاء إذا عم الدنيا كلها وساد فيها فإن مصر هذه تمون الدنيا حسبا خلقها الله لهذا الغرض، وبالعكس؛ إذا أصاب القحط والغلاء مصر فإن محصول ألف مدينة لا يكفيها بل لا تكفيها حاصلات الدنيا كلها؛ لأن مصر - بحق - بحر الخلاق وخزينة الناس ومنبع الجماعات. ولقد رأيت في رحلتى إلى مصر سنة اثنتين وثمانين وألف فى سجلات المذاهب الأربعة أن ثمانمائة ألف شخص ماتوا بالطاعون، حتى يقال إن إبراهيم باشا باع فى مدى شهرين قرية محلول من ملترميها تسع مرات لكثرة الوفيات بمبلغ عشرين كيسا كل مرة، ومع ذلك فقد كانت الشوارع مليئة بالسكان ومزدحمة بالناس يمشون كتفا بكتف فى أسواق مكتظة بالمرتدين، كما أن الدواب وحيوانات النقل من الخيول والبغال والحمير والأبقار والجواميس والغنم، من ضأن وماعز تسرح فى الشوارع والأسواق وتسير قطعانا وجماعات.

حقا إن فى مصر لحميرا كثيرة، يكاد المرء يظن أنها مستولية على البلد من كل الجوانب إذ يسمع من الحمارين أصواتا ترتفع وتقول: ظهرك، جنبك، وجبك يمينك، يسارك... حتى أن بعض الحمارين الأشقياء حين مرورهم بالشوارع المزدحمة يتعمدون القيام بدور البلياء والمعتوهين من الأتراك. وأول مقام موسيقى تسمعه فى مصر صباحا هو نيق الحمير فى مقام "السكة" لأن حمارا واحدا إذا نيق فى إسطنبول من الإسطبلات نيق جميع الحمير فى البلد، ويتردد صداها فى جوانبها فيخيل إليك أن يوم القيامة قد حان. وأن أشراط الساعة قد ظهرت وخرج الدجال وقام الحشر والنشر. فتطبق على الموقف والحال الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان ١٩/٣١] وما ذلك إلا لأن أعيان

مصر وأشرافها ونساءها يركبون الحمير الكثيرة، ولهم في ذلك مهارة حيث يقطعون المسافات الشاسعة بين أحياء المدينة من الأزبكية والصالحية ومصر القديمة وبولاق وقايتباي، وهم ينادون ظهرك ظهرك ويعدون كأنهم يتسابقون. فليس من العار والعيب عندهم أن يركبوا حميرًا مخضوبة بالحناء عليها أطقم محلاة بالفضة وعباءات من المخمل. كأن الحمير في مصر زوارق ومراكب وغيرها من وسائل النقل في البلاد الأخرى. لذلك يوجد فيها عدد كبير من الحمير؛ حتى ليُقال إنه كان لعلى بك الجرجاوى أربعون ألف حمار يستخدمها في نقل الغلال، بأجرة قدرها عشر بارات يوميًا للحمار الواحد. كما أن المشيور في مصر والثابت أن رضوان بك أمير الحاج، كان له أربعون ألف جمل. ولا تزال جمال كثيرة وحمير لا تعد ولا تحصى يستخدمها السقاءون في مصر في الشوارع؛ بحيث لا يستطيع المرء أن يمر أو يسير في الشوارع بسهولة وسلام من كثرتها. كما أن لمصر أعيادًا كثيرة جدًا؛ فلها كل عام اثنا عشر عيدًا نذكرها في محلها إن شاء الله، تحصل فيها ضجة عظيمة وازدحام زائد من احتشاد الناس وكثرة الجمالين والحمارين والمترددين الوافدين من كل الجهات. فيذه الأعياد من ضمن ما اشتهرت بها مصر، من الطنطنة ومظاهر الفرح ومعالم الزينة التي تستحق الرؤية والمشاهدة، والسلام.

الفصل الثامن عشر

بيان الجيش المصرى المنقسم إلى بلوكات سبعة حسب القانون السليمى ورواتبهم اليومية

- ١- أول طائفة من هؤلاء الجند هم العزبان: الذين كانوا فى الأصل ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر نفرًا حين فتح السلطان سليم مصر، حيث تشرفوا بلثم تراب حوافر جواد السلطان رافعين له الطاعة والخضوع التام؛ فشملمهم بعطفه السامى ودعا لهم بالخير والبركة بأن أبقى عليهم رواتبهم ووظائفهم كما كانت سابقاً من مأكّل ومشرب وملبس، لأنهم منحدرين من ذرية سيدنا عمر [رضى الله عنه]، وهم جنده الأولون الذين صحبوا عمرو بن العاص حينما غزا مصر، ولذلك كانوا يطيعون ولاة الأمور منفذين مشيئتهم.
- ٢- طائفة المتفرقة : الذين يبلغون من العدد ألفين وسبعمائة وسبعة وأربعين.
- ٣- طائفة جاويشية مصر: ويبلغ عددهم ألفاً وأربعمائة وتسعة وأربعين.
- ٤- طائفة حملة البنادق: ويبلغ عددهم ألفاً وثمانية وثمانين.
- ٥- المتطوعون: وعددهم ألف وثلاثمائة وخمسة وستون نفرًا.
- ٦- طائفة مستحفظان مصر: يبلغ عددهم سبعة آلاف وستمائة وثمانية وثلاثين، وهم مائة وثمانية وثلاثون بلوكًا.
- ٧- جنود المتفرقة : من طائفة مستحفظى مصر، بلوك واحد مؤلف من مائة جندى.
- ٨- جنود المدفعية: عشرة بلوكات.

٩- عربجية المدافع: بلوك واحد عدد أنفاره الكلية مائة رجل.

١٠- جنود الخزينة: بلوك واحد والأنفار كاملة مائتا نفر.

١١- جنود الملازمين: من بلوك واحد.

١٢- متقاعدو القلعة: بلوك واحد ومائتا نفر.

١٣- جنود الفرقة: المدرعة المصرية، البلوك...

١٤- صناع الخراطيش: بلوك واحد.

١٥- فرقة موسيقى: القلعة بلوك واحد، عدد أنفاره خمسون رجلاً.

١٦- جنود جراكسة مصر: عددهم ألف ومائة.

١٧- عزبان بندر السويس: وعددهم مائة وخمسة وستون.

هكذا نظم القانون السليمى حامية مصر من الجنود والعساكر، واليوم يبلغ عددها عشرين ألفاً وخمسة وعشرين نفراً.

وأما نحن فنذكر ما رأيناه فى أيامنا؛ فنقول إن السلطان سليمان خان حينما عين إبراهيم باشا وزيراً عين معه وكيل أغا الإنكشارية بإستانبول رئيساً لإنكشارية مصر برتبة "أمير سنجق" للمرة الأولى، وأسكن ٤٢ أورطة من الإنكشارية فى حصن بجوار الشيخ سارى بقلعة الجبل التى بناها صلاح، ولا تزال غرفهم قائمة حتى اليوم، سوى أن بعضها معطل لاتخاذ الأغوات الذين كانوا يقيمون بها منازل أخرى، وهم ضباط عظام لكل منهم مائة تابع؛ حيث يجلسون فى الديوان السلطانى مع البكوات وسائر أغوات البلوكات السبع، متسربلين بطلهم وخلعهم من الكساوى التشريفية، فلرئيسهم مقام معلوم فى الديوان مع أنه يجلس بعد جميع الأغوات. وبعد أغا الإنكشارية يأتى فى الحكم ذو النفوذ كتحدا الإنكشارية؛ وليس له مكان فى الديوان ولكن فى بابه تركزت السلطة الفعلية من حيث أمور الضبط والربط

واليسط، فهو يضع على رأسه عمامة قلاوية قصيرة ويتنعل بتنعل حمراء متسربلاً
بفراء سمورى على قفطان من الأطلس.

ويليه فى السلطة الباشجاويش؛ وهو يرتدى فراحية على قفطان أطلس،
ويضع على رأسه عمامة قلاوية ويلبس خفافاً وأحذية حمر اللون، وله مقام خاص
فى الديوان، كأنه رئيس محضرى الباشا المندوب من قبل البلوك. ثم يأتى مقام
صاحب بيت المال الذى يلبس الفرجية السادة وقفطاناً من الأطلس والعمامة القلاوية
والخف الأحمر. وأما جاويشية الأورطة الجاويش الصغير وجاويش الآلاى وسراج
الأغا والكتخدا، فإنهم جميعاً يشدون أوساطهم بأحزمة على رداء أسود ويضعون
على رءوسهم عمامة شبيهة بالقلاوية، ويلبسون خفافاً حمراً ولا يجوز لهم حمل
السكاكين. وما إن يُعَيَّن أحدهم للنظر فى شئون بيت المال حتى يخلع رداءه الأسود
ويلبس فراحية من الجوخ.

هذا، ويقوم هؤلاء الإنكشارية وغيرهم من طوائف الجند باحتفال عظيم لا
نظير له فى البلاد الأخرى. وذلك حين قدوم باشا جديد إلى مصر أو سفره منها
مستوراً (غير مفضوح)، أو استقبال أمير حج يأتى إلى البركة بصحبة الحجاج،
وحين توديعه كذلك.

المؤلف فى سطور:

أوليا جلبى

- ولد فى إستانبول عام ١٠٢٠هـ = ١٦٧٧م، وتربى وترعرع فى أحضان السراى العثمانى، واسمه الكامل أوليا جلبى بن درويش محمد ظلى.
- أتقن - إلى جانب اللغة التركية - الفارسية والرومية والأرمنية والعربية وكان حافظاً ومقرئاً للقرآن الكريم، ومنشداً للتواشيح الدينية، لجمال صوته ودراسته للموسيقى.
- صار منادماً للسلطان مراد الرابع، وكان قريباً للصدر الأعظم ملك أحمد باشا، وقد مكَّنه ذلك من مرافقته فى كثير من الحروب والقيام بالعديد من الميام؛ فطاف بمعظم دول آسيا وأوروبا فى زمنه.
- حج بيت الله الحرام عام ١٠٨٢هـ = ١٦٧١م. ثم رافق قافلة الحج المصرية عند العودة برأ، فكتب عن كل ما رآته عيناه وسمعته أذناه فى مصر والسودان وبلاد الحبش، طوال سنوات الرحلة التى دامت ثمان سنوات.
- كتب عن القاهرة مصر أم الدنيا، وعن آثارها وجوامعها ومدارسها وعماراتها ومنتزهاتها واحتفالاتها ومواكبها، والعلماء والأئمة الذين يرقدون فى مراقدها ومدافنها وأضرحتها، وموالد الأولياء والصالحين بها وبسائر مصر العامرة.
- تابع رحلته إلى الدلتا وسلك طريقى دمياط ورشيد حتى وصل إلى الإسكندرية، وكتب عن كل مآثرها وقلاعها وعاداتها وأعرافها وتنوع سكانها.
- عاد إلى أم الدنيا مصر، ووجد حامية عسكرية متجهة إلى الصعيد الأعلى فرافقها، وكتب عن كل ما رآه فى الصعيد وبلاد النوبة وبلاد الفونج حتى

دخل السودان والحبشة، وعاد إلى مصر عن طريق البحر الأحمر فالقصير
وبنى سويف والفيوم، وأكمل الكلام عن مصر المحروسة.
استعانت الحملة الفرنسية على مصر بما جاء في هذا الكتاب من معلومات
قيّمة، عن كل ما يتصل بمصر من آثار وأعراف وتقاليد... إلخ.

المترجم فى سطور :

أ. د الصقصافى أحمد المرسى القطورى .

- تدرج فى سلك التعليم العالى منذ ١٩٦٣ م حتى صار أستاذًا متفرغًا فى الدراسات التركية والعثمانية والأذارية والتركمانية فى الجامعات المصرية.
- له العديد من المؤلفات حول الحضارة والثقافة التركية والعثمانية تجاوزت العشرين كتابًا، إلى جانب ما يتجاوز خمسة عشر كتابًا مترجمًا.
- انتدب وأعير وسافر أستاذًا زائرًا فى العديد من الجامعات العربية والتركية والأوروبية.
- ترجم عن العثمانية والتركية والتركمانية والأذارية أعمالاً تاريخية وإبداعية وفنية، نُشرت ضمن ترجمات المجلس الأعلى للثقافة، والعديد من دور النشر والمجلات فى المغرب وتونس والمملكة العربية السعودية ومصر ومجلة الأدب الإسلامى العالمية، ونال منها الجائزة الأولى عن الترجمة الإبداعية.

التصحيح اللغوى : أحمد عبد العاطى عبد العزيز
الإشراف الفنى : حسن كامل

